

الديمقراطية والوعي السياسي
«ومقالات أخرى»

إمام، إمام عبد الفتاح
الديمقراطية والوعي السياسي «ومقالات أخرى» / د. إمام عبد الفتاح إمام. - القاهرة:
نيوبوك للنشر والتوزيع / ط ١ / القاهرة: ٢٠١٨ م.
٣٠٤ ص؛ ١٤ × ٢١ سم
تدمك: ٥-٥٦-٦٥١٩-٩٧٧-٩٧٨
رقم الإيداع: ٢٠١٧/٣١٢٨
١- الديمقراطية
أ- العنوان
٣٢١٨

دار النشر:	نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب:	الديمقراطية والوعي السياسي «ومقالات أخرى»
الكاتبة:	د. إمام عبد الفتاح إمام
رقم الطبعة:	الأولى
تاريخ الطبع:	٢٠١٨

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناسر



نيو بوك للنشر و التوزيع

ويحذر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملاً أو جزئياً، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناسر الخطية الموثقة

نيو بوك

٦ عمارات الدفاع الوطنى - حدائق القبة - القاهرة

ت: ٠١٠٩٢٦٧٣٢٧٤

newbooknb@gmail.com

الديمقراطية والوعي السياسي «ومقالات أخرى»

د. إمام عبد الفتاح إمام

أستاذ غير متفرغ بجامعة
عين شمس والمنصورة



2018

مقدمة

يضم هذا الكتاب مجموعتين من الدراسات السياسية:

الأولى بعنوان: «مسيرة الديمقراطية: رؤية فلسفية».

والثانية بعنوان: «الوعي السياسي: التأسيس والإشكال».

نحاول في الأولى أن نتبع تطور الديمقراطية في الأحقاب

التاريخية المختلفة والتحولت التي طرأت على مفاهيمها الأساسية، وهي تحاول أن تصلح نفسها بنفسها، على أن نبين في هذا العرض التاريخي أن الديمقراطية تجربة إنسانية بالدرجة الأولى، وأنها كما قال جون ديوي بحق: النظام الأمثل والأفضل الذي تحتمه طبيعة الإنسان لكي تنمو وتزدهر⁽¹⁾، أو هي نهاية تاريخ النظم السياسية كما قال المفكر الأمريكي «الياباني الأصل» فوكوياما معتمداً على فكرة هيكلية (وهي جدل السيد والعبد)⁽²⁾، فالقدرات والإمكانات البشرية تحتاج - كالنبات تماماً - إلى تربة صالحة فيها الهواء النقي، والماء العذب، والمواد الأساسية المختلفة التي تساعد على النمو والازدهار حتى تظهر هذه القدرات بأقصى إمكاناتها. ذلك ما يفسر لنا في الحال: لماذا ينجح علماءنا ومفكروننا عندما يهاجرون إلى مجتمعات متقدمة

(1) راجع كتابنا «الأخلاق والسياسية: دراسة في فلسفة الحكم» المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام 2001، ص 29 وما بعدها.

(2) المرجع السابق، ص 19 وما بعدها.

ويفشلون إذا ما بقوا معنا، فهناك جو تسوده الحرية، ومجتمع يحترم العلم والعلماء⁽¹⁾، وهنا مجتمع جاهل طارد للعلم والعلماء؛ يناق الحاكم إذا خاف منه، ويلعق ثيابه حتى ولو كانت قدرة. ويهتف له ويصفق إذا ما قذف له بقروش زهيدة مضحياً في الحالتين بوطنه: ماضيه ومستقبله!

لن ينصلح حالنا وتتغير مفاهيمنا السلبية السيئة ما لم نطبق الديمقراطية في بلادنا تطبيقاً حقيقياً لا أسمى ولا شكلياً بحيث نكتفي أن نكتب موادها في الدستور بأحرف من نور، ثم تطبق قواعد الطغيان وأفعاله في ظلمات الليل، ففي دستورنا المجيد - مثلاً - في الباب الثالث الخاص بالحريات والحقوق والواجبات العامة تقول المادة رقم 40: «المواطنون لدى القانون سواء، وهم متساوون في الحقوق والواجبات العامة... إلخ»، وهي مادة غير صحيحة؛ لأنها لا تطبق، فما زالت العين لا تعلق عن الحاجب، ولا يزال المثل: «لما أنت أمير، وأنا أمير حيسوق الحمير؟!» قائماً!

وتقول المادة رقم 41: «الحرية الشخصية حق طبيعي، وهي مصونة لا تمس»، ثم يأتي قانون الطوارئ ليحو هذه المادة!

وتقول المادة رقم 47: «حرية الرأي مكفولة ولكل إنسان التعبير عن رأيه ونشره بالقول أو الكتابة أو التصوير»⁽²⁾ وهو أمر لا يحدث على الإطلاق،

(1) لأن أنسي ما حييت منظر مجموعة من المنافقين والبلطجية استأجرتهم حكومة الثورة لضرب السنهوري أحد فقهاء القانون في مصر ومن أعلام المشرعين ورئيس مجلس الدولة آنذاك ونحن طلبة في جامعة القاهرة عام 1954 وهم يهتفون بلا أدنى خجل «يسقط العلم ويحيا الجهل» لكي يبقى الحاكم الديكتاتوري المعصوم من الخطأ في مجتمع جاهل!!

(2) نقلنا هذه المواد عن «دستور جمهورية مصر العربية» الذي تم وضعه في 11 / 9 / 1971 وما زال معمولاً به حتى الآن وقد نشرته الهيئة العامة للاستعلامات بالقاهرة.

وهناك مئات الأمثلة المخجلة! صحيح أن هذه مبادئ ديمقراطية منقولة عن الدول المتقدمة لكنها لا تنفذ، فكثيراً ما رأينا صاحب الرأي المخالف يعتدى عليه بالضرب أحياناً وبالسجن أحياناً أخرى، وبالقتل أحياناً ثالثة دون أن تحاول الدولة أن تفعل شيئاً، بل ربما قلنا إنها تساعد على ذلك أو تباركه أو تقوم به، وإليك نماذج قليلة:

هذا رئيس تحرير جريدة معارضة يضرب من مجموعة من البلطجية وتتحطم سيارته، وذاك رئيس تحرير آخر مجرد من ثيابه ويسير عارياً - منتهي المهانة والإذلال لآدمية الإنسان! مما يشجع على تصعيد العدوان وإدانة الرأي وصاحبه، فيقتل فرج فودة، ويطرد نصر أبو زيد، ويشرع في قتل نجيب محفوظ... إلخ!!

ومن أعجب العجب أن يعتدي جسدياً على صاحب الرأي بسبب رأيه تماماً مثلما ضرب الإمام مالك، وأبو حنيفة والثوري - قديماً - بالسوط، وذبح غيرهم في المسجد أسفل المنبر بسبب رأيهم؛ ليكون تاريخنا موصولاً والاعتداء البدني على صاحب الرأي يعني ثلاثة أمور مهمة:

أولاً: أن المعتدي يسرق الجنس البشري كله على حد تعبير جون ستوارت مل - يسرق الأجيال المقبلة والجيل الحاضر، لأن الرأي إذا كان صواباً فقد حرمننا الأجيال منه، وإن كان خطأ فقد حرمناهم أيضاً من نفع عظيم وأعني به الإدراك الأكثر وضوحاً للحق والتمكن منه عندما يصطدم بالخطأ⁽¹⁾.

(1) جون ستوارت مل «أسس الليبرالية السياسية» ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ويمشيل متياس مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1996 ص 126.

ثانيًا: أن - المعتدي يعلن - بعدوانه - في الحال إفلاسه الفكري، وإلا لحاول مناقشة الرأي. فأنا لا أقول سوى «رأي» فلم لا تحاول أن تفند هذا الرأي؟! إن محاولة إسكات الرأي الآخر عن طريق المناقشة هو إفلاس واضح؛ تأملوا معي هذه القصة الطريفة.

ذات يوم عندما كانت حرب الاستقلال الأمريكية بين إنجلترا وأمريكا - كان الفيلسوف الألماني العظيم إمانويل كانط (1724 - 1804) يتنزه في إحدى الحدائق العامة في مدينة كونجسبرج - عندما استوقفه نفر من معارفه وأصدقائه، وفتحوا معه موضوع الحرب الدائرة آنذاك بين بريطانيا العظمى والثوار الأمريكيين، والتي سميت باسم حرب الاستقلال، ونسي الفيلسوف نفسه وحمل على بريطانيا حملة شعواء. بل راح يؤيد كل أمة من أمم الشرق أو الغرب تسعى إلى الاستقلال، وينحو باللائمة على دول الاستعمار وعلى رأسها بريطانيا العظمى!

ولر ينتبه الفيلسوف العظيم وهو ينطلق في هذه الحملة العنيفة إلا على صوت رجل عملاق عريض المنكبين مفتول العضلات ينحني أمامه في أدب جم وهو يقول: «إنني يا سيدي، أدعوك إلى المبارزة! وأترك لك تحديد الزمان والمكان والشهود ونوع السلاح!».

وسأله الفيلسوف مندهشًا:

- ولر يا صاح؟!

فأجاب الرجل:

- لأنني إنجليزي، وأنت منذ نحو ساعة تهين بلادي على مسمع من هؤلاء القوم!

وأسقط في يد كانط؛ ماذا يفعل؟ صحيح أنه كان ماردًا فكريًا جبارًا في عالم الفلسفة، لكنه كان قزمًا بين الرجال، إذ لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام، ولهذا تردد كانط في الجواب، وأطال التفكير، وأخيرًا قال للرجل:

- اسمع يا صديقي، أنت تعتقد أنني أخطأت في حق بلادك، وأنني أهنتها في حديثي عن الاستعمار، وتطلب مني المبارزة، وأنا أوافق بشرط واحد أن نختار المبارزة بنفس السلاح الذي تقول إنني أخطأت فيه: أعني «سلاح البرهان والمنطق»، وهو السلاح الذي وقعت به الإهانة، وهو نفس السلاح الذي ينبغي أن تمحي به! وأقنع الرجل بالنقاش وبعد اللقاء والمناقشة زال العداء وحل الحب وأصبحا صديقين!

فليكن كل منا «كانط» يلجأ إلى نفس السلاح الذي وقع به ما ظنه الخضم إهانة، وهو سلاح الرأي والمناقشة!

وليكن شعارنا جميعًا عبارة هيجل الجميلة:

«إن الخنجر لا يقتل الأفكار!»، وإذا تساءلنا وما الذي يقتل الفكر إذن؟! كان الجواب هو فكرة مثلها!⁽¹⁾.

ثالثًا وأخيرًا: فإن دجماطيقية الرأي أو الإصرار عليه بلا مناقشة تعني التعصب الأعمى عن جهل، والادعاء بأنه هو وحده الذي وصل إلى الحق الصراح الذي لا يأتيه الباطل. يقول جون ستيوارت مل: «إن الذين يرفضون

(1) راجع القصة في كتابنا «أفكار.. ومواقف» ص 222 وما بعدها مكتبة مدبولي بالقاهرة 1996.

الرأي الآخر، ويدعون أنهم واثقون من زيفه، إنما يدعون لأنفسهم العصمة من الخطأ...»⁽¹⁾.

لكن ما علاقة ذلك بالديمقراطية...؟ العلاقة وثيقة جداً، فالديمقراطية لا تعيش إلا مع اختلاف الآراء وتعددتها، بينما ينمو التعصب مع الاستبداد وثقافة الرأي الواحد. برجاء التمعن في المثال الآتي:

في عام 1972 -وهو الذي سمي بعام اللاسلم واللاحرب- قامت مظاهرات تشق عنان السماء بهتافها بسقوط نظام الحكم الذي يتلاعب بموضوع الحرب دون أن يبدو في الأفق أنه سيخوضها، وكانت معظم هذه المظاهرات من طلاب الجامعات.

وخطب الرئيس السادات في المساء، ووصف هؤلاء الطلاب بأنهم «فئة ضالة» و«قلة منحرفة»، أما القاعدة الطلابية العريضة فهي سليمة والحمد لله.

ومنذ نحو عامين كان بوش الابن يستعد لغزو العراق (2003)، وقامت مظاهرات في طول الولايات المتحدة وعرضها تهتف ضد نظام حكمه منددة بنواياه الآثمة وحججه المضللة التي يبرر بها هذا الغزو، وذات مرة سأل الصحفيون بوش وهم يحاورونه.

- أرايت المظاهرات الصاخبة ضدك...؟

فأجاب ببساطة.

- وماذا في ذلك؟ إنه مظهر من مظاهر الديمقراطية!

(1) جون ستيوارت مل «أسس الليبرالية السياسية» ترجمة إمام عبد الفتاح إمام وميشيل متياس - مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1996 ص 127.

وهذا حق! ففي النظام الديمقراطي تنمو ثقافة الاختلاف، والتقدم رهن باختلاف الآراء وتعارضها، ومن صدامها تخرج الفكرة السديدة التي تدفع بالمجتمع إلى الأمام...!

أما الاستبداد فلا رأي فيه سوى رأي الحاكم الذي لا يطبق رأياً آخر، بل يتم استنساخ الرأي الأوحـد في جميع المجالات بحيث يصبح الأب مستبداً، والمثقف مستبداً، وكذلك المتدين... إلخ، ويصبح من يخالف السياسي ضالاً أو منحرفاً أو عميلاً أو خائفاً... ومن يخالف المتدين يصبح كافراً (ولذلك يكثر تكفير الناس في المجتمع الاستبدادي) ومن يخالف المثقف يغدو جاهلاً.. وهكذا.

أما القسم الثاني من هذا الكتاب فهو يدور حول «الوعي السياسي»، للرد على القول بأن الديمقراطية لا تصلح لنا لأننا أميون وجهلة، وإذا كان ذلك حقاً لا ريب فيه، فما البديل؟! أهو النظام الاستبدادي أم الديكتاتوري؟! لا جدال في أن الخروج من مستنقع الجهل والأمية والتخلف الذي نعاني منه لن يكون إلا بالديمقراطية، فلن يسرع الحاكم المستبد ببناء المدارس (وإن ادعي أنه يقوم ببناء ثلاث مدارس كل يومين!) وإشاعة النور في أرجاء البلاد؛ لأن ذلك سوف يؤدي في الحال إلى عزله، أما الإبقاء على الأمية والجهل والتخلف وإعطائها مقاماً برفعها إلى قبة البرلمان، وإضفاء الحصانة البرلمانية عليها ففيه دعم قوي للنظام الحاكم والتهليل والتصفيق المتصل للديكتاتور، بل و«الرقص» في المجلس النيابي ابتهاجاً لعودته بعد هزيمة بشعة مازلنا نعاني من آثارها حتى اليوم، بل أطلقنا على بطلها اسم «الزعيم الخالد»، وهو لقب لم نطلقه على أي من زعمائنا الحقيقيين من قبل!

إن ما ينقصنا قبل العلم والتعليم هو الإحساس بالآدمية⁽¹⁾؛ شعور المواطن بأنه إنسان له حقوق نصت عليها المواثيق الدولية، وأن التراب الذي يعيش عليه هو تراب وطنه وليس بلدًا غريبًا عنه فلم يكن شعب أثينا الذي بدأت منه الديمقراطية المباشرة متعلمًا، وإنما كان على وعي كامل بأن أثينا وطنه، وأن من حقه أن يحكمها. إن ما ينقصنا هو إزالة إحساس المواطن بالغربة والدونية واللاجدوى، وتنمية الإحساس بأنه هو الذي يزرع ويحصد وينتج ويدفع الضرائب، ويدافع عن هذا البلد إن أضر به مكروه.. إذن هو الذي ينبغي أن يحكم، فلا يقول عنا مؤرخ ما كان يقوله هيجل عن الشعب الصيني القديم من أنه إذا كان الإمبراطور يتحدث إلى الشعب «برقة وعطف أبوي»، «فإن الشعب ليس لديه عن نفسه إلا أسوأ المشاعر فهو لم يخلق إلا ليجر عربة الإمبراطور، وهذا هو قدره المحتوم؛ وعاداتهم وتقاليدهم وسلوكهم اليومي يدل على مبلغ ضالة الاحترام الذي يكونونه لأنفسهم كأفراد وبشر..!»⁽²⁾، وهذا هو الوضع في بلادنا حتى الآن، فليس هناك إحساس بأنه يعيش في وطنه وأنه صاحب الأمر فيه - وهو ما تعبر عنه كثرة كثيرة من الأمثلة الشعبية فضلاً عن العادات والمفاهيم السيئة والسلوكيات الغربية التي انتشرت في البلاد وتزداد يوماً بعد يوم كالرشوة مثلاً التي أصبحت

(1) ومع إيماننا الكامل بالطبع أن العلم والتعليم يسهل تطبيق الديمقراطية إلى أقصى حد ويدفع الوعي إلى الأمام. لكننا نشير إلى الإحساس الذي كان السبب في نشوب الثورة الفرنسية وليس التعليم حتى قال المؤرخون: إن الإحساس بالظلم وليس الظلم نفسه الذي كان قائماً من مئات السنين - كان السبب في نشوب الثورة، وهذا الإحساس هو الذي خلقه فولتير روسو وأصحاب الموسوعة من المفكرين والفلاسفة الفرنسيين.

(2) قارون ترجمتنا لكتاب هيجل «العالم الشرقي» وهو الجزء الثاني من محاضرات هيجل في فلسفة التاريخ - دار التنوير ببيروت ص 28.

عادية وتقرأ عنها في الصحف يوميًا، بل زحفت إلى الحماية: كالمدير، ورئيس الحي أو المدينة، والقضاة، والأطباء، وأخيرًا الصيدليات التي تنتج أدوية مغشوشة.. إلخ، وهي تدل دلالة قاطعة على انحطاط المرتشي وهبوطه إلى مستوى التشيؤ، فقد أصبح «شيئًا» أو وسيلة أو أداة يستخدمها الراشي لقضاء مصالحه دون أن يشعر بكرامة أو احترام للذات⁽¹⁾.

نرجو أن نكون بهذا الكتاب قد قدمنا بصيصًا من التنوير السياسي الذي نحن في أمس الحاجة إليه، بل إلى قدر غير قليل منه حتى يستيقظ الناس بعد طول سبات.

والله نسأل أن يهدينا جميعًا سواء السبيل

(1) تفشت ظاهرة الرشوة في مجتمعنا بطريقة لم يسبق لها مثيل، فلم يحدث قط أن ارتشي القضاء المصري الذي لم يكن يشك أحد في نزاهته قبل الثورة، وما شهدته بعد الثورة من مذابح للقضاة وانهيار عام للمجتمع، إذ تطالعنا الصحف - يوميًا أحيانًا - بمحاكمات لا آخر لها بسبب الرشوة طالع مثلاً جريدة الأخبار شبه الحكومية وهي تنشر في يوم واحد الأحد 23 / 10 / 2005 في صفحة واحدة «الصفحة العشرين» تحت عنوان «بدء محاكمة رئيس محكمة بجنوب القاهرة متهمًا بالرشوة» وفي أسفل هذا الخبر.. «ومحاكمة رئيس محكمة دمنهور» و«رئيس حي شرق مدينة نصر». ورئيس جهاز 6 أكتوبر واسمه «الظاهر»! بتهمة الرشوة! ذلك كله في يوم واحد في صفحة واحدة فيا له من انهيار!!

القسم الأول

مسيرة الديمقراطية:
رؤية فلسفية

هذا البحث

غايتنا من هذا البحث أن نبرهن على أن الديمقراطية تجربة إنسانية يفرضها العقل البشري، وتحتّمها الأخلاق؛ لتحافظ على كرامة الإنسان وقيّمته، وأن نكشف بالتالي عن خطأ الأفكار المتداولة عن الديمقراطية، لا سيما في وطننا العربي، كأن يقال -مثلاً- إنها تجربة يونانية مارستها أثينا بصفة خاصة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، أو يقال إنها تجربة «إنجليزية» على اعتبار أن الديمقراطية قطعت شوطاً بعيداً من حياتها في إنجلترا أو يقال أخيراً. إن الديمقراطية «نظام غربي»، وهي تجربة لمجتمعات خاصة، وبالتالي لا تصلح لدول العالم الثالث، أو للشرقيين، أو للعرب بوجه خاص⁽¹⁾.

صحيح أن الديمقراطية بدأت عند اليونان، ولا تزال الكلمة تحمل الاشتقاق اللغوي الذي يدل على هذا الأصل (Demos أي الشعب Kratia،⁽²⁾

(1) الغريب أن «بعضاً» من أعلام الفكر يشاركون «بعضاً» من العرب في استحالة تطبيق الديمقراطية في مجتمعاتنا! فيرى مونتسكيو «أن الحكومة المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي، والحكومة المستبدّة هي أصلح ما يكون للعالم الإسلامي» (روح القوانين - المجلد الثاني ص 178).

و«جون ستيوارت مل» يجنب الحرية، التي هي عصب الديمقراطية، عن الشعوب التي أسماها «متخلفة» لأنها لا تزال مجموعة من القصر! (عن الحرية ص 73). ويرى «برتراند رسل» استحالة ممارسة الديمقراطية في مجتمع تسوده الأمية!!

(2) كلمة الشعب أو Demos اليونانية تحتاج إلى تحديد، وسوف نقف عندها وقفة=

أي الحكام)، فهي حرفياً حكم الشعب كله لا فئة، ولا طبقة، ولا قطاع منه⁽¹⁾، وصحيح أيضاً أن الديمقراطية في أعلى أطوارها تمارس الآن في إنجلترا، وصحيح أيضاً أنها مكنت لنفسها في دول غربية كثيرة.

لكن الأخطاء في فهم هذه الحقائق تظل مع هذا قائمة فالتجربة الديمقراطية التي بدأت عند «اليونان تطورت تطوراً بعيد المدى، حتى أصبحت تختلف اختلافًا جذرياً عن التجربة القديمة، مما يجيز لنا القول إنه لم يبق يونانياً منها سوى الكلمة، ويؤكد لنا بالتالي أن الديمقراطية وليدة عمليات تحول طويلة الأمد، وقد اجتازت جميع الأشكال السياسية التي عرفها العالم قبل أن تتوصل لوضع أدوات الحكم تحت رقابة المواطنين وسيطرتهم⁽²⁾، أعني أنها تجربة إنسانية عالمية في المقام الأول، وليست «تجربة الآخرين» المختلفين عنا، ولا يجوز لنا أن ننقلها عنهم، وإنما هي تجربة الروح البشرية السارية في التاريخ، إن جاز استخدام التعبير الهيجلي، الذي يحتم أن يتحقق الحرية والمساواة للإنسان بما هو إنسان أو يتحقق العقل في عالم الواقع وهو يقضي

= طويلة، لكننا نود أن نشير الآن إلى أنها كانت تعني «من لا يملك» أو «الفقراء». وهذا المعنى الذي فهم به أفلاطون الديمقراطية ومن ثم شن هجوماً عنيفاً عليها، ولقد كانت الشيوعية في الاتحاد السوفيتي المنحل تعتقد أنها أكثر ديمقراطية بهذا المعنى حيث الفقراء، وهم البروليتاريا، أو «الطبقة العاملة» هم الذين يتولون زمام السلطة في البلاد.

(1) Encyclopaedia of Philosophy (art-Democracy) Vol.II.P.338 - Scruton.
R.Dictionay of Political Thought P. 116. Pan Books; The Macmillan Press
1982.

(2) روبرت ماكير «تكوين الدولة» ص 219 ترجمة د. حسن صعب - دار العلم
للملايين 1984.

بأن يحكم «الفرد نفسه» كما يحكم الشعب نفسه سواء بسواء! فيتحقق الاستقلال الذاتي Autonomy للفرد - كما أشار «كانط» - وتكون حرية كما أشار «هيجل»، هي التحديد الذاتي.. Self Determination بحيث يأتي سلوكه معبراً عن ذاته، أو أن يضع هو نفسه القوانين التي يسير عليها فيصبح هو الذي يحدد نفسه بنفسه. ويكون سلوك الفرد في هذه الحالة صورة مصغرة من الديمقراطية الكبرى في الدولة التي تعني أن يضع الشعب قوانينه بنفسه، وأن يحكم نفسه بنفسه ولنفسه، كما أشار إبراهيم لنكولن Abraham Lincoln (1809 - 1865) الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة في خطبته في جتسبورج Gettysburg محدداً الديمقراطية على نحو أعمق وأوضح وأشمل مما كانت عليه عند اليونان⁽¹⁾. هذه الأفكار التي تبدو لنا اليوم واضحة وبسيطة، خاض الإنسان من أجلها معارك هائلة وضارية، ومر بتجارب لا حصر لها، وأعمل الفلاسفة والمفكرون وفقهاء القانون أذهانهم طويلاً في استخراج بعض منها وتحديدده وتوضيحه وتعميقه!

أشكال الحكم

والواقع أننا ننسى أن الديمقراطية كانت شكلاً من أشكال الحكم، ظهرت معه وقبلة وبعده، أشكال أخرى كثيرة، لكنها سقطت في مسار التاريخ الإنساني، وأخفقت على محك التجربة البشرية - ومما يؤكد ما نقول من أن هذه النظم السياسية كانت - في الأعم الأغلب - يونانية الأصل أيضاً - فأثينا نفسها مر عليها - من المدن اليونانية - نظام الحكم الأرستقراطي

(1) D.D. Raphael: Problems of Political Philosophy P. 146. Macillan and Co. Ltd., London 1970.

(Aristos أي الأفضل Kratia أي حكم القلة الفاضلة)، والأوليغاركي (Oligos) القلة الغنية - فهي حكومة القلة الغنية التي تعمل لصالحها الخاص) والتيراني أي حكومة الطغيان، والديماجوجية Demagogw التي تعني قيادة الجماهير، وكذلك الحكم الملكي أو الفردي Monarchy... إلخ فهذه كلها أشكال من النظم السياسية ظهرت في بلاد اليونان ولا تزال أسماؤها يونانية الأصل، وفي الوقت الذي كانت فيه أثينا تمارس شكلاً من أشكال الديمقراطية المباشرة، كانت إسبرطة تحكم حكماً عسكرياً أرستقراطياً، وكان سيراقوصة (مدينة في صقلية) قد انتقلت من الحكم الأوليغاركي إلى الحكم الملكي، ثم توالى عليها حكم الطغاة من يونسيسوس الأول (أو الكبير) إلى ديونسيسوس الثاني (أو الابن) وكان أفلاطون يحاول مع الأب ثم مع الابن أن يحقق دولته المثالية لكنه يفشل، ويتآمر عليه الطاغية حتى ينتهي الحال إلى أن يباع الفيلسوف العظيم في سوق الرقيق لولا أن تعرف عليه أحد تلامذته فاشتراه وأعتقه⁽¹⁾.

وقد مرّت أثينا نفسها بحكم الطغاة بيزاستراتوس وأبنائه عندما استطاع هذا الطاغية أن يستميل الجماهير وأن يؤثر عليها بخطبه العاطفية التي ألهمت مشاعرهم مصوراً لهم أنه يريد حمايتهم من الطغاة، وأنه سبق له أن عانى العذاب من أجلهم إلى أن استطاع الوصول إلى الحكم الذي ورثه بعد ذلك لأبنائه! مما اضطر أثينا بعد ذلك إلى الأخذ بـ «تصويت المحار Ostracism»⁽²⁾

(1) طالع القصة كاملة في كتاب «المنفذ، قراءة لقلب أفلاطون» وهو ترجمة للرسالة السابعة لأفلاطون مع مقدمة طويلة بقلم د. عبد الغفار مكاوي - كتاب الهلال العدد 440 أغسطس 1970. وقارن أيضاً بحثنا «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الطغيان السياسي» لا سيما الفصل الأول من الباب الثاني.

(2) اعتادوا أن يعقدوا اجتماعاً محدداً في منتصف الشتاء يقرر فيه الشعب عن طريق =

الذي يعني نفى المواطن -دون محاكمة- أو توجيه تهمة معينة إليه - عندما يخشى من تأثيره على الجماهير ليصل إلى الحكم ويتحول إلى طاغية⁽¹⁾.

وهو نظام أخذت به مدن يونانية أخرى لتحمي نفسها من المواطن المرموق الذي يهدد استقرار المدينة فتقرر نفيه خارج البلاد دون توجيه أي اتهام ضده، هكذا فعلت مدينة أرجوس Argos، وملطية Miletus، وسيراكوسة Syracuse، وميغارا Megara، وكانت هذه كلها محاولات لإبعاد الطغاة عن الحكم، ومن ثم لتدعيم الحكم الديمقراطي بطريقة غير مباشرة.

أشكال كثيرة، إذن، مختلفة ومتنوعة ظهرت مع الديمقراطية عند اليونان، سقطت كلها وبقيت التجربة الديمقراطية التي أثبتت جدارتها وقيمتها فأصبحت الشكل السياسي النموذجي Paradigm من أشكال الحكم، واكتسب المصطلح شحنات انفعالية سامية في السنين المائة الأخيرة، فأصبح اللقب الذي يضيفه كل فرد على نظامه السياسي المفضل وينكره على ما عداه،

= الجمعية الشعبية ما إذا كان يستخدم تصويت «المحار Ostakophoria» بعد ذلك بعدة أسابيع ضد مواطن ما أم لا. وسبب التسمية أنهم كانوا يكتبون اسمه على قطعة من المحار، أو أنهم كانوا يصوتون بنعم أم لا على قطعة المحار، فإذا حضر العدد المناسب كان على «رجل المحار» أن يغادر أثينا في غضون عشرة أيام ويظل منفياً عشر سنوات، لكن تظل ممتلكاته ملكاً له، وذلك غير النفي بالمعنى الروماني الذي يترتب عليه مصادرة ممتلكاته وإلغاء وضعه الاجتماعي، انظر:

Encyclopedia Britannica Vol. 8 P. 1037 (art. Ostracism).

(1) انظر كيف استمال بيزستراتوس Peisistratus الأثينيين في كتاب:

A. Andrewes: The Greek Tyrants P. 100-115.

ويروي «أندروز» طرقاً كثيرة لجأ إليها هذا الطاغية ليصل إلى منصة الحكم، منها أن فتاة طويلة تدعى فييا Phya ارتدت مثل آلهة أثينا وادعت أن الآلهة بنفسها هي التي تريده حاكماً على أثينا.

ومن هنا ادعت نظم تختلف فيما بينها أشد ما يكون الاختلاف - أنها هي الديمقراطية الحقيقية: بل إنها أعادت تعريف المصطلح ليتلاءم مع التغيرات السياسية التي حدثت⁽¹⁾.

ولقد بلغ تعدد النظم السياسية في المدن اليونانية حدًا جعل أرسطو، في القرن قبل الميلاد، يتمكن من دراسة مائة وثمانية وخمسين دستورًا (أي شكلاً سياسيًا) لم يبق منها للأسف سوى «دستور الأثينيين» الذي يروي فيه كيف مرت مدينة أثينا نفسها بتجارب سياسية متعددة، قبل أن تأخذ بالنظام الديمقراطي وبعده⁽²⁾.

وفضلاً عن ذلك فقد كانت هناك ضروب مختلفة من الحكم في الشرق: في مصر، وبابل، وفارس... إلخ حتى إن هيرودوت يذكر في كتابه «التاريخ» وفي فقرات من الجزء الثالث على وجه التحديد مشهداً لسبعة أشخاص من الفرس يتناظرون حول خصائص الحكومات المختلفة. حكومة الفرد (أو النظام الملكي) والحكومة الأرستقراطية، والديمقراطية.. إلخ، ومزايا كل نظام وعيوبه، وينتهي الحوار بتفضيل الحكم الديمقراطي الذي يحقق رغبة الإنسان في مساهمة الأغلبية في شئون الحكم، كما يحقق المساواة للجميع أمام القانون⁽³⁾.

(1) Ecylopedia of Phiosophy Vpi. 2. P.338 ed, by Paul Edwards8.

(2) Arustitke: Constitution od Athens

حيث يبدأ بالحديث عن النظام الملكي في أثينا في الفصل الأول، ثم الوضع الاجتماعي قبل صولون Solon ودستور الحكم قبله وقوانين دراكو Draco... إلخ.

(3) T.A. Sinclair A History of Greek Political Thought P. 39 (3)

وقد تشكك سنكلير Sinclair. T. A في رواية هيرودوت⁽¹⁾، وذهب سباين G. Sabine إلى أن التصنيف الذي يذكره لصور الحكم كان جزءاً من التفكير الشعبي اليوناني، وأنه سبق أية فلسفة سياسية معروفة⁽²⁾، لكن ذلك لا يطعن في القول بأن دول الشرق القديم عرفت الكثير من النظم السياسية منها:

الملكية، والأرستقراطية، والثيوقراطية⁽³⁾... إلخ.

وإن تجربة الإنسان لنظم مختلفة وسقوطها أو زوالها -أو ادعائها عندما تعاود الظهور بأنها ترتدي عباءة الديمقراطية- ذلك كله تأكيد لتجربة الديمقراطية وتدعيم لها.

الديمقراطية المباشرة

لقد بدأت الديمقراطية بتجربة بالغة البساطة تأخذ بها مدينة أثينا حيث كان يجتمع الشعب كله بذاته -لا هيئة منتخبة عنه، ولا طائفة أو طبقة- في «جمعية شعبية Ecclesia» تضم من توافرت فيهم الشروط -وهي: أن يكون مواطناً أثينياً، حراً، ذكراً، يبلغ العشرين من عمره- وتتولى هذه

(1) Ibid., P. 40.

(2) ج. سباين «تطور الفكر السياسي» المجلد الأول ص 25 ترجمة حسن العروسي - دار المعارف بمصر ط 4 عام 1971م.

(3) مصطلح «الثيوقراطية Theocracy» يوناني الأصل أيضاً مؤلف من Theos بمعنى إله و Kratia بمعنى حكم فهي تعني حرفياً «حكم الله» أو «الحكم لله» إما مباشرة أو من خلال رجال الدين وهو مصطلح صاغه لأول مرة المؤرخ اليهودي «يوسيفوس» Josephus ليدل بها على التصور اليهودي للحكومة على نحو ما جاء في التوراة.

الجمعية سلطات البرلمان الحديثة التشريعية ومراقبة أعمال الحكومة، أما رجال الحكومة أنفسهم -وغيرهم من يشغلون الوظائف العامة: كالموظفين العموميين، والقضاة، وقادة الجيش والضباط... إلخ- فيتم اختيارهم بالانتخاب، حيث يتم انتخاب ضعف العدد المطلوب. ثم تجري القرعة بينهم لاختيار العدد المطلوب.

ويعد دستور صولون Solon نقطة البداية في مراحل التطور الديمقراطي لأننا إلى أن بلغت آخر وأكمل تطور لها بعد الإصلاح الدستوري الذي قام به كلستين Clisthenes عام 507 ق.م.

عيون الديمقراطية المباشرة

لكن إذا كنت الديمقراطية المباشرة في أثينا قد بذرت الكثير من البذور الصحيحة فقد كان لها أيضًا عدد من المثالب:

1- لم يكن مفهوم الشعب محددًا تحديدًا صحيحًا، بل اقتصر الأمر على الأثينيين واستبعد الأجانب والرقائق والنساء. وسوف نرى كم من القرون احتاجت البشرية لتصحيح هذا الفهم الخاطئ.

2- لم تكن الحرية الشخصية مكفولة حرية الانتقال، وحرمة المسكن، وحق الأمن، وقد سبق أن رأينا كيف أنه كان من الممكن نفي المواطن الذي أدى للشعب خدمات جليلة وتعلقت به الأمة لمجرد الخوف من احتمال استبداده بالحكم!

3- حرية الفرد بالمعنى الدقيق لم يكن لها وجود (حرية العقيدة - الملكية... إلخ)؛ ذلك لأن الدولة كانت تسيطر على الأفراد سيطرة

تامة، فلا بد للفرد أن يعتنق دين الدولة، كما أن أملاك الفرد وثروته لا بد أن تكون تحت تصرف الدولة⁽¹⁾.

وإذا كانت أثينا قد عرفت أشكالاً من الحكم قبل أن تبدأ التجربة الديمقراطية المباشرة، وبعدها، فإننا نستطيع أن نقول الشيء نفسه بالنسبة لإنجلترا، معقل الديمقراطية الحصين في العالم كله، فقد مرت بكثير من التجارب السياسية، حيث سادها النظام الملكي المطلق⁽²⁾، ثم تطور حكم الأغلبية الأرستقراطية من أعضاء البرلمان، ثم انقلب حكماً ديمقراطياً منذ سنة 1832، بعد أن تقرر حق الاقتراع العام، وأصبح مجلس العموم الممثل لجميع طبقات الشعب صاحب السلطة الحقيقية في البلاد، أما قبل ذلك التاريخ فقد كان البرلمان الإنجليزي (الذي ظل يمارس سلطة فعلية إلى جانب الملك زمناً طويلاً) أرستقراطي التكوين، إذ كان يتكون من مجلسين: أحدهما مجلس اللوردات - الذي كان يضم طبقتي الأشراف ورجال الدين - والثاني مجلس العموم - الذي لم يكن ممثلاً للشعب في مجموعه، وإنما كان هو الآخر أرستقراطي التكوين من حيث شروط العضوية، وبسبب تقييد حق الانتخاب⁽³⁾.

-
- (1) قارن: الدكتور عبد الحميد متولي «الوجيز في النظريات والأنظمة السياسية» ص 20، 21 دار المعارف بمصر - القاهرة عام 1958، وأيضاً أ. هـ. جونز «الديمقراطية الأثينية» ص 1 - 16 ترجمة د. عبد المحسن الحشاش - الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1976.
- (2) لم يمنع هذا الحكم المطلق من وجود مجالس استشارية يعقدها الملك للاستئناس برأي كبار رجال الدولة من الأشراف والأساقفة، لكن هذه الآراء لم تكن ملزمة للملك؛ لأنه يجمع بين يديه سلطتي التشريع والإدارة.
- (3) د. ثروت بدوي «النظم السياسية» ص 193 دار النهضة العربية القاهرة عام 1989. وأيضاً كتابنا «الأخلاق والسياسة: دراسة في فلسفة الحكم» ص 305 وما بعدها.

خلاصة ذلك كله أن «الديمقراطية» تجربة إنسانية أثبتت جدارة وحققًا في البقاء، فقد ظهرت معها نظم كثيرة زالت أو هي في طريقها إلى الزوال، مما قد يؤكد فكرة الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر Heribert Spener (1820 - 1903) القائلة بأن الصراع من أجل البقاء ليس قانونًا ينطبق على الكائنات الحية، أو في ميدان البيولوجيا فحسب، وإنما هو يصدق كذلك في ميدان النظم السياسية والاجتماعية، بمعنى أن كثيرًا من التجارب السياسية التي خاضتها البشرية لم تثبت كفاءتها، ولا جدارتها فأصبحت غير صالحة للبقاء، وحتى إن بقيت فلا بد أن تغلف نفسها باسم الديمقراطية. ولم تهاجم الديمقراطية صراحة سوى الفاشية (*) Fascism لما لها من نزعة عنصرية بارزة لا تستطيع إخفاءها.

الديمقراطية، إذن، تجربة الإنسان، بما هو إنسان لا من حيث هو يوناني أو عربي، أو إنجليزي؛ ولهذا فإننا نجد مفكرًا لامعًا مثل توكفيل De Tocqueville (1805 - 1859) لا يجد حرجًا ولا غضاظة في السفر إلى الولايات المتحدة - الدولة الفتية التي جذبت انتباهه ليتعلم منها مبادئ الديمقراطية، فقد كانت، في رأيه، الدولة الأولى التي توصلت إلى تطبيق النموذج الديمقراطي الصحيح، مما مكنها من إيجاد الحل المناسب لمشكلتي الحرية والمساواة اللتين كانت فرنسا تعاني منهما، على الرغم من أن «توكفيل» جاء بعد الثورة الفرنسية العظيمة التي دعمت مسيرة الديمقراطية بإعلانها وثيقة حقوق الإنسان، وعلى الرغم من أنه هو نفسه عين وزيرًا للخارجية

(*) الفاشية تعني حرفيًا الحزمة وهي رمز للأفراد عند اندماجهم في إرادة الطاغية وقد سبق أن عرضنا لها بالتفصيل في كتابنا «الطاغية» ص 103 من طبعة مدبولي عام 1997م.

فرنسا عام 1849 بعد ذلك، فإنه ذهب إلى أمريكا ليتعلم منها ويصدر كتابه الضخم «الديمقراطية في أمريكا» عام 1835م.

خاتمة

ومعنى ذلك كله:

1- أنه لا ينبغي أن يقال إن الديمقراطية تجربة غربية، وكيف يجوز لنا نحن العرب أن ننقل عن الغرب تجربته؟ فالديمقراطية تجربة إنسانية كانت ولا تزال تتشكل طوال التجارب الكثيرة التي خاضها الإنسان في تاريخه، ويمكن القول إن النظم الديكتاتورية والشمولية، والطغيان، والثيوقراطية... إلخ في الشرق الأوسط على السواء، قد دعمت -ربما بما خلفته من حطام وركام- إيمان الإنسان بالديمقراطية وضرورة تمسكه بها؛ فالبديل كرهه وسيئ غاية السوء.

2- ما دامت الديمقراطية تجربة إنسانية فهي مشروع Project (بالمعنى الحرفي للكلمة، أي ما يطرح إلى الأمام⁽¹⁾) يتحقق طوال الحياة الإنسانية، ولا يكتمل إلا بانتهاء الإنسان؛ ولهذا فهو يخضع باستمرار للنقد والفحص والمراجعة والتصحيح، وذلك جزء من صميم الديمقراطية نفسها، وإن أفضل علاج لأخطاء الديمقراطية هو المزيد من الديمقراطية.

(1) استخدام كلمة مشروع بالمعنى الذي يستخدم فيه الوجوديون هذه الكلمة Pro بمعنى إلى الأمام Ject بمعنى يلقي أو يطرح، فهو ما يطرح إلى الأمام أو ما يلقي في المستقبل، والمعنى أن المثل الأعلى للديمقراطية لا يتحقق إلا بفناء الإنسان. فمادام موجوداً فسوف يظل يعمل على تعديل وتحسين النظام السياسي الذي يرغبه، وحل ما ينبثق عنه دوماً من مشكلات.

3- لم تتخذ الديمقراطية في مسارها الطويل شكلاً واحداً ثابتاً لا غير، فالمبادئ التي تقوم عليها كالحرية والعدالة والمساواة... إلخ، هي وحدها الثابتة التي لا تتغير، لكنها تشكلت وتغيرت مع طبيعة المجتمعات وثقافتها وتراثها، لهذا اختلفت الديمقراطية الإنجليزية - كثيراً أو قليلاً- عن الديمقراطية في الولايات المتحدة، وهذه عن صورتها في فرنسا أو إيطاليا أو ألمانيا... إلخ (*). ونحن في استطاعتنا أن نختار، في العالم العربي بصفة خاصة، والعالم الثالث بصفة عامة- شكلاً ديمقراطياً خاصاً، شريطة المحافظة على المبادئ الديمقراطية الأساسية.

ثلاث أفكار

سوف نتحدث بعد ذلك عن ثلاث أفكار أساسية هي: الشعب - الحرية - المساواة، ثم نعقب على ذلك في نهاية البحث بإثارة بعض مشكلات خاصة بالديمقراطية.

أولاً: الشعب؛

تعرف الديمقراطية منذ بداية نشأتها عند اليونان حتى يومنا الراهن بأنها «حكم الشعب». لكن ما المقصود بالشعب؟ ليست الإجابة سهلة ميسورة، بل إن الأمر قد احتاج إلى كفاح مرير لتحديد هذا المفهوم تحديداً سليماً.

(*) عالجنا الديمقراطية في إنجلترا وأمريكا وفرنسا في كتابنا «الأخلاق والسياسة» الذي أصدره المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام 2001م، راجع الباب السابع.

الواقع أن للشعب مفهومين أساسيين: الأول اجتماعي، والثاني سياسي، الشعب بمفهومه الاجتماعي يشمل جميع الأفراد الذين ينتمون لدولة ما، أي: النساء، والأطفال، والرجال، والشيوخ، والمجانين، والمرضى، والمساجين، ومن إليهم ممن فقدوا الأهلية السياسية. أما الشعب بمدلوله السياسي فلا يمتد إلى كل هؤلاء، بل يقتصر على من لهم حق مباشرة الحقوق السياسية، وإذا كنا نقول إن الشعب في الديمقراطية هو صاحب السلطة ومصدر السيادة، فإن ذلك ينصرف إلى الشعب بمدلوله السياسي فقط، أي من لهم حق الانتخاب وهم «هيئة الناخبين»⁽¹⁾.

وهكذا نتبين أن للشعب مفهومين لا يتطابقان تمامًا، على أن شقة الخلاف بينهما تضيق كلما اتسع نطاق الانتخاب. وقد عملت الدول الديمقراطية الحديثة على التوسع في تقرير حق الانتخاب، والتخفيف من قيوده، بحيث صارت تأخذ بمبدأ الاقتراع العام Universal Suffrage⁽²⁾، بل إن بعض الدول بدأت تلجأ إلى تبني مبدأ الاقتراع الإجباري الذي يفرض جزاء على المتخلفين عن أداء الانتخاب الذي تعتبره هذه الدول حقًا وواجبًا في آن معًا⁽³⁾.

(1) د. محمود عاطف البنا «الوسيط في النظم السياسية» ص 169 دار الفكر العربي القاهرة 1988.

(2) مصطلح في الفكر السياسي يستخدم لوصف العمليات الانتخابية التي تشمل جميع المواطنين الراشدين دون أية شروط مالية أو غيرها «نصاب مالي معين - أو قدر من الكفاءة العلمية - أو الانتهاء إلى طبقة معينة» بحيث تشترط في الناخب السن والأهلية فقط، وقد جاهدت البشرية طويلاً في سبيل تطبيقه. قارن مثلاً موسوعة السياسة بإشراف عبد الوهاب الكيالي - المجلد الأول ص 236.

(3) موسوعة السياسة بإشراف د. عبد الوهاب الكيالي المجلد الأول ص 236 - دار الهدى للنشر والتوزيع - بيروت 1987.

على أنه مهما يكن من حجم التوسع في المفهوم السياسي للشعب، فإننا لا نبلغ درجة التطابق الكامل بين المدلولين (السياسي والاجتماعي للشعب)، إذ تبقى في النهاية فئات من الأفراد لا تتمتع بحق الانتخاب. كالأطفال والمجانين والمساجين ومن إليهم من فاقد الأهلية، ومعنى ذلك أن الشعب بمفهومه السياسي -الذي يعني هيئة الناخبين- يقابل تنظيمًا قانونيًا معينًا يتحدد بمقتضاه الأفراد الذين تدرج أسماؤهم في جداول الانتخاب، ولهذا التنظيم القانوني دلالة سياسية؛ لأنه كلما اقترب الشعب في دلالاته الاجتماعية، كان أكثر تعبيراً عن المبدأ الديمقراطي⁽¹⁾.

ولم يكن هذا المعنى لمصطلح «الشعب» مفهومًا لدى اليونان الذين ابتكروا النظام الديمقراطي أو «حكم الشعب» ذلك لأنهم فهموا الشعب فهماً «قاصراً» فجعلوه يعني مجموع المواطنين الأثينيين الذكور الأحرار ممن بلغوا سن العشرين، وبذلك أخرجوا النساء والمقيمين، والعبيد من مفهوم الشعب، بل إن أفلاطون قد فهم الشعب في النظام الديمقراطي على أنه مجموع الغوغاء أو الدهماء، ومن على شاكلتهم، وهم عند أرسطو «جمهرة المواطنين الفقراء» في مختلف المدن⁽²⁾؛ ولهذا السبب كان حكم الشعب عند اليونان ذا تطبيق محدود جداً، لم تكن السلطة السياسية في الواقع في يد الأغلبية، وإنما كانت في يد المواطنين الأحرار وحدهم، وهم فئة محدودة لا تتجاوز عشر سكان المدينة في بعض الروايات، على أحسن الفروض⁽³⁾.

(1) د. محمود عاطف البنا: «الوسيط في النظم السياسية» ص 169 دار الفكر العربي القاهرة عام 1988.

(2) Aristotle . Ppliticis. 1291-B.

(3) د. ثروت بدوي «النظم السياسية» ص 194 ود. عبد الحميد متولي «الوجيز في النظريات والأنظمة السياسية» ص 23.

وهذا الفهم القاصر ذاته لمصطلح «الشعب» هو الذي ساد الديمقراطية الرومانية، إذ كان المواطن الروماني الحر الذكر هو وحده الذي يحق له الاشتراك في إدارة شئون الدولة السياسية. وفضلاً عن ذلك، فقد استطاعت الإمبراطورية الرومانية أن تخضع لسيطرتها الجزء الأكبر من العالم المعروف وقتئذ، وأن تحول أسرى الحروب إلى عبيد، بل أن تحول أيضاً أعداداً غفيرة من أبناد الشعوب المهزومة إلى رقيق⁽¹⁾، وكانت النتيجة أن بلغ عدد الرقيق في الإمبراطورية الرومانية عام 24 ق.م نحو 20 مليون نسمة، مقابل 214 ألف نسمة فقط من المواطنين الأحرار⁽²⁾.

وهكذا تعرضت التجربة الديمقراطية الرومانية لنفس الصعوبات ووصمت بنفس المثالب التي عانت منها التجربة اليونانية، فحدثت هذه الصعوبات في بداية الأمر من انطلاقها، وما لبثت أن أودت بها فقد كان لظاهرة العبودية دورها الحاسم في إخفاق التجربة، وقد عرفت روما هذه الظاهرة كما عرفت أثينا، وبما على نطاق أوسع. فأصبح نظام العبودية فيها كما كان في العالم القديم كله عائقاً منيعاً دون تحقيق الديمقراطية؛ لأن الديمقراطية والعبودية لا يتفقان⁽³⁾.

(1) يرى الفقيه الفرنسي «بارتلمي Barthelmy» في كتابه «القانون الدستوري» أن عدد الأرقاء كان يبلغ في مدينة أثينا 200 ألف في حين أن عدد المواطنين الأحرار لم يكن يزيد على 20 ألفاً، أي أن عدد الأرقاء يبلغ عشرة أمثال عدد المواطنين الأحرار د. عبد الحميد متولي «الوجيز» حاشية ص 23، ويرى جورج سباين أن هذه الأرقام مبالغ فيها، وأن عدد الأرقاء لم يكن يزيد على ثلث سكان أثينا «تطور الفكر السياسي» المجلد الأول ص 3 ترجمة حسن جلال العروسي دار المعارف ط 4 القاهرة 1971.

(2) موسوعة السياسة بإشراف د. عبد الوهاب الكيالي المجلد الثالث ص 870.

(3) روبرت. ماكيفر «تكوين الدولة» ص 223 ترجمة د. حسن صعب دار العلم للملايين ج ص - بيروت عام 1984.

فكيف نقول إن الشعب هو صاحب السلطة ومصدر السيادة، أو إن حكمنا هو «حكم الشعب»، في الوقت الذي تكون فيه الغالبية العظمى من الشعب (النساء والعبيد) محرومة من حقوقها السياسية؟!

استمر نظام العبودية قائماً طوال العصور الوسطى بعد اليونان والرومان، بل أضيف إليه نظام جديد هو «رق الأرض Serfdom» أو القنية أو القنانة.. إلخ، حيث عاش الفلاحون في درجات متباينة من التبعية للسيد الإقطاعي، فمنهم من كان من طبقة القن، ومنهم من كان في حالة قريبة من حالة المزارع الحر.

على أننا نجد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر أن أغلبية الفلاحين قد أصبحوا في تلك الحالة التي عرفت في مصطلحات العصور الوسطى باسم القنية أو القنانة Serfdom، وإن كان مركز القن -أو متى يعد الفلاح قنًا- قد اختلف باختلاف العصر. حيث كان المجتمع الإقطاعي يتغير ولكن ببطء. ويرتبط القن، بصفة عامة، بالأرض التي يمتلكها السيد الإقطاعي (فإذا كان العبد أو الرقيق العادي ملكاً للسيد فالقن يتبع الأرض، فإذا انتقلت ملكيتها إلى آخر انتقل معها إلى السيد الجديد)، وهو ليست له حرية الانتقال من الأرض التي يتبعها وإنما يباع كجزء من ملحقات الأرض التي يمتلكها السيد، كما يباع العقار أو الحيوانات التابعة لهذه الأرض معها، ولم يكن يحق له أن يفرض الانتقال إلى تبعية السيد الجديد، كما لم يكن له أن يتزوج خارج نطاق أملاك السد إلا بإذنه... إلخ⁽¹⁾.

ثم عمد الأوروبيون منذ القرن السادس عشر بعد اكتشاف أمريكا،

(1) د. عبد الحميد متولي: «الوجيز» ص 100، 101 دار المعارف بمصر عام 1959.

ومناطق إفريقيا الجنوبية والغربية والوسطى إلى «صيد» الأفارقة، والسيطرة عليهم، واستعبادهم، فتاجروا بالرق، ونقلوا الكثير من الزوج إلى أمريكا للعمل في مزارع البيض، فضلاً عن استعباد الزوج وتشغيلهم في أرضهم الإفريقية نفسها⁽¹⁾.

ومرة أخرى نجد أمامنا عقبة كبرى في سبيل بناء النظام الديمقراطي. فإذا سلمنا أن الديمقراطية والعبودية لا يتفقان؛ لأن الديمقراطية تحترم حقوق الشخص أيًا كانت منزلته الاجتماعية، في حين أن العبودية تقوم على رفض كلي وتام لحقوق العبد المدنية - فإن ذلك يعني أنه ما دام هذا الرفض قائماً، وما دامت العبودية مقبولة، فإنه لا سبيل إلى التسليم بوجود مفهوم حقيقي للديمقراطية⁽²⁾.

ولهذا السبب فقد كافح المفكرون والفلاسفة طويلاً في سبيل إلغاء الرق، واحترام الإنسان بما هو إنسان وإعطائه حقوقه المدنية، فمع مطلع القرن الثامن عشر ظهر تيار فكري قوي يدعو إلى التحرر من الظلم والاستبداد، وينبه الأذهان إلى ما يلقي الهنود الحمر من ظلم المستعمرين الإسبان. وقد انبثق هذا التيار من أشهر فلاسفة العصر⁽³⁾، وفي طليعتهم مونتسكيو

(1) يبدو أن ذلك كان نتيجة لعاملين: ضعف نظام رق الأرض أو القناة في أوروبا وبداية زواله، والعامل الثاني: المكتشفات الجغرافية لاسيما أمريكا، والحاجة الماسة إلى الأيدي العاملة، فلجأ الأوروبيون إلى إفريقيا السوداء! انظر مثلاً «الرق: ماضيه وحاضره» د. عبد السلام الترماني ص 185 وما بعدها (عدد 23 من سلسلة عالم المعرفة إبريل 1985 - الكويت) وأيضاً موسوعة السياسة المجلد الثالث ص 870.

(2) روبرت ماكيفر «تكوين الدولة» ترجمة د. حسن صعب ص 223؟

(3) يمكن القول إن الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (1632-1704) J. Locke كان =

Montesquieu (1689 - 1755) وفولتير (1694 - 1778) وجان جاك روسو J.J. Rousseau (1712 - 1778) وقد حمل الأول في كتابه «روح القوانين» على جميع مظاهر الرق، مفنداً المصادر الثلاثة التي وضعها فقهاء الرومان للرق، وهي: الحرب، البيع، الميلاد⁽¹⁾، ويرى مونتسكيو أن من الخطأ أن يباح القتل في الحرب في غير حال الضرورة.

وبالتالي فإذا قيل: إن الأسرى يتحولون إلى عبيد بدلاً من قتلهم، كانت الحجة باطلة مادام الأسير قد جرد من سلاحه ولم يعد في استطاعته إيقاع الضرر أو الأذى بغيره. أما البيع فهو باطل أيضاً، فإذا كان لا يجوز للرجل أن يقتل نفسه.. فإنه لا يباح له أن يبيع نفسه أيضاً، فحرية كل مواطن جزء من الحرية العامة⁽²⁾. أما الميلاد فهو يسقط بسقوط المصدرين السابقين، فإذا كان لا يمكن تحويل أسير الحرب إلى عبد، وإذا كان الرجل لا يستطيع بيع نفسه كانت قدرته، بالتالي على بيع ابنه الذي لم يولد عملاً لا معنى له⁽³⁾.

كما راح مونتسكيو يسخر من استرقاق الزنوج، ويندد بالمتعصبين من

= أسبق من هؤلاء جميعاً؛ فقد عارض فكرة «روبرت فيلمر» التي تقول بأن البشر جميعاً يولدون عبيداً! وسوف نعود إلى فكرته فيما بعد انظر:

John Locke, Two Traeties of Government P. 3. Everymans>s Library. 1988.

(1) جاء في مدونة (جوستنيان «الأرقاء Servi» آت من) أن عادة أمراء الجيوش جرت بعدم قتل الأسرى إبقاء على حياتهم Servare وهؤلاء يطلق عليهم «ملك اليمين».. أو يباعون إلى الغير باعتبارهم رقيقاً. أو يكون الشخص رقيقاً بمولده «ص 11» مدونة جوستنيان في الفقه الروماني، نقلها إلى العربية عبد العزيز فهمي - عالم الكتب بيروت.

(2) مونتسكيو «روح الشرائع» ص 350، 351 من المجلد الأول ترجمة عادل زعيتر دار المعارف القاهرة 1953.

(3) المرجع نفسه ص 351.

الأوروبيين الذين أباحوا استرقاقهم؛ لاعتقادهم أن الله بالغ الحكمة لا يمكن أن يضع روحاً طيبة في جسد حالك السواد؛ وهو ينتهي إلى أنه بما أن جميع الناس يولدون متساوين، فإن من الواجب أن نقول إن الرق مضاد للطبيعة⁽¹⁾.

كذلك حمل «فولتير» بقوة على «لاس كازاس» (Les Casas 1474 - 1566) الأسقف الإسباني الذي أفتي بإرسال الزوج الأفارقة إلى المستعمرات الأمريكية ليحلوا محل الهنود الحمر، وضم فولتير صوته المدوي إلى مناهضي الاسترقاق، وهاجم الغزو الإسباني والحملات البربرية التي تشن على الهنود في العالم الجديد⁽²⁾، كما عقد «جان جاك روسو» فصلاً عن «الرق» في كتابه العقد الاجتماعي، ذهب فيه إلى أنه «ليس لإنسان سلطة طبيعية على غيره، ولما كانت القوة وحدها لا تعطي للمرء حقاً، فإن السلطة بين الناس ينبغي أن تقوم على الاتفاق...» وليس ثمة اتفاق على العبودية! ومن هنا فقد شن حملة عنيفة على المفكر الهولندي «هوجر جروتوس» (H. Grotius 1583 - 1645) الذي أجاز للشعب أن يتنازل للملك عن حريته، ويستسلم للعبودية؛ فيما يسميه «روسو» بالرق السياسي! ويقول روسو «إن تخلي المرء عن حريته هو تخلي عن صفته كإنسان، عن حقوق في الإنسانية، بل عن واجباته، إن تنازلاً كهذا يتنافى مع طبيعة الإنسان»⁽³⁾ كما يهاجم قول «جروتوس» أيضاً بأن الحرب مصدر للعبودية... إلخ⁽⁴⁾.

(1) المرجع نفسه ص 354 وص 356.

(2) د. عبد السلام التريمانيني «الرق: حاضره ومستقبله» ص 207، 208.

(3) J.J. Rousseau: The Social Contract P. 53 Eng. Trans. By Maurice Cranston. Penguin Books.

(4) Ibid., P. 6-7.

وقد ظهر أثر هذه الأفكار -وما تحمله من مبادئ إنسانية- في بيان حقوق الإنسان الذي أعلنته الثورة الفرنسية عام 1789، وقد قام أبرز رجالاتها بحملة عنيفة على الاسترقاق، ومنهم «كوندرسيه Condorcet» (1743 - 1794) رئيس الجمعية التشريعية، وكان أشدهم عنفاً في حملته على استرقاق الزنوج ميرابو Mirabeau (1715 - 1789) خطيب الثورة الذي أعلن أن الرق مخالف لمبادئ الثورة. ولم تلبث أن انتصرت فكرة التحرر، فألغى مجلس الثورة بالقانون الصادر عام 1791 رق الزنوج في المستعمرات الفرنسية، وأعلن أن جميع الأفراد المقيمين في هذه المستعمرات -على اختلاف ألوانهم وعروقهم- مواطنون فرنسيون⁽¹⁾.

وأخذت هذه التيارات التي انطلقت في القرن الثامن عشر تحقق أهدافها في القرن التاسع عشر، وقد مرت بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: بدأت مع الثورة الفرنسية، وفيها أصبحت كلمة «الشعب» تعني: مجموع المواطنين في الدولة، ومن هنا فقد كانت «حنا آرت H. Arendt» (1906 - 1975) على حق عندما قالت: «إن كلمة الشعب هي مفتاح فهم الثورة الفرنسية بأسرها أما مضمونها فقد كان يحدده أولئك الذين عرضوا مشاهد الظلم والمعاناة التي عاناها الشعب، ربما دون أن يعانوها هم»⁽²⁾.

(1) جاء في قرار المجلس: «يعلن مجلس الثورة إلغاء أو استرقاق الزنوج في جميع المستعمرات الفرنسية دون تمييز في اللون، فهم مواطنون فرنسيون يتمتعون بالحقوق التي يشملها الدستور» - وفي مؤتمر لندن عام 1831 اتفقت الدول الأوروبية المشاركة فيه على اعتبار تجارة الرقيق من أعمال القرصنة البحرية من شأنها أن تزيل عن السفينة حماية علمها!

(2) R. Scruton: Dictionary of Political Thought P. 350.

أما المرحلة الثانية: فقد سارت من الثورة الفرنسية إلى الحرب الأهلية الأمريكية التي قادها «إبراهام لنكولن» الرئيس السادس عشر للولايات المتحدة، والذي أعلن في وثيقة رسمية في اليوم الأول من يناير عام 1863 تحرير العبيد، وبموجبها اعتبر العبيد في جميع أرجاء الولايات المتحدة أحراراً، وأعتقت أربعة ملايين نفس من أغلال الرق والعبودية^(*).

أما المرحلة الثالثة: فهي تبدأ من حرب الانفصال الأمريكية (الحرب الأهلية لتحرير الزوج) حتى قيام عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى⁽¹⁾.

ولا نريد أن نستطرد طويلاً في شرح هذه المراحل، فقد دخلت كلها في ذمة التاريخ، وأصبح «الرق» محرماً في جميع أنحاء المعمورة!

بقي أن نقول إن مفهوم الشعب لا يمكن أن يكتمل معناه الحقيقي ما لم تتحرر المرأة من عبودية الرجل؛ حتى يحكم الشعب كله لا طائفة، ولا طبقة، ولا فئة منه، ومن هنا فلا بد أن تنال المرأة حقوقها السياسية كاملة غير منقوصة، فلا تعامل كما كانت تعامل في المجتمع اليوناني بوصفها جزءاً من «ملكية الرجل»⁽²⁾؛ وذلك بهدف أن يقترب مفهوم الشعب السياسي من

(*) وأعلن في خطابه في جنسبورج تعريفه للديمقراطية، فأصبح مضرب الأمثال في أمريكا.

(1) راجع هذه المراحل بالتفصيل في كتاب د. عبد السلام الترماني «الرق: ماضيه وحاضره» ص 210 وما بعدها عدد 23 من عالم المعرفة.

(2) لا يفرق أفلاطون بين ملكية الأشياء، وملكية الأشخاص فهو يصنف النساء والأطفال من بين ممتلكات الأسرة، وما زال الزواج حتى الآن في بعض المجتمعات الغربية المعاصرة تعبيراً عن «ملكية الرجل» للمرأة إذا تزوجها فهي تصبح ملك عينه!! =

مدلوله الاجتماعي بقدر الإمكان، لا بد أن تتحرر المرأة بعد أن تحرر العبيد. فهي كما قيل بحق «آخر الرقيق» في عالم البيض!! إن علينا أن نحقق شعار الذي كافحت البشرية طويلاً من أجل تحقيقه وهو: «لا تمييز: لا بسبب اللون، ولا بسبب الجنس، ولا بسبب الدين!».

تحرير المرأة:

غير أن الدعوة إلى تحرير المرأة لم تظهر إلا في القرن الماضي، بل حتى النصف الأول منه لم يكن هناك أثر ذو بال للحركة النسائية، وكان أول من دافع عن حقوق المرأة الانتخابية هو الفيلسوف الإنجليزي جون ستيوارت مل J.S.Mill (1806 - 1873) الذي تم انتخابه نائباً في مجلس العموم عن حزب الأحرار عام 1865 عن دائرة حي وستمنستر بلندن، واستمر عضواً بالبرلمان حتى عام 1868، في الوقت الذي نظر فيه معظم النواب نظرة استهزاء إلى هذه القضية، غير أن «مل» كان يؤمن بها إيماناً عميقاً فدافع عنها بقوة -قال: «إنني أعلم أن ثمة شعوراً غامضاً يود ألا يكون للمرأة حق في شيء اللهم إلا في خدمة الرجل.. هذا الادعاء بمصادرة نصف الإنسانية في سبيل راحة النصف الآخر، لينطوي على رعونة وظلم في آن معاً؛ فكيف تطيب الحياة لإنسان يعيش جنباً إلى جنب مع مخلوق يشاطره تفكيره وشعوره مشاطرة كاملة، وهو يحرص على إبقائه منحطاً يرى الجهل دون الاهتمام بالموضوعات الراقية كأنما في سحره وفنتته؟».

=انظر وضع المرأة عند اليونان بصفة عامة، كتابنا «أفلاطون.. والمرأة» لا سيما الباب الأول وفكرة أفلاطون بصفة خاصة ص 56 من هذا الكتاب.

وكان من تأثير هذه الحملات أن تأسست الجمعية الوطنية للنساء المطالبات بحق الانتخاب عام 1867م⁽¹⁾.

وفي العالم التالي 1869 فزن بحق الانتخابات البلدية، ثم طرحت بعد ذلك مشروعات بقوانين لم يكتب لها النجاح، وقامت النساء في إنجلترا بأعمال شغب وعنف، واستمرت المطالبة والعنف تباعاً حتى ظفرن بحقوقهن بعدئذ بفترة غير قصيرة (عام 1918!).

وما يقال عن كفاح المرأة الإنجليزية يقال كذلك عن المرأة الأمريكية التي لم تنل حقوقها السياسية إلا بعد الحرب العالمية الأولى عام 1920؛ - وإن كان ذلك لا يمنع من القول بوجود بعض الولايات المتحدة الأمريكية التي اعترفت للمرأة بحقوقها في الانتخاب في أواخر القرن التاسع عشر، غير أن التقرير الحاسم جاء مع تعديل الدستور الفيدرالي عام 1920، وهو ذلك التعديل الذي نص على تحريم تقييد حق الانتخاب بشرط الجنس، فسوى بذلك بين الرجل والمرأة في الحقوق الانتخابية، كما نالت المرأة الفرنسية حقها عام 1944، ونالت المرأة الإيطالية هذه الحقوق عام 1945... إلخ، ومن ذلك كله يتضح أن التطور يسير في صالح التصويت النسائي، وأن الغالبية العظمى من دول العالم تقرر للنساء الحقوق السياسية مثل الرجال تماماً!⁽²⁾. وهكذا يسير مفهوم الشعب السياسي نحو الالتقاء بالمفهوم الاجتماعي، أو على الأقل نحو تضيق الهوة الواسعة التي كانت بينهما منذ الديمقراطية

(1) عبد الهادي عباس: «المرأة والأسرة في حضارات الشعوب» الجزء الثالث ص 1101 - دار طلاس عام 1987.

(2) د. ثروت بدوي «النظم السياسية» ص 247 دار النهضة العربية القاهرة 1989.

المباشرة عند الشعب اليوناني والروماني، أعني أنه يسير نحو تحقيق التعريف الدقيق للديمقراطية، بأن يحكم الشعب كله لافئة، ولا طائفة، ولا طبقة منه!!

وقد يكون من المفيد أن نتوقف هنا قليلاً، لكي نقول كلمة سريعة عن وضع المرأة في المجتمع العربي، ومحاولة استغلال الدين في معركة تحرير المرأة لمنع منحها حقوقها السياسية. إن المعارضة التي تشتد في عالمنا العربي ضد حقوق المرأة كثيراً ما تخطئ بسبب خلطها بين وضع المرأة في الأسرة، ومكانتها في الدولة، بل كثيراً ما تسيء فهم آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن وضع المرأة في الأسرة، فتمد الفكرة وتوسع من نطاقها لتشمل وضع المرأة في الدولة؛ فالآيات الكريمة: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة: 228] و﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: 43] - آيات تتحدث عن علاقة الرجل بالمرأة داخل الأسرة فقط وليس بإطلاق، فبالنسبة للآية الأولى، مثلاً، فقد كانت الآيات التي سبقتها تتحدث عن المطلقات، ومتى يحل لهن الزواج... إلخ (آية 227)، والآيات اللاحقة تتحدث عن الطلاق أيضاً ﴿الطَّلُوقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة: 229]، ويقول «الصابوني» في تفسيره لهذه الآية الكريمة: «لهن على الرجال مثل ما للرجال عليهن بالمعروف الذي أمر الله به، ثم للرجال على النساء درجة، أي ميزة، وهي فيها أمر الله تعالى به من القواماة والإنفاق والإمرة ووجوب الطاعة، هي درجة تكليف لا تشريف»⁽¹⁾، وليسمح لي القارئ أن

(1) محمد علي الصابوني - صفوة التفاسير - المجلد الأول ص 145، -146 دار القرآن الكريم - بيروت الطبعة الثانية - عام 1981.

أوضح فكري قليلاً: في ظني أن علينا أن نفرق بوضوح بين مفهومين أساسيين: الأسرة والدولة، الأول مفهوم أخلاقي، والثاني مفهوم سياسي، والخلط بينهما يؤدي إلى مشكلات لا حل لها؛ فإذا كانت الأسرة مفهومًا أخلاقيًا، لا يجوز مثلاً الحديث عن ديمقراطية الأسرة! أو حقوق سياسية للأبناء، أو حتى للزوجة، فليس مجالها هنا، وإنما هي توجد خارج نطاق الأسرة، أعني في الدولة! الأسرة مفهوم أخلاقي، بمعنى أن الأب هو المسئول أخلاقياً عن هذه الأسرة، فهو الذي أنشأها وأنجب الأبناء، ووهبهم الحياة، وأخرجهم إلى الوجود، وكان يمكن له ألا يفعل، فلا أحد يستطيع أن يجبره على الزواج أو تكوين أسرة... إلخ؛ لهذا كله فإن عليه أن يتحمل تبعه هذا العمل أخلاقياً، بغض النظر عن أية اعتبارات مدنية أو دينية. ومن هنا كان الحديث عن ديمقراطية الأسرة حديثاً لا معنى له: إنه نقل للمفهوم السياسي إلى الأسرة حيث المفهوم الأخلاقي، والعكس صحيح أيضاً. فحديث الحاكم عن نفسه بألفاظ الأسرة، كأن يصف نفسه مثلاً بأنه «أب للجميع» أو «كلهم أبنائي» يقصد «المواطنين» أو أنه «كبير العائلة» - حديث لا معنى له أيضاً: لأنه ينقل الفكرة الأخلاقية عن «الأب الواجب الاحترام» إلى ميدان السياسة، حيث يحق للمواطنين نقد الحاكم: «إننا نعتز على إطلاق لقب «كبير العائلة» على رئيس الجمهورية؛ لأن التعبير -فضلاً عن تعارضه مع أحكام الدستور- يستخلص منه أن ليس لأحد من المواطنين أن يعارض رأياً يقوله، إذ إن كلمة رب العائلة واجبة الاحترام حتى إذا جانبه الصواب، ولا يجوز لفرد من أفراد العائلة أن يعصي له أمراً أو يوجه إليه نصحاً»⁽¹⁾.

(1) د. محمد حلمي مراد مقال بعنوان «اعتراضات على خطاب الرئيس السادات» جريدة الشعب القاهرة بتاريخ 7 / 10 / 1980.

وهناك أمثلة كبيرة أخرى للخلط بين الأخلاق والسياسة، لا سيما في مجتمعنا العربي الذي لم تتحدد فيه هذه المفاهيم تحديداً واضحاً بعد. فهناك حكام يطلقون على أنفسهم لقب «الأخ»! ولا مثيل لهذه الألقاب في العالم!

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول، باختصار شديد، بأن كل من يتصور أن الآيات الكريمة تتحدث عن حقوق سياسية للرجل أو للمرأة يخطئ خطأً كبيراً، ويخلط من جديد بين الأخلاق والسياسة، أو هو يريد أن يجعل من الأسرة مفهوماً سياسياً، وهو مثله، في هذه الحالة، مثل الزوجة التي تقول لزوجها: أنا مهندسة أو مدرسة، أو حتى وزيرة.... إلخ؛ لأن المرأة داخل الأسرة زوجة وأم فقط، تتحمل جميع المسؤوليات التي تقع على عاتق الزوجة غير المتعلمة أو غير الموظفة... إلخ. إن وضعها المهني إنما يكون في الدولة لا في الأسرة، لأنها في الأسرة زوجة، وأم... إلخ، كذلك سائق المهندسة في إحدى الشركات لا يستطيع أن يقول لها: «القوامة» بصفتي رجلاً، فأوجهك وأنصحك... إلخ، فذلك حديث يقوله لزوجته داخل الأسرة، وهذا الخلط -الذي لا حد له- بين مفهوم الأسرة الأخلاقي ومفهوم الدولة السياسي هو الذي يسبب كل ما نعانيه في هذا الموضوع من مشكلات لا حل لها ما لم نكن على وعى كامل، وتميز واضح، بالفرقة التي سقناها فيما سبق!

ثانياً: الحرية.. والمساواة:

فكرتان أساسيتان -إلى جانب فكرة الشعب السابقة- قامت عليهما الديمقراطية منذ بدايتها الأولى عند اليونان، ولا تزال حتى يومنا الراهن،

وقد تطورتا وتحدتا أكثر فأكثر على مدار التاريخ -وهما: الحرية والمساواة⁽¹⁾. وربما بسبب هاتين الفكرتين هاجم أفلاطون وأرسطو قديماً هذا النوع من الحكم؛ فأفلاطون اعتبر الديمقراطية أحد أنظمة الحكم الفاسدة، وجعلها تحتل المكانة قبل الأخيرة في دورته لأشكال الحكومات الفاسدة، بل جعل الطغيان -وهو أشد أشكال الحكم فساداً وسوءاً- نتيجة مباشرة للديمقراطية.

أما أرسطو فقد تحدث عن الديمقراطية في تصنيفه السداسي لنظام الحكم. مميزاً بين ما أسماه «البوليتيا Politeia» وهو ما يمكن أن نسميه «بالحكومة الدستورية»، وبين الديماجوجية، أو ديمقراطية الغوغاء! وهو يقبل الأولى بوصفها أحد أشكال ثلاثة لنظم صالحة أو مقبولة للحكم، إلا أنه جعلها أقل من الملكية والأرستقراطية⁽²⁾.

وإذا تساءلنا عن السبب الذي حدا بعمالقة الفكر اليوناني إلى كراهية الديمقراطية على هذا النحو الغريب، لوجدنا أن هناك أسباباً كثيرة منها ما يراه البعض متعلقاً بكلمة الشعب Demos اليونانية نفسها التي تعني «الفقراء»، أو من لا يملك! «إن السبب الرئيسي في تخوف كثير من فلاسفة اليونان القدامى من الديمقراطية هو إدراكهم أن الشعب يضم بالضرورة الأميين، والدُهماء، وغير الأكفاء، ومن ثم فإنهم لم يعتبروا الديمقراطية حكم الشعب، وإنما نظروا إليها أساساً، على أنها حكم الغوغاء، والرعاع، والدُهماء، ومن على

(1) D.d. Raphael: Problemes of Political Philospphy P. 144. Macmillan and co. Ltd., 1970. J. Roland Pennock. Democratic Political Theory P. 16-17 Princeton University Press. 1979.

(2) Aristotle. Politics. 1979-A.

شاكلتهم»⁽¹⁾، ويربط بعض الباحثين بين هذا التفسير وما كان الماركسيون في الاتحاد السوفييتي القديم يقولونه من أنهم يطبقون الديمقراطية بمعناها الحقيقي الذي يعني حكم الشعب Demos، لا فقط بمعنى الفقراء، بل بمعنى الكادحين، أو العمال، أو البروليتاريا⁽²⁾، بل قد يقوم هؤلاء الفلاسفة أنفسهم بتضليل الباحثين عن السبب الحقيقي «... فأفلاطون يربط بين الديمقراطية وخضوع العقل للعاطفة والانفعالات، وهو يقارن بين الديمقراطية والمثل الأعلى للحكم على جمهوريته -وأعني به حكم الفلاسفة- أما أرسطو فهو يحذر من مخاطر الديمقراطية التي تستقطب الأغنياء في جانب الفقراء في جانب آخر، وهو يؤكد أنه نظام من الحكم يؤدي إلى عدم الاستقرار السياسي»⁽³⁾.

والواقع أن حديث أفلاطون -وتلميذه أرسطو- عن الديمقراطية سيكون مضللاً للغاية ما لم ننتبه جيداً إلى أن وراءه أساساً ميتافيزيقياً هو الذي يسبب كل هذا الخلط! وهذا الأساس الميتافيزيقي يعبر عن نظرية خاطئة أو متحيزة عن الإنسان، فعندما يقول أفلاطون، مثلاً، إن الديمقراطية تظهر عندما ينتصر الفقراء على أعدائهم فيعتقلون بعضهم، وينفون البعض الآخر، ويتقاسمون مع الباقين أمور الحكومة والرئاسة بالتساوي، بل إن الحكم في هذا النوع من الدول غالباً ما يتم اختيارهم عن طريق القرعة⁽⁴⁾ -فإن أفلاطون الأرستقراطي يهاجم في الواقع فكرة المساواة التي هي أحد

(1) Blackwell: Encyclopedia of Political Thought. P. 114 ed. By David. Miller. 1987.

(2) Encyclopedia of Philosophy Vol. P. 338.

(3) Op. Cit. P. 115.

(4) أفلاطون - الجمهورية 557، وانظر الترجمة العربية للدكتور فؤاد زكريا ص 475، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة عام 1985.

ركنين أساسيين في الديمقراطية! وهو عندما يقول: «الفرد في مثل هذه الدولة يكون حرًا، فالحرية تسود الجميع، إذ يصرح لكل فرد بحرية الكلام، وبأن يفعل ما يشاء»⁽¹⁾ - إنما يهاجم الركن الأساسي الثاني، وهو الحرية! انظر إلى مثل هذه العبارة الغريبة: «في مثل هذا النظام لا يكون المرء مرغماً على تولى أمور الحكم في الدولة حتى ولو كان قادراً على الاضطلاع بها، إن لم يكن راغباً في ذلك، ولا يكون مضطراً إلى الحرب إذا حارب الآخرون، ما لم يكن يريد السلام بالفعل، ومن جهة أخرى ففي وسعه أن يرأس، ويحكم إذا شاء هو» ذلك، حتى لو كان القانون يأبي عليه كل رئاسة وحكم»⁽²⁾. إن أفلاطون هنا يفهم الحرية على أنها الميل مع الهوى، والسلوك كيفما شاء الفرد! ومعنى ذلك أنها ضرب من الفوضى! حتى إن الدولة إذا احتاجت فلاناً لخبرته في كذا (كقيادة الجيش مثلاً، أو الإشراف على الصحة، أو التعليم... إلخ) فإنها لا تستطيع أن ترغمه على تولى منصب بعينه، فلا تكليف، ولا إرغام، ولا إلزام، وكيف يستقيم مثل هذا الوضع إذا قلنا مع أفلاطون إن لكل إنسان قدرات وإمكانات خاصة تؤهله لشغل وظيفة معينة دون سواها، فالنجار يولد نجاراً والحداد حداداً، وقل مثل ذلك في بقية الحرف، وكذلك في سائر مناصب الدولة؛ الناس ليسوا متساوين، والحرية التي هي السير وراء المزاج والهوى لا ينشأ عنها سوى الفوضى، وإذا كانت الديمقراطية تقوم على هذين الركنين فهي ضرب سيئ من الحكم، وسوف يتولد عنها حكم الطاغية الذي ينقذ البلاد من الفوضى، وينظر إليه الناس على أنه المخلص!⁽³⁾.

(1) أفلاطون - المرجع السابق 558 (والترجمة العربية ص 477).

(2) المرجع نفسه - وانظر فكرة الوظيفة عند أفلاطون - كتابنا «أفلاطون.. والمرأة».

(3) إمام عبد الفتاح إمام «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الطغيان السياسي» وقد عالجن فيه هذا الموضوع بشيء من التفصيل.

والواقع أن أفلاطون، وكذلك أرسطو، قد فهم موضوع الحرية فهمًا خاطئًا عندما رفض فكرة المساواة بين الناس، فالنظرة الأرستقراطية لا يمكن أن توافق على الحرية لكل إنسان، بل ستعتبر ذلك ضربًا من الفوضى! ورغم ذلك فقد فهم أفلاطون بوضوح أن الحرية ركن أساسي من أركان الدولة الديمقراطية، يقول: «غاية الديمقراطية هي الحرية، وهم في النظام الديمقراطي يقولون لك بأن أئمن ما تعز به الدولة هو الحرية، ومن هنا قيل إنها الدولة الوحيدة التي يمكن أن يحيا فيها المواطن حراً! ⁽¹⁾، بل قد تصل الرغبة في الحرية والاعتزاز بها إلى حد التطرف، فيما يقول أفلاطون: «عندما يكون للدولة الديمقراطية الظامّة إلى الحرية زعماء فاسدون، لا يتوانون عن إرواء ظمئها هذا بكتّوس مترعة من خمر الحرية فإن حكامها -إن لم يكونوا من اللين بحيث يمنحونها من الحرية ما تشاء- يتهمون بأنهم أولي جاركين أشرار، وينالهم العقاب» ⁽²⁾.

الواقع أن الفكرة الأفلاطونية التي تقسم الناس إلى طبقات ثلاث (وذلك فضلاً عن العبيد بالطبع) والتي لا تتخيل أنه يمكن للعامل أن يصل إلى مقعد الحكم -فذلك قلب لجميع الأوضاع- لا يمكن أن تسمح بالحرية للجميع، وعلى قدم المساواة! وفي استطاعتنا أن نقول الشيء نفسه عن أرسطو الذي يقسم البشر منذ البداية إلى شعوب أرقاها الشعب اليوناني، والباقي همج أو برابرة، ثم داخل المجتمع اليوناني هناك الأجانب، وكذلك النساء... إلخ، وهن في مرتبة دنيا؛ إذ لا يكتسبون حق المواطنة بمجرد الإقامة، وبالتالي يبقى المواطن اليوناني الذكر الحر، فكيف يمكن أن يوافق على الحرية للجميع؟! إننا عندما نقول إن أرسطو يعرف الإنسان بأنه «حيوان عاقل» فإننا لا بد أن ننتبه جيداً

(1) أفلاطون: الجمهورية 562 (وانظر الترجمة العربية للدكتور فؤاد زكريا ص 483).

(2) المرجع نفسه (وفي الترجمة العربية ص 484).

إلى أن مثل هذا التعريف لا ينطبق على جميع الناس؛ إنه يعني المواطن اليوناني الذكر فحسب! فكيف يمكن أن نتصور أن يفهم المعلم الأول الحرية، في المجتمع الديمقراطي، فهماً جيداً؟! إن المجتمع الذي يعيش فيه يزخر بالعبيد، وهم قوى جسدية فحسب، وبالنساء، وهن أقل في القدرة العقلية من الرجل، والأجانب الذين ليس لهم أية حقوق سياسية، وباليونانيين الذين يتمتعون بامتيازات كثيرة يورثونها لأبنائهم... إلخ، والنتيجة المنطقية، إذن: الفهم السيئ للحرية، لا سيما تلك التي ترتبط بفكرة المساواة.

معنى ذلك أن عملاقي الفكر اليوناني - أفلاطون وأرسطو - قد فهمها «الحرية» بمعنى أن يفعل المرء ما يشاء، وهذا هو ما أطلق عليه أ. برلين «المعني السلبي للحرية»⁽¹⁾. ولقد ازداد هذا المعني السلبي للحرية سوءاً عند «الرواقية» التي زعمت أن العبد يمكن أن يكون حراً كالإمبراطور الجالس على العرش سواء بسواء! فانطوت نظريتها على كثير من المفارقة؛ ما دام الوضع القانوني للعبد هو النموذج الأعلى لانعدام الحرية؛ فللعبد سيد بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، غير أن الجواب السريع للرواقية هو أنه لا أهمية لما يطلبه السيد من العبد: ما دام سيكون متروكاً للعبد باستمرار خياره، حتى إذا لم يكن أمامه سوى خيار واحد هو إما الإذعان، أو الضرب حتى الموت، ولقد أفادتهم نظرية الأبائيا Apatheia، أي جمود الحس وتبلده، بحيث لم يعد المرء يشعر في مثل هذه الحالة بأي شعور على الإطلاق⁽²⁾.

(1) Isaiaaah Berlin: Two Concepts of Liberty - in Four Essays on Liberty Oxford University 1969.

(2) The Blackwell Encyclopedia of Political - Thought P. 163 by David Miller 1978.

غير أن الديمقراطية المباشرة اختفت حتى قبل أن تدخل أوروبا بحر الظلمات في العصر الوسيط، وإن كانت تجربة الديمقراطية ذاتها ظلت، فيما يبدو، قابضة في وجدان الإنسان، لم تمح قط، بل صارت تتعمق وتتأصل كلما أوغلت البشرية السير في دهاليز الطغاة.

لقد كانت الفكرة الرئيسية التي سادت العصر الوسيط هي فكرة الخضوع للسلطة، بصفة عامة، فقد أبدت المسيحية منذ بدايتها فكرة الطاعة للحاكم معتمدة على نظرية السيفين التي تستند إلى قول المسيح: «إن الله خلق سيفين لقيادة العالم، أحدهما روحي، والآخر زمني أو دنيوي، وإن أولهما للبابا والآخر للإمبراطور». ثم جاء القديس بولس ليقول صراحة: «لتخضع كل نفس للسلطين، لأنه ليس سلطان إلا من الله، والسلطين الكائنة هي مرتبة من الله، حتى إن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله» (الرسالة إلى أهل رومية - إصحاح 3: 1 - 3)، وهكذا أضيفت هالة مقدسة على الحكام الذين فرضتهم الإرادة الإلهية على الناس، وازداد الأمر سوءاً بظهور الإقطاع، فأصبح المواطن خاضعاً لأكثر من «سيد»: السيد الإقطاعي، والسيد الحاكم - الأمير، الملك، الإمبراطور - كما ظهر نظام الأقنان إلى جانب العبيد... إلخ.

وفي عصر النهضة بدأ النظام الإقطاعي يترنح، وراح مكيافللي Machiavelli (1459 - 1517) يعالج السياسة بمعزل عن الأخلاق والدين؛ ليهتم بكيفية تحقيق الغاية فقط بغض النظر عن الوسيلة، وإن انحازت نصائحه إلى جانب الأمير الحاكم.

وفي عصر النهضة أيضاً، ومع بداية العصر الحديث، نشأت الدولة

القومية وعملت النظم الملكية في فرنسا، وألمانيا، وإنجلترا، وغيرها من الدول الأوروبية - على تأكيد سلطاتها، وتركيز السلطة في يد الملك. وقد شجعها على ذلك ظهور الطبقة البرجوازية الجديدة -طبقة التجار، والصناع.... إلخ- فعدا سلطان الملوك مطلقاً، فاستبدوا وأهدروا الحقوق والحريات.

ولكن من قلب النظام الإقطاعي نفسه، راحت بذور الديمقراطية -التي ظلت قروناً مغمورة في وجدان الإنسان تكافح للظهور مرة أخرى، فعلى الرغم من أن نظام الحكم في إنجلترا، مثلاً كان نظاماً ملكياً مطلقاً، فإن نظام الإقطاع أجبر الملك على الاجتماع بأمراء الإقطاع في المناسبات المهمة يطلب المشورة والنصيحة، بل والمشاركة في نفقات الحرب أو غيرها، وهكذا استقر نظام جديد يدعى إليه الأشراف والأساقفة، ثم ازدادت سلطات المجلس فانتقلت من «المشورة»، إلى «التشريع»، إلى الإشراف على القضاء، إلى أن أصبحت له السلطة العليا في المحاكم حتى سمي باسم «المجلس الأعظم agnum Concilium» وأصبح يجتمع سنوياً، وبصفة منتظمة، واتسعت دائرة اختصاصاته... إلى أن ثار النبلاء والأشراف والأساقفة في عهد الملك «جون» وصدر «العهد الأعظم، أو المجنا كارتا Carta Magna» واستقر المجلس بعد هذا التطور فبعد أن كان استشارياً أصبحت القاعدة أنه لا يجوز للملك أن يلغي قانوناً صدر عن هذا المجلس الذي سمي باسم مجلس اللوردات House of Lords. ثم أضيف إلى هذا المجلس فارسان عن كل مقاطعة، وممثلون عن المدن المهمة، حتى أصبح يتألف من خمس فئات، وتكتل نواب المقاطعات والمدن حتى انفصلوا في مجلس خاص هو مجلس العموم! ولم تقدر طبقة اللوردات في بداية الأمر أهمية ذلك المجلس، فلما

تثبتت أهميته سارع أبنائها إلى الدخول فيه، فصار شأنه يزداد شيئاً فشيئاً حتى جاوز شأن مجلس اللوردات!⁽¹⁾

لكن الأمر لم يكن سهلاً ميسوراً على هذا النحو؛ فلم تسر الأمور رخاء كما قد يظن القارئ! فإذا كان الأشراف قد كافحوا، ودخلوا في صراع مع الملك من قبل، فقد تجدد الصراع الآن في القرن السابع عشر على نحو أشد عنفاً في عهد الملكين جيمس الأول (1603 - 1625) وشارل الأول (1625 - 1649) حتى تحول الصراع إلى حرب أهلية عام (1642 - 1645)، ثم تجدد مرة أخرى (1647 - 1649) وانتهي بإعدام الملك شارل الأول في 30 يناير 1649، وتولي أوليفر كروميل -أحد أعضاء البرلمان- زعامة البلاد.⁽²⁾

غير أن هذا الصراع الدموي الذي أثاره الحكم الملكي المطلق في إنجلترا -فضلاً عن ظاهرة انتشار الحكم الملكي المطلق في أوروبا كلها- أظهر اتجاهين متعارضين: الأول يؤيد السلطة المطلقة، ويثني عليها مثلما فعل توماس هوبز Thomas Hobbes (1588 - 1679) في إنجلترا، والأب جاك بوسويه Jacques Bossuet (1627 - 1704) في فرنسا، أما الاتجاه الآخر فهو ينادي بالثورة على الطغيان مثلما فعل جون لوك John Locke (1632 - 1704) وبعده جون ستيوارت ميل J.S. Mill (1806 - 1873) في إنجلترا، ومونتسكيو Montesquieu (1689 - 1775) وروسو Rousseau (1712 - 1778) في فرنسا. وأهم فكرة ظهرت بين هؤلاء الفلاسفة، وكان لها آثار

(1) قارن إمام عبد الفتاح إمام: «توماس هوبز: فيلسوف العقلانية» ص 96-86 دار التنوير بيروت عام 1985.

(2) المرجع السابق ص 70.

بالغة الخطورة، هي فكرة العقد الاجتماعي Social Contract التي تفسر نشأة الدولة على أساس التعاقد الذي يتم بين الأفراد باعتبارهم جماعة، أو بينهم وبين الحكام⁽¹⁾، وهي فكرة كانت ملاذاً لجأ إليه المفكرون الذين يسعون للدفاع عن المذهب الفردي ضد المذهب المطلق؛ وذلك لأن الملوك يستمدونه من الله مباشرة، فهم ظل الله على الأرض، أو أنهم يحكمون على أقل تقدير باسمه، وبتفويض منه، وبالتالي، فهم يحاسبون أمامه فقط، لا أمام الناس! ومن هنا كان النظام الأبوي البطرياركي Patriarchalism هو النظام الطبيعي للمجتمع الذي يرتد في النهاية إلى العهد القديم من الكتاب المقدس.

ومن هنا أصبحت نظرية «العقد الاجتماعي» هي الوسيلة الوحيدة المتاحة لرفض هذه المزاعم، وربما أمكن القول بأنها «حيلة» يلجأ إليها المفكرون لإنكار هذه الصيغة الدينية التي تضيف القداسة على الحاكم، والقول على العكس من ذلك بأن الناس ولدوا أحراراً متساوين أمام الله، وأمام القانون الطبيعي، وأن اهتماماتهم واحدة، وليس المجتمع المدني نفسه سوى وسيلة لحماية هذه الاهتمامات وصيانتها. أما سلطة الملك أو الحاكم، بصفة عامة، فهي تنبع تماماً من الموافقة الشعبية ورضا الناس. وهذا المجتمع المدني صنعه الإنسان وليس مجرد نمو طبيعي، مثل: الأسرة، أو الشجرة، أو خلية النحل، ومن ثم فإن الملوك كغيرهم من البشر يخضعون للقانون الطبيعي ولأوامر الله ووصاياه، كما يخضعون لبنود العقد التي يفترضها مقدماً إنشاء السلطة،

(1) قد تكون فكرة العقد نفسها من الناحية التاريخية، لكن ظهورها على هذا النحو في القرن السابع عشر أوجد أساساً آخر لتفسير السلطة غير التفسير الديني - وذلك هو الأساس الذي أقيمت عليه الديمقراطية فيها بعد.

وكانت تلك طريقة أخرى للقول بأن سلطة الملوك مشروطة وليست مطلقة، ومن ثم فإنه عندما أعلن مجلس العموم البريطاني في يناير عام 1689 اتهامه للملك السابق جيمس الثاني بأنه «انتهك العقد الأصلي القائم بين الشعب والملك!» فإنه فعل ذلك اعتقاداً منه بأن هذا الانتهاك جريمة تستوجب العقاب بصفة مستمرة. وهو عقاب يفرضه القانون الطبيعي، ومن هنا قيل إن تاريخ فكرة العقد هو، إلى حد كبير، تاريخ القانون الطبيعي نفسه!⁽¹⁾.

عندما اختفت الديمقراطية كنظام من أنظمة الحكم، اختفى معها كل حديث عن «الحرية» فلم تكن هناك من مناقشات، أو نظريات، ولا حتى أفكار تدور حول «الحرية السياسية»، طوال العصور الوسطى، فقد حلت محلها مسألة أخرى هي «حرية الإرادة» التي تحولت إلى مشكلة لاهوتية بالدرجة الأولى هي: كيف توافق بين وجود إله قادر على كل شيء من ناحية، ووجود إنسان حر الإرادة من ناحية أخرى؟ فإذا لم تكن الإرادة حرة، أو إذا قلنا: بأنه ليس للإنسان حرية إرادة، فكيف يمكن تكليفه بأوامر دينية معينة؟!

والواقع أن هذه المشكلة لعبت دوراً بارزاً في فلسفة الدين، ونظر إليها بعض اللاهوتيين على أنها دليل قوي على وجود الله، فها هو ذا جانب «روحي» خالد لا يخضع للطبيعة ولا للتفسير العلمي، أفلا يدل ذلك على أن الطبيعة ليست كلها «مادية» ومعنى ذلك أنهم يتخذون من هذه المشكلة «المغزة» التي استعصي حلها برهاناً على وجود قوة روحية عليها هي الله.

وما يعيننا هنا هو أن العصور الوسطى حصرت معنى الحرية في هذه

(1) Poter Laslett: «Social Contract» in Encyclopedia of Philosophy Col. 7. P. 466.

المشكلة اللاهوتية على وجه التحديد، وابتعدت عن مناقشة «الحرية السياسية» بمقدار ما ابتعدت عن النظام الديمقراطي، لكن ما إن بدأ الفكر البشري يتحرر من مشكلات العصور الوسطى اللاهوتية، وينظر إلى الموضوعات السياسية والاجتماعية نظرة إنسانية منفصلة عن الدين - حتى بدأت مشكل الحرية بمعناها السياسي لا اللاهوتي تعاود الظهور من جديد.

ولقد كان الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز Thomas Hobbes (1588 - 1679) هو أول من بحث في إمكان قيام نظم سياسية تقوم على أسس وقواعد راسخة، وتقضي على البلبلة والاضطراب الفكري (فقد عاش وسط الحرب الأهلية بين الملك والبرلمان الإنجليزي)؛ ولهذا قيل عنه إنه أراد أن يكون «إقليدس علم السياسة».

وعلى الرغم من أن «هوبز» لم يهتم كثيراً بفكرة الديمقراطية، فقد ظهرت فكرة «العقد الاجتماعي» - التي أقام المجتمع البشري على أساسها، وكانت هي نفسها فيما بعد أساساً راسخاً للديمقراطية - ومع فكرة العقد الاجتماعي ظهرت مشكلة الحرية السياسية من جديد، فقد اهتم «هوبز» بدراسة هذه المشكلة، حتى إنه خصص لدراستها أكثر من فصل في كتابه الشهير «التنين Leviathan» (انظر على سبيل المثال الفصل الحادي والعشرين من القسم الثاني من هذا الكتاب)، غير أنه عاد إلى الفهم السلبي القديم لمعنى الحرية بأنها السلوك الذي لا تصادفه عقبات، أو أنها الفعل الذي لا يقف أمامه عوائق أو قيود، يقول: «الإنسان الحر هو الإنسان لا تعوقه العوائق عن فعل ما يرغب في فعله»⁽¹⁾.

(1) Thomal Hobbes «Leviathan». P. 110 Every man's Library N.Y.1973.

وربما كانت «حالة الطبيعة» التي وصفها «هوبز» بإسهاب هي تلك الحالة التي يمارس فيها الإنسان هذه الحرية على أوسع نطاق (بهذا المعنى السلبي)، فهو هنا يفعل ما يحلو له دون قيود أو عوائق، فلا قوانين، ولا عادات، ولا عرف، ولا نظام من أي نوع؛ ولهذا كانت الفوضى هي الوضع الطبيعي في نظر «هوبز» والنظام هو الصناعي، ومن هنا أيضًا كان القانون هو بصفة مستمرة «قيّدًا»، حتى ولو كان يصونك ويحميك من الآخرين، ويمنعك من أن ترسف في الأغلال التي هي أشد هولًا من قيود القانون⁽¹⁾.

ملاحظات عن الحرية:

وربما كان علينا أن نسوق عدة ملاحظات عن هذا المعنى السلبي للحرية قبل أن نواصل الحديث:

الملاحظة الأولى: إن ما يقال أحيانًا من أن هناك أنواعًا من هذه الحرية على نحو ما فعل «بنوك P. Pennoch» في كتابه عن «الديمقراطية»⁽²⁾، هو سوء فهم لهذا المعنى، فقد ذهب مثلاً إلى أن هناك ثلاثة أنواع:

(أ) غياب العوائق الفيزيائية التي تعوق الفعل المرغوب.

(ب) غياب التهديدات التي يمكن أن تعوق الإقدام على الفعل.

(ج) القوانين التي تمنع الفعل، أو تفرض عقوبات على من يقوم به... إلخ.

(1) I. Berlin: OP. Cit.,

J. Roland Pennock: «Democratic Political Theory» P. 20 Princeton (2) University Press 1979

فالواقع أن هذه النماذج جميعاً ليست أنواعاً للحرية السلبية وإنما هي بالأحرى «تنويعات» على هذا المعنى نفسه، وهو عدم وجود عوائق، سواء أكانت هذه العوائق فيزيقية مادية، أم نفسية، أم عقوبات يفرضها القانون... إلخ⁽¹⁾.

الملاحظة الثانية: كثيراً ما تفهم الحرية بالمعنى السلبي على أنها تعنى «التحرر من»، أي: التخلص من القيود أو العوائق - ولهذا كانت سلبية، وعندئذ تصبح المشكلة التي تعني بها: أين يمكن أن توضع القيود أو الحدود التي تقيد الفعل البشري؟ وما حدود المنطقة التي يترك فيها الفاعل - شخصاً كان أو جماعة - أو يجب أن يترك فيها لكي يفعل ما يستطيع فعله، أو لكي يكون ما يستطيع أن يكونه دون تدخل أشخاص آخرين؟⁽²⁾. وهو سؤال مهم؛ لهذا سوف يضع «جون ستيوارت مل» كتاباً كاملاً في محاولة للإجابة عنه - على ما سنعرف بعد قليل.

الملاحظة الثالثة: هي أن الحديث هنا ينصب على الفعل البشري في الحدود التي يمكن فيها أن يقوم الإنسان بفعل ما، أي: أن يفعل المرء ما يشاء في حدود قدرات الإنسان إذا لم يصادف الفاعل عائقاً من الآخرين أو من قوانين أو عادات... إلخ، فكان في هذه الحالة حرّاً، أما الفعل الذي يخرج عن هذا النطاق - أعني العجز عن تحقيق هدفه بسبب أن الفعل يفوق طاقة الإنسان - فإنه لا يعني انعدام الحرية (كعجزك عن أن تطير في السماء، أو تعبر النهر بخطوة واحدة... إلخ)، وقد أوضح الفيلسوف الفرنسي «هلفيتوس

(1) Ibid.

(2) I.Berlin: Op. Cit.

Helvetius (1715 - 1777) هذه الملاحظة بقوله: «الإنسان الحر هو الإنسان الذي لا يرسف في الأغلال والقيود، وليس نزيلًا في سجن من السجون، ولا يرعبه - كالعبيد - الخوف من العقاب، لكن عدم تخليقك كالصقر، أو عدم سباحتك كما يفعل الحوت لا يعينان نقصًا في حريتك»⁽¹⁾.

وكان من الطبيعي أن يهتم «جون لوك John Locke» (1632 - 1704) بموضوع «الحرية»، وهو الذي انتصر للشعب في نزاعه مع الملك، ومن ثم حاول أن يضع أسس الليبرالية السياسية التي دعمها «مل» الأب والابن فيما بعد، وأقيمت عليها الديمقراطية في الولايات المتحدة، مما جعل الأمريكيين أنفسهم يصفونه بقوله إنه «فيلسوف أميركا»، وواضع الأساس لفكرها السياسي⁽²⁾.

والواقع أن موضوع الحرية الإنسانية كان الشغل الشاغل لجون لوك، فجميع مؤلفاته الأساسية التي تعرض فكره السياسي تدور حول هذا الموضوع، فكتابه «رسالة التسامح» عام 1689، كتبه دفاعًا عن الحرية الدينية، وكتابه «رسالتان في الحكومة» عام 1690، كتبه دفاعًا عن الحرية السياسية، و«قيمة المال» عام 1691 كتبه دفاعًا عن الحرية الاقتصادية، فكل مؤلف من مؤلفاته عبارة عن دراسة لمبدأ من مبادئ الحرية البشرية⁽³⁾.

(1) Ibid.

(2) د. زكي نجيب محمود «حياة الفكر في العالم الجديد» ص 14 دار الشروق بالقاهرة عام 1982.

(3) Robert A. Goldwin: John Locke in History of Political Philosophy P. 476 ed. Bu leo Strauss.

يلجأ جون لوك إلى فكرة العقد الاجتماعي مثلها فعل هوبز، وهو يعتقد أيضًا أن «الحالة الطبيعية» التي كان يحياها البشر تعبر عن «الحرية التامة»، كما أنها تعبر أيضًا عن وضع المساواة التامة، فالحرية الطبيعية مشتقة من المساواة الطبيعية؛ إذ ليس ثمة ما هو أوضح من أن الكائنات من نفس النوع والرتبة تولد مستمتعة بكل مميزات الطبيعة وبكل قواها؛ ولهذا ينبغي أن تتساوى كل التساوي فيما بينها دون أن يسخر أحدها من الآخر، أو أن يخضع له (رسالتان في الحكومة، فقرة 4 من الرسالة الثانية).

وهكذا يظهر لأول مرة الأساسان للديمقراطية: الحرية والمساواة في دراسة فلسفية متأنية، وهي التي تمت ترجمتها بصورة علمية بعد ذلك في الإعلان الأمريكي للاستقلال - الذي صدر أثناء ثورة المستعمرات الأمريكية في سبيل الحكم الذاتي، والحياة الوطنية، ولقد عبر أصدق تعبير عن روح العصر الجديد، وجاء متفقًا مع ما طالب به جون لوك⁽¹⁾.

جون لوك والديمقراطية:

والواقع أن «جون لوك» أمد مسيرة الديمقراطية بكثير من الأفكار الأساسية التي ظهرت فيما بعد منها:

- 1- إن الناس جميعًا أحرار، وهم سواء في حقوقهم السياسية.
- 2- للإنسان حقوق طبيعية: كحق الحياة، وحق الملكية.. إلخ، وهي ليست منحًا من أحد، وإنما هي خصائص للذات البشرية.

(1) روبرت م. ماكيفر «تكوين الدولة» ص 232 ترجمة د. حسن صعب دار العلم للملايين.

- 3- الناس جميعاً متساوون، فلا مراتب، ولا درجات، ولا فئات بين البشر.
- 4- تقوم السلطة السياسية على أساس التعاقد المبني على التراضي بين طرفي العقد، فلا يستطيع أحد أن ينتزع السلطة ليحكم رغماً عن إرادة المحكومين.
- 5- إن الحكم داخل الجماعة بعد قيامها عن طريق الإجماع يكون للأغلبية - وبذلك يكون «لوك» من أوائل المحدثين القائلين بحكم الأغلبية.
- 6- تقوم الحكومة عند لوك على أساس الفصل بين السلطات، وهو يرى أن السلطة التشريعية -وهي تقوم إلى جانب سن القوانين بوظيفة القضاء أيضاً- هي أعلى بالضرورة من السلطة التنفيذية التي تقوم بتنفيذ ما تسنه السلطة التشريعية من القوانين.

روسو... والديمقراطية:

كان جاك روسو (1712 - 1778) أول من أشار إلى الحرية بمعناها الإيجابي، فقد أخذ فكرة «لوك» القائلة بأن الناس جميعاً، أحرار، فكانت أو عبارة وردت في كتابه الشهير «العقد الاجتماعي»، حيث يقول: «لقد ولد الإنسان حراً، لكننا نراه مكبلاً، بالأغلال في كل مكان...»⁽¹⁾.

وهو يعتقد أن الأغلال التي تكبل الناس في كل مكان تعود إلى الأنظمة السياسية السيئة التي سلبتهم حريتهم الطبيعية التي ولدوا بها، وحولتهم إلى قطع من الأغنام «ولكل قطع راعيه الذي يحرسه ليفترسه»⁽²⁾.

(1) J.J. Rousseau. The Social Contract P. 49 Eng. Trans by Maurice Cranston. Penguin Book

(2) Ibid. P. 51

غير أن «روسو» لم يكتف بفكرة «لوك» القائلة بأن الناس جميعاً أحرار، بل أراد أن يحدد معنى هذه الحرية؛ لأنه لم يكن يقتنع بالمعنى السلبي الذي ساد قرونًا طويلة، والذي يجعل الحرية هي أن يفعل المرء ما يشاء، أو أن يتحرر من كذا من القيود، ولهذا نراه يقول:

«لا تعتمد الحرية على أن يفعل الفرد ما يريد بإرادته الخاصة بقدر ما تعتمد على ألا يخضع لإرادة شخص آخر، وهي تعتمد أكثر على عدم خضوع الآخرين لإرادتي الخاصة، ففي الحرية العامة ليس لأحد الحق في أن يفعل ما تحرمه عليه حرية الآخرين، إن الحرية الحقّة لا تدمر نفسها أبدًا، وهكذا نجد أن الحرية بدون العدالة هي تناقض حقيقي، فلا حرية بغير قوانين، ولا حرية عندما يكون أي شخص فوق القانون... والشعب الحر بطبعه يطيع لكنه لا يخدم، لديه قضاة لكن ليس فيه سادة. وهو لا يطيع شيئًا سوى القوانين. وبفضل قوة القوانين فإنه لا يطيع البشر...»⁽¹⁾. ويقول في مكان آخر: «لا بد لنا أن نضيف أن الإنسان يكتسب من المجتمع المدني الحرية الأخلاقية، وهي وحدها التي تجعل الإنسان سيد نفسه؛ ذلك لأن سلوك الإنسان لو حكمته الشهوة وحدها فهذه هي العبودية، في حين أن الحرية هي طاعة القانون الذي نلزم به أنفسنا...»⁽²⁾.

ونحن هنا نلمح لأول مرة بواكير فكرة «هيجل» الشهيرة في تعريف الحرية بأنها «التحديد الذاتي Self-determination»، وهي الفكرة التي اعتمدت هي نفسها على فكرة «كانط» في «استقلال الإرادة Autonomy»

(1) Ibid., P. 32.

(2) Ibid. P. 40.

التي تشرع لنفسها قانوناً تسير عليه، بحيث تصبح الحرية هي أن يطيع الإنسان نفسه أو إرادته الكلية -فهو عندما يطيع القانون الذي اشترك بطريقة مباشرة في سنه، فإنه في الواقع يطيع نفسه، وعندما يعصي هذا القانون بما يترتب على هذا العصيان من عقاب فإنه يطلب العقاب لنفسه- وهكذا يصبح سلوك الفرد وحرية صورة مصغرة للديمقراطية، أي: أن يحكم المرء بنفسه! وتكون الديمقراطية السياسية أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، وعندئذ فقط يكون حراً.

كانط... والحرية:

لقد كان «كانط» يتفق مع «روسو» في أن الحرية جزء من ماهية الإنسان لا يستطيع أن يتنازل عنها، وإن هو فقدوها فقد معها إنسانيته، فالحق الفطري الوحيد هو الحرية بالمقدار الذي به يمكن أن يتعايش المرء مع حرية الآخرين وفقاً لقانون كلي، وهو حق مكفول للإنسان بما هو إنسان -أي بمقتضى إنسانيته⁽¹⁾.

غير أن «كانط» هو الذي حدد الحرية -بمعناها الإيجابي- تحديداً أكثر دقة من «روسو»، في سياق فلسفته الأخلاقية التي اعتمدت على ثلاث قواعد:

(أ) قاعدة التعميم: أي أن يضع المرء في ذهنه وهو يسلك سلوكاً معيناً إمكان تعميمه ليصبح قانوناً عاماً للناس جميعاً.

(ب) قاعدة الغائية: وهي أن يعامل الإنسانية في شخصه، أو ممثلة في أي

(1) د. عبد الرحمن بدوي «إمانويل كانط، فلسفة القانون والسياسة» ص 32 - وكالة المطبوعات بالكويت - عام 1979.

شخص آخر على أنها غاية في ذاتها وليس مجرد وسيلة لتحقيق غاية -وهذا هو أساس الكرامة الإنسانية.

(ج) قاعدة الحرية: وهي مستخلصة من القاعدتين السابقتين وتقول: «افعل بحيث تجعل إرادتك بمثابة المشرع الذي يسن للناس قانوناً عاماً».

هذه القاعدة الثالثة هي أهم القواعد جميعاً؛ لأنها ستؤدي بنا مباشرة إلى فكرة الحرية، فنحن لا نخضع للقانون إلا لأنه التعبير الضروري عن طبيعتنا باعتبارها موجودات عاقلة؛ لأن القانون لا يصدر عن مثل أو هوى (لأن هذه جزئية كما سيبين هيجل بعد ذلك)، فالقانون كلي؛ ولهذا فهو إملاء للعقل وحده.

وهكذا تصور «كانط» المجتمع المثالي على أنه مجموعة من الأحرار يعد كل منهم غاية في ذاته، أو أنهم خضعوا لمبادئ واحدة. وتبدو كلمات «كانط» صحيحة من صيحات التحرير. ونداء للديمقراطية الحقيقية في أيامنا الحاضرة، فقد استبعد بها العبودية أو الرق عمومًا، والافتقار إلى توقيير الآخرين واحترام كرامتهم واستقلال شخصيتهم؛ لأنها تفر من النظر إلى الفرد على أنه مجرد آلة للدولة، إنها صحيحة تشكل أعظم مثل إنسانية في وقتنا الحاضر⁽¹⁾.

جون ستيوارت مل:

ثم جاء «جون ستيوارت مل J.S. Mill» (1806 - 1873) ووضع كتاباً خاصاً عن الحرية من منظور الليبرالية السياسية، دافع فيه عن حرية الفرد

(1) A.C. Ewing: Ethics. P. 62 (London 1953).

دفاعاً مجيداً - كان من القرن الماضي، ولا يزال حتى الآن أعظم ما كتب عن الحرية من هذا المنظور على الإطلاق، فهو يذهب إلى أن الحكومة أو المجتمع بصفة عامة لا يجوز لها أن تتدخل في حرية الفرد، أو تعترض على تصرفاته ما لم يكن ذلك لمنع الأذى عن الآخرين، يقول: «الغاية الوحيدة التي تسوغ للناس -أفراداً أو جماعات- التدخل في حرية الفعل لأي عضو هي: حماية أنفسهم منه، ومعنى ذلك أن الغرض الوحيد الذي تستخدم فيه السلطة بطريقة مشروعة ضد الفرد هو منعه من الأضرار بالآخرين، أو إيذاء غيره⁽¹⁾.

ويعتقد «مل» أنه قد تكون هناك مبررات قوية للاعتراض أو الاحتجاج على سلوكه، أو مناقشته، أو مجادلته، أو إقناعه أو التوصل إليه... إلخ، لكنها لا تبرر إكراهه، أو إجباره، أو تهديده⁽²⁾، ولا يجوز القول بأن على المجتمع أو الحكومة التدخل في سلوك الفرد لمصلحته هو، أو لأنه لا يعرف مصلحته الخاصة، أو لإجباره على فعل هو في رأينا بحاجة إليه؛ لأن «مل» يرد على ذلك كله بقوله: «إن هذه النظرية تهدف إلى التطبيق على البشر الناضجين، فنحن هنا لا نتحدث عن الأطفال والمراهقين الذين لم يبلغوا سن الرشد -وفق تحديد القانون لهذه السن- بالنسبة للرجال أو النساء، فهؤلاء جميعاً في وضع يحتاجون فيه إلى رعاية الآخرين، ولا بد من حمايتهم من إيذاء أنفسهم بقدر

(1) ترجمنا له بالاشتراك مع الزميل الدكتور ميشيل متياس «أسس الليبرالية السياسية» وهي تشتمل على ترجمة مذهب المنفعة، وكتابه عن الحرية. انظر ص 100 من المخطوطة.

(2) المرجع نفسه، وانظر طبعة ص 73:

ما تحمي الآخرين من أضرارهم الخارجية...»⁽¹⁾ ويعتقد «مل» أننا يمكن أن نخرج من نطاق البحث مجتمعات الأمم المتخلفة، حيث يمكن اعتبار الشعب نفسه في سن القصور. وللأسف الشديد فإننا نجد هذا الداعية العظيم للحرية يوافق على استعباد من يسميهم بالهمج أو البربر - وسوف نعود لمناقشة هذه الفكرة بعد قليل⁽²⁾.

ويحدد «مل» منطقة الحرية البشرية على أنها تشمل:

أولاً: مجال الوعي الذي يطالب بحرية الضمير - بأوسع معنى - لها وحرية الفكر، والشعور، والحرية المطلقة للرأي والعاطفة حول جميع الموضوعات عملية أو نظرية، أو أخلاقية أو لاهوتية.

ثانياً: وذلك يتطلب حرية التذوق والسعي وراء أهدافنا، والحرية في تخطيط حياتنا على نحو يتناسب مع شخصيتنا وطباعنا، وحرية العمل الذي نهواه متحملين ما ينتج عن هذه الحريات من نتائج دون عوائق من رفاقنا في المجتمع، مادام ما نفعله لا يلحق بهم أي أذى، حتى لو ظنوا أن سلوكنا أحمق وفاسد.

ثالثاً: وينتج من حرية الفرد هذه، وداخل الحدود ذاتها حرية اجتماع الأفراد بعضهم ببعض، وحرية الاتحاد والتعاون لتحقيق غرض لا يتضمن إلحاق الأذى بالآخرين، على أننا نفترض، بالطبع، أن يكون الأفراد المجتمعون بالغبين ناضجين، ولهم يضطروهم أحد إلى الاجتماع لا بالإكراه ولا بالغش⁽³⁾.

(1) نفس المرجع في نفس الصفحة.

(2) سبق أن فندنا هذه الفكرة بشيء من التفصيل في كتابنا «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الطغيان السياسي» ص 323 وما بعدها من طبعة مذبولي عام 1997.

(3) J.S. Mill: On Liberty P. 75.

والمجتمع الذي لا توجد فيه هذه الحريات، ولا تحترم في جملتها، لا يمكن في رأي «مل»، أن يكون مجتمعاً حراً مهماً يكن شكل الحكومة، كما أن المجتمع لا يكون حراً حرية كاملة ما لم توجد فيه هذه الحريات على نحو مطلق وبلا تحفظ، والحرية الوحيدة التي تستحق هذا الاسم هي حرية السعي وراء مصالحنا الخاصة، بطرقنا الخاصة، ما دمنا لم نحاول حرمان الآخرين أو منعهم من السعي وراء مصالحهم بطرقهم الخاصة، أو ما لم نحاول عرقلة جهودهم في الوصول إليها، فكل فرد منا هو الحارس الخاص على صحته البدنية أو الذهنية أو الروحية، والبشرية تربح كثيراً إذا ما تركت الأفراد يعيشون حياتهم بحرية، وعلى النحو الذي تبدو لهم في صالحهم، أكثر مما تربح بإكراههم على الحياة على النحو الذي يبدو صالحاً في نظر الآخرين⁽¹⁾.

والواقع أن «مل» كان من أكبر المدافعين عن المذهب الفردي من القرن التاسع عشر -وهو مذهب كان قد حقق في الثامن عشر ثمرات يانعة في الثورتين الأمريكية والفرنسية، وما صدر عنهما من إعلانات- ثم جاء «مل» ليقيم هذا المذهب والليبرالية السياسية بأسرها على أساس المذهب النفعي، وليقول إنه إذا كان هدف السلوك الفاضل تحقيق أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس، فإن هدف الحكومة الصالحة تحقيق السعادة للناس جميعاً، كذلك تحقيق التقدم عن طريق التعليم، وذلك كله لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق الحرية، فالحرية عنده هي أساس السعادة، وأساس التقدم، وأساس الحكم الديمقراطي جميعاً..⁽²⁾، وحرية الفرد مطلقة ما دامت

(1) Ibid. P. 75-76.

(2) د. يحيى الجمل «الحرية والمذاهب السياسية المختلفة» مجلة عالم الفكر، المجلد الأول العدد الرابع يناير 1971.

لا تضر الآخرين: «حرية الاعتقاد مطلقة لا يحدها حد، فلإنسان الفرد أن يعتقد ما يشاء، وله ألا يعتقد في شيء قط، وله أن يعتقد ما تعتقده الجماعة أو غالبيتها، وله أن يخالف الجماعة كلها فيما تعتقده، ولا ضير عليه في ذلك ولا قيد على الإطلاق»⁽¹⁾. وحرية الرأي، والتعبير عن هذا الرأي لا قيد كذلك ولا يجوز للجنس البشري أن يقيد حرية الفرد في التعبير عن رأيه، فيقول: «إذا انعقد إجماع البشر على رأي، وخالفه في هذا الرأي فرد واحد، ما كان حق البشر في إخراس هذا الفرد، بأعظم من حقه في إخراس البشرية إذا تهيأت له القوة التي تمكنه من ذلك، حتى ولو كان الرأي لا قيمة له إلا عند صاحبه...»⁽²⁾.

وهو يعتقد أن هذا الرأي الذي نعبر عنه إما أن يكون صواباً أو خطأ، أو أن يدور بين الخطأ والصواب، فإذا كان الرأي صواباً فإن صالح التقدم البشري يتحقق بالتعبير عن ذلك الرأي، وإذا كان الرأي خطأ فإننا لا نستطيع أن نكشف عن خطئه إلا إذا عبر صاحبه عنه، وتمت مناقشته علانية، وبالتالي رفضه، وذلك خير للمجتمع البشري أيضاً، أما إذا كان الرأي الذي نعبر عنه يدور بين الصواب والخطأ فإن عرضه ومناقشته كفيلاً بالاستفادة من جانب الصواب فيه ورفض جانب الخطأ.

ولا نريد هنا أن نتبع كل ما قيل عن الحرية فهو فوق الحصر، لكننا أردنا -فحسب- أن نقدم نماذج من الجهود التي بذلها المفكرون من جميع

(1) المرجع السابق.

(2) انظر ترجمتنا لنصوص «مل» في «أسس الليبرالية السياسية، المجلد 1 ص 18 من طبعة مدبولي عام 1997.

الأقطار في عصور مختلفة -دون اتفاق تم بينهم- لتحديد إحدى ركائز الديمقراطية، وهي فكرة الحرية بمعناها الإيجابي والسلبي معاً: الإيجابي الذي يعني أن تكون الحرية هي «التحديد الذاتي»، أو التعبير عن ذات المرء بمقدار ما يضع أو يسهم في وضع القانون الذي يسير عليه، وقد يتبناه فيصبح كما لو كان قد وضعه أو أسهم في وضعه، وهكذا تكون حرية الفرد الإيجابية صورة مصغرة من الديمقراطية: أن يحكم المرء نفسه بنفسه فيكون حرّاً. كذلك كانت الحرية بمعناها السلبي تتحدد أكثر حتى أصبحت تعني عند «مل» امتناع السلطات عن التدخل في سلوك الفرد، ما دام لا يؤذي غيره من الناس.

كلمة نقد لـ «مل»:

غير أنني أعتقد أن الشرط الذي وضعه «مل» لإطلاق حرية الفرد -وهو عدم الإضرار بالغير- شرط غامض يحتاج إلى مناقشة وتوضيح، وقد ترتب على هذا الغموض أن أبحاث الديمقراطية في الدول الغربية ألواناً من السلوك اللاأخلاقي -كالجنسية المثلية- وهي ألوان تضر في رأيي ببناء الأسرة بالقوة أو بالفعل، كما أبحاث إمكان تحول الرجل إلى امرأة بناء على رغبته الخاصة؛ وكثيراً ما يكون الهدف هو التهرب من المسؤولية الأسرية... إلخ.

معني ذلك أن مفهوم الحرية كمفهوم الشعب -الذي تحدثنا عنه فيما سبق- كان يتحدد على نحو أكثر دقة مع مسيرة الديمقراطية، وهو تحديد يقوم به المفكرون والفلاسفة ورجال السياسة والحركات الشعبية... إلخ، باختصار تقوم به «التجربة الإنسانية»، وروادها في كل مكان دون اتفاق يتم فيما بينهم.

وفي القرن العشرين اهتم المفكر السياسي بالعلاقة بين الفرد والمجتمع، وكان الاتجاه السائد هو أنها علاقة عضوية مركبة ليس فيها سابق ولا لاحق؛ فالفرد لا يوجد قط إلا في المجتمع، كذلك لا يقوم المجتمع إلا على أساس الأفراد -ولكنه انعكس بعد ذلك على قضية الحرية، فلم تعد الحرية السلبية هي الأساس في الفكر السياسي المعاصر، بل أصبحت الحرية حقيقة إيجابية لا تقتصر على امتناع السلطة عن التدخل في شؤون الفرد -وحتى تقوم الحرية بهذا المعنى لا بد أن تواكبها قضية أخرى هي قضية المساواة، وحتى توجد المساواة لا بد أن يتحقق الأمن الاقتصادي وتكافؤ الفرص الاقتصادية، وأن يتمتع كل فرد بعائد عمله كاملاً، كذلك فإنه في ظل هذه الصورة من صور الحرية لا بد أن تختفي كل المزايا الناتجة عن غير العمل الإنساني، إذ غير ذلك لا تكون هناك مساواة حقيقية، ولا يكون هناك أمن اقتصادي ولا تكون هناك حرية.

كذلك فإن مفهوم الحرية الإيجابية في القرن العشرين، وإن لم يهتم كثيراً بأشكال الحكومات إلا أنه يهتم بقضية جوهرية تسبق الشكل هي أن حكومة الكل لا بد أن تكون تعبيراً أميناً عن إرادة الكل.

إن الدولة التي يجب أن تنتجها إليها هي دولة كل الشعب، لا دولة فرد، ولا دولة فئة، ولا دولة طبقة، إنها دولة من يعيشون في جماعة واحدة، ويسهمون في بنائها، ويشاركون في إنتاجها، ولا بد أن يشاركوا أيضاً في عائد هذا الإنتاج بقدر ما قدموا فيه من عمل. كذلك فإن مفهوم الحرية الإيجابية في القرن العشرين يؤمن بحق الناس فيما يعتقدون، وحقهم في التعبير عما يعتقدون مادام تعبيرهم سليماً. إن حق كل مواطن في أن يقول: «نعم»، وفي أن يقول:

«لا» وهو آمن في كلتا الحالتين -هو حق لا تقوم الحرية إلا به، وحتى يكون لهذا الحق بعد حقيقي مؤثر فإنه لا بد أن يرتبط بالأمن الاقتصادي، ذلك لأن اختفاء الأمن الاقتصادي أو تهديده يسلب الإنسان الإمكانية الحقيقية على قول: «نعم»، أو قول: «لا» عندما يريد أن يقول هذه أو تلك.

كذلك فإن مؤسسات الدولة جميعًا يجب أن تكون تعبيرًا عن إرادة مجموع الناس الذين يكونون تلك الدولة، فالقواعد القانونية التي لا تنبع من ضمير الجماعة -مثلها مثل القيم الغربية التي لم يفرزها ضمير تلك الجماعة- لا جذور لها، ولا أساس. والواقع أن هذا هو موقف الغالبية العظمى من المفكرين السياسيين في القرن العشرين. ولو أننا ألقينا نظرة سريعة على أفكار «جون ديوي» و«هارون لانيسكي» و«برتراند رسل» وغيرهم، لوجدنا أنهم يلتقون -على اختلاف في الدرجة- على الخطوط الأساسية التي أشرنا إليها: فهم جميعًا، وغيرهم، يؤمنون إيمانًا عميقًا بالحرية الإيجابية، تلك الحرية البناءة التي تجعل الإنسان يحقق ذاته، ويعبر عن إمكاناته، ويحكم نفسه بنفسه، ويعيش آمنًا على يومه وغده، آمنًا على رأيه، وعلى رزقه، سواء بسواء⁽¹⁾.

فكرة المساواة:

لا نريد أن نقف طويلًا عند فكرة المساواة؛ فقد عرضنا جانبًا منها عندما تحدثنا عن فكرة «الشعب»، وتحديدًا على مدار التاريخ، لكننا نود فقط أن نسوق كلمة موجزة عنها ما دامت تمثل ركنًا مهمًا من أركان الديمقراطية لا تستقيم بدونه.

(1) د. يحيى الجمل: المرجع السابق.

يمكن أن نقول: إنه على الرغم من أن فكرة «المساواة» فكرة حديثة، إلا أنها جاءت قديماً عند أرسطو وهو يتحدث عن فكرة «العدالة» في الكتاب الثالث من «الأخلاق» إلى «نيقوماخوس Nicomachean Ethies» حيث يذهب إلى أنه «ينبغي ألا يكون هناك تمييز بين الناس المتساوين من جميع الوجوه»، وحذا لو ترجمنا كلمة «المتساوين» هنا بـ «النظر» أو «الأنداد»؛ فهذا هو بالضبط ما يعنيه المعلم الأول، فهو لا يتحدث عن «جميع» الناس، وإنما هو يقصد فقط المواطنين اليونانيين الذكور ممن لهم حق الاشتغال بالسياسة، أو ممن تجاوزوا سن العشرين، فهؤلاء ينبغي ألا نفرق بينهم في المعاملة أو في الحقوق... وهكذا يظل القول بأن المساواة فكرة حديثة قولاً سليماً، فما الذي تعنيه هذه الفكرة؟

والواقع أن «المساواة» في الأمور المادية سهلة ميسورة، فنحن نفهم معنى قولنا إن شيئين متساويين في الحجم أو الوزن أو الكثافة، وقل مثل ذلك لو قلنا إن رجلين متساويين في الطول أو الوزن، فالمساواة تعني هنا أن الطول واحد، أو أن الوزن هو نفسه «في الحالتين» لكن ما إن نتحدث عن المساواة بين الموجودات البشرية حتى تبدأ المشكلات في الظهور.

فما الذي نعنيه على وجه الدقة عندما نقول بأن المساواة هي مثل أعلى الديمقراطية... واضح أن الناس لا يمكن أن يتساووا من الناحية البدنية أو العقلية، فهل المقصود أن يتساووا في ظروف الحياة؟ واضح أن ذلك ليس هو المعنى المقصود، وكثيراً ما يقال بأن المقصود «بالمساواة» أن يتساوى الناس في الفرص المتاحة أمامهم. ويبدو أن مثل هذا التعريف يؤدي إلى «تركيبة» مقبولة مع الحرية، فهو لا يقول بأن الناس ينبغي أن ينالوا نفس المكافأة، بل

أن تتاح أمامهم فرص متساوية ف «توماس جيفرسون Thomes Jefferson» في صياغته لإعلان الاستقلال -الذي صدر في 4 يوليو 1776 - ذهب إلى: «أن الجميع خلقوا متساوين، فالخالق وهبهم حقوقاً فطرية لا يمكن التنازل عنها للغير، وهي تشمل حق الحياة، والحرية، والسعي إلى السعادة... إلخ»، فهو لم يقل بأن لهم «حق السعادة»، بل حق السعي إليها -أي الفرصة للحصول عليها- ومفهوم المساواة بهذا المعنى لا يتعارض مع فكرة الحرية، وإنام يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً⁽¹⁾.

ثالثاً: معنى المساواة.. وأنواعها:

والواقع أن أسوأ فهم للمساواة هو ذلك الذي جعل الناس جميعاً متساوين من «جميع الوجوه» -وهو فهم يظهر للأسف عند بعض المفكرين العرب- وهو أقرب إلى ما يسمى في الفلسفة وضع الناس على سرير «بروكرست Procrustes» - بكل ما في هذه العبارة من تعسف، وتصنع، وافتعال، وقتل للحقيقة.

و «بروكرست» هو قاطع طريق في الميثولوجيا اليونانية اسمه الحقيقي «بوليبيمون Polypimon»، كان يدعو الغرباء لزيارته في بيته ثم يرغمهم على النوم في سريره الوحيد، فإن كانوا أطول قطع الزيادة، وإن كانوا أقصر شدهم حتى الموت -وهو يقضي عليهم في الحاليتين- لولعه الشديد بالمساواة التامة، المساواة من جميع الوجوه! كلا ليست المساواة على هذا النحو الساذج الفج التي تعني التساوي بين الناس، وإنما هي تعني المساواة بينهم من ناحية،

(1) Roland Pennock: Democratic Political Theory P. 35-7.

وبين شيء ثالث من ناحية أخرى هو الفرض، أو القانون... إلخ، ومن ثم ظهرت ألوان كثيرة من المساواة - سوف نتحدث عن بعضها بإيجاز شديد:

1- المساواة أمام القانون... Isonomy:

ويرى بعض المؤرخين أن هذا النوع من المساواة قديم قدم اليونان، حيث كانوا يطبقونه على المواطن اليوناني الحر، ويرى مؤرخو الليبرالية أنه معيار لشرعية الحكومة؛ لأن المساواة أمام القانون تعني ألا نبالي بشخصية من نتعامل معه، ولا بما له من سلطان، ولا بألقابه، أو مناصبه، أو ثروته، أو مقدار ما يملك... إلخ.

فليس ثمة من هو فوق القانون، وتلك هي الديمقراطية الحقيقية، لكن حتى في مثل هذا الحالة فسوف نجد أنه ليست هناك مساواة مطلقة على الدوام، ودون أي اعتبار آخر، ففي النوع الذي نتحدث عنه سنجد أن الموقف يختلف في حالة الأطفال والمجانين؛ إذ يتحتم معاملتهم معاملة تختلف عن الناضجين أو الراشدين وأصحاب العقول السليمة. وقد تختلف النساء - في بعض البلدان - في معاملتهن عن معاملة الرجال. كما يختلف النبلاء عن العامة. ومن ثم فإن أولئك الذين يكافحون من أجل المساواة أمام القانون يحاولون عادة تحديد التمييزات التي تتناسب مع الحق المشروع⁽¹⁾.

2- المساواة السياسية Political Equality:

كانت المساواة أحد الأهداف الرئيسية للثورة الفرنسية، ولقد لخصها «نابليون بونابرت» في عبارة موجزة جداً هي: «الوظيفة المفتوحة أمام الموهبة»،

(1) Scruton. R.A. Dictionary of Political Thought P. 152.

وهي توجد بدرجات متفاوتة تفاوتاً شديداً، وفي بلدان مختلفة، لكنها لا توجد على نحو مطلق في أي مكان، ففي إنجلترا، على سبيل المثال، هناك وظائف معينة يشغلها أصحابها بالوراثة، وليست متاحة أمام كل إنسان.

3- المساواة في الفرص Equal Opportuniy:

ولقد وجدت المساواة في الفرص أول دفاع نظري قوي عنها في جمهورية أفلاطون، حيث أعطى نظام التعليم الذي وضعه الفرص أمام الأطفال لتظهر مواهبهم المختلفة؛ ليلتحقوا بالأوضاع الاجتماعية غير المتساوية⁽¹⁾.

وتشمل المساواة في الديمقراطية إتاحة الفرصة أمام المواطنين في حكم بلدهم بوصفهم موجودات سياسية متساوية، فضلاً عن أنها تشمل جميع ألوان المساواة الأخرى.

غير أن المساواة في الديمقراطية مثلها مثل أي فكرة فلسفية أخرى لم تظهر دفعة واحدة، لكنها كانت تتحدد وتتضح خلال مسيرة الديمقراطية، فعلى الرغم من أن «جون لوك»، مثلاً، كان يقول: «إن البشر يتساوون جميعاً» فإنه كان يقصد الرجال فحسب، فهم وحدهم أطراف العقد الاجتماعي؛ كما ذهب «روسو» -مثلما ذهب أرسطو من قبل- إلى أن النساء غير مؤهلات للاشتراك في العمل الديمقراطي.

ولم تظهر فكرة المساواة بين الجنسين إلا مع «جون ستيوارت مل» في القرن التاسع عشر⁽²⁾.

(1) Encyclopedia of Political Thought P. 130 7.

(2) Ibid.

وهكذا كافحت البشرية طويلاً لكي تحقق شعار الديمقراطية الرائع: «لا تميز بسبب اللون، أو الجنس، أو الدين»، بل ربما كان في استطاعتنا أن نقول بأنه لم يتحقق على نحو كامل في كثير من المجتمعات، حتى تلك التي تدعي لنفسها صفة الديمقراطية - ناهيك عن الدول المتخلفة.



خاتمة

مشكلات حول الديمقراطية

1 الديمقراطية.. والمجتمع المتخلف

المشكلة الأولى التي تثار حول الديمقراطية يلخصها هذا السؤال: أيجوز تطبيق الديمقراطية في جميع المجتمعات بلا تفرقة، أم أنها شكل خاص من أشكال الأنظمة السياسية يحتاج إلى مجتمع «معين»؟ هناك فلاسفة يرفضون إمكان التطبيق «العام»، ويجعلون الديمقراطية «وقفًا» على مجتمعات دون غيرها، فمونتسكيو يعتقد أن الحكومة الديمقراطية المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي، أما الحكومة المستبدة فهي أصلح ما يكون للعالم الإسلامي!⁽¹⁾، وهو قول يكرر، بصورة باهتة، التعصب الأرسطي القديم، مع فارق واحد هو أن تعصب أرسطو كان «عريقًا» يعتمد على التفرقة بين الأجناس، ويجعل الجنس اليوناني أرقى الشعوب، وأصلح للحكم الديمقراطي، في حين أن الهمج أو البرابرة -ومنهم شعوب الشرق القديم- لا يصلح لهم سوى حكم الاستبداد والطغيان؛ لأنهم خلقوا عبيدًا بطبيعتهم، ولا يستطيعون الاستمتاع بالحرية، بل تراهم يسعون في شوق إلى العبودية! ثم جاء «مونتسكيو» ليجعل التعصب هذه المرة

(1) مونتسكيو «روح الشرائع» المجلد الثاني ص 178 ترجمة عادل زعير - دار المعارف بمصر عام 1953.

دينياً، ويعتمد إلى التفرقة بين الشعوب على أساس الدين، فالشعوب المسيحية هي التي تصلح للديمقراطية، أما الشعوب الإسلامية فهي بطبيعتها لا تطبق الحكم الديمقراطي؛ لأنها لا تعرف الحرية ولا تطلبها! والحق أن هذا افتراء لا معنى له؛ فليس في الدين الإسلامي ما يمنع من تطبيق الديمقراطية التي تعتمد على الحرية والعدالة، والمساواة، وغيرها من الأفكار التي تعد الدعوة إليها واضحة صريحة في آيات الكتاب الكريم، فضلاً عن أن الإسلام يدعو المسلمين إلى التشاور، وإلى الحوار والنقاش، واتخاذ القرارات بعد روية، كما أنه يجعل المسؤولية فردية تقع على عاتق الفرد وحده، أي أن كل فرد عليه أن يفكر ويناقش؛ لأنه في النهاية مسئول عن أعماله، فإن احتج «مونتسكيو» -أو غيره ممن يذهبون هذا المذهب- بأن التاريخ الإسلامي كان يحكمه طغاة، أجبننا بأن هذه ظاهرة موجودة في التاريخ المسيحي أيضاً، ثم من ناحية أخرى لا علاقة لها بالمبادئ الأساسية التي يقرها الإسلام كدعامة لنظام الحكم، فإن خرج عنها الحكم كانت مسئوليتهم لأمسؤولية الإسلام.

وهناك رأي «جون ستيوارت مل» الذي يدخل في نطاق القصر ما أسماه بالمجتمعات المتخلفة. ويعتبر الشعب نفسه لم يبلغ سن الرشد، ثم ينتهي للأسف الشديد إلى أن أفضل نظام لمثل هذا الشعب هو استعباده. يقول: «إن نظام الاستبداد مشروع كنمط من أنماط الحكم في حكم الهمج والبرابرة، شريطة أن تكون الغاية المنشودة هي إصلاحهم، والحرية من حيث المبدأ، لا يجوز منحها للدولة قبل أن يتهيأ الناس فيها، وتكون لديهم المقدرة على تحسين أوضاعهم بالمناقشات الحرة على قدم المساواة»⁽¹⁾.

(1) جون ستيوارت مل «أسس الليبرالية السياسية» بالمجلد الأول ص 101 ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ود. ميشيل متياس من طبعة مدبولي 1997.

وهكذا ينتهي «مل» إلى نتيجة في غاية الخطورة؛ لأنها تقدم مبرراً لاستعباد الشعوب المتخلفة، وحجة للاستعمار الذي يرفع شعار إصلاح الشعوب المتخلفة الجاهلة حتى تنمو وتشب عن الطوق، وتصل إلى سن الرشد، عندئذ فقط يمكن أن تحكم نفسها بنفسها، ونطمئن نحن «الأوصياء» على هذه الشعوب أنها لن تؤذي نفسها، كما يفعل الطفل الصغير إذا تركت له الحرية ليمارسها قبل الأوان!

غير أن هذه النتيجة التي ينتهي إليها «مل» هي - كما قلنا - بالغة الخطأ والخطورة في آن معاً؛ وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: ليست الحرية مما يمنع أو يمنح للإنسان حسب ظروفه وأحواله؛ ذلك لأن الحرية هي «ماهية الروح» - كما قال «هيجل» بحق: «فكما أن ماهية المادة هي الثقل، فإننا من ناحية أخرى يمكن أن نؤكد أن ماهية الروح هي الحرية، والناس جميعاً يسلمون بأن الروح تمتلك -ضمن ما تمتلك من خواص- خصيصة الحرية، والفلسفة تعلمنا أن كل صفات الروح لا توجد إلا بواسطة الحرية⁽¹⁾، ومن هنا فإن تنازل الإنسان عن حريته للحاكم، أو لأي شخص آخر، إنما يعني أن يتنازل عن إنسانيته، أي أنه يتنازل عن حقوقه وواجباته كإنسان فيما يرى «روسو»⁽²⁾.

ثانياً: فإذا قيل بأن «مل» يقصد ممارسة الحرية لا الحرية ذاتها، قلنا بأن هذه الممارسة لكي تتم على نحو سليم، فإنها تحتاج إلى دراية ومران وجهد

(1) هيجل «العقل في التاريخ» ص 86 ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام الطبعة الثالثة دار التنوير بيروت عام 1983.

(2) J.J.Rousseau: The Social Contract P. 58 - Penguin Book.

ووقت، صحيح أن الإنسان كثيراً ما يسيء استخدام حريته عن جهل، أو بسبب سيطرة الغريزة، أو الميل مع الهوى... إلخ، لكنه يحتاج إلى تصحيح نفسه، وإلى أن يتعلم من أخطائه، ولهذا قيل إن الديمقراطية التي هي التطبيق العملي للحرية، هي ممارسة بالدرجة الأولى.

ثالثاً: إن عبارة «مل» السابقة التي يقول فيها بأنه: «لا يجوز منح الحرية للدولة قبل أن يتهياً الناس لها... إلخ» تذكرنا في الحال بالمغالطة التي كان ينشرها بعض المستبدين كحجة يبررون بها استبدادهم عندما يقولون بأن الناس يحتاجون إلى فترة انتقال قبل ممارسة الديمقراطية: فترة انتقال يتعلمون فيها أصول الديمقراطية وقواعدها قبل ممارستها؛ وهي مفارقة غريبة تشبه قول القائل: «إن عليك أن تتوقف عن قيادة السيارة حتى تتعلم فن القيادة الصحيح»!!

رابعاً: في ظني أن المستعمر لن يجد حجة لاحتلال الشعوب المتخلفة أقوى من حجة «مل» بأن هذه الشعوب غير قادرة على أن تحكم نفسها بنفسها، وهي «قاصرة» لا تعرف مصلحتها الخاصة، وسوف نقوم نحن بهذا الدور! وهي نغمة سادت الدول الاستعمارية في القرن التاسع عشر!

خامساً: ما يقوله «مل» من أن هذه الشعوب ليس أمامها سوى الخضوع والطاعة لحكام مثل «أكبر» «شارلمان» -لو صادفهم الحظ ووجدوا حكماً مثلهم- يعيد إلى الذاكرة خرافة «المستبد العادل» التي هي أقرب إلى اللغو الفارغ كـ «الدائرة المربعة»، تناقض في الألفاظ^(*) وحتى لو سلمنا جدلاً

(*) هي تناقض؛ لأنه إذا كان مستبداً فهو يسلبني حقاً من حقوقي وهو الحرية، فكيف يكون في هذه الحالة عادلاً؟!

بإمكان وجوده، وبأنه سيقوم بـ «أعمال جليلة» لصالح الناس، فما قيمة كل هذه الأعمال إذا ضاع الإنسان؟

أما ما يقوله «رسل» من أن تطبيق الديمقراطية في مجتمع أمي يكاد يكون مستحيلًا، فهو قول لا بد لنا من التسليم به مع تحفظ واحد، هو أن نسأله بدورنا: إننا نسلم معك بأن التطبيق الكامل للديمقراطية يستحيل في مجتمع جاهل، لكن ما العمل في هذه الحالة؟ وما البديل؟ هل ننتظر إلى أن ينتشر التعليم في جميع أرجاء البلاد؟ وحتى ذلك الحين، ماذا يكون شكل الحكم؟ هل نلجأ إلى الحكم الاستبدادي -وأي حكم غير الديمقراطية فهو حكم استبدادي بمعنى ما من معاني الاستبداد- الذي يقضي في النهاية على الإنسان، ويدمر ملكاته، ويهدر قيمه؟

ومن هو الحاكم المستبد الذي يجد أن من مصلحته نشر التعليم؛ وإدخال النور إلى الشقوق والآفاق الضيقة؟ أم نعود إلى خرافة المستبد العادل؟ ألسنا نجد فيها تناقضًا واضحًا في الألفاظ أشبه ما يكون بـ «الدائرة المربعة»، أو «المربع المستدير»؛ لأن الحاكم إذا كان مستبدًا فلا بد أن يكون ظالمًا، على الأقل لأنه حرمني من حرية الرأي والتعبير، فضلًا عن أنه منعني من أن أمارس حق النقد والنقاش بل حتى محاولة الفهم؛ لأن أبسط معنى للاستبداد أن يسير الفكر في اتجاه واحد من أعلى إلى أسفل من الحاكم إلى أفراد الشعب ليكون أمرًا مستبدًا مفروضًا على الناس، دون أن يرتد مرة أخرى إلى الحاكم ليكون حوارًا بأي معنى شئت لكلمة الحوار.

لا شك أن الاستبداد -بل كل معوقات الديمقراطية- سواء في المجتمعات المتخلفة أو النامية -يقف حجر عثرة في سبيل تطور المجتمع وتقدمه؛ ذلك لأنه بغير الشعور بالمساواة -المعنوية والمادية وبدون ممارسة الحرية

والمشاركة في أنشطة المجتمع يصعب تفجير طاقات المواطن، وتحرير مكنوناته الدفينة التي يسحقها الكبت والحرمان والخوف والتردد والشعور بالإهمال، وبدون التقاليد الديمقراطية يغيب «الرأي العام» عن ممارسة تأثيره الضروري في فرض احترام قيمة الإنسان، والعمل على توفير أسباب تقدمه، بل ويصعب تحقيق السلام الاجتماعي؛ لأن الشعب هو مصدر السلطات، وهو أساس الشرعية، وبدون الشرعية الشعبية تبقى الأنظمة معرضة للاهتزاز والثورة؛ ولهذا كثرت الانقلابات العسكرية بين دول العالم الثالث، ولكن يستحيل أن نجدها في الدول الديمقراطية؛ لأن الجيش هناك ليس هو القوة الوحيدة القادرة على التغيير - كما هو الحال في الدول المتخلفة - وإنما تستطيع الأحزاب السياسية، والفنوات الديمقراطية أن تقوم بالتغيير المطلوب.

وفضلاً عن ذلك، فإن الانفتاح الحضاري والثقافي بين الدول المعاصرة - نتيجة للتحرر السياسي، والثورة في وسائل الإعلام - قد جعل مسألة الابتعاد عن الممارسة الديمقراطية محفوفة بمخاطر الصدام الاجتماعي؛ نتيجة للشعور بالاضطهاد، والابتعاد عن ركب الحضارة، ومن ثم فلا بد لمجتمعات العالم الثالث من بناء طريقها المستقل إلى الديمقراطية، حيث إنه من غير الممكن تقليد المجتمعات الغربية في تركيزها على الشكل والإجراء الديمقراطي على حساب المضمون الاقتصادي والاجتماعي لمدة طويلة من الزمن.

2- طغيان الأغلبية

من المشكلات الأساسية في النظام الديمقراطي الخوف من طغيان الأغلبية، وضياع حقوق الأقلية، والتهديد المستمر لحرية القلة التي لا توافق على رأي الأغلبية. وكان المفكر الفرنسي ألكسيس دي توكفيل

Alexis de Tocqueville (1805 - 1859) - أول من نبه الأذهان إلى طغيان الأغلبية. وذلك في كتابه المهم «الديمقراطية في أمريكا» الذي صدر الجزء الأول منه عام 1835 والثاني عام 1840 - يرى أن من أهم مشكلات المجتمع الديمقراطي التي تشكل تهديداً خطيراً للحرية - هذا الطابع الديكتاتوري والاستبدادي للأغلبية، وللرأي العام الذي ينعكس على حرية الفرد، كما ينعكس على حقوق الطوائف والجماعات والأقليات الصغيرة في المجتمع، هو يعتقد أن الشر الأكبر في المؤسسات الديمقراطية الحالية في الولايات المتحدة لا ينشأ من ضعف هذه المؤسسات، بل من المغالاة في قوتها. ولست أنزعج من الإفراط في الحرية التي تسود هذه البلاد، قدر انزعاجي من عدم كفاية الضمانات الموجودة ضد الطغيان...»⁽¹⁾.

ويستطرد «توكفيل» ليضرب أمثلة لما يقول: «عندما يلحق الأذى بفرد، أو بحزب أقلية، فإلى من يتجه بالشكوى لرفع هذا الأذى؟.. إنه إذا اتجه إلى الرأي العام وجد أن هذا الرأي العام يشكل الأغلبية، وإذا ما اتجه إلى الهيئة التشريعية وجد أنها تمثل الأغلبية، وتطيع أوامرها طاعة تامة، وإذا ما اتجه إلى السلطة التنفيذية وجد أنها معينة من قبل الأغلبية لتكون أداة طيعة في خدمتها. وإذا ما اتجه إلى قوى الأمن العام وجد أنها هي الأغلبية حاملة السلاح، وإذا ما اتجه إلى المحلفين وجد أنهم الأغلبية، وقد منحت حق الفصل في القضايا القانونية، بل إن القضاة أنفسهم تنتخبهم الأغلبية في بعض الولايات، فمهما يكن الشر الذي يصيبك جائراً أو غير معقول، فإن عليك أن تدعن له قدر استطاعتك....»⁽²⁾.

(1) Alexis de Tocqueville: «Democracy in America» By Reeve in:

(2) «Great Political Thinkers» by William Ebenstetin, P. 536 Oxford, 1966.

ولقد تأثر «جون ستيوارت مل» تأثراً قوياً بأفكار «توكفيل»، فواصل بدوره التحذير من خطر طغيان الأغلبية: «فقد أصبحت فكرة طغيان الأغلبية من بين الموضوعات السياسية التي تعني شراً وخطرًا ينبغي على المجتمع أن يحترس منهما....»، ومن ثم «فلا يكفي حماية الفرد من طغيان الحاكم، وإنما ينبغي حمايته أيضًا من طغيان الرأي العام، والشعور السائد، أو حمايته من ميل المجتمع إلى أن يفرض إرادته وأفكاره على الأفراد الذين يرفضونها، كذلك ينبغي حماية الفرد من محاولة إعاقة نموه، ومنع تكوين شخصيته الفردية التي لا تتسجم مع طرائق المجتمع، وإجبار جميع الشخصيات على أن تكيف نفسها مع النموذج الذي يعده المجتمع...»⁽¹⁾.

وفي مصر، شن المفكر الكبير المرحوم الدكتور زكي نجيب محمود حملة عنيفة على «ذلك الإله الزائف الجديد» المسمى بالرأي العام، معلناً أن وجود فرد واحد لا يرى الرأي الذي هو «رأي عام» ينفي عن الرأي العام عموميته، وحتى لو كان من حق الرأي العام أن يضغط بقوته العددية في اتخاذ القرارات، فليس له ذلك الحق نفسه في منع الآراء والأفكار التي لا تعجب جمهور...»⁽²⁾.

وهو يرى أن للفرد حريته الكاملة في عرض الفكرة التي يراها صالحة، ومصلحة لحياة الناس، ولجمهور الناس حق القبول أو الرفض دون أن يتعرض صاحب الفكرة للأذى؛ إذ إن للرأي العام قيمته، لكن ليس له شيء

(1) جون ستيوارت مل «أسس الليبرالية السياسية» المجلد الأول 94.

(2) د. زكي نجيب محمود مقال بعنوان «أهو شرك من نوع جديد؟!» في كتابه «رؤية إسلامية» ص 307 وما بعدها، دار الشروق بالقاهرة عام 1987.

من التقديس الذي يتوهمه البعض، فليس الرأي العام تنزيلاً من التنزيل، بل هو رأي ينتقد، ويتغير إذا ألزمته الظروف المستحدثة أن يتغير؛ إذ لا بد للجديد أن يتسلل ولو خلسة لكي يوضع تحت الامتحان؛ فمن الذي يفتح له الثقوب التي يتسلل منها خلال الجدران المصمتة؟ إنهم أفراد أخلصوا للفكر إخلاصهم لشعبهم الذي هم من أبنائه، وهكذا يصبح الأفراد من الأفراد حملة المشاعر الجديدة، ولا بد أن يسمح لهم بمعارضة رأي الأغلبية، ونقد الرأي العام⁽¹⁾.

والواقع أن هذه المشكلة، مثلها مثل المشكلة القادمة التي سنتحدث عنها بعد قليل، لا علاج لها سوى المزيد من وعي الأفراد بالمعنى الحقيقي للديمقراطية التي تعني -من بين ما تعني- حرية التعبير لكل فرد، فلا بد أن يفهم الأفراد عن وعي كامل أن حرية التعبير ليست وقفاً عليهم وحدهم، وهذا خطأ يقع فيه الكثيرون عندما يظنون أن الديمقراطية لهم وحدهم، وحرية التعبير تعني أن يعبروا هم عن آرائهم فحسب دون أن يتحملوا الرأي الآخر، غير أن المزيد من الممارسة الديمقراطية وانتشار التعليم، والفكر الديمقراطي الحر عن طريق أجهزة الإعلام المختلفة كفيل بعلاج هذه المشكلة.

3- القانون الحديدي للأوليغاركية

المشكلة الأخيرة التي تواجه الديمقراطية هي تلك التي آثاها روبرت مايكلز Robrt Michels (1876 - 1936) فيلسوف الاجتماع الألماني وعالم الاقتصاد الشهير - في قانون صاغه وأطلق عليه اسم «القانون الحديدي

(1) المرجع السابق.

للأوليغاركية»، فهو يرى أن السلطة في أي تنظيم سياسي تميل دائماً إلى السقوط في أيدي مجموعة قليلة من الأفراد، أو أعداد ضئيلة من القادة، بغض النظر عن تكوين التنظيم السياسي، فالسلطة في التنظيم الديمقراطي تميل شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح أكثر تعقيداً، وأشد بيروقراطية، بحيث تصبح متمركزة في أيدي نخبة من قمة التنظيم السياسي (في الحزب وفي الحكومة معاً) وكلما اتسع حجم التنظيمات السياسية، تعقد صنع القرار، وأصبح مشاركة جميع الأعضاء مستحيلة، ولقد طبق «مايكلز» هذا القانون على الحزب الاشتراكي الألماني، فرأى أنه رغم وجود دستور ديمقراطي، وأهداف ثورية، فقد انتهت الأمور إلى مجموعة من القادة المحافظين الذين اختارهم جمهور الأعضاء، وأوكلوا إليهم مسؤولية تنفيذ خطة الحزب، ثم تفلت القيادة من القيود وتعمل باستقلال ذاتي، ويقدم «مايكلز» سببين لذلك.

الأول: أن حجم التنظيمات السياسية وتعقدها يستدعي وجود وظائف متخصصة، مما يجعل من المستحيل على الأعضاء العاديين، أو أفراد الشعب، أو أعضاء أي تنظيم - متابعة ومراقبة «المختصين» الذين يتخذون القرارات الرئيسية في الحزب بمبادرة شخصية منهم.

أما السبب الثاني: فهو أن الناس، فيما يقول «مايكلز» لديهم حاجة سيكولوجية داخلية تدفعهم إلى أن يصبحوا منقادين بواسطة قائد. وهكذا ينظر إلى جماهير الشعب على أنها ذرات غير منظمة، عاجزة عن الفعل الجمعي ما لم تقدها الأقلية النشطة، وهو بذلك لا يصف جماهير الشعب بالفتور واللامبالاة فحسب، بل أيضاً بالميل إلى توقيف القائد القوي!⁽¹⁾

(1) Fountana Dictionary of Modern Thinkers P. 511.

وعلى الرغم من صحة الفكرة العامة التي يقول بها «مايكلز» فإننا لا نستطيع أن نوافق على أن ديمقراطية لا بد أن تنقلب إلى «أوليغاركية» وفقاً لقانونه الحديدي، صحيح أن هناك خطراً دائماً من وقوع الديمقراطية في قبضة هذا القانون - لا سيما أن العادة والمألوف كثيراً ما يجعلان الناس تميل إلى الكسل، وعدم الاهتمام، واللامبالاة... إلخ - لكن التوعية المستمرة من خطر وقوع الديمقراطية في قبضة هذا القانون الرهيب الذي ينسف في النهاية عصب الديمقراطية وهو أن يشارك في حكم نفسه، أو أن يحكم الشعب نفسه بنفسه.

ومهما يكن من شيء فسوف تظل المشكلات التي تظهرها الممارسة الديمقراطية كثيرة، لكن يتوجب علينا مواجهتها، والتصدي لحلها؛ لأن البديل عن الحكم الديمقراطي، هو الاستبداد - أيًا كان نوع هذا الاستبداد - وهو عبارة عن قضاء على إنسانية الإنسان.

فإذا كانت الديانات قد أعطت للإنسان السيادة على بقية المخلوقات؛ لأنه صورة الله - والصورة هنا بالمعنى الأرسطي للكلمة الذي يرادف الماهية أو الجوهر - ففي الإنسان قبس من الله هو العقل أو الروح... إلخ، فإن الديمقراطية - كنظام سياسي - تحافظ على هذه «القيمة» عندما ترفع الإنسان عن مرتبة الجهاد، والنبات، والحيوان وتمكنه من استغلال عقله في وضع قوانين يسير عليها، سواء في سلوكه الفردي «أي الأخلاق»، أو في سلوكه الجماعي «أي النظام السياسي»، في حين تهبط به الأنظمة الاستبدادية المعادية للديمقراطية إلى مرتبة الدواب، وربما أدنى من ذلك.

إن النظام الديمقراطي يستهدف تنمية ملكات الإنسان وقدراته إلى أقصى

حد ممكن، في الوقت الذي تعمل الأنظمة الأخرى (وهي لا بد أن تكون استبدادية بمعنى ما من المعاني) على تدمير هذه الملكات؛ ولهذا يندر جداً أن تجد إبداعاً أو أصالة في المجتمعات التي تحكم حكماً ديكتاتورياً أو تسلطياً يقتل مواهب الفرد، ويهدر إمكاناته، ويدمر ملكاته، بل على العكس، لقد أثبتت الدراسات العلمية بأن المواطن الحر ينتج كمية أكبر، ونوعية أفضل من الإنسان المستعبد. يقول «آدم سميث A. Smith» (1723 - 1790) في كتابه الشهير «ثروة الأمم»: «إن العامل الحر يفضل العبد في الإنتاج؛ لأن القهر يحجب نشاط الإنسان وذكاءه وإبداعه» وعبودية الإنسان فيها يقول «ب. روسي P. Rossi» (1787 - 1848) تعطل مواهبه، وتقيّد إرادته، ولا يقتصر ضررها على ميدان الأخلاق فحسب، بل يتعداه إلى الأضرار بالنظام الاقتصادي أيضاً⁽¹⁾.

ولقد لخص «توماس جيفرسون» فكرة الديمقراطية في عبارة جامعة بقوله: «إن الناس خلقوا متساوين، فقد وهبهم الله حقوقاً فطرية لا يمكن التنازل عنها، وهي تشمل حق الحياة، والحرية في طلب السعادة.. إلخ. ولتأمين هذه الحقوق ظهرت الحكومات بين الناس، واستمدت الحكومة سلطاتها العادلة من موافقة المواطنين. ومن حق الشعب أن يغير هذه الحكومات أو يلغيها إذا تعارضت مع هذه الأهداف، وأن يقيم حكومة جديدة تستند أسسها إلى هذه المبادئ؛ بحيث يرى الأفراد أن الغاية منها هي تأمين أكبر قسط ممكن من أمنهم وسعادتهم»⁽²⁾.

(1) اقتبس د. عبد السلام الترماني في كتابه: «الرق: ماضيه وحاضره» ص 209.

(2) جون ديوي: «آراء توماس جيفرسون الحية» ترجمة محمود يوسف زايد ص 58 - بيروت - دار الثقافة عام 1957.

والواقع أن التنظيم الديمقراطي بدأ يمتد وينتشر، فمنذ ستينيات هذا القرن والحركات السياسية في الدول الغربية تنادي، بقوة، بتطبيق النظام الديمقراطية في مجالات أخرى، وعلى نحو أكثر فعالية؛ بحيث تكون مساهمة العضو أكبر وأشمل وأوضح في اتخاذ القرارات، ومن هذه المجالات: المصانع (ويسمونها بالديمقراطية الصناعية) ومنها أيضاً الجامعات (ويسمونها بالديمقراطية الطلابية)... إلخ، ومعنى ذلك أن المسار الديمقراطي يدعم نفسه أكثر، ويصحح من أخطائه، ويعالج الثغرات على نحو تدريجي كلما تعمقت التجربة الديمقراطية. ويبدو أن تفكك الاتحاد السوفيتي القديم كان إعلاناً للبشر أن الديمقراطية هي نظام الحكم الوحيد الذي يصلح للتنظيم السياسي -على اختلاف أنواع التطبيق- وفقاً لظروف وتراث وثقافة كل بلد.

بقي أن ننهي هذا الحديث بأن نقول إن المعيار الحقيقي لوجود الديمقراطية في مجتمع ما، ليس وجود مجموعة من الأفكار المهمة والمبادئ الديمقراطية في دستور هذا المجتمع، وإنما هو ممارسة الناس الفعلية لهذه الأفكار والمبادئ والحقوق، فالديمقراطية في النهاية ممارسة. وربما كان وجود الوعي السياسي عند المواطنين هو الضمان الأكيد لممارسة الديمقراطية في أي مجتمع، وهو موضوع سوف نتناوله في القسم الثاني الذي جعلنا عنوانه: «الوعي السياسي... التأسيس والإشكال».

القسم الثاني

الوعي السياسي..
(التأسيس والإشكال)

القسم الثاني

الوعي السياسي.. (التأسيس والإشكال)

تمهيد

عندما أراد أستاذنا الراحل زكي نجيب محمود أن يتأمل «الفكر الفلسفي في مصر المعاصرة» وأن يرسم تخطيطاً لمساره في مائة عام تقريباً ذهب إلى أن هناك فريقين حملاً هذه الرسالة الفكرية الجليلة: فريق الهواة، وفريق المحترفين، وكان الأول أسبق من الثاني ظهوراً في الترتيب الزمني، فهو الذي مهد الطريق أمام محترفي الفلسفة ومن هؤلاء الهواة: جمال الدين الأفغاني في «الرد على الدهريين»، ومحمد عبده في شرحه لمفاهيم العقيدة الدينية على أساس عقلي، وطه حسين في إدخال المنهج العقلي في الأدب، والعقاد في دعوته إلى مسؤولية الفرد أمام عقله... إلخ.

وعندما نشأت الجامعات، وظهرت أقسام الفلسفة، ولم يعد الأمر -في رأيه- مقصوراً على أن يصطبغ الفكر بصبغة فلسفية، بل جاوز ذلك إلى البحوث الأكاديمية التي تناولت التراث نشرًا وتحقيقًا وتفسيرًا من ناحية، كما تناولت الفلسفة الغربية قديمها وحديثها من ناحية أخرى.

ولقد أدى ذلك إلى ظهور أنصار للمدارس والمذاهب الفلسفية المختلفة، وكان في مقدمة أنصار المذهب العقلي من زمرة المحترفين الأستاذ يوسف كرم (1886 - 1959) في كتابيه «العقل والوجود»، و«الطبيعة وما بعد الطبيعة» اللذين عارض فيهما المذهب التجريبي الذي يمحصر نفسه في الإدراكات الحسية وحدها ثم جاء الدكتور توفيق الطويل ليكمل المذهب العقلي ويمد نطاقه إلى عالم الأخلاق. فأخذ بالاتجاه «العقلي المعتدل». غير أن هذا الاتجاه العقلي عارضه الدكتور زكي نجيب نفسه في كتبه «المنطق الوضعي» (ط 3 عام 1962) و«ورسل 1956، وديفيد هيوم 1958، وخرافة الميتافيزيقا»، و«نحو فلسفة علمية» 1960 وغيرها، وهي الكتب التي دعا فيها دعوة صريحة إلى أن تشبه الفلسفة بالعلم.

وإلى جانب هذين الاتجاهين، كان هناك اتجاه ثالث هو اتجاه «الفلسفة الوجودية» الذي عبر عنه الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتبه المختلفة «الزمان الوجودي»، و«دراسات في الفلسفة الوجودية» و«هل يمكن قيام أخلاق وجودية؟». و«الوجودية والإنسانية في الفكر العربي» فضلاً عن ترجمته لكتاب سارتر «الوجود والعدم» وإلى هذا الاتجاه أيضاً ينتمي الدكتور زكريا إبراهيم في كتابه «تأملات وجودية» عام 1963، و«الفلسفة الوجودية» عام 1957... إلخ.

وكان هناك أيضاً الاهتمام بالروح الذي مثله الدكتور عثمان أمين والذي أطلق عليه كما نعرف اسم «الجوانية» إشارة إلى التفرقة بين ما هو ظاهر (العرض أو البراني) وما هو باطن (الجوهر أو الجواني). أو بين ما هو كمي وما هو كيفي، وما هو مادي وما هو روحي. وهو اتجاه ظهر أيضاً في

«التصوف» عند فريق لم يقتصر التصوف عنده على الدراسة فحسب، بل أصبح وجهة نظر ينظرون منها إلى الحياة الفكرية كلها، ومنهم الدكتور مصطفى حلمي، والدكتور أبو الوفا التفتازاني... إلخ.

وأخيراً كان البحث في الفلسفة الإسلامية من أهم ما قام به المحترفون من رجال الفلسفة عندنا، وعلى رأسهم الشيخ مصطفى عبد الرزاق، والدكتور إبراهيم بيومي مدكور، والدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة وغيرهم⁽¹⁾.

لكن الملاحظ أن هذه البانوراما الجميلة التي عرض فيها مفكرنا الراحل لمسار الفكر الفلسفي في مصر في المائة سنة الأخيرة، قد خلت تماماً من أي حديث عن الفلسفة السياسية وما بذل فيها من جهود. ولم يكن ذلك بسبب أن هذا الحقل الفلسفي المهم قد سقط سهواً من ذهن الباحث، بل أغفله عامداً؛ فهو نفسه يقول صراحة إنه يستبعد من هذا البحث علوم النفس والاقتصاد والسياسة! دون أن يذكر لذلك سبباً⁽²⁾. وإذا جاز استبعاد علم النفس والاقتصاد لخروجهما من دائرة الفلسفة، فكيف نستبعد الفلسفة السياسية من هذا المسار الفلسفي...؟ لأنها كانت مهمة من الباحثين المحترفين خلال هذه الفترة. أم لأن الحديث عنها يدخلنا في مجالات شائكة، وأرض مخوفة بالمخاطر، على نحو ما كان عليه الحال، عادة، طوال التاريخ عندما كان الخلفاء، والحكام، عموماً، يضطهدون المفكرين السياسيين والفقهاء وكبار الأئمة لما كان لهؤلاء من آراء تمس نظام الحكم في الدولة؟

(1) راجع في ذلك كله د. زكي نجيب محمود «من زاوية فلسفية» دار الشروق - الطبعة الثالثة عام 1982 ص 5 - 40.

(2) المرجع السابق حاشية ص 5.

فنحن نعرف أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور أمر بضرب الإمام مالك سبعين سوطاً بسبب فتواه بعدم صحة بيعه البعض للخلفاء العباسيين؛ لأن المبايعين كانوا مكرهين⁽¹⁾ وأن فقيهاً كبيراً - كان من أكبر الباحثين والمؤلفين المسلمين القدامى في المسائل المتعلقة بنظام الحكم وهو أبو الحسن الماوردي - يضع كتاباً شهيراً هو «الأحكام السلطانية» ويوصي بعدم نشره إلا بعد وفاته⁽²⁾ وهذه النزعة الاستبدادية التي عرفت عن حكم الخلفاء منذ عهد خلافة الأمويين، كانت في مقدمة الأسباب التي أدت بعلماء المسلمين القدامى إلى إهمال البحوث السياسية المتعلقة بنظام الحكم؛ ولهذا بقيت الدراسات المتعلقة بالقانون العام في حالة طفولة بسبب هذا العزوف فيما يرى الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري⁽³⁾.

ومهما يكن السبب وراء إهمال أستاذنا الراحل الدكتور زكي نجيب أمر الدراسات في الفلسفة السياسية، فنحن في الواقع في حاجة ماسة إلى وقفة متأنية عند هذا الحقل الأساسي المهم من حقول الفلسفة لنعرض لغياب الوعي السياسي الذي كان من نتائجه في تراثنا القديم الخلط بين الأخلاق والسياسة، وما زال هذا الخلط قائماً حتى يومنا الراهن.

كما أدى كذلك في فكرنا المعاصر إلى أزمة ثقة بالديمقراطية تجلت

(1) د. عبد الحميد متولي «أزمة الفكر السياسي الإسلامي في العصر الحديث: مظاهرها - أسبابها - علاجها» الهيئة المصرية العامة للكتاب - طبعة ثالثة ص 49.

(2) المرجع نفسه ص 50.

(3) د. عبد الرزاق السنهوري «فقه الخلافة وتطورها: لتصبح عصبة أمم شرقية» ترجمة د. نادية عبد الرزاق السنهوري ومراجعة د. توفيق الشهاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1898 ص 63، 64.

واضحة في عدم إيمان البعض منا بهذا النظام، والقول عند البعض الآخر بأننا غير قادرين على تطبيق النظام الديمقراطي، في يومنا الراهن على الأقل بسبب تفشي الأمية بين المواطنين، ومن ثم فإن علينا أن نرجئ الحديث عن الديمقراطية، في رأيهم حتى ينتشر التعليم ويصبح الشعب متعلماً أو مثقفاً! لكن ما الذي نعنيه بالوعي السياسي؟ علينا أن نعرض أولاً لما نسماه بالوعي الذاتي، وأن نبين أهميته.

الوعي.. والوعي الذاتي

ربما كان أرسطو هو أول من نبه إلى وجود الوعي عند الحيوان. غير أن هيجل هو الذي أشار إلى أنه وعي ذو بعد واحد فحسب، وأنه يسير في طريق واحد دون أن يرتد إلى نفسه، فليس في استطاعة الحيوان أن يجاوز مرحلة الوعي الذي يعني هنا الإدراك الحسي، بصفة عامة، أعني أنه يستخدم حواسه في إدراك العالم من حوله: فالقط يرى طعامه ويقبل عليه، والكلب يرى صاحبه ويجري نحوه مرحباً... إلخ. والحيوان بصفة عام يري ما يوجد أمامه من موضوعات، فهو يشرب الماء، ويلعق اللبن، ويتشمم رائحة صاحبه، ويسمع الأصوات، ويستشعر الخطر... إلخ، باختصار يستخدم حواسه في إدراك الأشياء الجزئية التي تزخر بها البيئة من حوله، لكنه يقف عند هذا الحد؛ أي الإحساس بجزئيات العالم دون أن يكون في استطاعته التعبير عما يدركه من جزئيات؛ لأن وعيه لا يستطيع أن يرتد إلى نفسه فيدرك ذاته، أو يكون تصوراً كلياً.

ومن هنا، فقد كان أفلاطون على حق عندما ذهب في رده على السوفسطائيين إلى القول بأن الإحساس بما هو كذلك لا يؤدي إلى معرفة؛

لأن المعرفة تصورية، والتصورات لا تدرك بالحواس، وإنما هي عمل من أعمال العقل حين يقارن، ويقابل، ويصنف ما تأتي به الحواس.

إننا لا نستطيع أن نعرف عن شيء ما إلا التصورات التي تنطبق عليه، وما نقوله عن شيء ما هو أن كذا وكذا من التصورات تنطبق عليه؛ لأن ما نقوله ليس سوى كلمة، وكل كلمة عبارة عن تصور، والتصور ليس شيئاً جزئياً وإنما هو فئة عامة أو كلي Universal، وذلك يحتاج إلى انعكاس الوعي على ذاته.

ولما كان الحيوان يقف عند حدود الجزئي؛ فهو لا يستطيع التعبير عن إحساساته، كما قلنا، ذلك لأن التعبير لا يتم إلا في إطار اللغة، واللغة بطبيعتها كلية، وهي المستودع الرئيسي للفكر، على حد تعبير هيجل، ولما كنا في مجال الإحساس وحده، الإحساس بما هو كذلك، فإننا لا نستطيع أن نخرج إلى عالم التعبير اللغوي. باختصار. هذا الإحساس - كما قلنا - ليس معرفة. وهكذا يلتقي هيجل مع أفلاطون، كما يلتقي أيضاً مع أرسطو في قوله «إن العلم (يعني المعرفة) علم بالكلي»، ومع كانط الذي ذهب إلى أن الإحساسات ليست سوى خليط أعمى مشوش وهي بذاتها لا تشكل معرفة. باختصار، يلتقي الفلاسفة العظام مع «عمود الفلسفة» كله الذي يجعل المعرفة تصورية... Conceptual.

الحيوان لا يستطيع إذن أن يواصل السير في طريق المعرفة، بل نراه يقف عند عتبة الوعي، ويكتفي بإدراك الأشياء الجزئية، من حوله باستخدام حواسه. أما الإنسان فإن وعيه يستمر في سيره ليدرك لا فقط موضوعات العالم من حوله، بل يدرك كذلك هذا الوعي نفسه. فيصل إلى ما نسميه بـ «الوعي الذاتي» فأنا أتناول طعامي، وأشرب الماء، وأتشمم الروائح المختلفة، وأستمع إلى أصوات متنوعة... إلخ؛ أعني أنني أستخدم كل حاسة في مجالها

الطبيعي، وإلى هذا الحد أقف مع الحيوان على صعيد واحد. لكني، خلافاً للحيوان، أستطيع أن أرتد إلى نفسي، وأدرك هذه العمليات، وأنا أمارسها؛ ولهذا فعندما أقول أنا أشرب، أنا أتكلم، أنا أرى... إلخ.. فأنا أعبر بهذه العبارة البسيطة عن عملية مزدوجة هي أنني أقوم بتناول الماء، وهذا شيء أول (أو الوعي البسيط) ثم أدرك أنني أتناول الماء، وهذا شيء ثان (أو وعي ذاتي) وكذلك أقوم بتناول الطعام وأدرك عملية التناول في الوقت نفسه، والشرط الأول في هذه العملية المزدوجة، التي ينعكس فيها الوعي على نفسه، هو ما أطلقنا عليه اسم «الوعي» أو «الإدراك» وهو ما يقف عنده الحيوان. أما الشاطر الثاني فهو وعي لهذا الإدراك، أو وعي لهذا الوعي الأول؛ إنه إدراكي لذاتي وأنا أفعل الفعل، فهو إذن «وعي ذاتي».

ويمكن أن نلخص هذه العملية: في قدرتي أن أقول: «أنا»، فهذا التعبير البسيط يحوي في جوفه هذه العملية المزدوجة ذلك لأن قولي: «أنا»، يعني أنني أستطعت إدراك ذاتي، وأنني قمت بتمييزها من غيرها من الأشياء والموجودات؛ ولهذا كان هذا القول مستحيلاً على الحيوان الذي يقوم بشرط واحد فقط من هذه العملية؛ ذلك لأن الوعي الحيواني ذو بعد واحد فقط، فهو يسير في خط مستقيم دون أن يكون في قدرته أن يرتد إلى ذاته ليدركها، يقول هيجل في هذا المعنى: «إن الحيوان لا يستطيع أن يقول (أنا)، أما الإنسان فهو وحده الذي يستطيع أن يقول ذلك. وما ذلك إلا لأن من طبيعته أنه يفكر..»⁽¹⁾.

(1) هيجل «موسوعة العلوم الفلسفية» ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام - الطبعة الثانية - مكتبة مدبولي بالقاهرة ص 103.

فالتفكير انعكاس Reflection ومن هنا كان التفكير الانعكاسي أي ارتداد الذات إلى نفسها سمة أساسية من سمات النشاط البشري.

- فأنا قادر على التفكير في ذاتي، وفي مشاعري مثلاً وذلك يجعلني قادراً على الابتعاد عنها حتى إنني أستطيع أن أجرد ذاتي أو «أناي» من حالاتي الجسدية والنفسية لأصبح وعياً ذاتياً Self-Consciousness.

- عن طريق التفكير في رغباتي، فإنني أستطيع أن أفصل نفسي عن بعضها، أو أن أستبعد أموراً غير مرغوب فيها، وأصدر قرارات عقلية، أكثر من أن تكون مجرد استجابة لدافع مباشر.

- من حيث الخصائص، يتضمن التفكير الانعكاسي أبعد من الموضوع الذي يفكر فيه المرء، بل ويتجاوزه بالمعنى البسيط الذي يجعلني انتقل من رغبة إلى أخرى، بل إنني أنسحب، وأنعكس (مثل الضوء) على نفسي، وأرى موقفني عندئذ من منظور أعلى وأفضل.

ويعتقد هيجل أن أساس ذلك يوضع في مرحلة الطفولة عندما تحبب رغبات الطفل أو تكبت حتى إنه يضطر إلى الارتداد إلى ذاته والتفكير فيها فضلاً عن أن الفكر الانعكاسي مرحلة لا مندوحة عنها في كل ثقافة، فهو أساس كل نقد وكل تقدم على نحو ما سنعرفه بعد قليل.. على أنه ينبغي ألا نظن أن الوعي الذاتي يكشف عن نفسه منذ البداية، وعلى نحو مباشر أو صريح تماماً، إنه كأي إمكانية للكائن الحي ينمو ويتطور، ولو أنه كان موجوداً منذ البداية لامتنع النمو تماماً، إذ ما الذي سينمو، وما الذي سيظهر عندئذ؟! «فالوعي الذاتي (في البداية) لا يكون قد تطور تطوراً كاملاً بعد، لكنه لا يزال في هذه المرحلة نصفه وعي ذاتي، ونصفه وعي أصلي (أو

طبيعي)»⁽¹⁾. أو نصفه إنسان ونصفه حيوان! ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ أننا أثناء عملية التطور لا ندرك المرحلة التي نحن فيها إلا بعد أن نتجاوزها، فالطفل لا يعرف أنه طفل، ولا يفهم خصائص الطفولة اللهم إلا إذا أصبح رجلاً، عندئذ فقط يستطيع أن يفهم ما المقصود بـ «الطفل» بعد أن يكون قد تجاوز مرحلة الطفولة، أي بعد سلب هذه المرحلة، فالمعرفة أيًا كانت تتضمن سلبًا.

معني ذلك أن «الوعي الذاتي» يتطور، فهو لا يوجد مباشرة منذ البداية. ولكنه يظهر في مجرى الوعي وينمو إلى أن يصل إلى حقيقته كاملة، كما ينمو الطفل ليكشف عن إمكاناته، وتكون المراحل الأخيرة باستمرار أكثر حقيقة من المراحل الأولى لأنها تكشف - كما ذكرنا - عن الإمكانيات الحقيقية الكامنة بطريقة خفية في هذه المرحلة. فالشاب أكثر حقيقة من الطفل، والرجل أكثر حقيقة من المراهق.. وهكذا كلما سرنا في درجات السلم كانت الدرجة التالية تعبر عن حقيقة الدرجة السابقة لها، وهكذا إلى أن نصل إلى الحقيقة النهائية.

لكن لما كان «الوعي الذاتي» تطوراً، فإنه يحتاج إلى جهد للوصول، إليه فلا يمكن أن يصل إليه الإنسان لمجرد أنه إنسان، بل قد يقف عند مرحلة الحيوانية ويكتفي بها! صحيح أن لديه «إمكانية» الوصول إلى مرحلة «الوعي الذاتي»، غير أن ذلك يحتاج إلى جهد شاق حتى تتحقق هذه الإمكانية، بما لها من نتائج خطيرة في الحياة؛ ولهذا السبب نجد أن كثيراً من

(1) ولتر ستيس «فلسفة هيجل» ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1996 ص 472.

الناس يكتفي بالوقوف عند مرحلة الوعي ذي البعد الواحد التي هي سمة أساسية للحيوان، فلا يحاولون إدراك أنفسهم، أو الارتداد إلى ذواتهم؛ أعني الوصول إلى مرحلة «الوعي الذاتي»..!

أهمية الوعي الذاتي

لا نريد أن نستطرد طويلاً في شرح أهمية «الوعي الذاتي» للإنسان، أو في خطورته على حياته، بل يكفي أن نقول إنه سمة أساسية تتميز بها الذات البشرية بما لها من قدرة على إدراك ذاتها، وهي التي تشكل ماهية الإنسان وتجعله يفترق عن الحيوان من ناحية، وعن موجودات الطبيعة من ناحية أخرى.

وإذا صح وكان «الوعي الذاتي» يشكل ماهية الإنسان يفقدها إذا ما غاب، وتوجد بوجوده، فإن ذلك يعني أنه جوهري في كل ميدان يعمل فيه السلوك البشري الأصيل: فلا أخلاق بلا وعي ذاتي، ولا تدين بلا وعي ذاتي، ولا علم بدون وعي ذاتي، ولا سياسة بدون وعي ذاتي... إلخ. لكن ذلك يحتاج إلى كلمة سريعة.

الوعي الذاتي.. والتقدم

لا شك أن قانون التقدم نفسه هو العودة إلى الذات، فإذا كانت المجتمعات البدائية قد بدأت تقدمها من خارجها عندما لم يكن وعيها الذاتي قد نضج بعد؛ فإن تقدم هذه المجتمعات رهن بالانتقال إلى داخل الذات، فنقطة البدء كانت مؤثرات خارجية تفرض نفسها على الفرد والمجتمع. كما يحدث عندما

تقتلع الريح كوخ الإنسان البدائي، أو تظهر الفيضانات فجأة فتغمر المياه الزرع والضرع... إلخ، فإن التقدم الحقيقي لا يحدث إلا عندما يتم تمثيل هذه المؤثرات الخارجية وهضمها بحيث تتحول إلى جزء من كيان الإنسان فلا تدفعنا كوارث الطبيعة إلى تفسير ظواهرها فحسب، بل نريد من داخلنا أن نفهم ما يحدث حولنا، فقانون التقدم هو العودة إلى الذات، هو الارتداد إلى الذات، أو هو باختصار شديد أن يكون لدينا وعي ذاتي فلا تقدم بدونه.

وعلىنا الآن أن نتناول مجموعة من الأمثلة التي توضح هذه الفكرة بحيث تشمل هذه الأمثلة مناحي الحياة المختلفة: ميدان المعرفة بصفة عامة وميدان الأخلاق ومجال الدين ومجال العلم ومجال السياسة.. إلخ.

أولاً: المعرفة.. بصفة عامة؛

لا يتحقق التقدم ولا يكون المجتمع متقدماً حقاً إذا ما كان في قدرته شراء منتجات العلم من أجهزة متطورة كالسيارة والطيارة والفيديو والتليفزيون والثلاجة والكمبيوتر... إلخ، بل إن وجود هذه المنتجات سوف يكون مظهرًا سطحيًا خارجيًا للتقدم؛ ذلك لأن التقدم الحقيقي يعني أن يكون لديك -داخل الذات- معرفة بـ «الفكر» العلمي الذي أنتج هذه الأجهزة والأدوات المختلفة؛ أعني أن يكون هذا الفكر جزءاً من الذات، ولا يتحقق التقدم إلا إذا تمثلنا هذه الأفكار الخارجية وهضمناها بحيث تتحول إلى جزء من كياننا، ويصبح التفكير العلمي هو تفكيرنا، والسلوك العلمي هو سلوكنا أو على الأقل هو سلوك الغالبية العظمى، منا، بغض النظر عن بعض المعارف السيئة هنا وهناك. وحين نستطيع أن نستخلص عوامل نهضتنا وتقدمنا من داخلنا، فلا نعود بحاجة إلى أن نستمدّها من مصدر غريب عنا، إنه بلغة

هيجل عندما يتحول البراني إلى جواني ويرتد الوعي إلى نفسه فيصبح وعياً ذاتياً - عندئذ تكون قد وضعنا قدمنا على أول طريق التقدم الحقيقي...

ويتحدث «هيجل» عن غياب الوعي الذاتي عند الصينيين القدماء مما أدى إلى التخلف في كثير من المجالات ومنها العلم بالمعني الواسع للكلمة أي المعرفة - ويظهر نقص الاستغلال الذاتي (أو غياب الوعي الذاتي) في ميدان العلم عندما نقول إن الإمبراطور - كما هو الحال في جميع الأنشطة الأخرى - يتربع على قمة الآداب. وهناك مجلس لتحرير أوامر الإمبراطور بأفضل أسلوب، وهناك أكاديمية للعلوم يمتحن الإمبراطور بنفسه أعضاءها وهم يعيشون في القصر الإمبراطوري. وعلى الرغم من أن ذلك يعني أن العلوم تلقي التشجيع والتقدير فإنه كان ينقصها الأساس الحر للذاتية فهي تفتقر إلى الوعي الذاتي الذي يجعل منها عملاً نظرياً، فأنت لا تجد هنا مجالاً للمملكة الفكر الحر. ومن هنا لم يكن لدى الصينيين اهتمام حقيقي بالعلم! وينتهي «هيجل» من ذلك إلى أن يقول: «كان الصينيون متخلفين جداً في الرياضيات والفيزياء، وعلم الفلك. صحيح أنهم عرفوا أشياء كثيرة، لكنهم لم يتقدموا خطوة واحدة في سبيل استخدام هذه المكتشفات»⁽¹⁾، فكل شيء لا بد أن يركز على الوعي الذاتي، وأن ينبع من الداخل، من أعماق الذات، لا من توجيهات الرئيس حتى ولو كان الإمبراطور! فهذه التوجيهات أو الأوامر، هي في نظر «هيجل» عقبة كبرى أمام تقدم العلوم وتطورها، فلا مجال هنا للمملكة الروحية الفكرية الحرة. فما نطلق عليه اسم علم هنا ليس سوى

(1) هيجل محاضرات في فلسفة التاريخ الجزء الثاني «العالم الشرقي» ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام ومراجعة د. محمود حمدي زقزوق ص 88 - دار التنوير بيروت.

معارف تستمر في منفعة الدولة وكذلك حاجات ومتطلبات الأفراد بحيث تباعد عن العلم الذي ينبع من الجانب الباطني للإنسان، أو قل الذي يركز على الوعي الذاتي والاستقلال الذاتي.

ثانياً: الوعي الذاتي.. والأخلاق:

إذا كانت الفضائل الأخلاقية لا يوصف بها إلا السلوك الإنساني، فلا يجوز أن يقال عن سلوك الحيوان إنه فاضل أو رذل، خير أو شرير... إلخ⁽¹⁾ فإن ذلك يعني أن الأخلاق تتطلب وجود شخصية إنسانية مستقلة حرة الإرادة. والشرط الأول لظهور هذه الشخصية هو وجود «الوعي الذاتي» لديها، فإذا غاب فلن تكون الأخلاق في هذه الحالة سوى ضروب من السلوك قد يتفق ظاهرياً مع الأخلاق، أعني ألواناً من الأفعال الأخلاقية الشكلية الخارجية التي تتفق مع الفضائل، لكنها تقوم أساساً على الخوف من العقاب، وهو في الأعم الأغلب، عقاب خارجي أيضاً. فسوف يكون المبدأ الذي يحول دون ارتكاب الفعل الرذل أو اللاأخلاقي هو الخوف من هذا العقاب فحسب، وليس «الوعي الذاتي» بمبادئ الأخلاق أو الشعور بالإثم، أو تأنيب الضمير، أو الإحساس بهبوطه في درجة الوجود... إلخ. والخطورة في مثل هذا الموقف هي أنه ما إن يطمئن الفاعل إلى أنه سوف يفلت من العقاب، حتى يقدم على ارتكاب الخطأ، فمن يمتنع عن السرقة خوفاً من عقاب القانون. لن يجد حرجاً أو غضاضة في أن يسرق متى اطمأن إلى أنه في مأمن أن تطوله يد القانون؛ تماماً كمن يحطم قانون المرور متى اطمأن لغياب الشرطي الذي يراقب ويضبط ويسجل أمثال هذه المخالفات!

(1) راجع مقال «أخلاق الحيوان حقيقة أم خرافة؟» بالتفصيل في كتابنا «فلسفة الأخلاق» - دار الثقافة والتوزيع عام 1991 ص 19 - 43.

إن السلوك الأخلاقي الحقيقي لا بد أن يقوم على التأسيس الداخلي للواجبات الأخلاقية. ولا يكون سلوكاً أخلاقياً ذلك الذي ينبع من الخوف من «الهرافات»، التي ستكون أشبه بالعصا التي نرفعها في وجه الكلب؛ لكي نخيفه.

فمن مظاهر التخلف أن يفرض السلوك الأخلاقي السليم على الذات من خارجها عن طريق المجتمع وما فيه من عادات وتقاليد وعرف.... إلخ. ويرى «هيجل» أن تلك هي سمة رئيسية للمجتمع الشرقي بصفة عامة، فالأخلاق عند الصينيين (في الإمبراطورية القديمة لـر تكن تنبع من داخلهم، ولا يزال الأمر كذلك عند الشرقيين عموماً) أعني أن شعورهم بالواجب وإحساسهم بضرورة الالتزام بالسلوك الأخلاقي مسألة تأتي من الخارج لا من الداخل ولذلك لـر يكن العقاب عندهم داخلياً، بل خارجياً، أعني أنك لا تجد عندهم تأنيباً للضمير، أو إحساساً بالذنب، أو شعوراً بارتكاب الإثم، فلا الفعل الأخلاقي داخلي ولا عقوبته داخلية. وإنما الفعل الأخلاقي خارجي مفروض على الذات من الخارج، من عادات المجتمع وتقاليده، وخوف الفرد من العقاب، وبالتالي فإن العقاب لا بد أن يكون خارجياً أيضاً؛ أعني بدنياً، يبدأ من قص الشعر، والضرب بالعصا، إلى الكي بالنار، أو تمزيق الجسد، إلى الشنق في حالة الجرائم الكبرى، فلو أن ابناً اشتكى أباه لظلم وقع عليه، أو اشتكى أخ أصغر من أخ أكبر، كان جزاؤه مائة ضربة بالعصا، والنفي ثلاث سنوات إن كان معه الحق في شكواه، أما إذا لـر يكن معه الحق في شكواه فإنه يشنق! ولو أن ابناً رفع يده على والده يحكم عليه بأن يمزق جسده، بكماشة محماة في النار⁽¹⁾.

(1) هيجل محاضرات في فلسفة التاريخ الجزء الثاني «العالم الشرقي» ترجمة د. إمام=

ويقول «هيجل» في عبارة جامعة تكاد تصدق على المواطنين في المجتمع الشرقي حتى يومنا الراهن:

«ليس ضمير موظفي الحكومة أو شرفهم هو الذي يدفعهم إلى تأدية واجباتهم، لكنهم يؤدون واجباتهم بسبب قرارات خارجية تدعمها عقوبات صارمة...».

ومن هنا كان انتشار العقوبات البدنية في أي مجتمع دليلاً لا يخطئ على تخلفه، وربما كانت كارثة أكبر إذا لم ينظر هذا المجتمع إلى هذه العقوبات على أنها مخلة بالكرامة؛ أعني إذا لم يكن الإحساس بالكرامة قد تطور بعد. فماذا نقول إذا عرفنا أن من مفكرينا السياسيين من يطالب الحاكم بتأديب الرعايا وإخضاعهم عنوة، ولا يمانع في استخدام العقوبة البدنية كما هي الحال بالنسبة للأطفال -لأن الرعايا قصر أيضاً- مادام التأنيب يستهدف الإصلاح؟ ولقد سبق أن أشرنا إلى أن ذلك كان يحدث بالفعل فقد ضرب الإمام مالك - كما ضرب غيره- سبعين سوطاً بسبب فتواه -فما بالك بأمر الرعية؟! ورحم الله كائناً الذي ألح في معاملة الإنسان كغاية في ذاته، لا وسيلة لتحقيق أغراض الآخرين!!

ومعنى ذلك أن السلوك الأخلاقي إذا كان يفرض علينا من الخارج في بداية الأمر على شكل النواهي والأوامر الاجتماعية المختلفة فلا بد لنا أن نصل إلى مرحلة من التقدم تتحول فيها هذه الأوامر والنواهي الخارجية إلى شعور بتأنيب الضمير ونواه داخلية باطنية - وتلك هي مرحلة الأخلاق المعتمدة على الوعي الذاتي.

ثالثاً: الوعي الذاتي.. والدين؛

لا شك أن ميدان الدين هو ميدان «الوعي الذاتي» على الأصالة؛ لأن الدين هو العمق الداخلي للروح في ذاتها؛ ولذلك كان التدين الحق يحتاج إلى وعي ذاتي واضح. فالإيمان لا يكون ممكنًا إلا حين يكون الفرد قد أصبح في ذاته ولذاته؛ أعني أن يكون في استطاعته أن يوجد مستقلاً عن كل سلطة قهرية خارجية فلا تدين أصيل ينتج من قهر أو سلطة ضاغطة. صحيح أن تكوين جماعات منظمة تجبر الناس على الفضائل أو ممارسة الشعائر الدينية، كمنع البيع والشراء، مثلاً في مواقيت الصلاة، أو إغلاق المحال التجارية عند سماع المؤذن ينادي للصلاة، أو معاقبة من يجرؤ على الإفطار جهراً... إلخ -أقول إن ذلك كله قد يؤدي إلى تأدية طقوس، وإقامة شعائر دينية معينة، أو التظاهر بسلوك ألوان مختلفة يتطلبها التدين... إلخ- لكن ذلك كله ليس تدينًا حقيقياً، إنه تدين زائف، تدين الخائف من العقاب، عقاب المجتمع أو السلطة أو الرأي العام؛ لأنه لا ينبع من الشخصية المستقلة المتكاملة التي تتجه إلى الله بوعي من ذاتها فتصوم رمضان في مجتمع لا يصوم بسبب عاداته وديانته وليس مسaire للقطيع!⁽¹⁾

إن غياب «الوعي الذاتي» عند الفرد يجعله بعيداً عن كل ما يتعلق بالروح، تماماً مثلما يكون بعيداً عن الأخلاقيات الحرة - كما سبق أن قدمنا- وعن

(1) ومن هنا جاءت عبارة فولتير الشهيرة «احترس من الرجل الذي وضع إلهه في السماء!» وماذا يعني ذلك؟ يعني أنه ينبغي على الإنسان أن يضع إلهه في داخل ذاته، في صميم قلبه ووجدانه وليس بعيداً عنه، ليكون سلوكه الديني نابعاً من ذاته، أعني أن يركز تدينه على وعي ذاتي لا على خوف خارجي!

الوجدان، وعن الجانب الباطني للدين والعلم الجديرين حقًا بهذا الاسم. وقل الشيء نفسه عنه في ميدان السياسة الذي يحتاج إلى وعي سياسي بشكل ظاهر.

بل إننا نستطيع أن نقول: إن الخرافة تنشأ بسبب الافتقار إلى هذا الاستقلال الذاتي، الذي يفترض مقدماً العكس المعتاد تماماً لحرية الروح. وفضلاً عن ذلك، فإن هذا النقص للوعي الذاتي الذي يبرز الشخصية المستقلة، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاهتمام بالشكليات وتقديسها، والابتعاد عن الجوهر الحقيقي للدين وتفنيد، ومن هنا كان الحديث الشريف الذي يعرف الإيمان بأنه «ما وقر في القلب وصدقه العمل» ولا يمكن أن يستقر قلب المرء إلا بما يعيه هو نفسه، وإلا لكان أمراً محفوظاً في الذهن، وليس شعوراً يستقر في القلب. ومن هنا، فقد ذهب بعض الفلاسفة إلى القول بأن «الوعي الصوفي» هو الذي يشكل جوهر الدين⁽¹⁾.

وربما كان هذا هو السبب في ظهور المفارقة الغريبة التي تقول عن الغربيين إنهم غير متدينين مع أنهم يكتبون عن الدين بعمق نافذ، وتقول عن الشرقيين إنهم متدينون مع أنهم يكتبون عن الدين والتدين بسطحية بالغة!⁽²⁾.

رابعاً: الوعي الذاتي.. والعلم؛

لا يقصد هنا ما سبق أن ذكرناه من أن «المعرفة» تحتاج إلى وعي ذاتي بسبب

(1) قارن مثلاً ما يقوله ولتر ستيس من أن جوهر الدين ليس هو «الأخلاق» وإنما هو «الوعي الصوفي» فلا تدين بدون هذا الوعي، في كتابه «التصوف.. والفلسفة» ترجمة د. إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولي القاهرة عام 1999.

(2) قارن المرجع السابق ص 6.

أنها تصورية، «فالعلم علم بالكلي» كما قال أرسطو قديماً، لكننا نقصد أن الوعي الذاتي هو الأساس للذاتية هو نفسه الأساس الأول للاهتمام الحقيقي بالعلم، فهو الذي يجعل من البحث العلمي عملاً نظرياً، بحيث يكرس المرء نفسه للعلم، ولمملكة الروح الفكرية الحرة، بغض النظر عما تؤدي إليه من تحقيق أهداف عملية: كالحصول على منصب أو وظيفة أو درجة أو حتى جوائز أو شهرة... إلخ، حيث لا يوجد في تحقيق هذه الأهداف أي اهتمام علمي أصيل ولا عناية حقيقية نحو العلم، وإنما هو دليل على أن الفرد لم يبلغ بعد من النضج المرحلة التي تمكنه من الوعي الذاتي، إن الاهتمام العلمي الحقيقي الذي يجعل من البحث عملاً نظرياً ينهض دليلاً على انتصار القيمة الداخلية للإنسان.

والواقع أن أهمية «الوعي الذاتي» بالنسبة لحقل الدراسات العلمية لا تكمن فقط في تكريس المرء نفسه للعلم ولمملكة الروح وابتعاده عن الأهداف المادية العملية، بل إن «الوعي الذاتي» ليقضي تماماً على ظاهرة تعانيها وهي ظاهرة انفصام الشخصية الشائعة في بلادنا حتى بين المفكرين والعلماء، التي تعني أنهم لم يتطوروا تطوراً كافياً ليصلوا إلى مرحلة الوعي بذواتهم⁽¹⁾.

خامساً: الوعي السياسي:

مع الوعي السياسي نكون قد وصلنا إلى «مربط الفرس» - كما يقولون-

(1) طالع أمثلة لانفصام الشخصية عند المفكرين والعلماء في بلادنا مقال «كلكم يبكي» فمن سرق المصحف؟ في كتابنا «أفكار.. ومواقف» - مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1996 ص 17 وما بعدها.

في بحثنا هذا؛ ذلك لأن الوعي الذاتي لا يتجلى على الأصالة إلا مع «الوعي السياسي» من ناحية، كما أن النظم السياسية قد تطمسه من ناحية أخرى، وعلى القارئ أن يضع في ذهنه الملاحظات الآتية:

1- إذا كان الوعي الذاتي، كما سبق أن رأينا، هو الذي يميز الإنسان عن الحيوان، فهو أيضًا الذي يشكل ماهية الحرية الإنسانية، فإذا كانت الحرية الحقيقية تعني ألا ترتبط الذات البشرية إلا بنفسها فقط، فإن ارتداد الذات إلى نفسها، وارتباطها بذاتها يعني أنها حرة. فإذا أصبح الوعي الإنساني ذا بعد واحد، بحيث لم يرتد إلى نفسه، استحال أن نقول عن الإنسان في هذه الحالة إنه حر؛ لأن الحرية هي التحديد الذاتي، وهي الارتباط الذاتي بحيث لا أطيع سوى نفسي.

2- إذا كان الوعي الذاتي هو ارتباط الذات بنفسها أو تحديدها لذاتها، وتلك هي الحرية الحقيقية التي تعني التحديد الذاتي، تعني أيضًا الاستقلال الذاتي Autonomy كما ذكر كانط من قبل. وتلك هي الشخصية الإنسانية الحقيقية. الشخصية المتكاملة التي يمكن أن تكون متدينة حقًا، وأن تمارس الفضائل الأخلاقية المختلفة، وتعرف حقوقها السياسية الأساسية وتحرص عليها.

3- إذا فقد الإنسان طرفًا من طرفي الوعي الذاتي، فأصبح وعيًا ذا بعد واحد فحسب، فإنه يهبط إلى مرتبة الدواب لا يفكر، بل يفكر له الآخرون، ولا يكون حرًا، ولا يدرك أنه ليس حرًا، وتلك هي الطامة الكبرى في هذه الحالة. ولقد حدث ذلك مرارًا طوال التاريخ؛ حدث في العصور الوسطى المسيحية عندما سرقت الكنيسة الكاثوليكية

هذا الوعي، وتركت للإنسان الوعي الحيواني الفطري ذا البعد الواحد، فلم يعد في استطاعته أن يقول: «أنا» لأن الذات لم تعد تنعكس على نفسها؛ ولهذا فلم يكن في استطاعته أن يفكر، فقامت الكنيسة بهذا الدور المهم نيابة عنه، فكانت هي التي تفكر له، وعندما بدأ يتحرر في عصر النهضة الأوروبية، جاء التعبير عن استرداد هذا الوعي المفقود وعودة الوعي الذاتي إلى الإنسان - على لسان ديكارت الذي عد أعظم إنجاز قام به عندما استطاع أن يقول: «أنا»: أنا أفكر، وأنا أشك، وأنا أرغب، وأنا أريد... إلخ، وهو ما عبر عنه الأديب الفرنسي كورني على لسان ميديا Medea بطلة مسرحيته الشهيرة في حوارها مع نفسها عندما قالت:

«الوطن ينبذك، والزوج خائن...»

فما الذي بقي لك في هذه المحنة السوداء...؟».

وأجابت:

«بقيت لي نفسي وحدها، وفيها الكفاية!»

4- وحدث في نهاية تاريخنا أيضًا أن فقدنا الوعي الذاتي -ولا نزال- عندما سرقت نظم الحكم في بلادنا هذا الوعي، فمنعته من أن يرتد إلى ذاته ليصبح وعيًا ذاتيًا، وتركت للمواطن ذلك الوعي الحيواني ذا البعد الواحد، بحيث لم يعد في استطاعته أن يقول: «أنا»: أنا الذي أحكم، وأنا الذي أضع القوانين، وأنا الذي أضنع القرار السياسي. ليست هناك هذه «الفردية» القادرة على أن تقول: «أنا»؛ لأن الحاكم قد عجنهم جميعًا في كتلة واحدة لا تمايز فيها ولا تفرد. بل أصبح «التفرد» والتفوه

بكلمة «أنا» خطيئة تستوجب التعوذ، فيردفها صاحبها في الحال بعبارة: «أعوذ بالله من كلمة أنا!» مع أن ازدهار الحرية السياسية لا يكون إلا عندما يشعر المواطن بذاته على أنه فرد أو شخص له وعيه الذاتي الذي يترتب عليه حقوق أساسية ليست للحيوان. أما سرقة هذا الوعي، فهي تعني تدمير الإنسان، وتخطيط قيمه، والهبوط به إلى مستوى الدواب، وتحويل الشعب إلى جماجم، وهياكل عظمية تسير في الشارع منزوعة النخاع، شخصيات تافهة تطحنها مشاعر الدونية والعجز واللا جدوى كما قلنا في مكان آخر!⁽¹⁾

5- الوعي السياسي الذي يقوم أساساً على «الوعي الذاتي» وعي المواطن بحقوقه الأساسية: حقه في الحياة، وفي الملكية، وفي التفكير، وفي الحرية، وفي التعبير عن آرائه وأفكاره، حقه في أن يعامل كغاية في ذاتها، وليس كوسيلة لتحقيق مآرب الآخرين حتى ولو كانوا الحكام - حقه في الكرامة والاحترام... إلخ⁽²⁾ هذا الوعي السياسي لا يزدهر إلا في نظام سياسي جيد.

6- النظام السياسي الجيد هو إذن الأساس في نمو الوعي الذاتي، وازدهار الوعي السياسي ولن يتحقق ذلك إلا بالتطبيق الدقيق للديمقراطية -لا مجرد التمسح بها (وإن كان ذلك هو في حد ذاته اعترافاً ضمناً بأنها نظام الأمثل الذي وصلت إليه البشرية) - أو كتابتها بخط عريض

(1) راجع كتابنا «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1997م - صراع من الطبقة الثالثة.

(2) فهي الحقوق التي نصت عليها الأمم المتحدة في «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» الصادر في 10 ديسمبر عام 1948 في ثلاثين مادة، وسوف نعود إليها فيما بعد.

في الدستور كما تفعل، تقريباً، جميع الأنظمة العربية! الحل هو أن تتحول الديمقراطية إلى سلوك في حياة المواطن، فيحترم حقوق غيره بقدر ما يتمسك بحقوقه ويحافظ عليها ولا يفرط في شيء منها، والنظام السياسي الجيد هو الذي يترتب عليه النظام الاقتصادي الجيد، وليس العكس، النظام الذي يرضيه الناس جميعاً؛ لأنهم يحكمون أنفسهم، ويوجهون اقتصادهم الوجهة التي يرضونها.

7- النظام السياسي الجيد الذي ينمو فيه الوعي الذاتي ويزدهر الوعي السياسي، هو الذي يستمتع فيه المواطنون بحقوقهم الأساسية ويمارسون حريتهم كاملة غير منقوصة والمجتمع الذي لا توجد فيه الحريات ولا تحترم الحقوق، ولا يحكم المواطنون أنفسهم، ولا تكون الأمة مصدر السلطات... إلخ، لا يمكن أن يكون مجتمعاً حراً مهما يكن شكل الحكومة.

8- النظام السياسي الجيد هو الذي يفرز، على نحو طبيعي، الأخلاق الجيدة، بحيث يؤدي فيه المواطنون واجباتهم، فيقومون بأعمالهم ووظائفهم بالتزام ينبع من الداخل لا من الخارج، من صميم الشخصية الإنسانية المتكاملة!

9- ليس ما ينقصنا هو الأخلاق كما يظن البعض، ولا العودة إلى الله كما يتوهم البعض الآخر، بل إن ما ينقصنا حقاً هو الشخصية الإنسانية المتكاملة التي نألفها فيها «الوعي الذاتي»، فنالت كل حقوقها وشعرت بكرامتها وقيمتها الإنسانية. فإذا كان الحكم الاستبدادي يعجن المواطنين جميعاً بحيث يصبح الفرد مدججاً مع غيره في كتلة واحدة

لا تمايزيها، كما هي الحال في قطع الغنم، فكيف يمكن أن تكون للأغنام أخلاق؟! وكيف يمكن أن نتوهم أن تعود إلى الله أو أن يظهر المتدين الحق، لا الزائف، ولا المدعي؟! كلا! ليس للحيوان أخلاق، ولا يمكن أن ننتظر منه تدينًا..! وهكذا نصل إلى نتيجة بالغة الأهمية هي أن الأخلاق نتيجة مترتبة على النظام السياسي وليس العكس!

10- وفضلاً عن ذلك، فإن الدين يتلون بلون النظام السياسي، ونحن نعرف كيف حفر بعض رجال الدين ونقبوا -إبان حكم الملك فاروق- حتى استخرجوا شجرة عائلته الموقرة ونسبوه، في النهاية، إلى الرسول الكريم! بل أعجب العجب أن يكون هذا النسب عن طريق أمه الملكة نازلي التي كان رجل الشارع يعلم أنها تكاد تقترب من البغايا؛ لكثرة ما لها من عشاق -ذلك في التاريخ القريب. أما التاريخ البعيد، فسوف يجد القارئ أمثلة لا حصر لها في مكان آخر⁽¹⁾.

(1) طالع الباب الثالث «الطاغية يرتدي عباءة الدين» في كتابنا «الطاغية» - مكتبة مدبولي الطبعة الثالثة ص 189 وما بعدها.

إشكالات الوعي السياسي

الإشكال الأول: أزمة تطبيق الديمقراطية

إذا كانت الديمقراطية هي النظام الذي يسمح بنمو «الوعي الذاتي» إلى أقصى مداه بحيث يظهر أثره واضحاً في ميدان الأخلاق، والدين، والعلم، كما يسمح بتطور «الوعي السياسي» الذي يجعل المواطن على وعي بحقوقه الأساسية - هذه الديمقراطية يتشكك البعض في تطبيقها في مجتمعاتنا ويذهبون إلى أن «الديمقراطية لا تحل مشكلات العالم الثالث»⁽¹⁾ وربما كان السبب المشترك عند معظم معارضي الديمقراطية هو أننا مجتمع تتفشى فيه الأمية والجهل، ومن ثم فلا بد من «فترة انتقال» وانتظار حتى يتهيأ الناس لممارسة هذا النظام. لكنني أود أن أسوق الملاحظات الآتية:

أولاً: لا بد من الاعتراف بأن الديمقراطية في مثل هذا المجتمع سوف تتعثر وتقع في كثير من الأخطاء، وسوف يعاني الناس معاناة شديدة تطبيق مثل هذا الحكم الذي لم يألفوه، لكن لا مندوحة لنا من المرور بهذه التجربة، ثم إن الديمقراطية - في جوهرها - ممارسة، وليست مجرد مجموعة من الأفكار

(1) راجع دراسة بهذا العنوان مترجمة عن «نيويورك تايمز»، جريدة القبس الكويتية عدد 8095 بتاريخ 4/1/1996.

النظرية التي يمكن أن تحفظ عن ظهر قلب. الديمقراطية ممارسة مثلها في ذلك مثل قيادة السيارة، وتعلم السباحة... إلخ^(*)، لا بد من النزول في الماء، ومواجهة التيار، ومصارعة الأمواج، والوقوع في الخطأ مرة مرة.. إلى أن نتعلم كيف نسبح ثم كيف نجيد السباحة.

ولا بد أن نذكر هنا مثلاً توضيحياً مهماً لما نقول، فقد كتب الأستاذ أحمد بهاء الدين ذات مرة يعيب على ما حدث في نقابة المحامين من هرج ومرج وخروج عن اللياقة وآداب المناقشة أثناء انتخابات النقابة -وأردف ذلك بسؤال ساخر: «هؤلاء هم الذين يطالبون بتطبيق الديمقراطية على مستوى الدولة، وليس في استطاعتهم تطبيقها في نقاباتهم؟!» لكنه نسي للأسف أن الديمقراطية ممارسة وليست مجرد أفكار وثقافة، وأن هؤلاء حرم عليهم نظام الحكم، القائم وقتذاك، ممارسة الديمقراطية لأكثر من ربع قرن. ومن ثم فإن عليهم أن يبدؤوا من الصفر، ومن هنا تأتي خطورة «فترة الانتقال» التي تتردد أحياناً.

وإذا كانت قمة الديمقراطية في العالم هي الموجودة الآن في إنجلترا، فإن الأمر لم يكن وليد المصادفة، ولم يظهر فجأة، بل جاء نتيجة معاناة شديدة، وعلى مدى قرون طويلة. فقد بدأت المحاولات منذ القرن الثالث عشر، وظلت التجربة تتعثر، وتصلح من نفسها، ثم تعود فتتنكب الطريق، وتكبو ثم تقف على قدميها من جديد - إلى أن وصلت إلى صورتها الحالية.

(*) وهذا يفسر لنا ما حدث في انتخابات مجلس الشعب هذا العام (2005) من بلطجة وإسالة دماء، والسبب الواضح هو أن الناس لم يعتادوا ممارسة الديمقراطية منذ أكثر من خمسين عاماً!

ثانيًا: ثم لماذا لا نسأل أنفسنا -بصد التعليم والتعلم- هل كان شعب أثينا متعلمًا، وهو الشعب الذي بدأت منه الديمقراطية رحلتها الطويلة...؟! يقول جومبرز: «لقد كان الرجل اليوناني يفضل أن يتعلم سماعًا على أن يأخذ العلم عن طريق الكتب؛ ولهذا فقد أخذ الشاعر في فترة الازدهار «يختفي ليحل محله السوفسطائي (الفيلسوف السياسي) الذي كان يرتدي في كل مكان العباءة الأرجوانية التي كان يرتديها الشاعر، ويحضر الأعياد العظيمة نفسها، ويلقي خطابًا مبتكرة، ومواعظ بدلًا من القصائد القديمة التي كانت تصور البطولة»⁽¹⁾. ومعنى ذلك أن السوفسطائيين قاموا بدور تنويري مهم، ومعنى ذلك أنه كانت هناك يقظة سياسية مهمة بدلًا من التعليم هي التي مكنت شعب أثينا من ممارسة الحكم الديمقراطي.

ثالثًا: ونفس السؤال لا بد أن نطرحه بالنسبة لشعب الماچنا كارتا Magna Carta (العهد الأعظم) عام 1215 الذي ثار في وجه الملك جون وانتزع منه هذه الوثيقة العظيمة. ثم هل كان ثوار باريس عام 1789 شعبًا متعلمًا...؟ لقد وصفهم «سارتر» في كتابه «نقد العقل الجدلي» بأنهم كانوا مجموعة من الأصفار أو نقاطًا من الضعف والخوف والرعب، انقلبت فجأة إلى قوة عارمة وتيار مدمر اكتسح أمامه كل شيء: أطاح بالملك، ونظامه وبالنبلاء ورجال الدين... إلخ، فهل كان شعب باريس في ذلك الوقت شعبًا متعلمًا أو مثقفًا بالقدر الذي يريده المعارضون ويشترطونه لتطبيق الديمقراطية؟ كلا ولهذا قيل يومها: إن الإحساس بالظلم (بمعنى يقظة الوعي السياسي)، وليس الظلم هو الذي أدى إلى الثورة!

(1) T. Gomperz: «The Greek Thinkers: A Study of Ancient Philosophy» Eng Trans by Lourie Magnus, London 1949, Vol. I, P. 412.

رابعًا: ما المطلوب إذن لتطبيق الديمقراطية؟ الأمر الجوهرى فى رأينا هو الوعى السياسى وهو غائب عندنا حتى بين المتعلمين، وهذا هو السبب فى أننا يمكن أن نتخلى عما حققناه من مكاسب بسهولة شديدة على نحو ما حدث فى بداية الثورة المصرية التى لم تجد أدنى صعوبة فى تحويل دفعة الحكم من النظام النيابى الدستورى (رغم ما فيه من ثغرات) إلى نظام ديكتاتورى عسكري يضع البلاد فى معتقل كبير!

إن تربية الوعى السياسى وتنميته مهمة تقع على عاتق المثقفين المستنيرين الذين ينبغى عليهم القيام بدور تنويرى خطير فيما يشبه ما قام به المفكرون والفلاسفة التنويريون فى أوروبا فى القرن الثامن عشر، فمهدوا بذلك لقيام الثورة الفرنسية وما نحن فى أمس الحاجة إليه هو هذا الوعى السياسى الذى يحقق توحيداً بين ماهية الإنسان وحرية بحيث يفقد وجوده فى الحال إذا فقد حريته⁽¹⁾.

خامسًا: سؤال أخير نوجهه إلى من يثيرون الإشكال السابق فى وجه تطبيق الديمقراطية فى بلادها -هو: إذا كانت الديمقراطية الليبرالية لا تصلح لنا بسبب ظروفنا الخاصة... إلخ، فما البديل الذى ترونه صالحاً ومناسباً لنا فى فترة الانتقال المزعومة؟ أهو النظام الاستبدادى الذى يطمس معالم الشخصية الإنسانية، حتى يتمكن من قيادة الناس بالعصا.. أم هو التطبيق الحرفى لكلمة «السياسة» العربية التى تعنى «ساس، يسوس»؟! أعنى أن يكون الحاكم سائساً للخيال يقوم بترويضنا؛ لأننا أقرب إلى الحيوانات منا إلى البشر! أستم بذلك تلتقون على صعيد واحد

(1) راجع ذلك كله فى كتابنا «الطاغية» ص 37 - 39.

مع مونتسكيو (وغيره من المفكرين) الذي ذهب إلى أن الديمقراطية لا تصلح للعالم الإسلامي، وإنما أنسب النظم لحكم هذا العالم هو النظام الاستبدادي؟!

فإن قيل إن البديل هو «نظام الشورى»، قلنا إنه ليس هناك نظام بهذا الاسم، بل هناك آيتان كريمتان تحثان الناس على ممارسة الديمقراطية! فإن كان المقصود هو النظم السياسية التي ظهرت طوال التاريخ الإسلامي! قلنا إنها كانت أسوأ النظم استبداداً وأشدّها عنفاً وطغياناً⁽¹⁾.

فإن قيل إن ما نقصده وما نريده، هو «المستبد العادل» أو «المستبد المستنير»، قلنا إنه من ناحية «مصطلح غربي» ظهر في الفكر السياسي الأوروبي في القرن التاسع عشر، فضلاً عن أن المصطلح من ناحية أخرى تناقض في الألفاظ؛ لأن الاستبداد بأي معنى تريد نوع من «الظلم»، فيكف يمكن للظالم أن يكون عادلاً؟! أو أن يكون مستنيراً...؟ ومن ناحية ثالثة، فإن من يصل إلى أفكار يرى أنها في صالح المجتمع عليه أن يطرحها للنقاش، ومهما كانت صالحة، فإن ذلك لا يبرر إكراه الآخرين على الأخذ بها إن هم أصرّوا على رفضها! بل إن الإيمان نفسه لا يجوز فرضه على الناس وإجبارهم عليه ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

(1) من كان في شك من ذلك؛ فليطالع كتابنا «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» لا سيما الباب الثالث «الطاغية يرتدي عبادة الدين» ص 189 وما بعدها (مكتبة نوبوك طبعة ٢٠١٧).

الإشكال الثاني: الوعي بحقوق الإنسان

أولاً: حقوق الإنسان عبر التاريخ:

1- تطور المفهوم:

لا بد أن نقول منذ البداية: إن مفهوم «حقوق الإنسان Human Rights» لم ير النور إلا في العصور الحديثة، فقد بدأ يطل برأسه في القرن السابع عشر (عصر العقل)، ثم ظهر بوضوح في القرن الثامن عشر (عصر التنوير)⁽¹⁾، ودعمته الثورة الفرنسية (وبعدها الثورة الأمريكية وحرب تحرير العبيد) عندما نادى ميرابو خطيب الثورة بـ «إلغاء الرق»؛ لأنه يتعارض مع مبادئ الثورة... إلخ، كما سبق أن أشرنا ونحن نستعرض مفهوم الشعب عبر التاريخ، فمن الصعب، إذن، أن نتخيل مفهوم «حقوق الإنسان» في الفلسفات القديمة، إذ لم يظهر «مفهوم الإنسان» نفسه قبل أن يكون له حقوق؛ ولنأخذ المعلم الأول على سبيل المثال -وهو القمة التي وصلت إليها الفلسفة اليونانية- لنساءل: أكان أرسطو يعني بتعريفه للإنسان أنه موجود عاقل أو حيوان ناطق... إلخ. أكان يعنى الموجودات البشرية حقاً؟!

(1) يرى بعض المؤرخين أن أول من لفت النظر إليها هو الراهب الفرنسي جان جرسون (1363 - 1429) في القرن الخامس عشر عندما هاجم الفكر الأسكولاني ووصفه بأنه أجوف ممل، ثم تطورت هذه الإشارة في القرن السابع عشر في أعمال هوجو جروشيوس (1583 - 1645) فيلسوف القانون الهولندي الملقب بأبي القانون الدولي الحديث، والذي كتب بعد فراره من السجن إلى فرنسا كتابه الرئيسي وعنوانه «قوانين الحرب والسلام»، ودافع بشدة عن نظرية القانون الطبيعي، ثم جاء بعد ذلك جون سلدن John Selden (1584 - 1654) ثم توماس هوبز (1588 - 1679)... إلخ - راجع: The Blackwell Encyclopedia of Political Thought, P. 222.

والجواب بالقطع: كلا! بل كان يعني «الرجل الأثيني الحر!» ذلك لأنك إذا سألته: هل هذا التعريف ينطبق على العبيد أو الرقيق؟ لكان الجواب: لا! لأن العبيد هم مجموعة من الآلات أو الأدوات كالمحراث أو الثور والفأس... إلخ. تستخدمها الأسرة في أعمال الزراعة والأعمال الشاقة الأخرى! ولو أنك عدت تسأله: أينطبق هذا التعريف على أفراد البشر في أمم الشرق (وكان يسميهم البرابرة كما كان يسمي غير اليونانيين عمومًا بهذه التسمية) لأجاب بالنفي أيضًا؛ لأنهم عبيد بالفطرة! ولو عدت تسأله: أينطبق على المرأة الأثينية الحرة (وهي ليست من الإماء!) لأجابك بالنفي أيضًا: ذلك لأن المرأة عمومًا ليست موجودًا عاقلًا حتى ولو كانت أثينية وحرّة: «فالتبيعة التي لا تفعل شيئًا باطلًا» لا تنتج الإناث إلا عندما تنحرف، فالأصل أن تنتج الذكور فحسب، وعلى ذلك فالنساء «ناقصات عقل»، فكيف يمكن أن نقول إنهن «موجودات عاقلات» دع عنك أن نطالب لهن بحقوق الموجود العاقل (أعني حقوق الذكر الحر)؟!¹

فعل الرغم من أن الكلمة اليونانية التي يستخدمها أرسطو طوال حياته لتدل على الإنسان من حيث طبيعته ووظيفته هي Anthropos وهي كلمة يونانية تعني الموجود البشري، فإنه سرعان ما يتضح لنا أن قلة ضئيلة جدًا من نوع من واحد من الجنس البشري هي التي يعينها أرسطو بهذا اللفظ وهي الرجل اليوناني الحر⁽¹⁾.

وفضلاً عن ذلك فقد كان أرسطو يؤمن بـ «مبدأ اللامساواة» فهناك -في

(1) د. إمام عبد الفتاح إمام «أرسطو.. والمرأة» سلسلة «الفيلسوف.. والمرأة» رقم 2 مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1996 ص 34، 35.

رأيه- هيراركية (أي تصاعدية) بين الشعوب -أي هناك داخل الجنس البشري نفسه، فمنها ما هو أعلى (كالإغريق) ومنها ما هو أدنى (كالبرابرة) الذين هم غير اليونانيين بصفة عامة؛ ولهذا فإننا نجد أرسطو يكتب إلى الإسكندر الأكبر عندما غزا الشرق رسالة ينصحه فيها أن يفرق في معاملته بين اليونانيين والبرابرة: «عامل اليونانيين بوصفك قائداً لهم، وعامل البرابرة بوصفك سيّداً عليهم؛ لأن البرابرة يخضعون بالطبيعة للإغريق»⁽¹⁾.

2- فكرتان أساسيتان:

وفي النهاية لا بد أن نتذكر دائماً فكرتين أساسيتين:

الأولى: أن مبدأ المساواة عند أرسطو (أو مبدأ الأعلى والأدنى) ليس من اختراع البشر، وإنما هو مبدأ طبيعي، وهنا تكمن خطورته؛ لأنه في هذه الحالة ليس ثمة أدنى أمل في تغييره أو التخلي عنه؛ ولذلك فإن من يتحدث عن مساواة بين البشر -دع عنك أن يكون للإنسان حقوق- هو شخص وأهم يحاول أن يعادي الطبيعة مثله كمثل من يجاهد؛ لكي يجعل الحديد ينكمش بالحرارة أو الماء يغلي بالبرودة!

الثانية: إن كل حضارة من حضارات العصر القديم أو الوسيط وافقت على نظام الرق وأقرت العمل به، فلا يمين أن يقال إنها نادت أو حتى عرفت شيئاً عن حقوق الإنسان، أو وافقت عليها مهما يكن من أمر التشابهات السطحية بين ما تقوله من عبارات ومبدأ المساواة بين البشر أو الدعوة لتحريرهم جميعاً؛ فالاعتراف بنظام الرق هو اعتراف صريح بمبدأ اللا

(1) The Politics of Aristotles: Eng. Trans by E. Barker, Oxford, 1968, P. 386.

مساواة الأرسطي من ناحية، والقول بأنه فطري أو طبيعي -أي أن هناك بشراً يولدون عبيداً- بطبيعتهم ولا يمكن مساواتهم بطائفة أخرى من البشر؛ فالمناداة -إن صحت- بأن الناس سواسية أو إخوة... إلخ ينسفها في الحال الإقرار بنظم الرق. والصحيح أن البشرية ظلت تكافح قروناً طويلة، كما قام الفلاسفة بدور بالغ الأهمية في هذا الكفاح الذي كان من نتيجته إلغاء الرق، وإحلال النظرة الحديثة وما فيها من مبادئ إنسانية (منها ما عبر عنه بوضوح، وظهر في بيان حقوق الإنسان الذي أعلنته الثورة الفرنسية عام 1789) -والحملة العنيفة التي شنّها مونتسكيو وكوندرايه على الاسترقاق، وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه.

ثانياً: ما حقوق الإنسان؟

1- سمات عامة:

حقوق الإنسان هي الحقوق التي يمتلكها جميع أفراد البشر بسبب أنهم موجودات بشرية بغض النظر عن المواطنة، أو القومية، أو العرق، أو اللغة، والجنس (ذكر أو أنثى) أو القدرات أو المهارات... إلخ، ومن ثم فهي تتميز عن الحقوق المدنية Civil Rights التي يكتسبها الأفراد بسبب أنهم مواطنون في دولة معينة: كالجنسية، أو حق الأرض والقرض كما تفعل بعض الدول لمواطنيها. وما لم تنص دساتير الدول على حقوق الإنسان بوضوح فإنها لن تكون حقوقاً مشروعة⁽¹⁾.

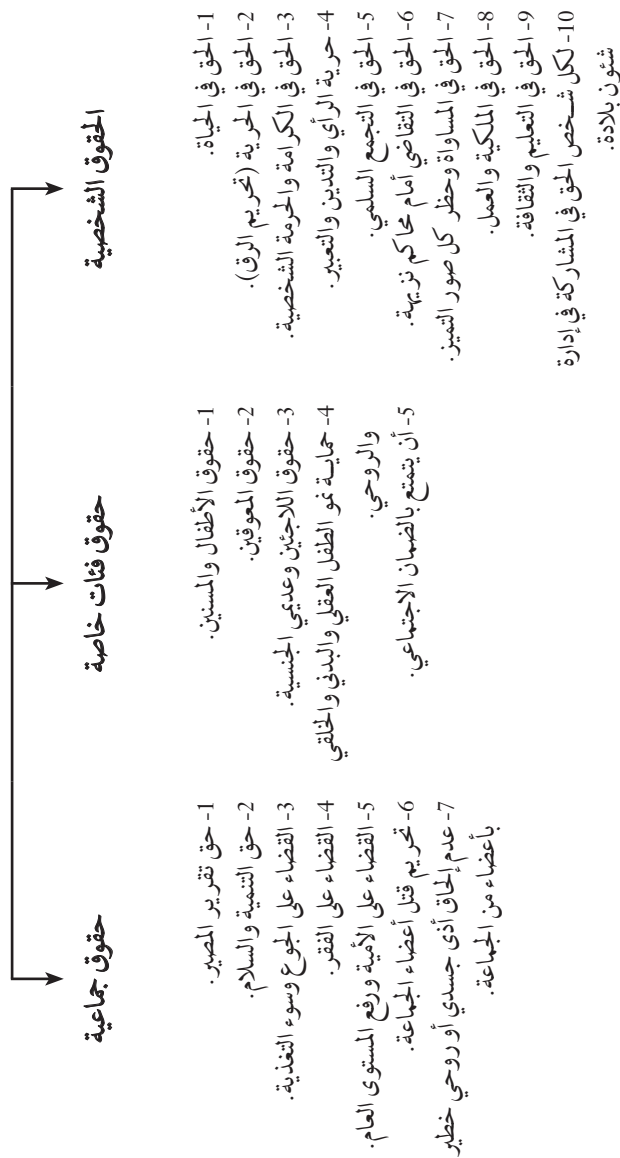
ويقال أحياناً إن «حقوق الإنسان» ربما تفرعت عن نظرية الحقوق

(1) Guide to Human Thought ed. By Kenneth Macleish, Bloomsbury P. 354.

الطبيعية التي افترضها مؤسسو الفكر الليبرالي السياسي لا سيما جون لوك J. Locke (1632 - 1704) فهم يعتقدون أنه على الرغم من أن الأفراد لا بد أن يضحوا ببعض الحريات لكي يدخلوا في «العقد الاجتماعي» فإن من المؤكد أنه سيكون هناك حقوق لا يمكن لهم التنازل عنه مثل الحق في الحياة، وحق التخلص من الحكومات الظالمة أو القهرية المتعسفة... إلخ.

وتهتم النظرية الحديثة لحقوق الإنسان، أساسًا، بحماية الأفراد من بطش الدولة، كما تستخدم هذه الحقوق كمعيار للسلوك الحكومي -الجيد أو السيئ- بين دول العالم. وقائمة مواد حقوق الإنسان عبر عنها بوضوح الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الذي أعلنته الجمعية العامة للأمم المتحدة في العاشر من ديسمبر عام 1948، والذي يتألف من الديباجة و30 مادة تحدد -بصفة عامة- حقوق الإنسان وحرياته، بما في ذلك حقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية (قارن الرسم التالي الذي نعرض فيه جانبًا من هذه الحقوق). ولقد أثر هذا الإعلان في مواد أخرى خاصة بالحقوق الأساسية، بما في ذلك المواثيق الأوروبية لحماية حقوق الإنسان والحريات الأساسية. وعلى الرغم من أن حقوق الإنسان لم تفرضها الأمم المتحدة فإنه كثيرًا ما تتحدث منظماتها عن غيابها أو انتهاكها، لا سيما في دول العالم الثالث التي لا يعرف مواطنوها شيئًا عن «حقوق الإنسان» هذه. ومن هنا، فإن الأمم المتحدة تقوم بدور فعال - مثل: منظمة العفو العام، ومراقبة حقوق الإنسان العالمية، وهي منظمات فعالة في جعل حقوق الإنسان شعبية، والكشف عن الانتهاكات والضغوط الأخلاقية في دول معينة.

جانب من حقوق الإنسان الصادرة عن الأمم المتحدة 10 ديسمبر 1948 في ثلاثين مادة تدرج في ثلاث فئات على النحو التالي:



2- نوعان من الحقوق:

يقال في العادة: إن للإنسان نوعين من الحقوق؛ الأول: حقوق طبيعية فطرية، والثاني: حقوق وضعية.

الأولى: تفرضها الطبيعة البشرية للإنسان بوصفه إنساناً: كحقه في الحياة والعيش الكريم، وحقه في الحرية، وحقه في أن يعمل ويكسب، وأن يكون له مسكن، وحقه في التدين وحرية العبادة، وحرية التعبير، وحقه في التعليم، والمساواة أمام القانون، وحرية التنقل والاجتماع السلمي، والتقاضي أمام محاكم محايدة ونزيهة... إلى آخر هذه الحقوق التي نص عليها «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» وهو الوثيقة التي أصدرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة وقبلها بزم من طويل إعلان حقوق الإنسان والمواطن وهو وثيقة أساسية من وثائق حقوق الإنسان تبنتها الجمعية الوطنية الفرنسية في 20/ 26 أغسطس من عام 1789 قوامها سبع عشرة مادة اشتملت على المبادئ الأساسية التي استلهمتها الثورة الفرنسية، وأهم ما ورد في هذه الوثيقة أن جميع الناس ولدوا أحراراً ومتساوين في الحقوق، وتوكيدها على احترام الملكية الشخصية وحرية العبادة وحرية التعبير، وعلى حق المواطن في مقاومة الظلم والقهر والاضطهاد، وعلى عدم جواز اعتقاله إلا بأمر قضائي⁽¹⁾.

(1) راجع في ذلك كله

- Dictionary of deas ed. By Philip. P. wiener, chartes Scribners, Sond., New York, 1968, P. 255.

وأيضاً:

- Fontana Dictimay of Modern Thought, P. 395-396.

وانظر أيضاً «موسوعة العلوم السياسية» التي أصدرتها جامعة الكويت 1993 - 1994.

وهذه المبادئ الإنسانية عن الحقوق الطبيعية قد تكررت من قبل، فقد سبق أن صادق عليها دستور الولايات المتحدة الأمريكية على نحو ظهر في إعلان فرجينيا عام 1776م⁽¹⁾.

أما المجموعة الثانية من الحقوق فهي ما يسمى بالحقوق الوضعية Positive Rights وهي الحقوق التي سنتها السلطة السياسية للأفراد والمجتمع كل، على اعتبار أن هذه السلطة السياسية هي المعبرة عن إرادة المجتمع والأمة وكثيراً ما تسمى هذه الحقوق الوضعية بـ «الحقوق المدنية» على اعتبار أن التشريعات المدنية هي التي تحددها.

وتقوم التفرقة بين الحقوق الطبيعية والحقوق الوضعية على أساس التفرقة بين الطبيعة والقانون؛ ذلك لأن الإنسان لا يستطيع أن يحيا بواسطة الحقوق الطبيعية كما هي فحسب؛ إذ لا بد من تنظيمها وتقنينها، والانتقال من الحالة الطبيعية إلى الحالة القانونية، وهو يعنى انتقالاً من دور البربرية والوحشية إلى دور الحضارة والمدنية التي ينظمها الناس عن طريق القوانين.

ثالثاً: غياب الوعي بالحقوق؛

أخطر مشكلة تواجهنا في دراستنا للوعي السياسي هي انعدام الوعي عند المواطن بأنه «صاحب حق» في هذا البلد، فإحساسه بالغربة والاعتراب

= وأيضاً موسوعة السياسية بإشراف د. عبد الوهاب الكيالي - المجلد الأول ص 214، 215.

(1) Roger Scruton: Dictionary of Political Pan Books and Macmillan Press, 1982, P. 208.

The Blackwell Encyclopedia of Political Thought ed. By Dovid Miller 1987, P. 222-3.

واضح في أحاديثه اليومية. فقد أقنعه الحكام عبر عصور طويلة بأن عليه أن يتقبل ما يجود به عليه «ولي النعم» فهو المنعم الوهاب الذي ينبغي أن نشكره على عطاياه وإنجازاته مع إنها إن صحت جزء من طبيعة عمله أوظيفته!!

والحق أن ثقافتنا الشعبية تعبر أصدق تعبير عن انعدام الوعي عند المواطن بحقوقه كإنسان أولاً وحقوقه المدنية كمواطن ثانياً، فليس هذا البلد بلده، ولا حق له في شيء، وأصبح من المألوف أن يعتقل، ويضرب ويهان؛ لأن «إيد السلطنة طايلة» و«سيف السلطنة طويل»⁽¹⁾. والمثل الذي ظل أحمد تيمور باشا يتأمله طويلاً لغرابته وهو «ضرب الحاكم شرف!» ثم تساءل كيف يكون ذلك؟! كيف يحدث أن يقول مواطن إن ضربه من أي مخلوق شرف له؟! وانتهي إلى أنه ربما يكون تهرباً من شهامة الأعداء الذين لا بد أن يشمتوا في إهانته، فأراد أن يردهم بهذا القول الغريب!

وفي كثير من أمثلتنا الشعبية، ينعدم إحساس المواطن بوطنه مثل «اتوصوا بينا ياللي حكمتونا، إحنا عبيد وانتوا اشترتونا!» فهو إذن ليس مواطناً في وطن، وليست له أبسط حقوق الإنسان وإنما هو «عبد» اشتراه الحاكم وهو يرجوه أن يترأف به!! أما ما يقدمه له الحكام، فهو إحسان من عندهم، تماماً مثلما قال الخديو توفيق لعرايي: «أنتم عبيد إحساناتنا»، ومصدقا لذلك فقد كان الحاكم إلى عهد قريب يلقب بلقب «ولي النعم» ويطلق عليه في بعض الدول العربية حتى الآن لقب «سيدنا». فعلياً أن نتظر ما ينعم به سيدنا علينا وما يقدمه لنا من «عطايا» وهي تسمى الآن في مصر «إنجازات» يفاخر بها الحاكم ويذكرنا بها ليل نهار، كما لو لم يكن ما تحقق من «إنجازات» -إذا كان قد تحقق منها شيء- جزءاً من عمله.

(1) الأمثال العامة أحمد تيمور باشا مركز الأهرام (المثل رقم 1628).

ويتجلى انعدام الوعي السياسي في غياب المساءلة، فلا يوجد برلمان يحاسب الحاكم عما يفعل، وعما يقول، فأصبح يقول هراء وكذباً ليل نهار دون حسيب أو رقيب! فمئذ العهد الناصري، أصبح التقليد أن يكذب الحاكم كما يشاء، فيصف نفسه بأنه أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط ويسمى الهزيمة البشعة مجرد «نكسة»، وتخسر الشركات والمؤسسات والمصانع -ومع ذلك توزع «الأرباح» و«الحوافز» في نهاية العام- مثلما اندحر صدام في هزيمة مدوية فأطلق عليها اسم «الانتصار في أم المعارك» وظل يحتفل بها كل عام دون خجل! والسبب أنه لا حسيب ولا رقيب «وخلاصة ما تقدم أن الحكومة من أي نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها»⁽¹⁾.

ومن هنا، فلم تكن لدينا ثقة في ثقافة الاختلاف ولا إيمان بأهمية الرأي الآخر؛ لأن «المركب الي فيها ريسين تغرق»!! و«الإبرة الي فيها خيطين ما تخيطش»⁽²⁾ وانعدم الإيمان بالقيم الديمقراطية الأصيلة وعدنا إلى مبدأ اللامساواة الأرسطي «لما أنا أمير وأنت أمير مين فينا يسوق الحمير»⁽³⁾ و«تروح فين يا صعلوك بين المملوك»⁽⁴⁾ وعلينا أن نؤمن بالقول السخيف المحبب «العين ما تعلاش على الحاجب»⁽⁵⁾ ولك أن تقارن ذلك بما يرويه

(1) وكما قال غيره: إن «الناس» أطلقوا على جمهوريته «الجماهيرية العظمي»؛ بسبب انتصاره على الولايات المتحدة الأمريكية..

(2) عبد الرحمن الكواكبي «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» الأعمال الكاملة نشره محمد عماره - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام 1970.

(3) الأمثال العامة - أحمد تيمور باشا - مركز الأهرام رقم 2727.

(4) المصدر نفسه رقم 16.

(5) موسوعة الأمثلة الشعبية المصرية - د. إبراهيم شعلان - دار المعارف رقم 2360.

أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود، مندهشاً، لما أفرزته الديمقراطية في إنجلترا «رأيت صفّاً من الرجال ساعة العصر قد اصطف ليأخذ دوره في قدح الشاي، رأيت وزيراً (هو نوبل بيكر) قد وقف أمامه أحد السعاة، فلا هو أخذ الضجر من ذلك، ولا الساعي فزع إذ وجد نفسه أمام الوزير»⁽¹⁾ وإذا افترضنا جدلاً أننا وجدنا الوزير الذي يرتضي بالوقوف خلف الساعي، فهي يمكن أن نجد الساعي الذي يحطم القاعدة البلاء -قاعدة العين التي لا تعلق عن الحاجب! إنها ثقافة العبيد، إن كان للعبيد ثقافة- تلك التي أفرزتها نظم الحكم الاستبدادية في بلادنا، وليس أخطر في هذه الدنيا من الاستبداد على تدمير النفس البشرية!⁽²⁾

ولما كانت الثقافة الشعبية تتمثل عادة في «الأمثال الشعبية» التي تعد وسيلة مهمة لدراسة فلسفة الشعب، أو الفلسفة اليومية للعلاقات الاجتماعية والإنسانية التي تعبر عن طبيعة الشعب بما فيها من إيجابيات وسلبيات -فإننا نستطيع أن نقدم أمثلة أخرى لمعتقدات الشعب وأفكاره الأساسية.

عن انعدام الإيمان بالمساواة:

□ «حتربط حمارك جنب حمار العمدة؟!»⁽³⁾.

□ «الي يبص لفوق يتعب...»⁽⁴⁾.

(1) أحمد تيمور رقم 884.

(2) المرجع نفسه رقم 2023.

(3) د. زكي نجيب محمود: «قصة عقل» - دار الشروق بمصر ص 38، 39.

(4) قارن كتابنا «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي» - الطبعة الثالثة

- مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1997 ص 17.

□ «أيش جاب العبد لسيده، قال لده طلعة ولده طلعة»⁽¹⁾.

وعن الجبن والخوف:

□ «من خاف سلم» أحمد تيمور باشا رقم 2808

□ «المهروب نص الشطارة» أحمد تيمور 2972

□ «الحيطان لها ودان» د. شعلان رقم 2364

وعن التزلف وعدم المجاهرة بالرأي:

□ «إن دخلت بلد يعبد العجل حش واطمه» تمور 579

□ «إن كان لك عند الكلب حاجة قلها يا سيدي» د. شعلان 2390

□ «إن كان الحيا سنة، فمسح الجوخ فرض» د. شعلان 2365

□ «بات مغلوب ولا تبات غالب» أحمد تيمور رقم 737

□ «الباب اللي يجيئك منه الريح سده واستريح» تيمور 730

□ «الإبد الي ما تقدرش تقطعها بوسها» أحمد تيمور 702

ونتيجة لذلك كان لا بد أن يعلن المواطن مبدأين أساسيين عنده⁽²⁾.

أنه سيكون لديه طاعة الدواب.

«أول المنطاعين، وآخر العاصين» د. شعلان رقم 2349

(1) د. شعلان رقم 2436.

(2) موسوعة د. شعلان رقم 2394.

فلا ثورة ولا تمرد ولا عصيان، بل طاعة تامة وإذعان كامل.

والثاني أنه سوف يلغي عقله، فلا تفكير ولا تعكير.

□ «اللي يفكر يتعكر» أي من تفكر في أمور مجتمعه وأحوال حياته وشؤونه اليومية سوف يتعب نفسه ويعكر صفوه بلا جدوى.

والنتيجة لا وعي بحقوق الإنسان، بل ليس هناك إنسان أصلاً، فقد تم تدمير الإنسان وتخطيط قيمه على يد النظم العربية الاستبدادية كما تم تحويل الشعب إلى جماجم عظمية تسير في الشارع منزوعة النخاع، شخصيات تائهة تطحنها مشاعر الدونية والعجز واللا جدوي - كما قلنا في مكان آخر⁽¹⁾.

إشكالات أخرى

لقد أدى غياب «الوعي السياسي» في فكرنا إلى إشكالات أخرى كثيرة أهمها ما ظهر حول تطبيق النظام الديمقراطي الليبرالي من ناحية وحول الفهم المغلوط للنظام السياسي الذي خلط بين «الأخلاق والسياسة» من ناحية أخرى. وسوف نتحدث فيما يلي عن هذه الإشكالات بشيء من الإيجاز.

(أ) تطبيق النظام الديمقراطي الليبرالي؛

أولاً: ذهب كثيرون إلى معارضة تطبيق النظام الديمقراطي الليبرالي (ونحن نضيف صفة الليبرالي حتى نبعد عنها اللصوص والأفاكين الذين يسرقون ويفرغونه من مضمونه) في بلادنا بحجة أنه نظام «غربي» و«مستورد»،

(1) أحمد تيمور رقم 706.

فكيف يجوز لنا نحن العرب أن ننقل عن الغرب تجربته...؟ غير أن هذا الاعتراض لا يدل إلا على قصور في الوعي السياسي وذلك لعدة أسباب:

1- الديمقراطية ليست نظاماً غريباً بقدر ما هي تجربة إنسانية للإنسان بما هو إنسان، فهي وليدة صراعات طويلة من أجل الحرية والمساواة وهما عصب الديمقراطية⁽¹⁾. أعني أنها تجربة إنسانية عالمية في المقام الأول؛ وليست تجربة الآخرين المختلفين عنا، ولا يجوز لنا أن ننقل عنهم -إنها تجربة الروح البشري الساري في التاريخ- إن جاز استخدام المصطلح الهيجلي الذي يحتم أن تتحقق الحرية والمساواة للإنسان بما هو إنسان، أو يتحقق العقل في عالم الواقع، وهو يقضي أن «يحكم الفرد نفسه» ليكون حراً، وأن يحكم الشعب نفسه بنفسه ليكون حراً أيضاً. وبذلك يتحقق الاستقلال الذاتي Autonomy للفرد الذي أشار إليه كانط -وتكون حريته، كما أشار «هيجل» هي التحديد الذاتي Self-Determination بحيث يأتي سلوكه معبراً عن ذاته، وأن يصنع هو نفسه القوانين الذي يسير عليها، فيصبح هو الذي يحدد نفسه بنفسه. ويكون سلوك الفرد في هذه الحالة صورة مصغرة من الديمقراطية الكبرى في الدولة التي تعني أن يضع الشعب قوانينه بنفسه، وأن يحكم نفسه بنفسه⁽²⁾.

2- ومن ناحية أخرى، ماذا لو قلنا لكم: إن اليابان تطبق الديمقراطية

(1) انظر أيضاً كتابنا «تجربتي مع هيجل» - المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام 2005 ص 132 وما بعدها.

(2) راجع كتابنا «الطاغية» ص 41 من الطبعة - سالفه الذكر - وكتاب «تجربتي مع هيجل» من الطبعة سالفه الذكر.

وهي ليست دولة غربية! وإن الهند تطبق الديمقراطية وهي ليست دولة غربية، وإن دولاً آسيوية كثيرة -وربما إفريقية أيضاً- تسير في الطريق نفسه؟! ألا يدل ذلك على أنها تجربة إنسانية؟

3- وأخيراً لست أدري لِمَ الحساسية من الديمقراطية «الغربية»؟ ونحن نستفيد، ونقتبس، وننقل من الغرب آلاف الأفكار في جميع المجالات. من السينما إلى المسرح، ومن الإذاعة إلى التلفزيون، ومن الاقتصاد إلى أعمال البنوك، ومن أجهزة الكمبيوتر والمحمول إلى أدوات وآلات لا حصر لها -فهل توافقون على ذلك كله، ولكنكم ترفضون نقل العلاج لأمراضنا السياسية، كما ننقل عنهم العلاج لأمراضنا الجسمية؟!

ثانياً: من الأخطاء التي تتم عن قصور في الوعي السياسي أيضاً الظن بأن للديمقراطية شكلاً واحداً معيناً وعدداً ينبغي أن يطبق بحرفيته -وهذا غير صحيح، فبعض الولايات السويسرية لا تزال تأخذ بنظم الديمقراطية المباشرة، وحتى في الديمقراطية النيابية؛ أي غير المباشرة -هناك اختلافات واسعة بين الدول التي تطبقها: فإنجلترا ملكية برلمانية تأخذ بالنظام البرلماني، والولايات المتحدة جمهورية رئاسية تأخذ بالنظام الرئاسي، وفرنسا تجمع بين النظامين! وهناك تداخل بين السلطات الثلاث في إنجلترا، وفصل حاسم بين هذه السلطات في فرنسا، ولا يجوز للرئيس الأمريكي حل البرلمان، مع أن هذا الحق مكفول في فرنسا وإنجلترا، ويجوز أن يكون الوزراء جميعاً أعضاء في البرلمان في إنجلترا، مع أن ذلك غير جائز لا في فرنسا ولا في الولايات المتحدة.. وهكذا، فالمهم في ذلك كله أن تجد أسس الديمقراطية، وأن يعزله إذا انحرف: فلا أحد يعلو على القانون!

ولست أدري لمر نجد حرجاً في الاستفادة من الأنظمة الديمقراطية المتقدمة أيّا كان شكلها..؟ في حين أن التاريخ يظهرنا على أن الولايات المتحدة الأمريكية قد استفادت من الديمقراطية الإنجليزية، رغم ما بينهما من «استعمار»، وعداء، وحروب... إلخ، وأن فرنسا قد استفادت من التجربتين الإنجليزية والأمريكية معاً في وضع نظامها الدستوري!

(ب) الفهم المغلوط للتنظيم السياسي؛

يترتب على غياب الوعي السياسي كثير من الإشكالات، بل والأغاليط التي تضر بحياة المجتمع. ولقد سبق أن عرضنا لبعض هذه الإشكالات وسوف نعرض فيما يلي للفهم المغلوط «للتنظيم السياسي في الدولة».

والواقع إنه إذا غاب الوعي السياسي غابت معه حقوق الإنسان كإنسان، وعلى رأسها أنه ينبغي أن يعامل كغاية في ذاته «أي كوعي ذاتي»، لا كوسيلة لتحقيق مآرب الآخرين (أي مجرد جماد أو حيوان). ثم كمواطن في دولة له العديد من الحقوق الأساسية التي لا يكون مواطناً ما لم يمارسها: كحق الحرية بأنواعها، وكذلك المساواة واختيار الحاكم، وعزله إذا انحرف، وسن القوانين، وإعلان الحروب وعقد المعاهدات... إلخ. وما لم يحدث ذلك فسوف يهبط المواطنون إلى مستوى الدواب من الناحية العملية، وسوف يوضعون، من الناحية النظرية، في أسفل البناء السياسي، فليس لهم رأي ولا مشورة، ولا تقدير ولا قيمة. وفي هذه الحالة، سوف يتم تشييد البناء بطريقة مقلوبة أو معكوسة؛ أعني من أعلى إلى أسفل، وبدلاً من أن يبدأ البناء من الشعب الذي هو صاحب المصلحة الحقيقية في إقامة الدولة، وتشييد النظام السياسي، والذي هو مصدر السلطات في المجتمع - فإنه يبدأ من الحاكم،

ويعتبره الرأس، والقلب، والمحرك، والمدير.. إلخ. أما الناس فلأنهم بلا قيمة، فما عليهم سوى السمع والطاعة فحسب!

وسوف نوضح ذلك على المستويين العملي والنظري معاً:

1- على المستوى العملي:

لو ألقينا نظرة سريعة على تاريخنا الإسلامي، لوجدنا أن العامة لم يكن لهم شأن في اختيار الحاكم أو الرئيس أو الخليفة؛ لأنهم لا يستطيعون تقييم الناس، ولا يحسنون الاختيار لهذا المنصب الكبير - فيما يقول أحد المؤرخين الإسلاميين صراحة⁽¹⁾. ويروي أن عمر أراد أن يعرض أمر الشورى على جماهير الحجاج، فذكره بعض الصحابة بأن الموسم يجمع أخطا الناس، ومن لا يفهمون المقال فيطيطرون به كل مطار، وأنه يجب أن يرجئ هذا إلى أن يعود إلى المدينة، فيلقيه على أهل العلم والرأي- ففعل⁽²⁾.

وعندما اندفعت الجماهير عقب مقتل عثمان إلى علي بن أبي طالب

(1) حلل فقهاء القانون والفلاسفة الحرية والمساواة إلى أنواع متعددة:

(أ) حرية التفكير والتعبير. (ب) حرية التنقل والغدو الرواح.

(ج) حرية التملك. (د) حرية الاجتماع.

(هـ) حرية الصحافة. (و) حرية المسكن وحرمة.. إلخ.

(2) راجع كتابنا: «مسيرة الديمقراطية.. رؤية فلسفية» ص 14، 15 من كتابنا الحالي.

ومن أنواع المساواة:

(أ) المساواة في تولي الوظائف. (ب) المساواة أمام القانون والقضاء.

(ج) المساواة في التكليف والأعباء. (د) المساواة في فرض الضرائب.

(هـ) المساواة في أداء الخدمة العسكرية.. إلخ.

يريدون له البيعة. أدرك أن سيل الناس سيل شعبي فصاح فيهم: «إن هذا الأمر ليس لكم، إنه لأهل بدر -أين طلحة والزبير وسعد؟!»⁽¹⁾.

والواقع أن الخط من قيمة العامة -أو السواد الأعظم من الناس- ليس سوى نتيجة منطقية مترتبة على غياب «الوعي السياسي»، بل على غياب الوعي الذائقي أصلاً الذي به يكون الإنسان إنساناً. وعندئذ يكون الناس لا شيء، ويكون الحاكم كل شيء، وكل ما ينبغي عليهم عمله هو اتباعه ومحابته.. «إذا أحب شيئاً أحبه الناس، وإذا أبغض شيئاً أبغضه الناس»، المثل الأعلى الذي يحتدى!

وأرجو ألا يحتاج أحد بوجود البيعة التي كانت مجرد إجراء شكلي لا قيمة له، فهي أحياناً تُجرى لطفل صغير، وأحياناً أخرى تُجرى على ظرف مغلق لا يعلم أحد ما بداخله! -وهي في جميع الأحوال أقرب ما يكون إلى الاستفتاءات العصرية التي تُجرى في بلادنا، وتكون نتائجها 99.99 % - والكل يعلم أن المواطنين يبايعون وهم كارهون، أو يبايعون والسيف على رقابهم، ومع ذلك فلا بد للحاكم من استكمال الشكل! لكن الواقع أن المواطن لا قيمة له ولا اعتبار، وليس له من الأمر شيء، بل عليه الطاعة المطلقة لولي الأمر حتى ولو كان الأمر تافهاً أو بغير معنى! ويضرب الحجاج مثلاً للأمر التافه الواجب النفاذ فيقول: «والله لا أمر أحداً أن يخرج من باب من أبواب المسجد، فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه!»⁽²⁾.. ما أرخص عنق المواطن، وما أشد جبروت الحاكم، اليوم وأمس وغداً!

(1) د. أحمد شلبي «السياسة في الفكر الإسلامي» ص 63.

(2) نفس المرجع، في نفس الصفحة.

ولهذا السبب، فإننا ينبغي ألا نندهش أن يقوم الوليد بن عبد الملك بعد أن استخلف، بزجر الناس عن التفكير في السياسة ومزاوتها. وقد بدأ عهده بتخويف أهل الشام والأمصار الأخرى محذراً - قال في خطبته الأولى:

«أيها الناس عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد. أيها الناس من أبدى ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه...»⁽¹⁾ وهكذا كان لا بد للمواطن أن يلجأ إلى الصمت - واستمر ذلك حتى يومنا الراهن - لكي يضمن أن يموت بدائه! ولما كان الشيطان مع «الأنا»، فعلياً أن نستعيد بالله من كلمة «أنا» ونندمج مع بقية القطيع!

وهكذا يظهر أماننا واضحاً - على المستوى العملي - البناء المقلوب للدولة الذي يكون فيه الحاكم هو كل شيء، ولا يكون المواطن شيئاً يذكر، وشيئاً فشيئاً يبدأ تقديس الحاكم، وتظهر نغمة التفويض الإلهي مع ظهور الدولة الأموية، وهي النغمة التي سوف تتأكد بوضوح تام عند العباسيين حتى يقول المنصور بصراحة ووضوح: «أنا سلطان الله في أرضه...!»، ويقول له سفيان الثوري: «إني لأعلم رجلاً واحداً إن صلح صلحت الأمة...».

فيسأله الخليفة في دهشة: ومن هو؟!

فيقول: «أنت»! وهكذا يكون فرد واحد هو كل شيء، فهو الذي تنعقد عليه الآمال في صلاح الأمة!

ثم يرفع الشعراء من نغمة التقديس إلى التآليه، فلا يجد ابن هانئ الأندلسي

(1) راجع كتابنا «الأخلاق والسياسة: دراسة في فلسفة الحكم» - المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام 2001 - ص 60.

(938 - 972م) بعد ذلك أي حرج في أن يقول للخليفة الفاطمي المعز لدين الله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الأنصار..!

إن من يطالع تاريخنا من أقدم العصور حتى الآن: من الفراعنة، والبابليين، والآشوريين... إلخ، إلى يومنا الراهن سوف تتبين له هذه الحقيقة واضحة وضوح النهار، وهي أن المواطن «لا قيمة له»، والطامة الكبرى أنه هو نفسه راض بذلك ولا يجد فيه انتقاصاً لأدميته. فلا حدَّ، للأسف الشديد، للانحطاط الذي يمكن أن ينحدر إليه الإنسان، حتى ولو وصل إلى مستوى الدود الذي لا يعيش إلا في الطين، وهو يكتفي في تبرير الوضع المزري الذي يجد نفسه فيه بحكم بلهاء منها أن «العين لا تعلق عن الحجاب» وأن الله خلق الناس درجات، فلا يمكن أن تكون هناك مساواة ولا حقوق واحدة لكافة المواطنين.. وهكذا لا يكون للناس عن أنفسهم سوى أسوأ المشاعر، فلا غضاضة في انعدام القيمة وفقدان الاحترام واختفاء الكرامة؛ مما يدل على مبلغ ضالة التقدير والاحترام الذي يكونونه لأنفسهم كأفراد من البشر، ولهذا تراهم يكتفون بالدعاء إلى الله أن يولي عليهم من يصلح! مع أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا هم أولاً من أنفسهم!

الوعي الذاتي أولاً ثم الوعي السياسي الذي يتفرع عنه ثانياً مرحلتان أساسيتان لاستعادة الإنسان لقيمته وكرامته واحترامه لنفسه أولاً ثم احترامه للآخرين، واحترام الآخرين له بعد ذلك - لا بسبب المنصب، أو الجاه أو

المولد... إلخ، بل لأنهم بشر غايات في ذاتها، ولا يمكن أن يكونوا وسائل تستخدم لتحقيق منافع لهذا الشخص أو ذاك.

2- على المستوى النظري:

ما ذكرناه حتى الآن من غياب الوعي السياسي (والوعي الذاتي بالطبع) لا ينكشف فقط على مستوى الحياة العملية، لكنه ظاهر أيضًا على المستوى النظري، فكل من كتب في تراثنا عن بناء الدولة، أقام البناء على نحو معكوس أو مقلوب فبدأ من أعلى إلى أسفل من الحاكم الذي هو كل شيء إلى الشعب الذي هو لا شيء! وسوف نضرب بعض الأمثلة لما نقول:

(أ) فابن أبي الربيع يرى في كتابه «سلوك المالك في تدبير الممالك» منذ فاتحة الكتاب أن الله هو الذي نصب هؤلاء الحكام، وأن السبب الذي دفعه إلى تأليف كتابه هو «تعظيم الملوك وتوقيرهم»! «لأن الله جل جلاله قد خص الملوك بكرامته، ومكن لهم في الأرض، وأوجب على العلماء توقيرهم... إلخ. وينتهي من ذلك كله إلى القول بأن «السعادة العامة هي في تبجيل الملوك وتعظيمها وطاعتها...»⁽¹⁾ وهي نظرية وإن كانت غريبة، فإنها تتسق مع ما كان الخليفة العباسي يحيط به نفسه من قداسة حتى اعتبر ظل الله على الأرض - وهكذا يتضح لنا كيف تكون الفلسفة في عصرها ملخصًا في الفكر!

ويصف ابن أبي الربيع آداب الذل والانكسار مع «الحاكم المطلق» إذ يجب على الداخل على الملك أن يسلم قائمًا عن بعد؛ فإن استدناه منه قبل الأرض وتحنى عنه، وعلى الجالس مع الملك ألا يبدأه بالكلام دون أن يسأله، ويجب

(1) الوثائق السياسية والإدارية للعصر الأموي د. محمد ماهر حمادي ص 55.

حينئذ مع خفض صوته، فإن سكت الملك فلينهض⁽¹⁾. مما يذكركنا بوضوح شديد، بأداب الحديث في حضرة فرعون.. وهكذا يكون تاريخنا موصولاً!

وهكذا ينظر ابن أبي الربيع إلى شخصية الملك على أنها أولاً شخصية مقدسة، وهي ثانياً الشخصية الرئيسية في الدولة، ثم تأتي بعد ذلك شخصية تالية في الأهمية هي «شخصية الوزير»؛ إذ لا بد لمن تقلد الملك من وزير منظم للأمور، معين على حوادث الدهور «على حد تعبيره»⁽²⁾ ثم يتحدث عن «الحاجب» وعن «القاضي» و«صاحب الشرطة» وعن «جامع المال»... إلخ، أما «الشعب» أو العامة أو الرعية فيري ابن أبي الربيع أنه ينبغي على الملك أن يشغلهم في صناعتهم؛ حتى لا يجدوا فراغاً للتدخل في أمور السلطان؛ فالتدخل في شئون الحكم ليس من اختصاصهم! كما يري أن الملك بالنسبة للرعية أشبه بالطبيب بالنسبة للمريض، فالطبيب غرضه شفاء المريض، كما أن هدف الحاكم المطلق مصلحة الرعية!

(ب) وبناء الدولة من أعلى إلى أسفل بحيث يتربع الحاكم المطلق على قمة البناء السياسي -فكرة بالغة الوضوح عند «الفارابي» فهو في كتابه «أراء أهل المدينة الفاضلة» يعرض في خمسة وعشرين فصلاً لموضوعات متنوعة،

(1) راجع كتابنا «الأخلاق.. والسياسة: دراسة في فلسفة الحكم» وما بعدها، المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة - عام 2001 ص 55، وأيضاً كتابنا «الطاغية» ص 248 من الطبعة الثالثة - مكتبة مدبولي بالقاهرة عام 1997.

(2) ابن أبي الربيع «سلوك المالك في تدبير الممالك» - تحقيق الدكتور ناجي التكريتي - دار الأندلس ببيروت الطبعة الثالثة عام 1983 ص 175 - وقارن كتابنا «الأخلاق.. والسياسة: دراسة في فلسفة الحكم» ص 187 وما بعدها - المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام 2001.

ثم يعرض في اثني عشر فصلاً للبناء السياسي للدولة. ومع أن هذا القسم الثاني هو المقصود بالذات من كتابه، فإنه في واقع الأمر لم يشغل إلا نحو خمس الكتاب، بينما شغل القسم الأول ثلاثة أخماسه⁽¹⁾ والسبب في رأينا أنه الأساس المبتدئ الذي سوف يقيم الفارابي البناء السياسي للدولة الفاضلة على غرار. فهي لا تكون فاضلة حقًا وكاملة حقًا «إلا إذا كان الحاكم فيها شبيهاً بمدير الكون»، وكانت مراتب الناس السياسية تحاكي الموجودات الطبيعية في العالم! فكما أن الموجودات في الكون ترتب ترتيباً هرمياً من أعلاها، وهو الله، إلى أسفلها الجمادات- فإن أجزاء الدولة لا بد أن تبدأ من القمة، أي من أهم جزء من المدينة وهو الحاكم، ثم تهبط سفلًا إلى من هو أدنى منه.

ويكفي أن نذكر سريعاً بعض عبارات الفارابي التي يقول فيها: «إن السبب الأول (الله) نسبته إلى سائر الموجودات كنسبة ملك المدينة الفاضلة إلى سائر أجزائها...»⁽²⁾ ويقول في كتاب «السياسة المدنية»: «... ومدير تلك المدينة شبيه بالسبب الأول الذي به وجود سائر الموجودات...»⁽³⁾ وكما أن الوجود الإلهي هو أكمل ألوان الوجود في مراتب الموجودات، فكذلك رئيس المدينة هو أكمل أجزاء المدينة فيما يخصه...، بل إن الفارابي يذهب إلى أغرب من ذلك عندما يقول: «إن رئيس المدينة يوجد أولاً ثم تكون المدينة،

(1) ويذكر الجاحظ رأيًا مشابهاً في باب الدخول على الملوك - قارن كتابنا «الأخلاق.. والسياسة: دراسة في فلسفة الحكم» ص 91 - المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة عام 2001 - ص 191.

(2) «سلوك المالك» ص 194.

(3) د. علي عبد الواحد وفي «المدينة الفاضلة للفارابي» - شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع بالملكة العربية السعودية - الطبعة الثانية أمام 1984 ص 27.

وما تتألف منه من أجزاء!« والعبرة تنم عن تقديس واضح للحاكم، فهو الأساس وهو البداية.. والقلب والمحرك⁽¹⁾.

(ج) وعلى الرغم من أن «الماوردي» كان في أحكامه السلطانية أكثر اعتدالاً من غيره، فقد ظل بناء الدولة، رغم ذلك على نحو ما هو عليه بناء معكوساً أو مقلوباً يسير «من أعلى إلى أسفل، وبقيت منزلة الحاكم كما هي» «فلولا الحاكم لكان الناس فوضى مهملين وهمجاً...»⁽²⁾ فلا يمكن تصور دولة بغير حاكم ينظمها ويضع قواعدها، أما اختيار هذا الحاكم فيقوم به، في رأيه، أهل «الحل والعقد» الذين اختلف العلماء في عددهم، فقال قوم: إنهم سبعة، أو ستة، وقال آخرون: تنعقد الولاية بثلاثة، يتولاها أحدهم برضا الاثنين، كما يصح عقد النكاح بولي وشاهدين! وقالت طائفة أخرى: تنعقد بواحد! ثم يتحدث الماوردي عن «ولاية العهد» التي يميزها بناء على أن الخلافة ثبتت لعمر؛ لأن الخليفة أبا بكر عهد بها إليه من بعده... إلخ. وهكذا تتول الخلافة إلى ملكية وراثية في أسرة الحاكم، ويصبح اختيار الحاكم أثراً بعد عين! ثم ينتقل «الماوردي» في فصول طويلة إلى الحديث عن المناصب العامة: كالوزارة وحكام الأقاليم والأمصار، والمناصب الخاصة في مجالات عامة كالقضاء، ونقيب الجيوش... إلخ.

وهكذا نجد أن بناء الدولة عند الماوردي، كما هي الحال عند غيره، يسير من القمة إلى القاع، من قمة الهرم إلى السفح. من أعلى؛ حيث يتربع الحاكم إلى أسفل؛ حيث يستقر أفراد الشعب.

(1) «آراء أهل المدينة الفاضلة» - طبعة الدكتور ألبير نصري ص 121.

(2) «كتاب السياسة المدنية: الملقب بمبادئ الموجودات» تحقيق د. فوي ميري تجار - دار الشرق بيروت - الطبعة الثانية عام 1993 ص 84.

(د) ولا أظن أننا؛ بعد ذلك كله، بحاجة إلى أن نعرض نماذج من تفكيرنا السياسي لنبرهن على هذا البناء الهرمي الذي جعل من الحاكم الرأس والقلب والمدير، والمحرك، والسبب الأول... إلخ أو يشبهه، كما فعل الطرطوشي في سراج الملوك بأن «السلطان كالغيث الذي هو سقيا الله تعالى، وبركات السماء، فيه حياة الأرض ومن عليها...»⁽¹⁾ وهو مثل الفارابي -يقارن بين وجود الله ووحدانيته وتديره للعالم، ووجود السلطان الواحد فيقول: كما لا يستقيم سلطانان في بلد واحد لا يستقيم إلهان للعالم، والعالم بأسره في سلطان الله تعالى، كالبلد الواحد في يد سلطان الأرض...! ويقول أيضاً: «اعلموا أن منزل السلطان من الرعية هي بمنزلة الروح من الجسد...»⁽²⁾.

خاتمة:

ونحن لا نريد من القارئ أن يظن، ولو للحظة واحدة، أننا نقلل من أهمية الحاكم في الدولة، بل نستهدف ثلاثة أمور:

الأول: أن نبين أن البناء السياسي للدولة كان عند مفكرينا السياسيين مقلوباً؛ لأنه يصور بأمانة واقع الحياة السياسية في عصرهم -فهو لا يهتم بالناس، أفراد الشعب، أو الرعية، أصحاب المصلحة الحقيقية في قيام الدولة، بل يهتم بالمركز الأول فيها، والرأس المدير لسير الأمور، هو الحاكم. أما الشعب، فهو كم مهممل لا قيمة له عند كثيرين منهم، وهو عند فريق

(1) قارن كتابنا «الأخلاق... والسياسة: دراسة في فلسفة الحكم» ص 107 وما بعدها - المجلس الأعلى للثقافة 2001.

(2) أبو الحسن الماوردي «الأحكام السلطانية والولايات الدينية، الناشر مصطفى البابي الحلبي - القاهرة - الطبعة الثانية عام 1969 ص 3.

آخر مجموعة من الأطفال القصر، على الحاكم أن يقوم بتربيتهم وتأديبهم وزرع الأخلاق الحميدة فيهم ولو بالقوة! وعند البعض الثالث مجموعة من الحيوانات، فإن لم يكن الحاكم حازماً وحاسماً معها «تحرك الحيوان الشرير، ودبت العقرب من مكمناها، وفسقت الفارة، وخرجت الحية..»... إلخ، فيما يقول الطرطوشي في «سراج الملوك»⁽¹⁾.

الثاني: إن هذا البناء الذي يجعل من الحاكم كل شيء، وجميع الشعب لا شيء، سوف يؤدي في الحال إلى نظام استبدادي، يقوم فيه الحاكم المستبد بدور السائنس كما تفيد كلمة السياسة العربية بحرفيتها من ساس يسوس فهو سائنس الخيل أو مروض الوحوش الضارية يسوسها بالعصا إلى ما هو خيرها وصالحها.

الثالث: إن هذا البناء النظري، الذي يلخص فكرياً الممارسات العملية في دنيا الناس، يدل دلالة حاسمة على غياب الوعي السياسي عند المواطن الذي يقبله ويرضي به، وكذلك الحاكم الذي يدبر أموره، وفي النهاية عند المفكر الذي شيد هذا البناء. فلا أحد منهم يعترف بأن هذا المواطن إنسان؛ أي وعي ذاتي (وما زال هذا التصور قائماً حتى يومنا هذا) - لا بد أن يعامل على أنه غاية في ذاته وليس وسيلة لتحقيق مصالح الآخرين، وأن له حقوقاً أساسية تنبع من كونه إنساناً قبل أن يكون مواطناً.

وهكذا لا يكون عند المواطنين، الذين يقبلون هذه الأوضاع المزرية، عن أنفسهم إلا أسوأ المشاعر. فهم لم يخلقوا إلا ليطيعوا الولاة والحكام وأولي الأمر منهم، وهذا هو قدرهم المحتوم.

(1) أبو بكر الطرطوشي «سراج الملوك» المطبعة المصرية عام 1389 هـ ص 49.

(ج) الخلط بين الأخلاق.. والسياسة:

من مظاهر غياب «الوعي السياسي» أيضًا الخلط بين الأخلاق والسياسة وعدم التمييز بوضوح بين هذين المجالين المهمين: الأخلاق التي تهتم بسلوك الفرد، والسياسة التي تعني بسلوك الجماعة، وهو خلط ورثناه عن العصور الغابرة عندما كانت المفاهيم الأخلاقية مدججة في العادات والتقاليد، التي تحكم المجتمع في غيبة القوانين.

وعندما ظهر المفكرون السياسيون لم يتيبنوا الفرق بين المجالين بل ساروا في الخلط بينهما إلى مداه، بل اعتقدوا أن مهمة الدولة هي العمل على إدخال المواطنين جنة الفردوس عن طريق إقامة المجتمع «الصالح» أو «الفاضل» الذي يتألف من مواطنين صالحين، وهو مجتمع لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الحاكم فاضلاً؛ لأن «الناس على دين ملوكهم» ومن هنا أنصب اهتمام المفكرين المسلمين، وغيرهم على وضع شروط الحاكم الصالح الجدير بحكم المدينة الفاضلة. لكن إذا كان الجو الثقافي الذي ساد مجتمعهم قد سمح لهم بمثل هذا التصور، فإننا نعجب أشد العجب أن نجد من مفكرينا المعاصرين من يأخذ بهذه الأفكار الساذجة⁽¹⁾ فيظن أن مشكلتنا الكبرى هي سلوك الحاكم الأخلاقي، وليس نوع الحكم القائم أي التنظيم السياسي، مع أن أس البلاء هو هذا التنظيم السياسي، أي بناء الدولة. فالمفروض في الدولة ذات التنظيم الجيد أن يحكم القانون، فلا يكون بناء الدولة معتمداً على شخصية الحاكم بحيث ينهار البناء السياسي عندما يموت فرعون!

(1) «سراج الملوك» ص 48، 49.

كما أننا لا بد أن ننتبه جيداً إلى أن الحكم عن طريق مفاهيم أخلاقية ليس حكماً تسعده به، أو نسعى إليه، فتلك سذاجة كبرى؛ لأن هذا اللون من الحكم هو كارثة بكل المقاييس على جميع المواطنين؛ لأنه يحيل الحكم في الحال إلى طغيان واستبداد. فالمفاهيم الأخلاقية ذاتية وفضفاضة، وهي ما لـ تتحول إلى قوانين سياسية مستقرة تحكم الجميع، فسوف تستخدمها إرادة الفرد الحاكم وتفرغها من مضمونها لتحكم حكماً ذاتياً تعسفياً قد يسوق الناس إلى السجون، إن لـ يكن إلى حبل المشنقة؛ وكأن هذا هو في الواقع ما أحال الثورة الفرنسية إلى إرهاب لأنها رفعت شعارات أخلاقية جميلة ونبيلة عن الحرية والإخاء والمساواة، ولكنها ظلت مفاهيم أخلاقية ذاتية ولـ تتحول إلى قوانين تحكم وتطبق، فكانت النتيجة: الإرهاب.

غير أن ذلك لا يعني الفصل الكامل بين الأخلاق والسياسة، فالقول بوجود «هوة» يستحيل عبورها بين المجالين قول فاسد، والمنظور الصحيح هو أن الأخلاق تظهر أولاً في سير المجتمعات، تكون في البداية مدججة في العادات والتقاليد التي تنظم المجتمع، كما هي الحال في المجتمعات البدائية، ثم يحدث التمايز والانفصال، وتتحول المفاهيم الأخلاقية إلى «مستودع» تستمد منه السياسة أفكارها: ففكرة «العدالة» وفكرة «المساواة»... وغيرهما من الأفكار السياسية الجوهرية كانت أفكاراً أخلاقية ثم تحولت إلى قوانين تنظم المجتمع وتضبط سلوك الناس.

نحن إذن نرفض نظام الحكم الذي يعتمد في بنائه على الحاكم الأخلاقي⁽¹⁾

(1) راجع مثلاً د. محمد يوسف موسي «نظام الحكم في الإسلام»، والدكتور أحمد شلبي «السياسة في الفكر الإسلامي»... إلخ إلخ.

الذي يحكم بناء على مفاهيم أخلاقية لم تتحول إلى قوانين، أو الذي يعتمد فيه الحاكم على ما يسمى بـ «الراعي الصالح» صالح الخلق القويم، ونعتبر مثل هذا التصور للحكم تصوراً سيئاً، أولاً يتحول إلى حكم ديكتاتوري إرهابي، وثانياً؛ لأنه يسرق الوعي الذاتي عند الناس، ولا يترك لهم سوى الوعي الحيواني الفطري، وعليه لا يكون لديهم وعي سياسي بحقوقهم، وعلى رأسها حق الحرية في اختيار الحاكم المناسب وعزله إذا ثبت فساده، وسن التشريعات التي تحكمهم.. إلخ. وعلينا أن نستبدل به الحكم الديمقراطي الذي يعتمد على السلطة الشعبية في صنع القرار من ناحية، والمساواة في الحقوق، وممارسة تلك السلطة من ناحية أخرى.

ومن بين ألوان الخلط بين الأخلاق والسياسة ما شهدناه في العصر الحديث عندما يضيفي الحاكم على نفسه ألقاباً أخلاقية كأن يصف نفسه بأنه «أب» لجميع أفراد الشعب وأن المواطنين هم «أولاده»، أو أنه «رب الأسرة»، «وكبير العائلة» كما كان يفعل الرئيس السادات وهو يشعر بكثير من الفخر والاعتزاز بهذه الألقاب العجيبة التي لا تجدها أبداً في المجتمعات المتقدمة!

وكما يصف غيره نفسه بأنه «الأخ» فلان و«الأخ» فلان، ومصدر العجب أنه خلط واضح بين الأخلاق والسياسة؛ ذلك لأن مفهوم الأب أو «رب العائلة» مفهوم أخلاقي وهو واجب الاحترام حتى ولو جانبه الصواب، ولا يجوز لأحد من أفراد العائلة أن يعصي له أمراً أو يوجه له نصيحة! وليس كذلك الحاكم السياسي!

على أننا ينبغي أيضاً أن ننته إلى الجانب من الصورة وهو أن يوصف

المجتمع بأنه «عائلة» واحدة أو أسرة كبيرة؛ لأن الأسرة - كالأب - مفهوم أخلاقي وليست مفهومًا سياسيًا.

وكذلك علينا أن ننتبه إلى نقل المفاهيم السياسية إلى مجال الأخلاق كأن نتحدث مثلاً عن «ديمقراطية الأسرة» فهذا خلط من نوع آخر، كلا؛ لا ديمقراطية في الأسرة، ولا ديمقراطية في المدرسة! فإذا كان النظام الديمقراطي نظاماً سياسياً جيداً نريد له التطبيق الفعلي والحاد في مجتمعنا فلا بد أن نكون على وعي بأن في المجتمع جيوباً لا يجوز أن تطبق فيها الديمقراطية مثل الأسرة، والمدرسة، والجيش والشرطة... إلخ.

إن ما نرجوه للإنسان العربي أن «يعي ذاته» وأن يرفض الوصاية فهو ليس قاصراً، ولا ينبغي أن يفرض عليه أحد كيف يعيش لا الحاكم الأخلاقي ولا الحاكم الديني.. فقد انكوى بنار النظم الشمولية والديكتاتورية عسكرية وغير عسكرية، وأن له أن يمارس حقوقه السياسية عن وعي وتمكن واقتدار! نريد منه أن يكون قادراً على أن يقول: «أنا»: «أنا صاحب هذه الأرض، وأنا الذي أزرعها، وأنا الذي أحصدها، وأنا الذي أدافع عنها إذا استشعرت الخطر، وأنا الذي أدفع الضرائب. وأجلب ميزانية الدولة... إلخ إلخ - إذن أنا الذي أحكم، وليس هناك أقدر مني، ولا أدري مني بمشكلات التنظيم السياسي، فكما تقول الحكمة الأثينية القديمة: «إذا كان الإسكافي هو الذي يصنع الحذاء، فإن من يتعلله هو وحده الذي يعرف أين يضايقه!».

القسم الثالث

أفكار... ومواقف

نحن... والأقباط

لم أكن أشعر طوال حياتي بالاختلافات العميقة بين
المسيحيين والمسلمين، فقد كنا في شبابتنا أثناء الدراسة
في الجامعة نجتمع في المحاضرات وخارجها للضحك
والنكات دون إسفاف... بل لم يكن يدهشنا أن نجد من

بيننا بعض الأخوة المسيحيين يحبون سماع تلاوة القرآن من هذا المقرئ دون
ذاك ويستعذّبونه عن غيره!. وروى لي أحد الزملاء أنه في قريتهم الصغيرة لم
يكن هناك مسجد بل كنيسة حيث كان يملك المنطقة أحد الإقطاعيين من
الأقباط، واتفق المسلمون مع الأقباط أن تقرر أجراس الكنيسة عند أذان
المغرب فيفطر المسلمون على أصواتها وحتى إذا كانت القصة فيها مبالغة
على الأقل فهي دعوة إلى التوافق! بعد التخرج سكنت عمارة في حلوان كان
يملكها القمص مرقص داود، وكنا صديقين حميمين فما من مرة يزور العمارة
إلا ويشرفني بالزيارة! طاف بي شريط الذكريات عندما جاءتني طالبة في
الدراسات العليا سألتني: ما موعظة الجبل؟ ولمن؟! وبدأت أشرح لها بسرعة
أنها للسيد المسيح بعد أن تبعته جموع غفيرة فصعد إلى الجبل وراح يعلمهم-
طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات، طوبى للحزاني لأنهم
يتعزون، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.. إلخ. هذه الموعظة الشهيرة..
وهي في بداية إنجيل متى: أليس عندك الكتاب المقدس، فشهقت وهي تقول
مسرعة: لا! ماما تقول إن وجوده في البيت حرام!.. ونزلت كلماتها على

رأسي كالصواعق من هول ما سمعت فقلت: وهل ماما هي المرجع الأسمى لك؟ أنصحك بالعودة إلى ماما وسؤالها عما يعني ذلك، ويكون من الأفضل لك ولنا أن تنسحب من الدراسات العليا! ذلك لأنني في الواقع لم أسمع أبداً بتحريم وجود الكتب المقدسة بالبيت إلا هذه المرة، فقد قرأت إنجيل بوذا من أحد الزملاء قبل أن أقتنيه، وكان عندي ولا تزال كثرة كثيرة من الكتب المقدسة للديانة الهندوسية، والديانة الزرادشتية.. إلخ. ولقد جرتني هذا المونولوج الداخلي إلى السؤال عن الخلافات العميقة بين المسيحية والإسلام؟ وهل يمكن التقريب بين وجهتي النظر، والتخفيف من حدة هذا الخلاف؟! في ظني أن هناك ثلاثة موضوعات رئيسية ينحصر فيها الخلاف:

الموضوع الأول هو الصلب

أ- فالمسيحيون يعتقدون أن عملية الصلب قد اكتملت حتى نهايتها عندما صرخ يسوع بصوت عظيم وأسلم الروح (متى 27:50).

ب- والمسلمون يعتقدون أن عملية الصلب كانت أقرب إلى التمثيلية التي لم يصب فيها المسيح بأي أذى فلم يقتل، ولم يصلب ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 158]، ويعتقد المسيحيون أيضاً أن الله رفع إليه السيد المسيح لكن بعد ثلاثة أيام من دفنه. ولقد قرأت لأحد علماء اللاهوت الأمريكيين تحليلاً لصرخة المسيح على الصليب في نحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إيلي، إيلي لما شبقني الذي معناه إلهي، إلهي لم تركبني؟! (متى 17 - 46) ويتساءل عالم اللاهوت ما الذي جعل السيد المسيح يستخدم صيغة

الماضي؟ هل لأنه رأى شيئاً هابطاً من السماء جاء لينقذه: فهو يقول له لماذا تأخرت؟ لماذا تركتني الفترة الماضية، ولو صح هذا التفسير فإنه يتفق مع النظرة الإسلامية تمام الاتفاق، وعلى كل حال فهما معاً متفقان على أن السيد المسيح تم رفعه سواء من على الصليب كما تقول النظرة الإسلامية أو بعد ثلاثة أيام كما تقول النظرة المسيحية.

والموضوع الثاني: هو التثليث والقرآن

فيها بالغ الوضوح ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [البقرة: 73] ولكن لماذا نلجأ في المسيحية إلى أقوال جانبية ولماذا لا نلجأ إلى أقوال السيد المسيح نفسه أن الله واحد وليس أحد سواء (مرقس 12: 32) وعندما سئل عن أولى الوصايا قال الرب إلهنا إله واحد. أما الموضوع الثالث فهو أقرب إلى الكلمات المتناثرة مثل ابن الله أو أبي الذي في السماء.. ولا ينبغي التركيز عليها لأنه يقول أيضاً إنه ابن الإنسان أتبع ابن الإنسان بقبلة يا يهوذا؟- وكثيراً ما كان يستخدم تعبير الإنسان ويقصد به هو نفسه! (انظر نهاية إنجيل متى) - وإن كان يستخدم تعبير أبي فقد كان يستخدم أيضاً أبانا الذي في السموات وأبوك السماوي!... أنا لا أريد بهذا المقال أن أمحو وجود اختلافات بين الديانتين لكنها محاولة للتقريب بين أحبة لا أعداء لكي نعود كما كنا في الجامعة أصدقاء متحابين، لا يفرق بيننا بعض الاختلافات هنا أو هناك. لقد روى لنا نجيب محفوظ أن والدته - وكانت سيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب كانت تأخذه معها وهو طفل لزيارة مسجد سيدنا الحسين، كما كانت تجعلنا وبنفس الحماس نذهب لزيارة الآثار القبطية خاصة مارجرجس، وتأخذ المسألة على أنها نوع من البركة، ومن كثرة تردها على

الدير نشأت صداقة بينها وبين الراهبات، وكن يحبونها جداً. وذات مرة مرضت والدتي ولزمت البيت. وفوجئنا بوفد من الراهبات يقمن بزيارتها في البيت. وكنت عندما أسألها عن حبها للحسين، ومار جرجس في الوقت نفسه كانت تقول كلهم بركة.. وتعتبرهم سلسلة واحدة. والحقيقة أنني تأثرت بهذا التسامح الجميل لأن الشعب المصري لم يعرف التعصب، وهي روح الإسلام الحقيقية⁽¹⁾.

فأين هذه الروح الجميلة لسيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب من روح التعصب البغيض التي نراها عند أنصاف المتعلمين الذين يشملهم فرح غامر عندما يسمعون عن هجرة بعض الأقباط إلى الولايات المتحدة، دون أن يفطنوا إلى الخسارة الكبيرة التي ستحملها مصر عندما تفقد هذه الخبرات، فلم أسمع عن كناس قبطني هاجر إلى الولايات المتحدة بل كلها خبرات وكثرة منها باللغة الأهمية التي تمثل هي في حد ذاتها تجريباً للعقل المصري الذي يحتاج إلى سنوات طويلة لسد ما مني به من ثغرات! إن كاتب هذه السطور ليس متخصصاً في اللاهوت ولا حتى في تاريخ الأديان، وإنما هي محاولة للدعوة إلى مثقف مسلم أو مسيحي للتقريب بين هاتين الديانتين بكل ما أوتي من قوة في محاولة لوقف نزيف الهجرة الذي لن تظهر نتائجه إلا بعد سنوات طويلة!.

(1) صفحات من مذكراته رجاء النقاش ص 15.

عن نجيب محفوظ

عادت حفيدتي الصغيرة من مدرستها مكفهرة الوجه
 تكاد تتميز من الغيظ وعندما سألتها عما يكدرها
 انفجرت ساخطة: مدرس اللغة العربية الذي يقول لنا
 الأسبوع القادم سوف نبدأ بقراءة الزفت الذي اسمه:
 نجيب محفوظ! هل يصح ذلك يا جدو...؟! ألم تسأليه لماذا يقول ذلك...؟! إنه
 يقول إن نجيب محفوظ صور إنساناً مثل الله خالقاً للكون!

وأصبح واضحاً إنه يقصد رواية «أولاد حارتنا» التي لم يقرأها مثله مثل
 غيره من أديباء التدين الذين لا يعرفون شيئاً عن الثقافة ولا عن النقد ولا عن
 أخلاق الإسلام! فهم أشبه بذلك البلطجي الذي ضربه بسكين هو جالس
 في سيارة بعد أن هم الرجل بمد يده ظناً منه أنه جاء للسلام عليه! ولما سألته
 النيابة لماذا أردت أن تقتل درة الرواية العربية قال لأنه ملحد.. ومن أين
 عرفت ذلك؟ من روايته «أولاد حارتنا».. وهل قرأتها؟! لا لكنهم قالوا لي
 عنها!! قالوا له إن دخول الجنة إنما يكون بهدم قمم الثقافة في بلادنا دون أن
 نقرأ لهم أو نفهم عنهم شيئاً، ونجيب محفوظ أحد هؤلاء القمم البازخة التي
 زلزلت أرض الثقافة العربية يوم حصل على جائزة نوبل فهاجمه أديباء الثقافة
 في مصر والوطن العربي كله، واتهموه بأفطع التهم (التي يمكن أن نلمسها
 فيهم هم أنفسهم) ولقد سبق أن كتبت عنهم وأنا أحلل روايته ثرثرة فوق

النيل التي تنبأت عام 1966 بالهزيمة البشعة التي وقعت عام 1967 نظراً لغياب العقل المصري في غيبوبة المخدرات بسبب ضغوط الحكم الديكتاتوري: فقد رأينا أن السفينة تسير دون حاجة إلى رأينا أو معاونتنا، وأن التفكير بعد ذلك لن يجدي شيئاً. وربما جر وراءه الكدر وضغط الدم.. كما يقول واحد من مثقفي العوامة⁽¹⁾. والواقع أن جميع المشكلات التي عاجلها نجيب محفوظ في رواياته قد نبعت من صميم حياته: عن الحارة المصرية ثم امتدت إلى المجتمع بأسره بما فيه من مشكلات.

نجيب محفوظ ابن الحارة فقد ولد في بيت القاضي بالجمالية عام 1911 كانت أمه سيدة أمية لا تقرأ ولا تكتب، ومع ذلك فقد كنت أعتبرها مخزناً للثقافة الشعبية كما يقول هو نفسه في أحاديثه: كما كانت تصحبنى معها في زيارتها اليومية إلى مسجد الحسين وتحرس على أن أقبل الضريح، وكانت هذه الأمور تبعث في نفس معاني الرهبة والخشوع...! وكانت الحارة تمثل عند نجيب محفوظ- بما فيها من مشكلات اجتماعية وثقافية ودينية... إلخ المحور الأول الذي عاجله أديبنا الكبير نجيب محفوظ في رواياته: زقاق المدق، بداية ونهاية، وفضيحة في القاهرة (أو القاهرة 30 كما سميت فيما بعد)-وقد يمتد هذا المحور ليشمل المجتمع المصري بأسره كما حدث في روايته الخالدة الثلاثية (بين القصرين - قصر الشوق - السكرية) التي صورت حقبة طويلة من تاريخ مصر بما فيها من مشكلات اجتماعية وسياسية وثقافية.. إلخ. أما المحور الثاني فهو فلسفي (أو ميتافيزيقي) تأثر فيه نجيب محفوظ بوضوح ظاهراً بدراساته الفلسفية- فقد تخرج من قسم «الفلسفة» بآداب القاهرة

(1) الثثرة ص 56.

عام 1934 وبعد أن اقترنت ثقافته الفلسفية بموهبته الأدبية راح يمارس أولى خطواته محاولاً حل بعض المشكلات الفلسفية التي بدأت عنده بمشكلة القدر وإن ارتبط ذلك بتاريخ مصر وكان ذلك في روايته عبث الأقدار التي نشرها عام 1939 الذي يرى أن العقل يحكم التاريخ وأن الروح الكلي هي التي تسيطر على الأحداث وتوجهها وجهة خاصة وربما ضد مشيئة الأفراد، وتتلخص القصة في أن الملك خوفو بن خنوم كان يجلس على أريكتة الذهبية وعندما جاءه الساحر ديدي يطالعه بصفحة من صفحات الغيب تقول نبأ عجيباً وهو أنه ولد اليوم لكاهن معبد رع في أون ولد سجلت الآلهة اسمه ملكاً على البلاد ومن بعد الملك خوفو ! لكن الملك لم ينزعج لأنه ظن في نفسه القدرة على إحباط القدر بضربة من سيفه ! إلا أن كاهن أون كان يدور في ذهنه شيء من هذا القبيل فعمل على تهريب الأم ورضيعها في عربة غير ملاحظها حتى لا يعرفها أحد وجعل لقيادتها إحدى الوصيفات التي تمكنت من الخروج بالأم ورضيعها من الحصار الذي فرضه الملك على قصر الكاهن، ولقد تصادف أن وضعت إحدى الوصيفات ولدًا في ذلك الوقت وظن خوفو عندما وصل أن، هذا الطفل هو ابن الكاهن فطلب منه أن يقتل الطفل وأمه وأخذ الكاهن خنجرًا ودخل الغرفة ولم يقتل أحدًا وإنما انتحر، فدخل وراءه ولي العهد شاهر سيفه البتار وقتل الأم وطفلها، وفي الوقت نفسه كان الطفل الهارب مع أمه ووصيفته وقد وصلوا إلى سيناء حيث تم أسر الأم وفرار الوصيصة التي كانت عاقراً - بالطفل حيث نسبته إلى نفسها وتربي الطفل تحت رعاية زوجها الثاني، والذي أصبح أباً له ويتعلم ويتخرج من المدرسة العسكرية ويلتحق بحرس ولي العهد ويكتشف مؤامراته ضد والده الملك، فيقتله ويقرر الملك الذي نجا من مؤامرة ابنه أن يجعل من هذا

الضابط ولياً لعهدده على العرش، وأن يزوجه إحدى الأميرات. وهكذا تحقق الأقدار خطتها المقدرة سلفاً رغم المحاولات العديدة لأبطال مسارها التي قام بها البشر. والقصة في مجملها تشبه مسرحية أوديب ملكاً التي كتبها الأديب اليوناني سوفكليس. وفي هذا المحور الفلسفي تسير روايته الطريق أو البحث عن الأبوة الكبرى، وهي تحاول أن تحدد صورة الرحيمي في الأذهان أو طريق الإنسان في صعوده إلى الله. وقد يلتقي المحوران الاجتماعي والفلسفي في فكرة فلسفية واضحة تعالجها قصة قصيرة هي ضد مجهول التي تعالج فكرة الموت بأسلوب شيق... هذا هو جانب من نجيب محفوظ العملاق الذي لم تمنحه لجنة نوبل جازيتها بسبب رواية أولاد حارتنا كما يزعم هؤلاء الأدعياء فقد كانت هذه الرواية هي آخر ما ذكرته اللجنة في تقريرها، ذلك لأن نجيب محفوظ كان عظيمًا قبل نوبل كما هو بعدها فهو مؤسس الرواية العربية غير منازع أما من جاءوا قبله مثل هيكل، ويحيى حقي مع احترامنا لهم- فهم أقرب إلى الهواة بالنسبة لهذا العملاق!

العدالة.. امرأة

سألني باحث شاب يعد رسالة لنيل درجة الماجستير عن
العدالة: أيمكن أن نجد مفهومًا للعدالة في الفكر القديم،
بل الموغل في القدم؟

وأجبت بالإيجاب وإن كان هناك شيئان يلتفتان النظر:

الأول: أن العدالة تظهر في ثنايا الأساطير إذ لم يكن الفكر الفلسفي قد ظهر بعد. والثاني: أن العدالة تظهر باستمرار في ثوب إلهة أنثى دون أن تكون رجلًا أبدًا. وعلى سبيل المثال كان للآلهة ماعت maat إلهة الحق والعدل في مصر القديمة مكانة عالية في بانثيون الآلهة (pantheon مجمع يضم جميع الآلهة بلا استثناء) فهي ابنة إله الشمس رع ويرمز إلى اسمها بريشة النعامة ويشير كتاب الموتى إلى حضورها بوزن القلوب حيث توجد ريشة الحقيقة عادة في إحدى كفتي الميزان، كما تظهر على أنها يمكن أن تشغل ميزان القلب الموزون. وكثيرًا ما كان القضاة المصريون يظهرون في العصر البطلمي أو الروماني وهم يضعون تيممة أو حجاب ماعت برباط حول العنق كشعار على وظيفتهم. ويقول نص من النصوص المصرية القديمة عظيمة هي ماعت، قوية ولا يمكن أن تتبدل أو تتغير...! وتصورها الآثار القديمة وهي تضع على رأسها ريشة النعام -وعلى القارئ أن يلاحظ التعبير العامي المنتشر بين المصريين حتى يومنا الراهن عندما يتعجبون من شخص

يظهر بمظهر العظمة فيتساءلون: ماذا دهاه: وهل على رأسه ريشة؟! أي هل هو الإلهة ماعت إلهة الحق والعدل وصاحبة العظمة الإلهية؟!.

وتصور موسوعة لاروس Larousse للأساطير يوم الحساب عند المصريين القدماء بعد أن يجتاز الميت الطريق المرعب الممتد بين مملكة الأحياء ومملكة الموتى يقوده حاجب المحكمة إلى أن يصبح أمام القاضي صاحب السيادة فيقبل أعتاب العدالة التي يجلس أوزيريس في نهايتها، وفي الوسط يوضع ميزاناً هائلاً تجلس بجواره الإلهة ماعت Maat إلهة الحق والعدل جاهزة لوزن قلب الميت.. وتستمر كما تروي الموسوعة إجراءات كثيرة تتوقف على أمرين الأول ما يسمى بالاعتراف السلبي: وهو اعتراف يوجهه الميت إلى قضاته باسم كل قاضٍ على حدة يبرهن على أنه يعرفهم واحداً واحداً وليس لديه ما يخشاه مؤكداً أنه لم يرتكب إثماً ولا خطيئة وأنه طاهر تماماً.

والأمر الثاني: القرار الذي تصدره الإلهة العظيمة ماعت Maat بعد وزن الروح أو القلب وبعد أن تضع الإلهة رمزها (وهو ريش النعامة) وهو أيضاً رمز الحقيقة في كفة وقلب الميت في الكفة الأخرى! وفي النهاية فإن القدماء يصورونها في صورة امرأة تقف أو تجلس على كعبيها، وتضع على رأسها ريشة نعامة رمزاً لاسمها: الحق أو العدل فهي إلهة القانون، والحقيقة، وتصورها النصوص القديمة بأنها الابنة العزيزة عند الإله رع Ra ومحل ثقته. وهي أيضاً زوجة ثوث thoth قاضي الآلهة أو إله الحكمة والمعرفة، وهو مخترع الكتابة، وواضع النظام الاجتماعي، ومبدع اللغات ومستشار الآلهة، وهو سيد الزمان والمسئول عن التقويم والأعمار... إلخ.

أطلقنا قليلاً مع الآلهة ماعت إلهة العدالة عند الفراعنة لأنها تهمنا أكثر من غيرنا فها زالت آثارها باقية في حياتنا اليومية حتى يومنا الراهن. أما الأخريات من إلهات العدالة فهن أقل شأنًا- بالنسبة لنا على أقل تقدير وهناك بصفة عامة الإلهة ديكي dike إلهة العدالة عن اليونانيين وأيرين irene إلهة السلام، ويونوميا إلهة النظام والقانون وهن بنات كبير الآلهة زيوس zeus في الأساطير اليونانية من تيمس themis وقد كن في البداية إلهات للفصول. والملاحظ في هذا الحديث أيضًا أن العدالة.. امرأة! في جميع الأساطير والسؤال الذي يطرح نفسه في جميع الأحوال لماذا جعل القدماء على اختلافهم العدالة إلهات من النساء؟! هل لأن المرأة أرجح عقلاً أو أشد ثباتاً من الرجل؟ هل لأنها ليست طائشة تميل مع الهوى وهي تستطيع أن تزن الأمور على نحو دقيق؟!

ألنسنا نجد هنا نفس الخصائص التي نسبها القرآن الكريم للمرأة عندما تحدث عن بلقيس القديمة ملكة سبأ بعد أن وصلها خطاب سليمان فجمعت عليه القوم من الرجال تأخذ رأيهم فيما تفعل فاندفعوا في رعونة وطيش يلوحون بالحرب ويذكرونها بما هم عليه من بأس وقوة، أما هي فكانت أرجح عقلاً وأشد اتزاناً من الرجال الأشاوس فذكرتهم بما يفعله الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وصدق القرآن على ما تقول بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: 34].

واقترحت على قومها بإرسال هدية لتري إن كان من أهل الدنيا ممن يهتمون بمتع الحياة أم أنه من أنبياء الله الصالحين حقًا.. ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهِدْيٍ مُّنَظَرَةٍ يُمَرِّجُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: 35]. وهنا يكشف القرآن الكريم

رجاحة عقل المرأة وسداد رأيها ورعونة الرجال واندفاعهم إلى التلويح بالقتال دون أن يتبينوا أبعاد الموقف أكانت بلقيس من سلالة الإلهة ماعت maat الابنة العزيزة للإله رع تجري في عروقها دماء المرأة القوية بما تحمله من رجاحة العقل والاتزان والحكم السديد على الأمور...!.

كنت ألقى محاضرة عامة عن المرأة وذكرت القصة القرآنية عن بلقيس ورجاحة عقلها عندما جاءني بعد المحاضرة شاب من الأجسام الضخمة التي لا تحمل عقلاً سألني: ولماذا يا دكتور لا نقول إن القرآن في روايته للملكة بلقيس كان يسخر من المرأة ومن تصرفاتها ولا يشيد برجاحة عقلها؟ واندعشت فسألته وكيف يكون ذلك والإشادة واضحة بسلامة الرأي وسداده، ومقارنته بموقع الرجال الأحمق المندفع؟ قصمت قليلاً ثم قال: يعني! وهو طبعاً لا يعني شيئاً أنه يريد فقط أن ينفي سلامة رأي المرأة ورجاحة عقلها: هؤلاء هم الدجماطيقيون الأقفال الذين لا يعرفون شيئاً ولا يفهمون شيئاً سوى ما يسري بين العوام ويسألهم القرآن الكريم لماذا لا يتدبرون القرآن ويفهمونه جيداً ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

وأخيراً: من مصر ظهرت العدالة.. امرأة- ومنها انتشرت في كل محاكم الدنيا المرأة رمز العدالة معصوبة العينين وهي تحمل ميزان أوزوريس وتقول لرجال مصر الأوفياء: أما تستحون...!.

أخلاق الحيوان

مازلت أكافح بكل ما أوتيت من قوة لأفنع محدثي أن ما
قاله شيخنا هيجل (1770-1831) هو عين الصواب.

وهو أن الحيوان يفتقر إلى الدين بقدر ما يفتقر إلى
القانون والأخلاق (موسوعة العلوم الفلسفية ص 47-48

من ترجمتنا العربية)- والواقع أن هيجل ينفي عن الحيوان مجموعة كبيرة من
الخصائص الأساسية التي ينسبها للإنسان مثل اللغة، والوعي الذاتي (فليس
في استطاعة الحيوان إدراك ذاته) والتفكير.. إلخ. وفي ظني أن أوضح هذه
الخصائص جميعاً هي السلوك الأخلاقي، الذي ينبغي علينا أن نتفق في الحال
أنه سلوك إنساني خالص. لكن قطاعاً عريضاً من البشر في مجتمعنا يذهب
في طريق معاكس ويعتقدون أن للحيوان أخلاقاً، ويغالي بعضهم إلى حد
القول إن بعض الحيوانات أرقى في أخلاقها من الإنسان، فالكلب أكثر وفاءً
من الإنسان، وكذلك الحصان أشد إخلاصاً منه.. إلخ. فلو أن الله وهب
الكلب اللسان لشكر في الوقت الذي يحدد فيه الإنسان! لا يغدر بك، ولا
يخونك، ولا يحسدك على ما لديك من نعم كما يفعل الإنسان! أتستطيع أن
تطبق الحكمة الشهيرة: اتق شر من أحسنت إليه على الحيوان بعامة والكلب
بخاصة؟ كلا لأن الكلب حين تحسن إليه، وتطعمه، وتؤويه، وتداعبه،
وتسقيه. فإنك تطمئن تماماً لوفائه لأنه سيحفظ أكثر إخلاصاً من بني البشر -

وينسجون القصص والحكايات التي يدعمون بها رأيهم ويبرهنون من خلالها على أن الأخلاق الحقيقية هي أخلاق الحيوان كالقصة الشهيرة عن الأعرابي الذي تركه أعداؤه جريحاً بعد معركة معهم فحملة حصانه إلى قبيلته جريحاً، وفي رواية أخرى أنه ذهب واستدعي نفرًا من أفراد القبيلة...! وهناك من يناصر الحيوان ويدافع عنه وعن أخلاقياته، لكن بطريقة أكثر اعتدالاً من المتطرفين السابقين، إذ ينسب للحيوان فضائل كثيرة، ولكنه يعترف في الوقت نفسه برذائله أيضاً أعني أنه يذهب إلى أن الحيوان كالإنسان تماماً، له سلوكه الأخلاقي بكل ما تحمله كلمة الأخلاق من فضائل ورذائل، وخير وشر...! علينا الآن أن نعرض نماذج من أخلاقيات الحيوان على نحو ما يعرضها علينا أصحاب هذه الوجهة من النظر مرجئين التعقيب عليها ومناقشتها إلى نهاية المقال. لعل أكبر نصير للحيوان في ثرائنا العربي عمر بن بحر الجاحظ (768 - 775) الذي ألف كتاباً يحمل اسم الحيوان عرض فيه لتصنيف الحيوانات وأنواعها وأجناسها وفصائلها ومناقبها وطباعها... إلخ ويمكن أن نسوق نماذج لفضائل الحيوانات كما ذكرها الجاحظ: يرى أن فضيلة العصفير حبها الشديد لصغارها وعطفها وحنانها عليهم يقول: ليس في الأرض طائر ولا سبع، ولا بهيمة أحنى على ولده ولا أشد به شفقاً عليه وإشفاقاً من العصفير. ويسوق الجاحظ مشهداً حياً تبرز فيه هذه الفضيلة واضحة وهو الموقع الذي تهاجم فيه الحية صغار العصفير وما ينتاب الأم من ذعر وهلع يرى العصفور الحية قد أقبلت نحو جحره وعشه ووكره لتأكل بيضه وفراخه، فيصيح؛ لا يسمع صوته عصفور إلا أقبل عليه، وصنع مثل صنيعه بتحرق ولوعة وقلق، وربما أفلت الفرخ وسقط إلى الأرض- وقد ذهبت الحية فيجتمعن حوله...! ويشير الجاحظ هنا إلى حب العصفير لصغارها من ناحية، وما بين بعضها البعض من

مشاركة وجدانية كلها ألربها حادث أو صادفها مكروه! أما فضيلة القطة عند الجاحظ هي الإيثار وليس الشوق إلى الحرية كما كان يظهر المنفلوطي! لأنها تؤثر صغارها على نفسها حتى ولو كانت جائعة... إلخ، راجع كتابنا فلسفة الأخلاق حيث عالجت هذه الموضوعات باستفاضة. [أما الكلب فإن الجاحظ يفرد له فصلاً طويلاً يعرض فيها مناقبة وفضائله المتعددة بأسرها شديد فيأخذ عن كرم الكلاب، والكلب يحرس ربه ويحمي حريمه شاهداً وغائباً وذاكراً وغافلاً ويسوق الكثير من القصص التي تبرهن على ما يقول: [ومن أراد أن يستزيد فيلرجع إلى كتابنا السابق].. ونريد الآن أن نكتفي بما سقناه من أمثلة ودلائل وهي كلها في نظرنا لا تبرهن على أن سلوك الحيوان أخلاقي بل محايد أعني أنه لا يوصف لا بالفضيلة ولا بالذيلة! فالسلوك على ثلاثة أنواع فهو إما أن يكون أخلاقياً moral كالأمانة والصدق... إلخ. أو غير أخلاقي mmoral كالسرقة والشر والكذب.. إلخ. أو لا يدخل نطاق الأخلاق على الإطلاق amoral كسلوك الحيوان والجناد: فقطعة الورق التي أكتب عليها الآن لا هي خير ولا شر. فقد تكون خيراً إذا كتبت عليها مقالاً يفيد الناس وقد تكون شراً إذا أشعلت فيها النار لأحرق المكتبة وما فيها من كتب!

والمبضع في يد الجراح قد يكون خيراً إذا أجري به عملية جراحية لاستئصال ورم من مريض لكنه قد يكون شراً إذا ذبح به هذا المريض! والواقع أن ما يوصف بالخير أو الشر في هذين المثالين هو سلوك الإنسان الذي يرتكب الفعلين! ذلك لأن الفعل الأخلاقي له مواصفات خاصة أو شروط معينة نوجزها فيما يلي:- لابد للفعل الأخلاقي أن يكون حراً، فإذا كانت الأفعال الأخلاقية تخضع للاستحسان إذا كانت فاضلة وخيره وللاستهجان

إذا كانت رذلة أو شريرة، أعني إذا أمكن أن يكون هنا ضرب من الثواب والعقاب بالنسبة للفعل الأخلاقي فإنه يشترط أن يكون لدى الكائن الذي صدر عنه هذا الفعل القدرة على الاختيار، بحيث أستحسنه إذا اختاره وكان فضلاً أو أستهجنه إذا كان رذلاً. وتعريف الفعل الحر هو أنه ذلك الفعل الذي كان يمكن للفاعل أن يختاره سواء. فإذا لم يكن الفاعل حرّاً خرج عن دائرة الأخلاق، حتى ولو كان فعلاً بشرياً. ذلك لأن الفعل الذي يجبر عليه صاحبه لا يمكن أن يكون موضع مدح أو قدح. فإذا ارتكب شخص ما فعلاً سيئاً كالسرقة تحت تهديد خنجر في ظهره فإذا عمله لا يمكن أن يوصف بأنه أخلاقي أو غير أخلاقي لأن عمله، في الواقع، ليس له (ولذ لا يحاسبه عليه القانون، وإنما يحاسب ذلك الشخص الذي هدده وأجبره على السرقة)- وقل مثل ذلك في إنسان أجبر على فعل الخير فأفرض أن شخصاً ذهب إلى ثري بخيل وهدهد بمسدسه أن يتبرع بجزء من أمواله للفقراء أو المساكين وأفرض أن البخيل استسلم وتبرع أيكون فعله في هذه الحالة أخلاقياً؟ كلا لأن شرط الفعل الأخلاقي أن يكون حرّاً وأن يصدر عن صاحبه باختياره هو! فإذا كان فعل الحيوان غريزياً أي ليس حرّاً فلا يمكن أن يكون فعلاً أخلاقياً وإنما هو من قبيل العمليات البيولوجية في الإنسان!... ومن شروط الفعل الأخلاقي أيضاً أن يكون مقصوداً فلا يأتي اتفاقاً مع الأخلاق فإذا أكلت حتى شبعت بعد صوم يوم طويل ثم ألقيت بالطعام المتبقى إلى جوار الحائط وجاء رجل صائم يتضور جوعاً وأكل وشبع أيكون سلوكي أخلاقياً في هذه الحالة؟ كلا! حتى مع أنه أتفق مصادفة مع الأخلاق إلا أن هذا الاتفاق لم يكن مقصوداً! ومن شرط الفعل الأخلاقي أيضاً أن يصدر عن نية حسنة حتى إذا لم تتحقق هذه النية فالطبيب الذي هبط من منزله مسرعاً لكي ينقذ

مريضاً لكنه تأخر في الطريق بسبب حادث في الطريق أو عطل في سيارته أو غير ذلك من الأعطال الخارجة عن إرادته يظل فعله أخلاقياً حتى إذا وصل بعد وفاة المريض! وأخيراً لا بد أن يكون فعلاً عاقلاً لا هو طبيعي ولا غريزي ولا حيواني.. إلخ أي باختصار فعلاً يقوم به إنسان. ومن هنا جاء الحديث الشريف «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق!» والمقصود هنا بالطبع الأخلاق الإنسانية وليست أخلاق الحيوان، لأن الحيوان لا أخلاق له كما أنه لا دين له، ولا قانون!

وأخيراً أحمد سلامة

في إحدى السنوات طلبت مني مجلة خليجية أن أكتب في موضوع جديد بمناسبة التجديدات التي تقوم بها، فكتبت سلسلة من المقالات تحت عنوان كلمات ضالة تخيلت فيها الكلمة كائن حي- كما أن هذا الكائن الحي يمكن أن ينحرف عن مساره الطبيعي الذي كان يسير فيه، فكلمة الميتافيزيقا لم تكن في بدايتها تعني شيئاً سوى اسم مجموعة من المقالات التي وردت بعد كتاب الطبيعة لأرسطو (ولم يكن أرسطو نفسه يعرف كلمة الميتافيزيقا التي سمي بها أعظم مؤلفاته- بل أصبحت تطلق على موضوعات من أكثر موضوعات الفلسفة صعوبة وتجريداً وإثارة للجدل!)- وكلمة السوفسطائي Sophist كانت تعني في بدايتها الحكيم ثم انتهت لتعني المرائي والمخادع...

لكن ألا يحدث ذلك مع الأفراد من بني البشر؟!

ألم يقف الشاب نجيب محفوظ كالطود الشامخ أمام رغبة والده في الالتحاق بكلية الطب ليكون مثل نجيب محفوظ الطبيب الذي أشرف على ولادته المتعسرة والذي سمي باسمه؟! إلا أن الشاب الذي كان يستشرف طريقه ومواهبه أصر على الالتحاق بكلية الآداب قسم الفلسفة؟ ثم عاد الأب يلح على التحاق ابنه بكلية الحقوق ليكون وكيلًا للنائب العام مثل فلان وعلان، لكن الشاب النابه يعود مرة أخرى إلى الإصرار على الالتحاق

بكلية الآداب قسم الفلسفة، فكان ما كان نجيب محفوظ مبدع الرواية العربية!

لكن هناك كثيرين غيره تنازلوا عن البحث عن الهواية والموهبة وساروا في طريق مخالف لها إرضاءً لرغبة الوالدين، أو أنهم لم يكتشفوا أنفسهم إلا بعد فوات الأوان وإليك بعضاً من هؤلاء:

الدكتور حسين فوزي. الطبيب الذي ساعد في إنشاء البرنامج الثاني بالإذاعة وكان له باع كبير في ميدان الموسيقى!

الدكتور يوسف إدريس الطبيب القصاص الذي أسهم في إنشاء نادي القصة وكان ينافس نجيب محفوظ في كتابة القصة القصيرة دون أن يعلم أحد أنه طبيب! الدكتور مصطفى محمود أخصائي الأمراض الصدرية والكاتب الكبير الذي اتجه إلى اليسار في البداية ثم استقر في أحضان الدين واستغل معلوماته العلمية في شرح بعض الآيات القرآنية! الدكتور إبراهيم ناجي أخصائي الأمراض الباطنية والشاعر صاحب الدواوين الثلاثة الشهيرة! الدكتور طارق علي حسن: أستاذ الغدد بكلية الطب ورئيس دار الأوبرا في يوم من الأيام! الدكتور يحيى الفخراني أخصائي الأمراض العصبية والممثل المعروف. والدكتور عزت أبو عوف الذي لا يعلم كثيرون أنه كان في الأصل طبيباً قبل أن ينتقل إلى الموسيقى ليجد نفسه في ميدان التمثيل والغناء.

والدكتور فؤاد خليل طبيب الأسنان الذي أصبح من نجوم الكوميديا!.. الدكتور النجدي طبيب الأسنان بطنطا الذي كان أول من لحن ألحاناً حديثة للسيدة أم كلثوم!.

وأخيراً وليس آخراً الدكتور أحمد سلامة فهو طبيب الأمراض الباطنية

الذي لم يكن في طفولته يهوى مجالات الأطفال ولا لعب الكرة ولا ركوب الدراجات كما يفعل الأطفال عادة بل كان شغله الشاغل حفظ كلمات الأمثال الشعبية والحكم التي يجيد حفظها عن عمه (وكان يكبر والده بعشرين عاماً!) - مع ميل إلى الهدوء والتأمل، وبدأ في مرحلة الشباب يقرأ لأفلاطون وأرسطو.. وعندما حصل على مجموع عال جداً في الثانوية العامة وأرقام قريبة من النهائية في المواد العلمية بدأت والدته تلح عليه للالتحاق بكلية الطب بجامعة القاهرة بينما كان الوالد يفضل الفينة العسكرية - لكن الشاب كان يرغب في الالتحاق بكلية الآداب، وهي رغبة بدت أشبه بالجنون لمن يحصل على مثل هذا المجموع المرتفع الذي يؤهل صاحبه للالتحاق بأرفع الكليات كلية الطب! وفي أثناء الدراسة بكلية الطب كان يوفر من مصاريف شراء الكتب الطبية لكي يشتري الكتب الأدبية وكان والده يسخر منه ويتساءل! تشتري الكتب الأدبية: أبقى قابلي لو فلحت في كلية الطب!

ولقد دفعه ذلك إلى متابعة البرنامج الثاني بالإذاعة المصرية، وما كان يقدمه الدكتور حسين فوزي من إذاعة رسائل الدكتوراه في الجامعات المصرية في فروع الآداب المختلفة، وقراءة الموضوعات والمقالات الفلسفية في جريدة الأهرام للأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود، وفي إصدارات دار الهلال، ومجلة العربي الكويتية.. إلخ. وبعد تخرجه عرض على والده أن يلتحق بكلية الآداب لكي يشبع رغبته في دراسة الفلسفة بعد أن أَرْضاهم وأصبح طبيباً فرد عليه بقوله: دور على حد تاني يصرف عليك!. فسجل لدرجة الماجستير في الأمراض الباطنية وحصل عليها عام 1980 ثم سافر إلى المملكة المتحدة، وعندما عاد تقدم برسالة دكتوراه إلى كلية طب قصر العيني، وتمت مناقشتها عام 1993

سافر بعدها إلى أمريكا لبعض الوقت ثم عاد إلى القاهرة، وطوال هذا الوقت وهذا الرجل يصارع في جبهتين: جبهة الهواية وجبهة الاحتراف.. وأخيراً انتصر جبهة الهواية، فأغلق عيادته في القاهرة واتجه إلى دراسة الفلسفة من مصادرها الأصلية في مكتبة كلية الآداب في جامعتي القاهرة وعين شمس. وحرص على حضور مناقشة الرسائل العلمية (للماجستير والدكتوراه) وبدأ منذ عام 2003 في ترتيب ما جمعه من أفكار وحكم وعبارات للفلاسفة وآرائهم في شئون المجتمع من قراءاته على مدى أربعين عاماً في 35 (أجندة) 380: الخالدات 100 أولاهن السيدة مريم ويحتوي على ثمانية فصول مقسمة حسب موضوع العظمة: العظيمات في الإيمان: السيدة مريم، والسيدة خديجة والسيدة آسيا وملكة سبأ بلقيس - إلخ والعظيمات في العطاء: الملكة زبيدة، والأم تريزا والأميرة فاطمة إسماعيل.. إلخ وعظيمات قدمن جديداً: في مهنة التمريض ورائدة تحرير المرأة، وصاحبة نوبل للسلام، وأول دار نشر للأطفال. وسانت كاترين وهلن كيلر ورابعة العدوية وجان دارك.. إلخ وطبع هذا الكتاب أربع مرات في سنتين (2010 - 2012)! 2012: رجال لم يعرفوا المستحيل! وقد كتب عليها أنه موجه إلى الشباب فقط! يروي فيه قصص نجاح مائة شخصية عالمية نادرة ويبحث الشباب على الاقتداء بهم، فليس هناك مستحيل أمام مهارتك وألوان التميز التي تتمتع بها، أما العقبات التي قد تواجهك من الأسرة أو المجتمع، فكن طه حسين آخر، الكفيف الذي أثار طريقنا ببصيرته وفكره هبة الله للمصريين في القرن العشرين، أو الإمام محمد عبده منارة التحديث والتجديد الفقهي في العصر الحديث.. أو ستفن هوكنج العالم المقعد على كرسي متحرك.. ومع ذلك وصل إلى جائزة نوبل في الفيزياء!! وشاعرنا الرقيق أبو القاسم الشابي مريض القلب الذي

مات عن خمس وعشرين عامًا (1909 - 1934): إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر.

وهذا الشاب المريض كان عاشقاً للمغامرة دائم الدعوة إليها فهو القائل:-
من لا يحب صعود الجبال.. يعيش أبد الدهر بين الحفر. فلا الأفق يحضن
ميت الطيور ولا النحل يلثم ميت الزهر.

وهناك عشرات من هؤلاء الذين رفضوا الاستسلام لظروفهم الخاصة أو
ظروف أسرهم أو مجتمعهم وقرروا المضي في تحقيق آمالهم وأحلامهم مهما
يكن الثمن! في هذا العام 2013 صدر له كتاب طريف في موضوعه هو
الصبر الفضيلة الغائبة في حياة البشر.. فهو يرى أن الصبر والمثابرة ضرورتان
أساسيتان في الإنجازات العلمية والمجتمعية والرياضية. وهو يتحدثنا عن
فلسفة الصبر ومعناها وعن صبر الأنبياء والرسل، والصبر على النفس وكيفية
تعلم الصبر؛ وعن الصبر والتأني في الحوار والاختلاف، والصبر في المرض
والإعاقة، وفي آداب المرور وقيادة السيارة، والصبر في تربية الأطفال ومع
كبار السن الذين قهروا الزمن بالصبر. فالإنسان الذي يمكنه اتفاق الصبر
يمكنه إتقان أي شيء آخر!..

ولما كان الدكتور أحمد سلامة قد بدأ حياته الأدبية بكتابة موسوعة
أخلاقية صغيرة تشمل أكثر من 3.000 نصيحة وحكمة للشباب جميعاً من
الحضارات المختلفة: الفرعونية، والصينية والهندية.. إلخ. فإنه الآن يعكف
على استكمال هذه الموسوعة الصغيرة لتكون موسوعة كبرى- وهو يكتب
ما يكتب وفي ذهنه الشباب، أو قل شبابه هو وما كان يعانيه من ضغوط
أسرية، وصراع بين ميوله الأدبية وموهبة المكنونة التي تحتاج إلى مناخ

خاص لكي تظهر والمثل العليا التي تصنعها الأسرة للشباب حسب ظروفها وظروف المجتمع معها.. وهكذا يظل الشاب أحمد سلامة يكافح وحده لكي ينمي مواهبه حتى بعد أن تجاوز الستين! فيا أيها الناس اعلموا أن أجمل شيء في هذه الدنيا أن يكون عملك هو هوايتك، وموهبتك هي وظيفتك!

عبد الرحمن بدوي .. يدافع عن القرآن

هناك عادة مذمومة منتشرة بين أدياء التدين عندنا وإن كانت ليست غريبة إذا تفشي الجهل في المجتمع وندرت المعرفة، وهي عادة تكفير الرأي الآخر، أو حتى الرأي الجديد لمجرد أنه جديد.

وقد كانوا في السابق يرفعون شعار عليك أن تؤمن بما يؤمن به، وإلا لعنك الله وهو الشعار الذي تحول الآن: عليك أن تؤمن بما به وإلا تقتلك! وليس لك أن تناقش أو تفكر بل عليك أن تطيع طاعة الدواب؛ وقف الحجاج بن يوسف على المنبر يقول والله لو أني أمرت أحداً أن يخرج من باب من أبواب المسجد، فخرج من الباب الذي يليه لضربت عنقه!. فشبوا على كراهية أهل الرأي، وكانوا أشبه بأهل مدينة أفسس اليونانية التي قال فيهم الفيلسوف هيراقليطس إنهم اعتادوا القول إننا لن نستبقى بيننا أحداً من الفضلاء، فإن وجد فليذهب إلى مكان آخر، وبين قوم آخرين! وهذا هو شعار أهل التدين الزائف لا يريدون أحداً من أهل العلم والفضل ولماذا لأنه كافر أو ملحد زنديق وهي أبسط وأسرع تهمة يقذفونه بها ولر يفلت منها عالم أو مفكر أو باحث وعلى رأسهم أستاذنا العظيم عبد الرحمن بدوي ألم يكتب الزمان الوجودي؟ ألم يعلن صراحة أنه فيلسوف وجودي؟ ومتى كانت الفلسفة الوجودية إلحاداً؟!

ألم يكن مؤسسها سرن كيركجور (1813-1855) أحد أقطاب الفكر الديني في الدانمارك في القرن التاسع عشر؟ ألم يحاول تحليل الذات البشرية وانتهى إلى أنها ثلاثة أنواع تبدأ من الذات الحسية (أو الجمالية كما يسميها أحياناً) ثم الذات الأخلاقية، وأعلاها الذات المؤمنة؟! عبد الرحمن بدوي الذي نقل إلينا التراث الإسلامي من الفرنسية والألمانية، والإيطالية.. إلخ يكتب بالفرنسية في نهاية حياته دفاع عن القرآن الكريم ضد منتقديه، ونقله إلى العربية الأستاذ كمال جاد الله) ويصدر الدكتور بدوي كتابه بالآية الكريم: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: 88]. يبدأ بها المؤلف هو كلمة أمي خصوصاً حين يوصف بها النبي: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: 157].. وتطلق كلمة أمي على الأميين في الآيات القرآنية: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ [الجمعة: 2]. قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 78]. وعلينا أن ننظر أولاً في الحالة الأولى وهي كلمة أمي التي تصف النبي محمداً، فنجد أن التفسير الأكثر اعتماداً لدى مفسري القرآن الكريم واللغويين هو ما جاء في لسان العرب محمد نبي الله وصف بأنه أمي لأن الأمة العربية لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، فأرسل الله لهم رسولاً من أنفسهم لا يقرأ ولا يكتب، وكانت هذه إحدى معجزاته حيث كان يتلو عليهم كتاب الله مباشرة من الوحي الذي يبلغه عن الله عز وجل دون تغيير أو تبديل لكلماته. بينما كان الخطيب من العرب يعتمد على الإضافة أو الحذف في أي خطاب يعيده مرة أخرى. ولقد اقتضت حكمة الله أن يظل كتابه محفوظاً لا دخل لنبه فيها نزل منه.

وأخيراً عن الذين أرسلهم قبله وهو ما يتميز به عنهم، وأنزل عليه بمناسبة ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِمِعْيَنِكَ إِذَا لَا زُنَابَ الْمُبِطُلُونَ﴾ [العنكبوت: 48]. نستنتج من هذا الاستشهاد ما يلي: أن النعت أمي تعني من لا يقرأ ولا يكتب. أنها كلمة أمة وتعني أمة العرب، حيث كانت هذه الأمة في مجملها أمية، ولسان العرب يؤكد هذه الفكرة أكثر بقوله: كان العرب يسمون بالأميين لأن الكتابة كانت لديهم نادرة أو غير موجودة واستشهد بالحديث الشريف بعثت إلى أمة أمية. وهناك معنى آخر يورده لسان العرب للفظ أمي وأميون وهو معنى ينطبق أكثر على الأمم، ويقول أحد علماء اللغة الأمي هو الذي يظل كما والدته أمه أي لم يتعلم الكتابة فهو أمي لأن الكتابة صنعة مكتسبة، وهو في هذه الحالة ظل كما ولدته أمه، وتبعاً للمعنى فإن كلمة أمي جاءت من كلمة أم نحن هنا أمام أصلين لهذه الصفة أمي، الأول: أمي مصدرها من أمة. والثاني: - أمي مصدرها من الأم. وكلا الأصلين للكلمة يمكن أن يقبل من الناحية النحوية وليس هناك مشكلة في هذا الصدد، ولكن من ناحية المعنى هناك اختلاف كبير ينشأ عن استخدامنا للأصل الأول أو الأصل الثاني، لأن الأصل الثاني للكلمة أمي مشتقة من الأم يسمح لنا أن نقصد بكلمة أمي من لا يقرأ ولا يكتب، أما الأصل الأول للكلمة أمي مشتقة من أمة لا يسمح لنا أن نقصد لهذه الكلمة من لا يقرأ ولا يكتب. ولذلك يرى الدكتور بدوي أن الذين يظنون أن معنى كلمة أمي التي يوصف بها النبي - أنه ينتمي إلى الأمة العربية يخدعون أنفسهم لأنه من الزيف أن نقول: إن الكتابة كانت نادرة أو معدومة عند العرب من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كثيراً من الأمم كانت على نفس شاكلة الأمة العربية في هذه الحالة.. لماذا إذن حصر هذا النعت على الأمة

العربية لتختص به وحدها دون سواها، خصوصاً أنه يمكن الاعتراض على هذا استناداً إلى الآيات التي استدللنا بها في هذه الحالة التي ورد فيها لفظ أمي وأميون للدلالة على الأمم حيث إن الأمر يتعلق بأمم كثيرة متعارضة أو موازية مع أمتي التوراة (اليهود) والإنجيل المسيحيين أي أهل الكتاب بصفة عامة... ويناقش الدكتور بدوي ما أورده المستشرق نيلنو Nallno الذي يذهب إلى أن لفظ أمي مشتق من الأمة العربية، وهذا هو الرأي الذي وجدناه في لسان العرب لابن منظور، ولكن نيلنو- في رأي الدكتور بدوي- أورده مبتسراً دون أن يوضح أن العرب لم يكونوا في مجملهم يعرفون الكتابة أو القراءة.. وعلى هذا فرأى هذا المستشرق لا يمكن أن يقبل على أي حال لأنه قائم على افتراض خاطئ وهو أن محمداً مرسل فقط إلى الأمة العربية كما كان موسى مرسلًا إلى شعب إسرائيل، وعيسى مرسلًا إلى أمة فلسطين.. إلخ وذلك لأن:- النبي محمد أرسل في عام 627م خطابات ملوك العالم الأربعة في عهده وهم: هرقل الثاني إمبراطور بيزنطة، وكسرى أنوشروان ملك الفرس، والمقوقس حاكم مصر، وملك الحبشة، وهذا يوضح بجلاء أن محمداً كانت رسالته عالمية لكل أمم العالم، ولو كان نبياً مرسلًا فقط إلى الأمة العربية لما فكر في إرسال هذه الرسائل الأربع إلى حكام العالم المعروفين في ذلك الوقت يدعوههم إلى اعتناق الإسلام هم وشعوبهم. يؤكد القرآن بوضوح أن النبي محمداً مرسل إلى الجنس البشري كله، وبذلك لقوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبا: 28]. ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِّلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: 79]، ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ

فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[الأعراف: 158]﴾ فليس من شك في أن النبي هو رسول الله إلى كل البشر دون تفرقة بسبب الجنس أو القومية أو الحدود أو اللغة واللون. وأن عالمية الرسالة المحمدية حقيقة ثابتة لا مرأى فيها. وينتهي الدكتور بدوي إلى تفسير خاص به لكلمة الأمي فيقول: إن كلمة أمي صفة نسب من كلمة أمم جمع أمة، وكما يوضح علم الصرف فإنه لكي تنسب إلى اسم جمع لابد أن نرده إلى المفرد أمة. إذن في رأينا أن كلمة أمي المشتقة من أمم في الجمع المردودة إلى أمة في المفرد تعني عالمين، وصالح، وموجه لكل الأمم. إذن النبي الأمي هو النبي المرسل والموجه إلى كل الأمم أو بمعنى أصح: النبي العالمي..! أما عن الأميين بالجمع التي وردت أربع مرات في القرآن الكريم فهي تعني البشر من مختلف الأمم أو كل الأمم.

هذا هو عبد الرحمن بدوي الفيلسوف الوجودي الذي خدم الإسلام والمسلمين عشرات السنين بما نقله من تراث معلقاً ومحلاً ومفنداً آراء المستشرقين- يكتب في نهاية حياته دفاعاً عن القرآن عرضناها في إيجاز شديد بعد تمحيص لآراء المستشرقين في الكتب، والمجلات العلمية والموسوعات.. إلخ. لينصف الإسلام: فماذا فعلتم أنتم يا أهل التكفير؟ أرجوكم أن تحفظوا عن ظهر قلب ذلك الحديث الشريف الرائع «من كفر مسلماً فقد كفر»!! ولهذا الحديث الجميل بعد اجتماعي وسياسي رائع هو أن يجمع المسلمين تحت مظلة الإسلام: فليختلفوا وليتعارضوا، وليتجادلوا.. إلخ لكن عليهم في النهاية أن يعلموا أن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة وأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك..!

أستاذي العزيز عفوًا

كنت ومازلت أحبه وأقدره فقد شق طريقه بأظافره:
 في التربية وعلم النفس والفلسفة اليونانية أولاً والحديثه
 أو المعاصرة بعد ذلك -هو المرحوم الدكتور أحمد فؤاد
 الأهواني.

لكنني كنت ومازلت أيضًا -أختلف معه في بعض المسائل الفكرية المهمة
 ذكرني بها طالب طلبة شديد النهم للقراءة وقليل ما هم عندما سألني أصحيح
 أن أفلاطون كان أول من نظر في أمر المرأة فأعلن حريتها لأول مرة في
 التاريخ على أساس فلسفي من الطبيعة البشرية، فهي تشارك في الإنسانية
 كالرجل تمامًا. وينبغي أن تتعلم، وأن تبلغ مرتبة الحراس مثله تمامًا. وكانت
 منزلة المرأة في الزمن القديم في شتى أنحاء العالم أقل منزلة من الرجل، وتعامل
 معاملة الإماء والعبيد. ولم تكن تشارك في الحياة العامة، ولم يتحقق حلم
 أفلاطون بالنسبة لها إلا منذ القرن التاسع عشر؟. ولقد وقع في هذا الخطأ
 كثيرون وعلى رأسهم العالم والمؤرخ والفيلسوف ول ديورانت الذي يقول
 في قصة الحضارة المجلد السابع إن أفلاطون كان متطرفًا في أفكاره تطرفًا
 جعله من أقوى أنصار المرأة! وانساق بعض الباحثين وراء كلمات أفلاطون
 وأخذوها بحرفيتها، فذهب بعضهم إلى أن رغبة أفلاطون في المساواة بين
 الجنسين كانت احتجاجًا ضد المجالات الضيقة المغلقة التي انعزلت فيها

المرأة المعاصرة له في المجتمع الأثيني. وهو بذلك قد استبق حركة تحرير المرأة!. وهو قول ظاهر البطلان! ولست أدري كيف يقال إن أفلاطون أراد تحرير المرأة من الصفوة في الوقت الذي سكت فيه تماماً عن المرأة في القاعدة الشعبية العريضة فلم يتحدث عنها قط مع أنها هي التي تمثل أكثر من نصف المجتمع حقاً؟! إننا حتى إذا سلمنا جدلاً بأن أفلاطون نادى بتحرير المرأة فإن ذلك لا يصدق إلا على طبقة الحراس -وهي أقل الطبقات عدداً، فهي الصفوة الارستقراطية في المجتمع ولا يمكن أن تمثل المرأة فيها نصف المجتمع بحال. لقد كان جان جاك روسو (1712 - 1771) هو من أوضح ما في تحرير المرأة عند أفلاطون من خطأ، فأشار في كتابه أميل: أو التربية إلى أن أفلاطون في تكوين مدينته الفاضلة قام بإلغاء الأسرة ثم احتار في أمر المرأة ماذا يفعل بها؟! فأحالتها إلى رجل!! ومن ثم فقد وضع في الجمهورية تمرينات رياضية واحدة للرجال والنساء، وهكذا لم يعد أمامه سوى أن ينظر إلى المرأة على أنها رجل، أو قل إنها لا تفرق عن الرجل إلا كما يفرق الرجل الأصلع عن الرجل ذي الشعر! يقول أرنست باركر لم يعد هناك فرق من حيث النوع بين الرجل والمرأة، فالوظيفة الجنسية هي كل ما بينهما من اختلاف، أما كافة وظائف الحياة الأخرى، فإن المرأة لا تعدو أن تكون رجلاً أضعف بنية لها القدرات نفسها، وليست لها القوة ذاتها.. أجل لا تختلف المرأة في طبقة الحراس عن الرجل لأن أفلاطون جردها من كل خصائص المرأة ودرها على الشجاعة أو الرجولة التي تحتاج إليها الدولة (وهما لفظ واحد virtus). والحق أن أفلاطون لم يتحدث أبداً عن حقوق المرأة من حيث هي امرأة، وكيف كان يمكن له أن يفكر في حقوق المرأة، وهو نفسه لم يفكر في حقوق الرجل إلا بأقل قدر ممكن؟ -فضلاً عن ذلك فإن أفلاطون لا يخفي كراهيته

للمرأة حتى في محاورة الجمهورية نفسها فهو لا يتحدث عنها بوصفها امرأة إلا بكثير من الاحتقار، فهو يصنفها مع الحيوان والأطفال والمجانين.. إلخ. ثم هو يضعها بين مقتنيات الرجل، وما يمكن أن يمتلكه، ولا يريد أن تكون العلاقة بينهما مبنية على المشاعر والحب والود والصدقة، أنه يريد لها علاقة لا شخصية بل إنه يصل في ازدرائه للمشاعر الطبيعية للمرأة وفي امتهانه لكرامتها إلى حد القول بأن المحارب الشجاع ينبغي أن يكافأ على بسالته بمزيد من النساء أو من حقوق التناسل وعلى المرأة أن تقبل عن طيب خاطر ذلك الوضع الذي تكون فيه مجرد وسيلة لمكافأة الشجعان من المحاربين. والأمر الأول الذي علينا أن ننتبه إليه في تربية الشباب أننا سنكون على حق لو جنبنا عظماء الرجال ذلك العويل والنحيب وتركناه للنساء! لكي يشب أولئك الذين نريهم من أجل حراسة الدولة على احتقار مثل هذا الضعف والخور والأمر الثاني وهو ضرب من الوقاحة -غرس الفضيلة (الشجاعة) في نفوس الرجال فلا ندعهم يحاكون امرأة شابة كانت أو مسنة أو تتناول على الآلهة، أو تندب حظها العاثر أو تستسلم للعويل والنحيب -ولا جدال أننا لن ندعهم يحاكونها وهي مريضة أو هي تحب أو تلد طفلاً! وقد تبدو هذه النصوص التي يفتتح بها أفلاطون تربية الحراس غريبة بعض الشيء، فهو قبل أن يعرض برنامج التربية ينبهنا إلى ضرورة استبعاد العنصر النسائي -فنحن نريد رجالاً قبل كل شيء! ومن ثم لا نقبل من يحاكي النساء! -وفي محاورة أخرى يقول: ليس في مقدور أي امرأة أو صبي أو حيوان أن يجد ما هو صالح له، وأن يأخذ في علاج نفسه بنفسه. وفضلاً عن ذلك فإن أفلاطون يستخدم تعبير شيوع النساء بكثرة ليصف به نظامه في الزواج المؤقت ولا يستخدم أبداً شيوع الرجال -وهي شيوعية كان لابد أن تكون قائمة في

اللحظة نفسها التي يلغي فيها الزواج الواحدي- لأن شيوعية الزوجات هي الوجه الآخر لاستبعاد الملكية الخاصة بكل أنواعها.. (ولا تزال بعض الدول العربية حتى يومنا الراهن تسمي عقد القران بعقد الملكة وهو العقد الذي يملك الرجل بموجبه المرأة التي يتزوجها!) - ولهذا أصبحت المرأة عند أفلاطون بعد إلغاء الأسرة لا يملكها أحد أي مشاعاً بين الحراس! ومما يجدر ملاحظته أن أفلاطون نفسه عندما يعيد الملكية الخاصة في محاورة متأخرة هي محاورة القوانين- سوف يعيد في الوقت ذاته تكوين الأسرة، وسوف تعود المرأة مرة أخرى ربة منزل، وسيدة لبيتها، ومربية لأطفالها تدافع عنهم كما تدافع الدجاجة- وكما تدافع الطيور جميعاً عن صغارها! ولست أدري كيف يمكن أن يصنف النساء دائماً في أحاديثه مع العبيد، والأطفال، والأشرار والمخبولين من الرجال أو مع الحيوانات والقطيع... إلخ. فهو لا يتحدث عن المرأة، كأنثى، بأي قدر من التعاطف!.. ذلك كله يدلنا على أن القول بريادة أفلاطون لتحرير المرأة أو مساواتها بالرجل، بلغ الخطأ وأخذ بالظاهر دون النفاذ إلى الأعمال! ويرتبط بهذا الخطأ خطأ مماثل هو القول بأن شهرة الحب الأفلاطوني طبقت الأفاق وانتشرت في جميع الآداب الحديثة، وأنه أصبح عنواناً على ضرب خاص من الحب بين الرجل والمرأة، يتجردان فيه عن علاقة الجسد، ويسموان إلى الصلة الروحية المجردة. أنه الحب العفيف، أو الهوى العذري، إنه التسامي. لأن الأفلاطونية نعت لكل مثالي شريف أن في الحب أو في غيره.. لكن الحب الأفلاطوني موضوع متشعب يحتاج منا إلى وقفة خاصة، ومقال منفرد!.

الحرب... والسلام

في ظني أن الرئيس السادات -رحمه الله- أخطأ خطأ فادحاً عندما قال -وكرر القول إن حرب أكتوبر هي آخر حروبنا مع إسرائيل وهو قول لم يقله أحد قط- ولا يجرؤ أن يقوله واحد من بني إسرائيل. بل جرئت سيدة كانت عضواً في الكنيسة الإسرائيلية أن تمزق معاهدة كامب ديفيد وتقذف بها في وجه مناحيم بيغن! وهي المعاهدة التي ربما كان السادات يقول ما يقول استناداً إلى حمايتها لنا!! وعندما أرى ذراع إسرائيل الطويلة تعبت الآن في إفريقيا أشعر بأنها تحاربنا حتى في أوقات السلم!.

فيخطئ كثيراً من يظن أن المعاهدات قادرة على منع الحرب ووقف القتال بين الدول! فقد جاء في أقدم معاهدة تحالف أبرمها فرعون مصر رمسيس الثاني مع حثيثار ملك الحيثيين ويرجع تاريخها إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد: أن المبدأ الأول الذي يتفق عليه الطرفان هو إقامة سلام دائم بين الدولتين، غير أن هذا المبدأ لم يمنع الحروب المتصلة التي كانت تشتعل بين الحين والحين فتغير المنطقة بأسرها -فلم تحظ شعوب المنطقة بالاستقرار حتى بعد توقيع المعاهدة!.

بل لقد شهدت مدن اليونان حروباً مستمرة رغم الاتفاقيات والمعاهدات بين هذه المدن حتى إن الإغريق آمنوا بأن الحرب حالة طبيعية فقبلوها

بوصفها جانباً مهماً من نظام الطبيعة سواء أكانت الحرب بين المدن اليونانية بعضها بعضاً أم بين المدن اليونانية والأمم الأخرى التي كان اليونانيون يسمونها بالبرابرة! ورغم سيادة الحرب نظرياً وعملياً عند اليونان، فإننا لا نعدم الفلاسفة الذين كانوا يدعون إلى السلام الدائم في هذا العصر المبكر من التاريخ، فقد أهاب الفلاسفة الرواقيون منذ القرن الثالث قبل الميلاد بالإنسانية أن تحرر نفسها مما يفرق بين الإنسان وأخيه من فروق اللغات والأديان والأوطان ونظروا إلى الناس جميعاً، وكأنهم أسرة واحدة، قانونها العقل ودستورها الأخلاق. وإذا انتقلنا إلى العصور الحديثة وجدنا محاولات كثيرة تدعو إلى السلام على رأسها محاولة شيخ الفلاسفة الألمان - كانط (1724 - 1804) في كتيب صغير عنوانه مشروع للسلام الدائم ظهر عام 1795 ولم تكد تمضي على ظهور هذا المشروع بضع سنوات حتى ظهر مشروع آخر للفيلسوف الإنجليزي جيرمي بنتام (1748 - 1832). والمصلحين والفلاسفة في السعي نحو تحقيق أمل البشرية في السلام. لكنها كلها للأسف باءت بالفشل. واشتعلت الحرب العالمية الأولى عام 1914، وبينما كان العالم يصطلي بنارها. ردت السنة المصلحين الدعوة من جديد في عبارات تتم عن الإلحاح: يجب ألا تتكرر المأساة وكان لصيحتهم صدى تردد في أرجاء العالم، فظهر على أثره في أول منظمة عالمية عصبة الأمم عام 1919 - وبذلت العصبة جهدها لتطبيق المبادئ والقواعد التي تضمنتها مشروعات أهل الفكر ودعاة السلام - غير أنها لم تتمكن من تحقيق الآمال التي كانت معقودة عليها، ف وقعت الحرب العالمية الثانية عام 1939 وكانت أشد عنفاً. ونشط المفكرون ودعاة الإصلاح ورجال القانون إلى الدعوة مرة أخرى لإقامة منظمة تكون أداة لتحقيق الأمن والسلام فقامت الأمم المتحدة عام

1945 وحاولت علاج الثغرات التي وقعت فيها عصابة الأمم لكنها فشلت في تحقيق حلم السلام أيضاً، إذ لم تنقطع الحرب بين الدول منذ إنشائها حتى يومنا الراهن! ترى أيكون السلام مستحيلاً بحكم طبيعة الإنسان النزاعة إلى الصراع والقتال؟! أم على البشرية ألا تيأس، وأن تواصل بذل المزيد من الجهد في تفاؤل وصبر وجلد دون أن تفقد الأمل في تحقيق ذلك الحلم السحري.. بالغاً ما بلغ عناء السفر ووعورة الطريق؟! وهل قطعت البشرية من ذلك الطريق إلا النزر اليسير: من القرن الثالث عشر قبل الميلاد حتى يومنا الراهن؟! ثم جاء عملاق المثالية الألمانية هيجل (1770-1831) الذي كان هدفه تفسير ظواهر العالم الذي نعيش فيه تفسيراً عقلياً بحيث تبدو ضرورة هذه الظواهر واضحة، وبحيث يبدو كل شيء في مكانه المناسب. كل شيء له معناه الذي يستمد من وضعه داخل هذا الكم الهائل الذي نسميه الوجود. هكذا راح هيجل يبحث عن تفسير لظاهرة الحرب التي اتسم بها تاريخ البشر تفسيراً يجاوز مجرد الإدانة الأخلاقية. فلا يكفي أن نصرخ بأعلى صوت لنا عن الحرب والداعين إليها أو أن نحلم بأن هذه الحرب هي آخر الحروب! أو نصفها بأنها تجلب الخراب والدمار أو أنها شر من صنع الشيطان أو أنها هلاك لجميع الأطراف... إلخ فذلك كله لا يعني شيئاً على الإطلاق، فلا هو يجعلنا نفهم ظاهرة الحرب، ولا هو يعمل على منعها، إنها صرخات متألمة يكتفي بأن يلعن المرض دون أن يحاول فهمه أو تفسيره أو الوقوف على كنهه، فما دامت الحرب ظاهرة عامة، وسمة دائمة من سمات النشاط البشري طوال التاريخ فإنها تحتاج من المفكر إلى أن يقدم لها تفسيراً عقلياً يحلل فيه طبيعتها، ويشرح وضعها، ويبرر ضرورتها، ويبين دورها، لا سيما أننا نجد من الباحثين من يرفض إدانة الحرب ويذهب

إلى القول بأنه: لا يمكن إنكار دور الحرب في تطور الإنسان: لأن مجموعة كبيرة مما تم إنجازه طوال التاريخ إنما جاءت نتيجة للحرب والنزاع أكثر مما جاءت عن طريق الانسجام والتعاون بين البشر. ويعتقد هيجل أن الدولة لا تتجسد في مواطنيها على نحو أكثر قوة مما تكون عليه عندما تشتبك في حرب مع غيرها من الدول. فهذا هنا يكون إحساس الأفراد بالمجتمع أقوى، وعلى هذا النحو تكون الحرب مفيدة لصحة الشعب الأخلاقية، فهيجل لا يدعو إلى سلام دائم ولا يتوقعه، ومع ذلك فإن اتهامه بأنه يمجّد الحرب يدل على سوء فهم لرأيه، كما أن فيه مبالغة شديدة في تصوير موقفه. فإذا كان هيجل يعتقد أن الحرب مفيدة لصحة الشعوب الأخلاقية، فإنه لا يدافع عن الحروب المستمرة أو المتواصلة، كما أنه لا يعتقد أن الحرب هي أنبل نشاط بشري. لكنه يقارن بين الحرب في أهميتها وبين الصحة الأخلاقية للشعوب وبين الريح التي تهب فتحفظ ماء البحر من التلوث والفساد لو مرت عليها فترة طويلة من السكون والركود... ومن أجمل ملاحظات هيجل هنا قوله ليس الجيش هو الذي يحارب بل النظام السياسي، فإذا هزم دل ذلك على فساد هذا النظام وفشله والدليل على ذلك واقعة هزيمة نفسها، وكأنه في الواقع يتحدث عن هزيمة البشعة عام 1967 فهي لم تكن هزيمة للجيش بقدر ما كانت انهياراً للنظام السياسي الفاشل؛ فقد سبق أن حارب الجيش المصري في الثورة (اليونان) وأحمد ثورة اليونان (1824 - 1826) الذي دخل عكا التي لم يستطع نابليون اقتحامها.. لأنه وجد النظام الجيد والقيادة الرشيدة، بل إنه في حرب 1948 كان على أبواب تل أبيب لولا المؤامرة، كما أنه حوَصر في الفالوجة ستة أشهر ولم يستسلم.. ذلك كله يبرهن على صحة رأي هيجل في فشل الأنظمة الديكتاتورية برغم أنهم كانوا من العسكريين والسبب

النظام السياسي الفاشي الذي وضعوه بطريقة عشوائية فكان لابد أن ينهار وبطريقة مأساوية! لكن إذا كانت الحروب مستمرة (لدرجة أننا حاربنا ليبيا الشقيقة في يوم من الأيام!) فما الذي جعل الرئيس السادات يدلي بهذا التصريح الغريب الذي هو بالقطع في مصلحة إسرائيل.؟! **أولاً:** لأن الحاكم عندنا ليس حاكماً فقط وإنما هو مالك أيضاً. لذلك فهو الله ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23]، **ثانياً:** أن الحاكم منذ أن جاء عبد الناصر يبحث له عن تكتة يستند إليها في بقائه. قيامه بالثورة مرة وحرب أكتوبر مرة أخرى أو الضربة الجوية مرة ثالثة. **ثالثاً:** أن السادات لم ينتصر في حرب أكتوبر فقط بل جاءنا بمعاهدة السلام الدائم التي لم يناقشها أحد، وإن كانت تكشف لنا يوماً بعد يوم عن أكاذيب لا حد لها!

أولاد حارتنا بين كمبردج والعباسية (1)

تساءلت ذات مرة وأنا أكتب عن نجيب محفوظ عندما
نال جائزة نوبل عام 1988 وهاجمته كلاب مسعورة من
معظم الدول العربية.

لأنه لا يستحق جائزة فهو ليس فناناً عظيماً كما تدعي
اللجنة المانحة وإنما هو عميل سافر إلى إسرائيل مع السادات... إلخ تساءلت
يومها من هو الفنان العظيم؟! أهو الذي يصور الواقع أو ينقله كما هو؟!
وكيف يمكن أن يكون فناناً في هذه الحالة دع عنك أن يكون عظيماً -ذلك الذي
يفعل ما تفعله كاميرات التصوير..؟! ثم كيف نفسر الثمن الباهظ الذي ندفعه
لفنان عظيم يرسم لوحة لأبي الهول -مثلاً- في الوقت الذي تباع فيه الصور التي
تلتقطها الكاميرات لأبي الهول بقروش زهيدة؟! كلا! الفنان العظيم لا يصور
الواقع على هذا النحو. أترأه، إذن، ينعزل بعيداً عن الواقع في برج عاجي ليكتب
قصة أو قصيدة أو يرسم لوحة..؟! وأجبت ولا هذه أيضاً!..

وانتهيت إلى أن الفنان العظيم يستمد من الواقع الذي يعيش فيه مادة
خام لفنه أو عجينة يستخدمها بعد أن يعيد تشكيلها وفقاً لرؤيته الفنية
الخاصة!..

والسؤال الآن: في رواية أولاد حارتنا ما المادة الخام التي استخدمها نجيب
محفوظ في روايته..؟

والجواب: هي القصة الدينية المعروفة والمتداولة في الديانات الثالثة الكبرى وربما اعتمد أكثر على رواية سفر التكوين وهي نفسها المادة الخام أو العجينة التي استخدمها الشاعر الإنجليزي جون ملتون John Milton (1608-1764) وهو واحد من أعظم ثلاثة من شعراء الإنجليز (إلى جوار شكسبير، ووردز ورث) الذي تخرج من كلية المسيح بجامعة كامبردج بعد أن قضى في هذه الجامعة ثماني سنوات حصل على درجة البكالوريوس في عام 1628 ودرجة الماجستير في عام 1632، لكن الشاب المغرور رفض أن يقسم يمين الولاء للمذهب الإنجيلي كاتي وطقوسه الدينية. ! وقال إن الذي يرسم قسيساً يجب أن يتعهد أن يكون عبداً!..

وإذا كان نجيب محفوظ قد توقف عن الكتابة مع ظهور ثورة 1952 خمس سنوات، فقد صمت ملتون عن قول الشعر عشرين عاماً إلى أن انتهى حكم كرومويل وعاد النظام الملكي إلى إنجلترا. وإن كان في هذه الفترة الطويلة قد تفرغ للنثر لأنه أداة أنسب إلى العراك السياسي الذي اشتمل البلاد، وما إن زالت عن الشاعر شواغله السياسية بعودة النظام الملكي إلى إنجلترا حتى انصرف إلى تحقيق أمنية طالما تمنّاها وهي أن ينشئ في الشعر آية خالدة لا نظير لها، واتجه تفكيره نحو قصيدتيه العظيمتين الفردوس المفقود Paradise Lost.. والتي نشرها لأول مرة عام 1667 وهي درة في الشعر الإنجليزي تروي قصة سقوط الإنسان في الخطيئة بعصيانه للأمر الإلهي، والمعركة بين الله والشیطان من خلال وجود آدم وحواء في جنة عدن.

وأخيراً الفردوس المستعاد وقد نشرها عام 1671 وهي تروي غواية الشيطان للسيد المسيح في البرية. وليس في استطاعتنا أن ندخل ذلك كله في

مقال فالفردوس المفقود وحدها تقع في أثني عشر جزءاً، وثورة الملائكة ضد الإله الخالق -عندما أراد أن يخلق آدم هكذا عند ملتون تشغل الجزء الأول والثاني والثالث كما يشغل الشطر الأعظم من الجزئين الخامس والسادس، وإيقاع الشيطان بالإنسان ثم عصيان آدم وحواء وطردهما من الجنة هو موضوع الأجزاء الباقية.

ومن الواضح أن المادة الخام التي استخدمها ملتون هي القصة الدينية وهو تناولها كما هي، ولو أنه توقف عند هذا الحد لما كان فناً، لكن الفن عند هذا الشاعر العظيم هو أنه صاغها شعراً رقيقاً مازال باقياً بعد ثلاثة قرون حتى الآن.

وهو في البداية يناجي ربه الشعر:

ألا حدثينا..

عن أبويننا الأولين ماذا دعاهما..

أن يخرجنا على الباري فيهويًا..

وأن يعصيا مشيئة الله

لمحظور واحد؟!

ويقصد بهذا المحظور الواحد: الأمر الإلهي بعدم الأكل من ثمار شجرة المعرفة!..

وهو يسير مع القصة الدينية نصًّا..

فيصف آدم وحواء في الجنة:

.. كأنهما على الجميع سيدان.

وعليهما جلال، إذ في طلعتيهما الإلهيتين.

أشرقت صورة الخالق المجيدة..

أما الرجل ففيه التأمل وشدة البأس.

وأما هي ففيها الطراوة والرشاقة الحلوة الجذابة.

... هكذا مضى الزوجان يدًا في يد.

أجمل ما يكون الزوجان منذ عرف الحب لقاء الزوجين.

فآدم خير الرجال منذ نسل الأنبياء.

وحواء بين بناتها أجمل النساء.

فلما رأى الشيطان آدم وحواء في مثل ذاك الجلال والجمال يسيران، أخذته الدهشة للمرة الثانية، وأخذ يتلون في صورة مختلفة من صنوف الحيوان، ودنا منهما لينصت إلى حديثهما فعرف من آدم أن شيئاً واحداً حرم عليهما في الجنة، وهو أن يأكلا من شجرة المعرفة..

وأخذ الشيطان يجوس خلال الفردوس..

ومضى آدم وحواء إلى حيث يقضيان الليل، فأرسل جبريل أعوانه ليتولوا الحراسة..

وأقبل الصباح وهم آدم وحواء أن يعملوا، فاقترحت حواء أن يبعد كل منهما عن الآخر أثناء قيامهما بالعمل.. فأجاب آدم: إني لأخشى أن يلحق بك أذى! لكن حواء طمأنته أنها لن تقع فريسة لخداع العدو المتربص..

ومضت حواء وحدها وما هي إلا أن صادفها الشيطان وحيدة. فوقف أمامها وقد تقمص حية، وأبدى لها من الإعجاب ما يبيده العابد نحو معبوده وأخذ يخاطبها بلسان البشر: يا أميرة هذا العالم الجميل! حواء الباهرة! فسألت حواء كيف يمكن للحية أن تتحدث بلسان البشر؟ فأجاب بأنها قدرة استمدها حين أكل من ثمار الشجرة المحرمة.. فطلبت منه حواء أن يدها على مكان تلك الشجرة ذات الثمر العجيب.

فأسرع بها إلى الشجرة المحرمة. وعندما ساورتها الوسوس قال: يا مليكة هذا الكون لا تلقي بالاً إلى ذلك الوعيد بالموت. لن تموتي. وهل بالثمرة تموتين؟ أنها تهبك الطريق إلى العرفان؟ أيقنتك صاحب الوعيد؟! انظري إلى: لقد أكلت منها وها أني أحياء بل علوت بحياتي عما أراد لي القدر يستحيل على الله أن يصيبك بالأذى إن كان عادلاً، فكلي الثمرة ولا تحجمي..!

ووقعت كلمات الشيطان من حواء موقع القبول.. فأخذت تقول:

يوم نأكل هذه الثمرة الجميلة كتب علينا أن نموت!

فأين الموت من هذه الحية؟ إنها أكلتها ولا تزال حية!

وباتت ذات علم تتحدث وتفكر وتدرك!

وكانت بغير عقل حتى أكلت منها، ألنا وحدنا خلق الموت؟!

أم حرام علينا هذا الغذاء العقلي، حلال للحيوان؟!

هاهنا شفاء الجميع! هذه الفاكهة المقدسة.

فماذا يمنعني أن أدنو منها لأطعم الجسم والعقل معاً؟!

وامتدت يدها إلى الثمرة فقطفتها ثم أكلت!..

وتاهت حواء عجباً بنفسها أول الأمر ثم أخذت تتساءل ماذا يكون وقع ذلك النبأ على آدم؟ أي صورة أبدو لآدم؟! ماذا لو كان الله قد رآني؟! فجاءني الموت ويكون مصيري إلى فناء، ويزوج آدم من حواء غيري ويحيا معها في نعيم: أأموت أنا؟!

إني أحبه حباً يجعلني أحتمل الموت في صحبته وبغيره لا أطيق الحياة!

وآدم في ذلك الوقت يعد لها أكليلًا من الزهور! لكن عندما جاءت وعلم منها عصيانها وقف واجما وسقط من يده الإكليل، ثم التفت إلى حواء قائلاً: قد لا تموتين. فما أحسب أن الله وهو الخالق الحكيم -رغم وعيده- سيعمل جادا على فنائنا -نحن زهرة خلقه.

وعلى أية حال لقد وصلت مصيرك بمصيري، واعتزمت أن أقاسي ما تقاسين من قضاء، فلو دهمك الموت، كان الموت لي كالحياة!

وناولته حواء الفاكهة المغرية الجميلة، فلم يحجم عن أكلها مع أنه يعلم العواقب، ولم يكن مخدوعاً كما كانت حواء. ولكن كيف له أن يقاوم سحر المرأة، وسرعان ما أحس كلاهما الندم على فعلته. واختفيا في الغابة وتدثرا بأوراق الشجر. وأخذا يبكيان ويوجه أحدهما اللوم للآخر، فصاح آدم:

هلا أصغيت لكلماتي ولبثت

معي كما رجوتك حين تمكنت منك الرغبة

العجيبة في التجوال هذا الصباح المنكود!

فقلت حواء:

ولو بقيت أنت على رأيك ثابتاً

لما زلت ولا زلت معي!..

وعاد ملائكة الحراسة إلى السماء ثقال الخطى ليبلغوا فشلهم، فعلموا من الله أن القضاء محتوم، وأرسل ابنه إلى الأرض ليحاكم الزوجين ولنزل بهما العقاب لعنتين هما العمل والموت. ومن ناحية أخرى اتخذ الشيطان الخطيئة والموت معينين له على الأرض.

وتاب آدم وحواء: فاستجاب لهما الله. وأرسل إليهما ميكائيل ليعلن أن الموت لن يقع عليهما حتى يكملا التوبة. أما الفردوس فلن يعود لهما مقراً، فأخذت حواء تنظر إلى الفردوس بعين باكية واستسلم آدم لعبراته.

وأن أوام الخروج فهبط آدم وحواء إلى الأرض، وأخذ يقربان في أرجائها يبدأ في يد سيران بخطو وثيد.. وتلك خلاصة سريرة للفردوس المفقود وما أخذ على الشاعر أنه جعل من الشيطان البطل وليس آدم، فالشيطان عند ملتون شديد البأس قوي العزيمة. ليهيئ الطريق للصراع العنيف المقبل ثم تجيء بعد ذلك الفردوس المردود والمستعاد، لقد كان الشيطان قبل ذلك متكبراً يسر في أذن حواء ما يشاء وقد آن الأوان لأن يهزم ويستعاد الفردوس إلى البشر مرة أخرى. ولقد حدث ذلك في رأي ملتون على يد السيد المسيح الذي صعد إلى البرية ليحرب من إبليس الذي طلب من يسوع أن يطلب من الحجارة أن تصبح خبزاً فأجاب مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان... إلى آخر هذا الحوار الذي عرضه القديس متى في إنجيله (الإصحاح الرابع) فليرجع إليه من يشاء!

أولاد حارتنا بين كمبردج والعباسية (2)

من الواضح أن هناك اختلافات كثيرة بين أولاد حارتنا
الإنجليزية والنسخة العربية، والاختلاف الأول هو أن
الشاعر الإنجليزي العظيم جون ملتون John Milton
(1608-1764) ..

قد اختار الصورة الشعرية التي يتقنها كشاعر كبير فهناك يظهر إبداعه
وتتجلى عبقريته. أما الاختلاف الثاني فهو أن الشاعر الإنجليزي لم يضع في
ذهنه غضب الجماهير (وليس من حقها أن تغضب بل عليها أن تتفهم الصورة
الفنية) - فلم يغير أبداً أسماء الشخصيات التي يتحدث عنها، ولهذا فإننا نراه
يتحدث عن الله والملائكة وجبريل وميكائيل، والشيطان وإبليس، وآدم
وحواء والشجرة المحرمة. وغواية الشيطان الذي اتخذ صورة الحية.. أما
أدينا الكبير فقد كان له موقف مختلف تماماً، لم يلتزم بنقل الصورة الدينية
بحرفيتها- لا بالأحداث ولا بالأسماء التي وردت فيها بل لجأ إلى التشفير
والترميز مما أربك القارئ وأكاد أجزم أن الشيخين الباقوري والعزالي اللذين
ذهبوا بالشكوى إلى عبد الناصر أكدا له أن الجبلأوي في رواية أولاد حارتنا
هو الله وأنه اشتق الاسم من عبارة سفر التكوين وجبل الرب الإله آدم
ترابا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة.. (الإصحاح الثاني 7-8). وكلمة
جبل تعني خلق، فالجبلأوي هو الخالق أو هو البارئ تعالى كما فهم كثير

من القراء فهو التفسير الأكثر شيوعاً، والأشد خطأً في تصوري. ذلك لأنه لم يخطر في ذهن المؤلف أبداً أن الجبلأوي هو الإله والدليل أنه يصفه بأوصاف إنسانية خالصة فهو أحد الفتوات القدامى العظام:

عمر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور حتى ضرب به المثل بطول عمره.
ثم اعتزل في بيته الكبير منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله أحد.
يقول عنه واحد من أهل الحارة: هو أصل حارتنا وهي أصل مصر أم الدنيا عاش فيها وحده وهي خلاء وخراب ثم أمتلكها بقوة ساعده ومنزلته عند الوالي...

أما البيت الكبير فقد شيده الجبلأوي كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطرق...!

لقد كان الجبلأوي يحكي لأولاده حكايات الزمان الأول ومغامرات الفتوة والشباب، وهو ينطلق في تلك البقاع ملوحاً بنبوته المخيف غازياً كل موضع تطئه قدماه.. نعم لقد كان الجبلأوي فتوة تهاب الوحوش ذكره.

ويقول آخر من أبناء الحارة كان الجبلأوي فتوة حقاً، ولكنه لم يفرض على أحد إتاة وكان بالضعفاء رحيماً. الجبلأوي جبار في البيت كما هو جبار في الخلاء وهم حياله لا شيء.

وليست القصة هي قصة الجبلأوي الذي يمثل القوة والجبروت والرحمة والعطف، والعدل في كمالاتها وصفاتها.. إلخ- وإنما القصة تدور حول أولاد الحارة- أي أنها قصة الإنسان بآلامه وآماله وطموحاته وصراعاته.

وهناك اختلاف آخر هو أن الشاعر الإنجليزي جعل اختبار الإنسان وما وقع فيه من إثم هو الأكل من ثمرة الشجرة المحرمة (شجرة المعرفة) -في

حين أن أدبنا الكبير يجعلها الاطلاع على حجة الوقف ومعرفة الغيب مع إدراك أدهم أنها سرقة، سرقة سر حرص الأب على صونه- وإن كان هناك خيط مشترك بين القصتين وهو التطلع إلى المعرفة.

وتبدأ القصة عند نجيب محفوظ بالجلالوي يدعو أبناءه جميعاً للاجتماع به في البيت الكبير فلبوا الأمر، ووقفوا خاشعين حتى أمرهم بالجلوس. وكان الموقف يوحي بأنه قرر شيئاً ذا خطر وكسر الصمت صوته الخشن العميق لقد رأيت أنه يكون من المستحسن أن يقوم غيري بإدارة الوقف.. وظن الجميع أن إدريس الأخ الأكبر هو المرشح الطبيعي لهذا المنصب لكن الجلالوي استطرد قائلاً:

ولقد وقع اختياري على أخيكم أدهم ليدبر الوقف تحت إشرافي..

تفجر الغضب في باطن إدريس وهو يقول:

ولكني الأخ الأكبر..

فقال الجلالوي مستاءً:

أظن أني أعلم ذلك فأنا الذي أنجبتك..

إني وأشقائي أبناء هانم من خيرة النساء، أما هذا فابن جارية سوداء (ربما كانت الإشارة أنه خلق من طين على نحو ما جاء في كثير من الآيات: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: 12].

لقد كانت إدارة الوقف -أو شؤون الكون والخلق كما يرى البعض تعني التكليف الذي هو قدر الإنسان ثم مواجهة المصير الذي سيترب على هذا التكليف وهي مسألة بالغة الخطورة يقول المؤلف وهو يصف عمل أدهم:-

كان عمله أخطر نشاط إنساني يزاول في تلك البقعة الصحراوية ما بين المقطم شرقاً والقاهرة القديمة غرباً.. واتخذ أدهم من الأمانة شعار فخلافته الإنسان على الأرض إنما هي التكلفة الذي وقف منه الملائكة موقفهم المشهور. وهي أيضاً علامة مميزة لتكريم الإنسان هذا التكريم الذي اتخذ صورته بالعمل بدلاً من الإقامة في الحديقة (الجنة) دون جهد..

أما إدريس فقد واصل حوار مع والده بطريقة غير لائقة حتى صاح الجبلاوي فيه: أقطع لسانك!

ولكن إدريس واصل صياحه قائلاً:

لن ترعبي، أنت تعلم أنني لا أرعب، وأنت إذا أردت أن ترفع ابن الجارية علي، فلن أسمعك لحن السمع والطاعة!

ألا تدرك عاقبة التحدي يا ملعون؟!

الملعون حقاً هو ابن الجارية!..

قلت لك أقطع لسانك يا ملعون..

لا تسبني من أجل أدهم..

فصاح الجبلاوي بصوت صك الأسماك:

اغرب بعيداً عن وجهي!

هذا بيتي فيه أمي وهي سيده..

لن ترى فيه بعد اليوم.. وإلى الأبد..

وتقدم الجبلاوي خطوتين وهو يقول:

لا أنت ابني ولا أنا أبوك، ولا هذا البيت بيتك ولا أم لك فيه ولا أخ ولا تابع، أمامك الأرض الواسعة فأذهب مصحوباً بغضبي ولغتي، وانقض عليه الأب وقبض على منكبه واخترق به ممراً مفروشا بالياسمين حتى البوابة الكبيرة فدفعه خارجها وأغلق الباب!

ثم صاح بصوت سمعه كل من يقيم في البيت:

الهلاك لمن يسمح له بالعودة أو يعينه عليها..

ورفع رأسه صوب نوافذ الحريم المغلقة وصاح مرة أخرى:

وطالقة ثلاثاً من تجترئ على هذا..

وعلينا هنا أن نتساءل مرة أخرى:

هل كان إبليس في القصة الدينية مخلوقاً أم كانت أمه من الحسنات كما يقول؟

ويطرح السؤال نفسه بالنسبة لأدهم (آدم) وهل يكفي أن تعبير ابن الجارية يفسر على أنه خلق من طين؟ وهل يجوز أن يكون للإله لو صح وكان الجبلأوي هو الإله كما يدعون جناح خاص بحريمه؟!

هل يجوز للإله أن يقسم بالطلاق ثلاثاً؟!..

أظن أننا بقدر قليل من التعمق سوف نجد أن هذا حوار بشري خالص!..

وعلينا أن نتأمل قليلاً في شخصية أدهم عند نجيب محفوظ لتجد أنها تختلف اختلافاً كبيراً عن شخصية آدم في القصة الدينية. فأدهم في رواية

أديبنا إنسان رقيق الحاشية من أب هو الجبلاوي الفتوة القديم وأم هي الجارية السمراء التي كان الجبلاوي يعزها كثيراً ويغضب أشد الغضب عندما يهينها إدريس ويصرخ فيه: إنها زوجتي يا عرييد، فتأدب وإلا سويت بك الأرض!

وقل مثل ذلك بالنسبة لأميمة (حواء في القصة الدينية) فهي أيضاً مخلوقة في الكتاب المقدس من ضلع آدم عندما أوقع الرب الإله سباً على آدم فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً، وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة.. إلخ (21: 2).

ولا علاقة لهذه القصة بالقصة التي يرويها نجيب محفوظ عن لقاءه بأميمة في حديقة القصر وكانت جارية لأمه واستملحها لكنها فرت عائدة إلى مخدع الحریم، وقال لنفسه: لن يسخر أبي من اختياري وإلا فكيف جاز له أن يتزوج من أمي..؟!

وأفضى أدهم إلى أمه بمشاعره فرحبت قائلة: إنها فتاة طيبة تصلح لك كما تصلح لها.. وسأخاطب أباك في الأمر لعلني أنعم بذريتك قبل أن يدركني الموت.. وكانت زفة أدهم التي لم يشهد لها الحي نظيراً من قبل. وحتى اليوم يجري ذكرها مجرى الأمثال في حارتنا.

كنت أود من هاتين المقاتلتين أن أثبت ما يلي:

أولاً: أن نجيب محفوظ لم يكن بدعاً عندما كتب روايته الخالدة أولاد حارتنا ببراعة شديدة فقد سبقه إليها الشاعر الإنجليزي العظيم جون ملتون في القرن السابع عشر أي منذ أكثر من ثلاثة قرون، مساحة تخلفنا عن الإنجليز..!

ثانيًا: لم يكن هدف أديبنا الكبير أن يروي قصة الخلق - كما فعل ملتون- بل أن يبعث برسالة إلى رجال الثورة يرجوهم إعادة توزيع الوقف بالعدل كما يقول هو نفسه في حديث لجريدة الأهرام!..

ثالثًا: تشفير الأسماء الدينية كان رسالة واضحة أنه لا يروي قصة الخلق ولا يتقيد بها.

رابعًا: أن يثبت أن الجبلاوي ليس إلهًا لكنه شخصية فذة أو جبارة، وهو -مع فارق السنين أقرب إلى السيد عبد الجواد في الثلاثية، ففي استطاعتك أن تقول إنه يسلك كما لو كان إلهًا!!.

خامسًا: لا شك أن القصة الدينية كانت في خلفية ذهنه تمامًا مثلها كانت قصة السفاح محمود أمين سليمان في خلفية ذهنه وهو يكتب رواية اللص والكلاب!

أمثال نرجوها أن تزول...

لكل الشعوب أمثال جمعتها على مر السنين حتى أصبحت بمثابة الحكمة التي تساعد الناس على الانطلاق في حياتهم اليومية. لكن هذه الأمثال عندنا أصبح الكثير منها فاسدًا لطول ما مر عليه من سنين وربما قرون -وما علاه من صدام سبب فساد أنظمة الحكم التي تداولت علينا من ناحية، والجهل وانعدام الثقافة من ناحية أخرى.

فإذا أردنا لمجتمعنا نهضة حقيقية فإن علينا أن نعمل بشتى الطرق على طمس هذه الأمثال بحيث تختفي من حياتنا، لأنها النقيض المباشر لما نرجوه من نهضة.. وما قولك في أمثال تدعو إلى انعدام المساواة..

حتربط حمارك جنب حمار العمدة؟!

لما أنا أمير وأنت أمير مين حيسوق الحمير؟.

لما أنا ست وأنت ست مين حيكب الطشت؟!

أيش جاب العبد لسيدته قال لده طلعة ولده طلعة!.

عن الفلاح الذي سيبقى في مكانه:-

إن طلع من الخشب ماشاء، يطلع من الفلاح باشا!!

اللي يبص لفوق يتعب..!

العين ما تعلاش عن الحاجب..!

من رضا بقليله عاش..!

ز.. س..!

ز يموت سقيم..!

ز س..! قد جرب دواء في حالة أخرى، ولهذا فإن الطبيب نفسه يطلب
أشعات وتحاليل لتحديد نوع المرض على وجه الدقة..!

وعن العزلة والابتعاد عن الناس :-

أن جار عليك جارك حول باب دارك..!

صباح الخير يا جاري أنت في حالك وأنا في حالي..!

ز القرايب..!

الميه والنار، ولا حماقي في الدار..!

والحق أن ثقافتنا الشعبية تعبر أصدق تعبير عن انعدام الوعي عند المواطن
بحقوقه كإنسان أولاً وحقوقه المدنية كمواطن ثانياً، فليس هذا البلد بلده
ولا حق له في شيء، وأصبح من المألوف أن يضرب ويهان لأن: أيد السلطة
طايلة..

وسيف السلطة طويل..!

والمثل الذي ظل أحمد تيمور باشا يتأمله طويلاً لغرابته هو ضرب الحاكم

شرف! ثم تسأل كيف يكون ذلك؟! كيف يحدث أن يقول مواطن أن ضربه من أي مخلوق شرف له؟! وانتهى إلى أنه ربما يكون تهرباً من شماتة الأعداء الذين لا بد أن يشمتوا في إهانتته فأراد أن يرددهم بهذا القول الغريب!..

وفي كثير من أمثلتنا الشعبية ينعدم إحساس المواطن بوطنه مثل:

اتوصوا بينا ياللي حكمتونا، احنا العبيد وأنتوا اشترتوننا.

فهو إذن ليس مواطناً في وطن، وليست له أبسط حقوق الإنسان، وإنما هو عبد اشتراه الحاكم وهو يرجوه أن يتRAF به! أما ما يقدمه له الحاكم فهو إحسان من عندهم تماماً مثلما قال الخديو توفيق لعراقي أنتم عبيد أحساناتنا!! ومصدراً لذلك فقد كان الحاكم إلى عهد قريب يلقب بولي النعم ويطلق عليه في بعض الدول العربية حتى الآن لقب سيدنا، فعلينا أن ننتظر ما ينعم به سيدنا علينا وما يقدمه لنا من عطايا، وهي تسمى الآن في مصر إنجازات يفاخر بها الحاكم ويذكرنا بها ليل نهار، كما لو لم يكن ما تحقق من إنجازات إذا كان قد تحقق منها شيء جزءاً من عمله.

وتعبر كثرة من الأمثلة الشعبية عن انعدام الوعي السياسي عند المواطن وذلك بسبب غياب المساءلة، فلا يوجد برلمان يحاسب الحاكم عما يفعل وعما يقول ويزيل عنه صفة الألوهية لا يسأل عما يفعل وهم يسألون! فأصبح يقول هراء وكذباً ليل نهار دون حسيب أو رقيب فمنذ العهد الناصري أصبح التقليد أن يكذب الحاكم كما يشاء، فيصف نفسه بأنه أكبر قوة ضاربة في الشرق الأوسط، ويسمى الهزيمة البشعة مجرد نكسة. وتخسر الشركات والمؤسسات والمصانع ومع ذلك توزع الأرباح والحوافز في نهاية العام- مثلما انحدر صدام في هزيمة مدوية مازال العراق يعاني منها حتى الآن ومع ذلك

أطلق عليها اسم الانتصار في أم المعارك! وظل يحتفل بهذا الانتصار كل عام دون خجل! والسبب أنه لا حسيب ولا رقيب، وخلاصة ما تقدم أن الحكومة من أي كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ومعاملة المواطنين كالعبيد- ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التي لا تسامح فيها.

ومن هنا فلم تكن لدينا ثقة في ثقافة الاختلاف ولا إيمان بأهمية الرأي الآخر وهو ما تعبر عنه بوضوح أمثلتنا الشعبية:

المركب الي فيها ريسين تغرق!!

والإبرة الي فيها خيطين ما تخطش.

وغير ذلك من انعدام الإيمان بالقيم الديمقراطية الأصيلة- ونعود إلى الأمثال القديمة:

لما أنا أمير وأنت أمير مين يسوق الحمير!..

تروح فين يا صعلوك بين الملوك!..

ولك أن تقارن ذلك بما يرويه أستاذنا العظيم الدكتور زكي نجيب محمود، مندهشا لما أفرزته الديمقراطية في إنجلترا رأيت صفًا من الرجال ساعة العصر قد اصطف ليأخذ دوره في قدح الشاي- رأيت وزيرًا (هو نوبل بيكر) قد وقف أمامه أحد السعاة فلا هو أخذه الضجر من ذلك، ولا الساعي فزع إذ وجد نفسه أمام الوزير! وإذا افترضنا جدلاً أننا وجدنا الوزير الذي يرتضي بالوقوف خلف الساعي، فهل يمكن أن نجد الساعي الذي يحطم القاعدة البلهاء- قاعدة العين التي لا تعلو على الحاجب؟!

أنها ثقافة العبيد مدحجة في أقراس هي الأمثال التي لا يمكن أن يتفوه

بها سوى العبيد الذين عانوا طويلاً من الذل والقهر حتى آمنوا بانعدام المساواة فهناك سادة وهناك عبيد! - تلك هي الثقافة التي أفرزتها نظم الحكم الاستبدادية في بلادنا، وليس أخطر في هذه الدنيا من الاستبداد على تدمير النفس البشرية! التي تقول في أمثلتها الشعبية عن الجبن والخوف:

من خاف سلم!

الهروب نص الشطارة!

الحيطان لها ودان..

ويقول عن التزلف وعدم المجاهرة بالرأي:

إن دخلت بلد يعبد العجل حش وأطعمه!

إن كان لك عند الكلب حاجة قله يا سيدي!

الباب الي يجيلك منه الريح سده واستريح!

يصلي الفرض وينقب الأرض!..

طاعة الدواب!

والنتيجة أنه سوف يلغي عقله ويصبح شعاره

الي يفكر يتعكر... وتدعو له أمه ربنا يكفيك شر الفكر!!

أما طاعة العبيد فقط روضه عليها تراثه فقد كان حكامه لا يقبلون طاعة أقل من طاعة العبيد وأحياناً طاعة الدواب عندما علم الوليد بن عبد الملك أنه بوسع بالخلافة أفضى إليه الأمر والمصحف في حجره فأطبقه وقال:

هذا آخر عهدنا بك! وهكذا بدأ خلافته!. ثم عرض عبد الملك سياسته بوضوح شديد في خطبة شهيرة عام 75 فقال... والله لا يأمرني أحد بتقوى الله بعد مقامي هذا إلا ضربت عنقه ثم نزل..!

والحجاج بن يوسف يضرب مثلاً للأمر التافه الواجب النفاذ وإلا أهدر دم المواطن وقف على المنبر يقول: والله لا أمر أحداً أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه!

ما أرخص عنق المواطن، وما أشد جبروت الحاكم: اليوم وأمس وغداً إلغاء كامل لآدمية الإنسان: فلا نقاش، ولا سؤال ولا استفسار بل طاعة عمياء خرساء أسوأ من طاعة العبيد: أي امتهان لكرامة الإنسان ما الذي يفعله حاكم اليوم سوى ما فعله حكام الأمس!! وما الذي أفرزوه وخلفوه لنا...؟ الأمثال العجيبة التي تعبر عن الخوف والجبن وتكمن كراهية شديدة للديمقراطية صنيعة فكر الغرب أولئك الذين يحترمون الإنسان ويجلونه ويقدرونه لأنه خليفة الله في أرضه!! أما نحن فقد ظهر من بيننا قوم جدد يهددون الأفاضل منا بالضرب الحذاء ما لم يعودوا إلى طاعة العبيد!!

عليك عزيزي القارئ أن تطرح هذه الأمثلة كلها وأن تبدأ من جديد مع شاعرنا الشاب أبو القاسم الشابي لتسأل الأرض وتأخذ منها حكمتك:

وقالت لي الأرض لما سألت: أيّ أم هل تكرهين البشر؟!

أبارك في الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر

وألعن من لا يماش الزمان ويقنع بالعيش عيش الحجر

هو الكون حي يحب الحياة ويحتقر الميت مهما كبر
فلا الأفق يحضن ميت الطيور ولا النحل يلثم ميت الزهر
وإذا الشعب يوماً أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي ولا بد للقيد أن ينكسر!..

الأنثى الخالدة...

كان وضع النساء في المجتمع الغربي غامضاً باستمرار
تشهد على ذلك كتابات عدد لا حصر له من المؤلفين في
شتى المجالات.

فهي تكشف عن وجود مشكلة ما. على الرغم من أنه
يستحيل أن يكون هناك اتفاق حول طبيعة هذه المشكلة، فأنصار تعبير
«الأنثى الخالدة» يأخذون به رغم أنه تعبير غامض على أنه معيار لنمط الأنثى
في الثقافة الغربية الذي نعرف بناءً عليه «المرأة الحقيقية» التي لا تحقق ذاتها
من خلال «الإبداع العقلي»، أو «المشاركة في الحياة السياسية»، أو الحياة
الاقتصادية والاجتماعية على قدم المساواة مع الرجل بل بالأحرى يرتبط
مصيرها - طبقاً لهذه النظرة بإنجاب الأطفال ورعايتهم من خلال الأمومة،
وبذلك تكون الرفيق الذي يرتبط مصيرها - طبقاً لهذه النظرة بإنجاب الأطفال
ورعايتهم من خلال الأمومة، وبذلك تكون الرفيق الذي يساعد زوجها في
المنزل. وباختصار «فالأنثى الخالدة» تعبير عن طبيعة المرأة وخصائصها
الدائمة التي لن تتغير. ولقد بدأت أجزاء هذه الطبيعة تتشكل عند اليونان في
مدينة أثينا في العصر الكلاسيكي، حيث لم يكن للمرأة الأثينية أي ارتباط
بالرجل فالحياة العامة في الطرقات اليونانية، وأماكن الاجتماع كانت خاصة
بالذكور، وكانت الأسواق، ومنتديات الرياضة أماكن يتقابل فيها الرجال

مع الرجال، والواقع أن المدينة اليونانية كانت من كافة الوجوه ذكورية، ولم يكن مسموحاً للمرأة عند اليونان أن تختار شريكاً في الجنس -وتلك كانت الحال في الزواج الذي يفرضه الأهل ويرتبه في الأعم الأغلب النساء العجائز اللائي يسمح لهن بالتنقل من منزل إلى آخر. ويقول أحد الفلاسفة اليونان:

« كما أن ملكة النحل تبقى في الخلية وتشرف على بقية أفراد النحل وهي تعمل، كذلك ربة الدار عليها أن تبقى بالمنزل تشرف على ما فيه من أعمال وتراقب مصروف بيتها، فلا ينفق في شهر ما كان يمكن أن ينفق في عام .. ومن أعجب العجب أن تتجمع كل الصفات المتخلفة لتوسم بها المرأة الشرقية حتى في هذا العصر الذي زار فيه المؤرخ اليوناني هيرودت مصر واندesh دهشة بالغة عندما رأى الرجال المصريين ينسجون الكتان في المنازل بينما تقوم النساء بشراء الحاجيات من الأسواق والبيع والشراء، والعمل في الحقول .. ».

وكان الدنيا في رأيه انقلبت رأساً على عقب « فمصر تحوي العجائب » على حد تعبيره -وسوف نعود إلى هذا الموضوع في نهاية المقال!

ولقد قام فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو بتنظير هذه الصورة الاجتماعية ووضع اللمسات الأخيرة لها قبل أن تنتقل إلى التراث الديني في اليهودية والمسيحية فوضع أرسطو نظرية الأعلى يحكم الأدنى، فالسيد هو الذي يحكم العبد والرجل يحكم المرأة لأنه أعلى منها، فالرجل هو الصورة والمرأة هي الهيوولي (المادة) والنساء بصفة عامة ضعيفات، متسرعات، ناقصات عقل، يملن مع الهوى لا يستطعن حتى حكم المنزل

أو إدارة البيت، دع عنك أن يشارك في حكم الدولة، أو في الإبداع العقلي أو الحياة الاقتصادية على قدم المساواة مع الرجل...!

وهي صورة قائمة عن المرأة لكنها انتقلت إلى حضارات أخرى وثبتت في أذهان الناس ولهذا تقول سوزان بل S. Bell الصورة التي رسمها أرسطو للمرأة بالغة الأهمية فقد ترسبت في أعماق الثقافة الغربية، وأصبحت الهادي والمرشد عن النساء بصفة عامة.!

ويتفق أنصار المرأة على أن الأعباء البيولوجية التي ترتبط بالأمومة، والقيود التي تفرضها الأوضاع الثقافية قد شددت المرأة إلى الخلف فمنعتها من تحقيق الطبيعة البشرية الكاملة، وهم يذكرون في شيء من السخرية أن مجتمع البشر لم يقدم لها أي تعويض وإنما اكتست هذه الصورة القائمة للمرأة ثوباً دينياً في اليهودية أولاً ثم المسيحية بعد ذلك.

ففي كتابات العهد القديم تظهر المرأة كمخلوق خاضع وتابع وأدنى من الرجل. وكان الرجل اليهودي -ولا يزال- يقول في صلاة الصبح «أشكرك يا إلهي أنك خلقتني رجلاً وليس امرأة» أما المرأة اليهودية فهي تقول «أشكرك يا إلهي أنك خلقتني كما تريد..» ويقول أحد أنصار المرأة «كل ما كتب عن المرأة من قبل الرجال يجب أن يوضع موضع الشك والريبة لأنهم خصوم، وحكام في الوقت ذاته، ولقد سخرُوا اللاهوت والفلسفة والقوانين لخدمة مصالحهم الخاصة!». ومن هنا فقد انعكس وضع المرأة المقهورة في الأزمنة القديمة في الكتاب المقدس كما كان في التراث الاجتماعي الذي ورثوه من اليونان. ولقد كان مؤلفو العهدين القديم والجديد هم رجال عصرهم، وسوف يكون من السذاجة أن تتصور أنهم تحرروا من الأحكام المستبدة

التي سادت هذه الحقبة. والواقع أن الكتاب المقدس يحتوي على كثير من الأفكار التي هزت المرأة الحديثة هزة عنيفة بعد أن اعتادت التفكير في نفسها- على الأقل إلى حد ما بوصفها شخصية مستقلة. فقد كانت الزوجة في العهد القديم توضع بين ممتلكات الرجل مع أشياء أخرى ففي سفر الخروج- وفي الوصايا العشر توضع المرأة مع الثور والحمار وغيرهما من ممتلكات الرجل « لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده، ولا أمته ولا ثوره ولا حماره.. » (20:17) وأيضاً «لا تقتل ولا تزن ولا تسرق ولا تشهد على قريبك شهادة زور ولا تشته بيت قريبك ولا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا شيئاً مما لقريبك..» (خروج 20:13) مع ملاحظة أن كلمة قريبك التي تتكرر كثيراً تعني يهودي مثلك-!!

وعلى حين أن الزوج يستطيع أن ينبذ الزوجة ويتبرأ منها فليس من حقها أن تطلب الطلاق. ولقد كان سوء السلوك من جانب المرأة يعاقب عقاباً قاسياً عند العبرانيين القدماء، فإن الخيانة من جانب الزوج فإنها كانت تعاقب فقط لو أنه انتهك حقوق رجل يهودي آخر ولو أنه اتخذ من امرأة متزوجة عشيقة له. كما كان في استطاعة الرجل أن يبيع بناته كما يبيع عبده. وإذا لم ينجب الزوجان أطفالاً، فالمفروض أن الخطأ يكون خطأ الزوجة. وعلى الرغم من أن النساء العبرانيات يقدرن كأمهات فإن وضعهن الاجتماعي والقانوني كان وضع الموجودات التابعة.

الصوم .. أنواع

|| الصوم هو الامتناع عن تناول الطعام أو الشراب أو الامتناع عنها معاً لغرض ديني في أغلب الأحيان. ||
ولقد عرفت الجماعات البدائية القديمة الصوم وبخاصة قبل مرحلة القنص، وأيضاً قبل مرحلة الحصاد، وقبل أداء الطقوس السحرية. وكثيراً ما كانت هذه الجماعات تتخذ من الصوم وسيلة لتهديئة إله غاضب أو للمساعدة على بعث إله اعتقدت أنه مات في فصل من فصول السنة.

ولقد فرضت اليهودية والمسيحية الصوم في فترات معينة، وليس كله عن الطعام أو الشراب. فقد فرضت اليهودية الصوم عن العمل أو الامتناع عنه في يوم كييبور yomkippur يوم الغفران - كما جاء في التقويم اليهودي وهو اليوم الذي كلم فيه الرب موسى، وفرضته المسيحية طوال الأربعين يوماً السابقة لعيد الفصح، وخلال الفترة التي تشمل أيام الأحد الأربعة السابقة لعيد الميلاد.

أما الإسلام فقد فرض الصيام تطهيراً للنفس وإشعاراً لها بما يعانيه الفقراء من آلام الجوع والحرمان من الطعام في أيام كثيرة من السنة - ولقد فرض الإسلام الصوم من الفجر حتى غروب الشمس طوال شهر رمضان.

وصيام المسلم لا يقتضيه الامتناع عن الطعام والشراب فحسب بل

الامتناع عن كل ما حرم الله من كذب أو غش أو خداع أو نسيمة.. إلخ، وكذلك الامتناع عن إتيان النساء، إلا أن الصوم محرم على الحائض، ولا يحل تركه إلا في حالات معينة كالمرض أو السفر. وكذلك فرضت البوذية والهندوسية الصيام، ولم يحرم الصيام إلا في الديانة الزرادشتية دون غيرها من الأديان المعروفة، وذلك لاعتقاد الزرادشتيين بأن الصوم يضعف المؤمن ولا يساعده على النضال ضد الشر.

إلا أن الصوم ليس امتناعاً عن تناول الطعام أو الشراب فحسب، بل كان الصمت أو الامتناع عن الكلام فريضة دينية أيضاً ولقد ورد ذلك في القرآن الكريم عندما روي عن السيدة مريم: ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم: 26].

كنا مجموعة من الزملاء في مدينة طرابلس بليبيا عندما دخل علينا زميل فاضل عائد من الهند وراح يروي لنا قصة طريفة ملخصها هو أن هذا الصديق كان في زيارة قصيرة للهند وتوقف خلال بضعة أيام في مدينة كلكتا وقد عن له أثناء وجوده بهذه المدينة أن يقوم بزيارة جامعها، لكي يتعرف على أساتذة الفلسفة والاجتماع هناك، وعند مدخل القسم الذي يضم هذين الفرعين من العلوم الإنسانية -في كلية الآداب أدهشه منظر رجل يجلس القرفصاء عند الباب الخارجي في هدوء وسكون كامل وكأنه تمثال أصم، لا يضع على جسده من الثياب إلا ما يكاد يستر جسمه. ألقى عليه الزميل تحية الصباح فلم يرد، فسأله أين يمكن أن يجد رئيس قسم الفلسفة أو أساتذة هذا القسم فلم يجب! فتركه وشأنه ودخل حيث التقى ببعض الأساتذة، ولقد كانت دهشته لا حد لها عندما طلب منهم مقابلة رئيس القسم فأخبره القوم

أنه هو ذلك الرجل الذي كان يجلس الباب الخارجي، وعندما أبدى الزميل تعجبه من أنه حياه فلم يرد، وسأله عن الأستاذة فلم يجب، أفهموه أنه لم يكن في استطاعته الإجابة لأنه صائم عن الكلام ثلاثة أشهر للتأمل!

هنا ضحك الحاضرون وأطرقت صامتًا استرجع المغزى العميق الذي يستهدفه هذا الفيلسوف الهندي من صومه هذا الطويل!! وتذكرت ما كان يقوله واحد من أشد المعجبين بالفلسفة الهندية هو الفيلسوف الألماني شوبنهاور Schopenhauer (1788 - 1860).. في عبارته الشهيرة في رأيي أن مقدار الضوضاء الذي يمكن للإنسان أن يحتمله دون أن يثيرة يتناسب تناسبًا عكسيًا مع قدرته العقلية فيمكننا بهذا أن نتخذ من الضوضاء مقياسًا للكفاءة بالغًا في الدقة؛ فالضوضاء تعذيب لكل من يعمل بعقله من الناس!! وشعرت في الحال أننا في مجتمعنا العربي أحوج ما نكون إلى هذا الصوم الهندي عن الكلام..!

أننا في حاجة ماسة إلى الصوم عن الكلام أو حتى الإقلاع عنه حتى نتمكن من العمل؛ بل خيل إلى أننا ينبغي علينا أن نعود أطفالنا ونحن نعلمهم النطق، أن يكفوا عن الكلام بين الحين والحين، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه: أما أن يتكلم أو يفكر، أما أن يثرثر أو يعمل، أما أن يتحدث أو ينتج، ولهذا كان مقياس الرجل المتحضر - كما قال شوبنهاور بحق - عدم قدرته على تحمل الضجيج، والجلبة، والأصوات المرتفعة.. إلخ.

وكانت المجتمعات المتخلفة هي التي تحتشد فيها أصوات السيارات مع صراخ المارة، مع الإذاعات المختلفة مسموعة ومرئية. أما المجتمع المنتج فهو الذي يقل فيه الصوت المرتفع، وتكاد تتلاشى الجلبة والضوضاء ليحل

محلها الفعل، والعمل والإنتاج!. وإني لأذكر ما روي لي صديق من أن بعض المطاعم في أوروبا قد لجأت في الآونة الأخيرة إلى الموسيقى الصاخبة تديرها لزبائنهم الكرام وهم يأكلون لكي يتحولوا إلى وحوش ضارية تلتهم أكبر كمية ممكنة من الطعام!! غير أن الصوم عن الكلام ليس نوعاً واحداً أيضاً فالرسول الكريم يدعو إلى الصوم النسبي عن الكلام وليس المطلق ففي الحديث لا صمت يوم إلى الليل (أي لا تصمت يوماً كاملاً حتى يحين الليل ومن ثم فصوم الفيلسوف الهندي الذي سبق ذكره- عن الكلام ثلاثة أشهر غير مقبول). والمجرباني في تعريفاته يسمي الصوم عن الكلام بالسكوت ويعرفه بأنه ترك الكلام مع القدرة عليه.

ويرى بعض الباحثين أن الصوم عن الكلام ليس نوعاً واحداً وإنما هو على نوعين:

صوم العوام عن الكلام -وهو إمساك اللسان كفأ عن الكذب والغيبة.
والثاني صوم الخواص عن الكلام وهو إمساك اللسان للوصول إلى سلطة الهيبة -وذلك صمت الحضرة ذ. الكلام هو ضرب من التربية الأخلاقية، يتطلبها السلوك الفاضل الذي يريد صاحبه أن يبتعد عن الرذائل أو الوقوع في المعاصي كالكذب والنميمة وغيرها من الآفات التي يذكر منها الإمام الغزالي عشرين آفة! من هنا جاءت الأحاديث النبوية الكثيرة التي تحث على الصمت بما هو دعوة أخلاقية في المقام الأول مثل البلاء موكول بالنطق- وأيضاً أن كثرة أخطاء ابن آدم من لسانه وأيضاً من كثرة كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ومن كثرت ذنوبه، كانت النار أولى به.. ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر: فليقل خيراً أو ليصمت. وأيضاً رحم الله إمرأ

صمت فسلم، أو قال خيرًا فغنم! وقال أيضًا من صمت نجا.. وكذلك روى المؤرخون عن أبي بكر الصديق أنه كان يضع حصاة في فمه ليقل كلامه، وكان يشير إلى لسانه وهو يقول هذا الذي أوردني الموارد!

ومن ذلك أيضًا قول لقمان الحكيم لقد ندمت على الكلام مرارًا، ولهم أندم على الصمت مرة!

الصوم إذن أنواع متعددة منه الامتناع عن الطعام أو الشراب أو هما معًا، ومنه ما يكون يوميًا كاملاً أو نصف يوم أو عدة أيام أو أكثر، ومنه الامتناع عن الكلام وهو نفسه أنواع متعددة، ومن الصوفية من يرى أن الجوع سر من أسرار الله، ولذلك قالوا لو كان الجوع يباع ويشترى في الأسواق، فإنه ما كان ينبغي لطلاب الآخرة أن يشتروا غيره، ومن آدابهم في الجوع أن الفقر لا يعانق الجوع إلا وقت الشبع، حتى إذا جاع يكون الجوع أنيسه. والجوع عند الصوفية على أربعة أوجه: جوع المريدين فهو رياضة، وجوع التائبين فهو تجربة، وجوع الزهاد سياسة وجوع العارفين فهو مكرمة. ولقد فصل فيه الباحثون!⁽¹⁾

وهناك أخيراً الامتناع عن تناول الطعام والشراب بعيداً عن ميدان الدين عندما يستخدم لأسباب سياسية، واجتماعية لا سيما في القرن العشرين، فأصبح الناس يصومون احتجاجاً على مظلمة أو تحقيقاً لمطلب، ويعتبر المهاتما غاندي (1869 - 1948) الزعيم السياسي الهندي العظيم أبرز من لجأ إلى هذا النوع من الصيام؛ لقد بلغ غاندي من رفعة المقام وقوة النفوذ أنه كان يكره مواطنيه على تنفيذ تعليماته بالتهديد بالصوم حتى الموت لكي

(1) راجع مثلاً كتاب الدكتور عبد الحميد درويش مقامات الصوفية ص 67 وما بعدها.

يستجيبوا له. وكثيراً ما أضرب عن تناول الطعام حتى يوافق الإنجليز على مطالبه.

وهكذا كان الصوم عن تناول الطعام جزءاً من المقاومة السلبية عند غاندي أو الروح العظيمة. ثم أصبح وسيلة يستخدمها زعماء آخرون لتحقيق مطالبهم، ويستخدمها كذلك عمال وموظفون للضغط على حكوماتهم لتنفيذ ما يطلبون!

ولا بد أن نقول أخيراً الصوم جنة أي ستر، ووقاية من الشهوات!

أسماء تحولت إلى أشياء..!

هل يمكن أن تتحول أسماء الأشخاص إلى أسماء لأشياء
تصبح أكثر شهرة من الأعلام الذين ظهرت في الأصل
لتسميهم؟! سوف نعرض عليك في هذا المقال بعضًا من
هذه الأسماء:

1 - ساندوتش Sandwich

كنت أقضي بعض الوقت في مدينة رامسجيت Ramsgate.. التي تقع
على القنال الإنجليزي قرب مدينة أخرى شدي اسمها هي مدينة ساندوتش
Sandwich.. فصممت على زيارة هذه المدينة لا سيما أن المسافة بين المدينتين
ليست طويلة..! وعندما وصلت إليها وجدت أشياء غريبة أولاً قنطرة صغيرة
لا تتحمل أكثر من سيارة في الذهاب أو الإياب، وقل الشيء نفسه في بوابة
المدينة..

أما اسمها فقد قال لي أهلها ما يلي: في أوائل القرن الثامن عشر كان يملك
هذه المنطقة رجل إقطاعي هو جون مونتاجيو (1718-1792) الملقب بايرل
أف ساندوتش، وكان هذا الرجل مدمناً لمائدة القمار، وعندما كان خادمه
يأتي إليه وهو مندمج مع أصدقائه على مائدة القمار ويشير إلى ساعته منبهًا
سيده إلى أن وقت العشاء قد مضى منذ وقت بعيد، كان السيد يقول له إنه لا

يريد أن يأكل فقط ضع قطعتين من اللحم في رغيف من الخبز وأحضره إلى دون أن يغادر مائدة القمار، ومن هنا كان هذا الرجل هو مخترع الساندوتش (الذي هو في الأصل اسم علم)، ثم تحول إلى شيء يؤكل!!

2- الخرافة

أما خرافة فهو رجل من بني عذرة، وفي رواية أخرى من جهينة، غاب عن قومه فترة طويلة ثم ظهر فجأة، وعندما سأله الناس أين كنت؟ ولماذا غبت طوال هذه المدة؟ كان جوابه أنه خرج وحده يتنزه وإذا به يصادف في طريقه شابة رائعة الجمال تبادل معها التحية وتعرفت عليه ألفت خرافة..؟! أنا بنت ملك الجان ووالدي مشتاق جداً لرؤيتك!! وأخذته إلى باطن الأرض حيث يعيش والدها في قصره الجميل، ف قضى معهم عدة أشهر مرة بسرعة البرق.. وها أنا أعود إلى قومي وأحباي..!

لكن الناس لم يصدقوا القصة فكانوا يطلقون على مثل هذه الأقوال عبارة هذا حديث خرافة أي أنه يشبه ما كان يقوله خرافة عن غيابه.. ويقول ابن منظور في لسان العرب أصحاب العرب يطلقون كلمة خرافة على المستملح من الكذب..!!

3- الماركيز دي ساد (1740 - 1814) Marquisesade

كاتب، وأديب لا يمل من قراءة الكتب، كما أنه صعلوك، وشاذ، وفاسد، ومنحرف، وفيلسوف، وصاحب استبصارات قوية حول الطبيعة البشرية حتى أصبح اسمه مذهباً شهيراً في علم النفس هو السادية Sadism.. س..

احجرة النوم عام 1793 من اسمه اشتقت السادية كما قلنا وهو مذهب يعبر عن الانحراف الجنسي الذي يتلذذ فيه المرء بإنزال الآلام أو العذاب بشخص يحبه.. ثم اتسع هذا المفهوم ليشمل كل نزعة أو ميل إلى إيذاء الآخرين وهو عكس الماسوشية (أو المازوكية Masochism) التي سنتحدث عنها حالاً. ويعتقد علماء النفس أن الرجال عرضة للسادية أكثر من النساء؛ وأن النساء عرضة للماسوشية (المازوكية) أكثر من الرجال..

4- الماسوشية (المازوكية Masochism)

اللذة- خصوصاً اللذة الجنسية مع معاناة للآلام الجسمية ولقد أخذ سيجموند فرويد S.Freud (1856-1939) اللفظ من اسم: لوثر فان زاخر. مازوك Luther Non Sacher Masoch (1835-1895) (الروائي النمساوي الذي كانت المازوكية موضوع قصصه وهي نقيض السادية كما سبق أن ذكرنا..

5- أوديب (Oedipus.. ذو القدمين المتورمتين..)

ابن جو كاستا ولايوس ملك طيبة في الأساطير اليونانية، تنبأت كاهنة معبد دلفي للملك أنه سيولد له ولد سوف يقتله ويتزوج أمه، وعندما ولد الولد بالفعل أعطاه الملك لقائد الحرس ليقترله لكن الرجل بعد أن خرج إلى حدود المملكة أشفق على الطفل فأعطاه لصديقه راعي الغنم في المنطقة وهو الذي أسماه أوديب (أو ذو القدمين المتورمتين) ذ يوم إلى الكاهنة في المعبد وهي التي أخبرته أن من تعيش معه ليس والدك الحقيقي، فهام على وجهه

عساه أن يعرف حقيقة الأمر، إلى أن اقترب من مملكة طيبة ها هنا قابل الملك لايوس (والده) راكباً عربية فخمة يحرسه خمسة أشخاص فاضطرع الرجلان دون أن يعرف أحدهما الآخر بسبب غزال ادعى كل منهما أنه اصطاده، وانتهى العراك بأن قتل أوديب والده دون أن يعرف، وهرب الحرس عائدين إلى طيبة حيث أعلنوا وفاة الملك، وعندما وصل أوديب إلى طيبة وجد المدينة في أسوأ حال فقد ربض أبو الهول ذلك الوحش الكاسر عند بابها يطرح على الداخلين سؤالاً ثم يفتك بمن لا يأتيه بالجواب الصحيح، وكان السؤال عبارة عن لغز هو: ما هو الحيوان الذي يمشي في الصباح على أربع، وفي الظهر على اثنين، وفي المساء على ثلاث؟! إذا كان أبو الهول يفترس كل من يفشل في حل اللغز، فقط وعد أنه سوف ينتحر إذا استطاع أحد حله وأصيب المدينة بحالة فزع لا حد له مما اضطر الملكة إلى أن تعلن أنها سوف تتزوج أي شخص يستطيع حل اللغز وإنقاذ البلاد (وكان زوجها قد قتله أوديب من قبل).

وعندما طرح أبو الهول السؤال نفسه على أوديب كان جوابه أنه الإنسان إذا يحبو على يديه وقدميه في البداية، ثم على قدميه وهو شاب، ثم على ثلاث عندما يتوكأ على عصا في مرحلة الشيخوخة. وكان الجواب صحيحاً فانتحر أبو الهول وعمت الأفراح المدينة وتزوج أوديب من الملكة التي هي أمه، وكان قد قتل الملك من قبل - وهكذا تحققت النبوءة.

ولقد صاغ منها فرويد عقدة أوديب في علم النفس التي تكشف عن الصراع الجنسي بين الابن وأمه، لا سيما في فترة الطفولة المبكرة وهي تقابل عقدة الكترا Electra التي تعني تعلق البنت بأبيه.

6- أطلس Atlas..

من التيتان (Titans الجبابرة) في الأساطير اليونانية شقيق برومهيوس، وأبيثيوس. وكان أطلس من هؤلاء الجبابرة أو المردة الذين وقفوا ضد زيوس - Zeus.. ولما انتصر الأخير حكم عليه - عقابا له - أن يقف في الغرب وأن يرفع قبة السماء على كتفه، وقد أراحه هرقل بعض الوقت عندما حمل عنه قبة السماء في مقابل أن يذهب أطلس إلى حديقة المهسريد ليقطف له ثلاث تفاحات ذهبية.

وهناك أسطورة تقول إن برسيوس ابن الإله زيوس زار أطلس، فلم يرحب به الأخير، فأحاله برسيوس إلى صخرة ضخمة، وأصبحت هذه الصخرة جبل أطلس في شمال غرب إفريقيا. ولما كان اسم أطلس قد ارتبط بقبة السماء، فقد اعتقد الناس في العصور الوسطى، أن أطلس هو الذي علم الإنسان الفلك. وما زالت كتب الخرائط تسمى باسم أطلس Atlas لأن صورته وهو يحمل قبة السماء على كتفيه استخدمها مصمم الخرائط في القرن السادس عشر مركيتور Mercator على غلاف كتابه - ومركيتور (1512-1594) مصمم خرائط وجغرافي هولندي ابتكر عام 1569 طريقة جديدة في رسم الخرائط تظهر فيها خطوط الطول وخطوط العرض وتتقاطع عند زوايا قائمة..

7- اليوسفي Mandarin..

ويقال إن فاكهة اليوسفي استوردها من الصين لأول مرة شخص يدعى يوسف أفندي فحملت هذه الفاكهة اسمه - لاسيما في مصر - حتى يومنا الراهن. وهي بالإنجليزية Mandarin والمندارين في الأصل كلمة صينية تطلق

على كبار الموظفين في الدولة وكانوا يضعون على الرأس قلنسوة ذات زر يشبه ذلك الذي يوجد في حبة اليوسفي.

8- ت. شيرت T. Shirt..

قميص خاص ابتكره مصمم أزياء أمريكي يسمى توماس Thomas.. اختصر أول حرف من اسمه T لتسمية القميص، ووضع بجواره كلمة قميص بالإنجليزية Shirt فأصبحت ت. شيرت أي قميص توماس!

9- جيمس واط Jams Watt (1736 - 1819) ..

البخارية مما أدى إلى استخدام الطاقة البخارية وانتشارها في كثير من المصانع وهو مكتشف وحدة القدرة الكهربائية Watt Power وكل ألف واط تسمى كيلو واط Kilo Watt وتقديرًا لجيمس واط أطلق اسمه على وحدة القدرة الكهربائية.

10- تيودور بلهارس T.Bilharz (1825 - 1862) ..

المسبب للبلهارسيا Bilharzia.. وكان ذلك في القاهرة عام 1851 فسميت باسمه!

11- أمبير (Ampere) .. أندريه ماري (1775 - 1836) ..

فيزيائي فرنسي يعتبر أبا الكهروطيسية أو المغنطيسية الكهربائية. وأخيرًا ندعو الله أن تكون عزيزي القارئ في لائحة الخالدين مع هؤلاء العمالقة!

أقدم لك.. هذا الفيلسوف..!

أود أن أقدم لك هذا الفيلسوف الكبير: و. ت. ستيس
 W. T. Stace (1886 - 1967).. إنجليزي المولد أمريكي
 الجنسية الذي تأثر بقوة بالفلسفة الهيجلية، وأراد
 التوفيق بين المذهبين المثالي والطبيعي. على اعتبار أنها

ليسا بالضرورة نقيضين.

واختياري لهذا الفيلسوف يرجع إلى أنه معاصر، ومع ذلك ينشغل بأسئلة
 دينية محيرة لا سيما مشكلة العلاقة بين الدين والعقل الحديث وهو كتاب
 أصدره عام 1952 كما أصدر معه كتاباً آخر هو الزمان.. والأزل: مقال في
 فلسفة الدين ثم أصدر كتابين في التصوف عام 1960 هما تعاليم الصوفية
 والتصوف.. والفلسفة لأنه يعتقد أن التصوف هو جوهر الدين وليس
 الأخلاق.

وهو يجيب عن أسئلة مهمة يطرحها كثيرون مثل:

ما وضع الدين في عالمنا المعاصر عالم الشك والحيرة، والقلق والريبة؟! هل
 يمكن أن يبقى الدين بعد التقدم المذهل الذي حققه العلم؟! هل تبقى
 النظرة الدينية إلى العالم؟ هل يمكن القول بالعرضية أو الغائية بعد أن رفضها
 العلم؟! ويجيب على هذه الأسئلة كلها بالإيجاب: نعم سوف يبقى الدين قائماً
 ركناً أساسياً في حياة الإنسان، رغم الانتصارات العلمية الهائلة، وسوف تبقى

أفكار دينية لا حصر لها، رغم شيوع التفكير العلمي بين المثقفين، بل وعامة الناس، ذلك لأن التجربة الدينية دفيئة مطمورة في أعماق النفس البشرية. وسوف نكتفي بالحديث عن ثلاثة أفكار رئيسية:

أولاً: يعتقد ستيس أن الدين جزء من ماهية الإنسان وأن هناك ما يمكن أن نسميه بالتجربة الدينية أو الحس الذاتي بصفة عامة. تكمن في أعماق كل قلب بشري بل وتدخل في صميم ماهية الإنسان مثلها في ذلك مثل العقل سواء بسواء. وهذه التجربة هي تأويل للخبرة الغيبية أو الصوفية، وهي ملك مشاع للبشرية بأسرها. وليس من المبالغة أن نقول إن هذه التجربة واحدة بعينها بالنسبة لجميع البشر، أو أن نزعّم أن التجربة الصوفية لدى الصوفي البوذي هي بعينها التجربة الباطنية لدى الصوفي المسيحي. وإذا كانت هناك فروق واختلافات في هذه التجربة فهي موجودة أيضًا بالنسبة للتجربة الجمالية التي هي في كل مكان ذات طابع واحد، ومع ذلك هناك فروق بين الفنون الإنجليزية والأمريكية والصينية واليابانية.. إلخ. لكن من المؤكد أن لها جميعًا جذرًا واحدًا مشتركًا في صميم التجربة الأصلية للجمال. ولا يصبح الحس الجمالي البشري مثله في ذلك مثل الحس الديني البشري حسًا متميزًا إلا تحت تأثير ظروف التحديد التاريخي والجغرافي.

وإذا كان الحس الديني جزءًا من ماهية الإنسان، فإن السؤال عن حقيقة الدين أو عن بقاءه أو فنائه بعد التطور المذهل للعلم، سؤال لا معنى له، لأن فناء الدين يعني تقويض جزء مهم من ماهية الإنسان. ومن هنا نجد فيلسوفنا ينفي الإلحاد تمامًا، ويعتبره ذا طابع ديني عميق، مثله في ذلك مثل التأليه سواء بسواء.

ثانيًا: جوهر الدين هو التصوف:

يعتقد فيلسوفنا أن هناك طريقتين للحياة: الطريق الشائع المألوف الذي يسعى وراء المنافع والاستفادة من متع الدنيا ولذاتها، أما الطريق الثاني فهو طريق القديسين والمتصوفة الذي يسعى إلى الغبطة والنعيم؛ والخلاص.. إلخ، ويرى أن الغبطة لا توجد إلا مع اللامتناهي وحده، فمهما كانت متع الحياة فهي عقيمة، أو سطحية، والإنسان الذي يشعر بالسعادة معها مثله مثل من يشعر أنه سعيد مع أنه يعيش في ظلام حالك يتغلغل بداخله، أو كالشقي الذي لا يعي عن شقائه شيئًا. أما الدين -أي دين- فهو الذي يضع أمام الإنسان طريقًا للخروج من ظلام الحياة إلى طريق النور.

ويعتقد ستيس أن الدين ليس ببساطة هو الأخلاق، كلا، ولا هو مزيج أو خليط من الأخلاق والمعتقدات، بل هناك شيء يختلف اختلافاً كبيراً عنهما هو الذي يشكل ماهية الدين. صحيح أن الدين يعتمد باستمرار على الحياة الأخلاقية. وصحيح أيضاً أن القديسين هم -في العادة- أناس على خلق رفيع، وليس ذلك مجرد صدفة، لكنه ضرورة. لأن المحبة أو الشفقة أو الرحمة تنبع بالضرورة من رؤية أخلاقية خاصة، غير أن الأخلاق ليست هي الدين..

الطريق الصحيح للدين هو طريق لا يمكن وصفه لأنه يفوق الوصف. ولا بد أن نفهم عبارة يفوق الوصف بمعناها الدقيق، بمعنى أنه لا يمكن أن يقال، وما لا يمكن التفوه به على الإطلاق بأية كلمات يمكن تصورها - وإنما يمكن التلميح أو الرمز أو الإشارة إليه فحسب ومن ثم كان جوهر الدين هو التصوف وليس الأخلاق.

ولهذا فإننا نستطيع أن نقول إن جميع المتدينين لدينا حقيقياً هم متصوفة

بدرجة كبيرة أو صغيرة، وليس هناك خط فاصل وحاسم بين المتصوف وغير المتصوف، فأولئك الذين يعرفون -عادة- بأنهم متصوفة، ويعرفون هم أنفسهم بذلك وهم الذين يتحقق تصوفهم بوضوح في ضوء الوعي الكامل؛ وأما الإنسان المتدين العادي، فتصوفه كامن بداخله، أعني أنه يختفي تحت عتبة الوعي، ولا يرى على السطح إلا على نحو باهت وهو نفسه لا يعترف بوجوده. ولا يعترف به غيره من الناس، أما القديس فهو الرجل المتدين على الأصالة. ومن ثم فجوهر حياته هو التصوف سواء عرف هو نفسه ذلك ووصف به نفسه أو عرفه الآخر المحيطون به الذين يراقبونه ويصفونه أم لا.

ثالثاً: خصائص التصوف:

يعتقد ستيس أن هناك نوعاً من التجربة أو الخبرة أو الطريقة التي نخبر بها العالم تلغي جميع التميزات بين شيء وآخر، بما في ذلك التميزات بين الذات والموضوع - أو تتجاوزها أو تعلو عليها، حتى إن جميع الأشياء المختلفة في العالم تصبح واحدة أعني تصبح متحدة بعضها مع بعض. ولا بد لنا أن نفترض أنها لا تزال، مع ذلك مختلفة، وسوف يتذكر قراء الفلسفة مبدأ هيغل المشهور الهوية في الاختلاف. لكن في حين أن هيغل عندما يذكر هذا المبدأ فهو يتحدث عنه على المستوى النظري فحسب، فإن القديسين يرون بتجربة هذا المبدأ ويخبرون به العالم، وهو أمر مختلف أتم الاختلاف.

ويسوق فيلسوفنا مثلاً توضيحاً من نصوص ماياستر اكهرت (1260 - 1327) - المتصوف الألماني الكاثوليكي في القرن الثالث عشر يقول فيها الكل في واحد، والواحد في الكل. الأشياء بالنسبة له النفس المدركة هي كل في

واحد، وواحد في كل ها هنا يكمن نقاء النفس وطهارتها، فقد تطهرت من حياة منقسمة، ودخلت في حياة موحدة، فكل ما ينقسم في الأشياء الدنيا، سوف يصبح موحداً بمجرد ما ترتفع النفس إلى حياة لا يوجد فيها تضاد ولا تقابل عندما تصل النفس إلى الاستبصار الحق فإنها لا تعرف تضاداً ولا تقابلاً. متى يعلق الإنسان على الفهم المحض؟ أستطيع أن أخبرك: عندما يرى الكل في واحد، عندئذ يكون الإنسان قادراً على تجاوز الفهم المحض..

في هذا النص نجد أن تجربتنا المألوفة بالعلم تسمى بالفهم وهو الملكة التي تفصل وتميز الأشياء بعضها عن بعض. أما الرؤية الحققة فهي تعني تجاوز ذلك، حيث لا تضاد ولا تقابل، ولا تمييز ولا انفصال بل الكل في واحد.

وفي نص آخر يقول أيكهارت:

كل ما لدى الإنسان من الناحية الخارجية متكرر..

أما من الناحية الداخلية فهو واحد..

فكل أوراق الحشائش، والغابات، والأحجار..

وجميع الأشياء واحدة.. تلك هي الأعماق البعيدة..

وأيضاً:

عندما تصل الروح إلى ضوء ما فوق الحس..

فإنها لا تعرف شيئاً اسمه التضاد أو التقابل.

والروح في مثل هذه التجربة تتجاوز بالضرورة حدود الزمان والمكان ذلك لأن الزمان والمكان شرطان ضروريان للتقسيم والانفصال والكثرة،

والتضاد، والتقابل. فالمكان يفصل الأشياء هنا عن الأشياء هناك. ومن ثم فإن الرؤية الموحدة التي ترى الكل في واحد هي تجربة الأزل. لأن الأزل ليس طولاً بل نهاية في الزمان. بل هو اللازمان. إلغاء للزمان أو سلب له تماماً، ولهذا السبب فهي تجربة باللامتناهي، وبالمطلق الذي هو الله، لأنه لا شيء يحده أو يحيط به، وهذا هو المعنى الصحيح لمصطلح اللامتناهي على نحو ما يستخدم في التفكير الديني. والواقع أن هذه الفكرة أخذها ستيس عن هيجل في تفرقه الشهيرة بين اللامتناهي الحقيقي، واللامتناهي الزائف.

ويخلص ستيس من تحليله للتجربة الصوفية إلى أربع نتائج مهمة هي:
أن الكل في واحد في هذه التجربة، وليس ثمة تمايز بين الرائي والمرئي ولا تفرقة بين الذات والموضوع، ولا تفرقة بين شيء وآخر، ولا تقسيم ولا انفصال ولا تفرقة.

أن الرؤية نتيجة لذلك تجاوز العقل، وتعلو عليه (وهو ما سماه إيكهارت بالفهم).

لهذا السبب فإن هذه التجربة لا توصف لأنه لا توجد كلمات يمكن أن تصفها، لأن الكلمات تعتمد على التمييز والتفرقة بين شيء وآخر أعني أنها تعتمد على العقل أو التعقل (الفهم عند إيكهارت).

أن التجربة هي تجربة التحرر والغبطة والنعيم والهدوء، والسلام، وفيها يتفق المتصوف الوثني مع المتصوف المسيحي أو البوذي أو الهندوسي.

وهكذا ينظر ستيس إلى التجربة الدينية على أنها واحدة عند جميع

البشر فكل إنسان متدين بالضرورة وجوهر الدين هو التصوف فكل إنسان متصوف بدرجة كبيرة أو صغيرة.

هذا هو فيلسوف معاصر يؤمن بالعلم ويؤمن بالدين ولا يجد أي تعارض بينهما فمن الظلم البين أن يقال إن الفلسفة تنشر الكفر والإلحاد، فلم يكن فلاسفة الإسلام كذلك ولا فلاسفة المسيحية، ولا فلاسفة المعاصرين ومنهم ستيس نموذجاً.. ألا فليقرأ كل من له عينان!!!..

خمس صفات لله وحده!!

كثيراً ما ألحت على ذهني فكرة ذ- سنة أو سنتين إلى أن أكتبها في بحث أو مقال حسب حجم المعالجة. ولقد كنت ومازلت - أقول لطلابي في الدراسات العليا ممن يريدون إعداد بحث لدرجة الماجستير أو الدكتوراه في تراثنا الإسلامي، لا تختاروا موضوعات سبق أن كتب فيها غيركم بل اختاروا موضوعات جديدة فالبحوث مصابة بفقر دم ونحن نحتاج أن ننقل إليها دماء جديدة، افتحوا نوافذ أذهانكم ليدخل هواء نقي جديد ليتقدم الفكر الإسلامي ولا تحشوا أحداً فباب الاجتهاد لم يغلق ولن يغلق مادمت جاداً..

ولقد ألحت على ذهني من منذ عدة سنوات فكرة وكان ضغطها عنيماً لمدة سنتين حتى كتبتها في بحث عنوانه الزمان.. في القرآن ونشر أكثر من مرة في حوليات كلية الآداب التي كنت أعمل بها أولاً ثم في كتاب بعد ذلك.

وفي هذه المرة أيضاً تلح على فكرة قرآنية أود أن أعرضها على القارئ الكريم لعله يشاطرني الرأي - أو يخالفني فيه - أجراً أو أكثر، علماً بأنني لست من المتخصصين، وإنما كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني قمت بتدريس فلسفة الدين لعدة سنوات ولعبت في رأسي أفكار دينية كثيرة أود أن أعرض بعضها في مقال اليوم وهي باختصار شديد أن القرآن الكريم قد احتفظ

لله - وحده بخمس صفات لا يشاركه فيها أحد على الإطلاق وذلك لأسباب ميتافيزيقية - أي عقلية خالصة - وهذا ما أود من الطلاب أن يفعلوه في رسائلهم لا أن يجمعوا أحاديث أو آيات قرآنية أو حكمًا مأثورة وعلينا الآن أن نعرض هذه الصفات الخمس:

أولاً: صفة الخلود

فلا خالد إلا الله، والآيات القرآنية في ذلك كثيرة فهو يقول للنبي بوضوح شديد:

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: 30].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 26، 27].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: 185].

والسبب الميتافيزيقي أن كل ما عدا الله مخلوق من عدم وهو لذلك يحمل جانباً من الوجود وجانباً من عدم، ويظل جانب عدم ينمو ويقوي إلى أن يدمر جانب الوجود تماماً - كما قال كثير من الفلاسفة والعلماء. وهذه صفة بالغة الوضوح.

ثانياً: علم الغيب

الله وحده هو الذي يعلم الغيب ولا يعلم الغيب إلا الله ولا أحد سواه يمكن أن يدعي ذلك:

﴿أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بِرَىٰ﴾ [النجم: 35].

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: 59].

﴿إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ [يونس: 20].

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل: 77].

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: 65].

لا قدرة على معرفة الغيب حتى للصالحين من عباده. فالآيات أيضًا بالغة الوضوح:

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 26].

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ [آل عمران: 179].

ولقد قرأت لبعض العلماء، وسمعت بعضهم الآخر يؤيدون القول بأن الله يطلع بعضاً من عباده الصالحين على غيبه، وفي ظني أن ذلك خطأ فهو لا يظهر على غيبه أحداً - كما تقدم، حتى ولا الجن!! وفي قصة النبي سليمان وهو جالس يتكئ على عصاه يراقب الجان وهم يشتغلون أشغالا شاقة، ومات دون أن يعلموا بموته إلا بعد أن سقط على الأرض، والآيات التي تحكي هذه القصة واضحة: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: 14]، وكأني بهذه الآيات موجهة إلى أولئك السذج الذين يذهبون إلى السحرة والدجالين الذين يسخرون الجان ليأتوا بأنباء الغيب، ما كان وما سيكون من أنواع الأحجية والأعمال التي لا يعلمها أحد سواهم وذلك كله كذب وافتراء، وضحك على السذج والبله والغافلين من البشر.

والسبب أننا جميعاً الأنس والجن نعيش في داخل الزمن باستثناء الخالق -سبحانه- الذي هو في أزل دائم، ومن يعيش في الزمان كمن يسبح داخل النهر فهو محكوم بمياه النهر لا يستطيع أن يتخطاها، ومن ثم فهو غير قادر على أن يتخطى لحظات الزمان مع أنك لكي تعلم الغيب وترى المستقبل لا بد لك أن تخرج من لحظات الزمان وهذا القول عبث وخلف Absurd كما نقول في الفلسفة ومن ثم فهو مستحيل. الله وحده هو القادر على أن يوجد خارج الزمان لأنه خالق لهذا الزمان-، وقل الشيء نفسه بالنسبة للمكان [فهو أعلى منهما ولذلك لا معنى لسؤالك ماذا كان يفعل الله قبل خلق العالم؟ لأنه ليس هناك قبل وبعد إلا مع خلق العالم- كما قال أرسطو الزمان مقياس الحركة، وهذه الحركة هي حركة المادة، فلا زمان قبل حركة المادة والتقاء الزمان والأزل هي أعلى لحظة يمكن أن يدركها الصوفي العظيم (وليس الدرويش أو الأبله).

والصوفي العظيم هو مرحلة أعلى من الفيلسوف العظيم انظر إلى عبارة عالم الطبيعة الكبير ألبرت أينشتاين: من لم يقف تجاه الكون وقفة صوفية ولو مرة واحدة في حياته فهو: حي حكمه حكم الميت!! وهذا موضوع بالغ الأهمية ويقع كثير من الناس في أخطاء لا حصر لها بسبب الخلط بين الزمان والأزل- وقد قلت ذلك في دراستنا الزمان.. في القرآن فليرجع إليها من يشاء!.

ثالثاً: العصمة من الخطأ

الخطأ يأتي من نقص في المعلومات، فأنا أقع في الخطأ لأنني أعرف شيئاً ولا أعرف أشياء أخرى كثيرة أو كما قال الشاعر: عرفت شيئاً وغابت عنك

أشياء... ومن هنا فلا بد أن يقع المرء في الخطأ وقال المثل اللاتيني: الإنسان خطأ بطبعه.. أما استحالة الخطأ فهي لله وحده، العصمة لله لا يشاركه فيها أحد مهما علا قدره ومقامه. ولا أريد أن أدخل هنا في إشكالات مع من يقول أن من البشر من هم معصومون من الخطأ بل أكرر العصمة لله وحده، لأنه يعلم كل ذرة في السماء وكل حبة رمل في الأرض فعله كامل ومن ثم استحال عليه الخطأ. أما البشر جميعاً فعلمهم ناقص، ولهذا فهم يخطئون أما القول بأن الإمام معصوم أيّاً كان وضعه فهو تأليه للإمام، أظنه لا يجوز ويبقى السؤال المشكل الذي يهز المرء لكن يجب علينا أن نطرحه بقلب سليم، وعقل مفتوح، وضمير صاف وهو: حتى الأنبياء، وأجيب نعم حتى الأنبياء، وأظن أن القرآن الكريم ذكر ذلك بوضوح من آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121]، حتى نبي الإسلام ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ﴾ [التحریم: 1]، وهم يعترضون على ذلك بأن النبي إذا أخطأ فسوف يخطئ في الوحي دون أن يكونوا على علم بأن لحظات الوحي لا يكون النبي في وعيه وإنما هو مجرد أداة للسماء توصل ما يتلى عليه، ومن هنا استحال عليه الخطأ لأن الجانب البشري غير موجود أصلاً!

رابعاً: الخالق

فعل الخلق من العدم لا ينسب إلا لله وحده، فهو الخالق البارئ المصور. فإذا قلنا أن التجار خلق لنا منضدة جديدة بساق واحدة ولا مثيل لها فذلك قول على سبيل المجاز وليس خلقاً حقيقياً، لأن الخلق الحقيقي لا يكون إلا من العدم الأمر الذي لم يعرفه فلاسفة اليونان ولهذا كان المثل السائد عندهم لا شيء يخرج من لا شيء EXNihi، Nihlifit ... يسمى بالإله الخالق

بل بالإله الصانع Demiurge فالمادة الخام بجواره والمثل أمامه وكل دوره أن يجمع بينهما وليس هذا هو الخالق لأن الخالق يعني الذي يخلق من العدم.

خامساً: فعل المعجزة

لا يقوم بالمعجزة إلا الله، أو كما يقول الجرجاني المعجزة فعل إلهي يظهره الله على يد نبيه لإثبات نبوته.. فالفعل هنا لله وليس للنبي ولهذا نجد القرآن الكريم لا ينسب فعل المعجزة باستمرار إلا لله:

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: 69] فالنبي غير قادر بذاته على أن يقول للنار كوني برداً وسلاماً فتكون كما يريد لكن الله وحده هو القادر على ذلك فواضع القانون هو القادر على أن يوقفه.. انظر إلى الآية الكريمة الآتية -والحديث الموجه إلى السيد المسيح وتأمل كم مرة وردت عبارة بإذني؟! في كل فعل من أفعال الخلق:

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: 110].

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا﴾ [البقرة: 60] ولا يمكن أن نجد فعلاً إعجازياً منسوباً لأحد الأنبياء لأن المعجزة لا يقدر على فعلها سوى الباري تعالى والسبب بسيط للغاية وهو أن من خلق القانون هو وحده القادر على إبطاله. وكل من يدعي أن في استطاعته إيقاف قانون من القوانين فهو يدعي الألوهية!

أرجو أن أكون قد وفقت بعض التوفيق لأнал ولو أجراً واحداً!!

بلاش فلسفة..!!

كنت أتصفح بعض الكتب الفلسفية التي صدرت حديثاً في الولايات المتحدة الأمريكية وهي كتب مدرسية مقررة **ذ** الأمريكية، ولفت نظري في كتب المنطق بالذات أن كل فصل يتناول قسمًا من المنطق يتم شرحه،

فهناك مثلاً فصل خاص بالتعريف، فصل آخر عن التناقض،

والفرق بينه وبين التضاد.. إلخ يعقبه مجموعة من التمرينات على شكل أسئلة لتمرين الطالب على حل أسئلة الامتحانات من ناحية، وعلى الاستفادة من دراسة المنطق في الحياة العملية من ناحية أخرى! لكن المهم أنهم يضربون الأمثلة بنصوص مختارة من خطب الرئيس الأمريكي: فيقول السؤال: استخلص أوجه التناقض في خطبة الرئيس الآتية.. وتخيلت نفسي أضع امتحانات من هذا القبيل ووضعت نصوصاً من خطب الرئيس السادات -رحمه الله- مثل سوف أبطش بهم ديمقراطياً، سوف أفرمهم بالديمقراطية.. إلخ أو تعريفاته لنفسه بأنه كبير العائلة أو أب الجميع في قوله هل حافظت على أبنائي يا أحمد يا بدوي؟! وهي كلمات مليئة بالتناقضات المنطقية الصارخة. فهل يمكن لنا أن نختار نصوصاً من خطبة لرئيس سابق أو لاحق أو حالي؟! أم أن ذلك يوقعنا تحت طائلة القانون المصري، وليس الأمريكي طبعاً.. بتهمة السب في الذات العلية؟!

فهو له أن يتناقض كما يشاء دون أن يتحدث أحد عن ذلك!!

وما هي إلا أيام قليلة حتى جاءت الطامة الكبرى وهي أن حكومة الإخوان الرشيدة ممثلة في وزارة التربية والتعليم قررت أن تكون الفلسفة والمنطق في مدارسنا أمراً اختيارياً تمهيداً لإلغاء الفلسفة والمنطق بعد ذلك نهائياً من مدارسنا! ربما خوفاً من استخدام خطب السيد الرئيس المعزول كنماذج في تمرينات المنطق لبيان ما فيها من تناقضات أو تضاد.. وما إلى ذلك من تمرينات منطقية لا لزوم لها سوى العبث بخطب الرؤساء.

ويؤدي بنا ذلك إلى تفسير العبارة التي تتردد كثيراً في مجتمعنا على السنة الناس في الشارع وهي بلاش فلسفة حتى أصبحت الفلسفة في بلادنا سيئة السمعة وإذا كانت الفلسفة هي لون راق من التفكير - وإذا كانت أمثلتنا الشعبية تلغي التفكير لأن اللي يفكر يتعكر - والأم التي تحنو على أطفالها تطلب من الله أن يجنبهم الفكر، لأنه لا يجلب وراءه سوى الهم والغم، والكدر، وضغط الدم! علماً بأن الفكر في جميع بلاد الدنيا هو الذي يفرق بين الإنسان والحيوان، فعند الحيوان تحل الغريزة وما بها من ارتباطات شرطية محل التفكير عند الإنسان. فكيف نعود مرة أخرى إلى مرحلة الحيوان الذي لا تفكير له؟ كيف تروج أجهزة الإعلام عندنا تلك العبارة التي لاكتها الألسن على أفواه الأبطال في السينما والمسلسلات.. بل حتى على لسان المعلق الرياضي الذي يرى أن هذه اللعبة لم تكن تحتاج إلى فلسفة! والواقع أن عبارة بلاش فلسفة تعد في رأينا بالغة الأهمية لأنها تكشف أولاً: عن موقفنا من العقل ومن التفكير عموماً، وتعلن ثانياً: أننا نعيش في عالم اللامعقول، وسبب ذلك كله انعدام الحرية في المجتمع، ذلك لأن العقل والحرية وجهان

لعلمة واحدة، فعندما خلق الله الإنسان وهبه نعمة العقل، وهبه في الحال نعمة الحرية، حتى في أن يعصي الأمر الإلهي، إذ بدون هذه النعمة الثانية لن يكون للنعمة الأولى أدنى قيمة. فإذا كان العقل ملكة تمكنني من الاختيار: اختيار الصواب وتجنب الخطأ فإنه بدون الحرية لن يكون للعقل دور؛ فكل من يقول لك بلاش فلسفة يقول لك في الواقع بلاش عقل لأننا لم نعد بحاجة إليه ومن هنا ظهر المثل الشعبي الذي يقول اللي يفكر يتعكر، ومن هنا أيضًا جاء دعاء الأم التي تحنو على أبنائها أن يجنبهم الله الفكر الذي يميز الإنسان عن الحيوان!. وهو دعاء يرتبط أوثق ارتباط بعبارة بلاش فلسفة السابقة فمصدرهما واحد ألا وهو غياب العقل نتيجة لغياب الحرية.!

ولقد ذكرت ذات مرة -في حديث صحفي لجريدة الأهرام إنه إذا كان الإنسان وعيًا ذاتيًا- كما يقول الفيلسوف الألماني هيجل أي لديه القدرة أن يرتد إلى ذاته فيصبح مفكرًا وكان ذلك ما يميزه عن الحيوان الذي ليس له سوى وعي ذي بعد واحد بحيث لا ينعكس على نفسه فقد سقرت أنظمة الحكم في بلادنا ذلك الوعي من الإنسان عندما رفضت أن تجعله يرتد إلى نفسه ليفكر، فأحالت الناس إلى حيوانات!! ليس لها سوى وعي ذي بعد واحد، وبالتالي ليس لها ما للإنسان من حقوق كتلك التي نصت عليها وثيقة حقوق الإنسان الصادرة من الأمم المتحدة في 10 ديسمبر عام 1948 في ثلاثين مادة!!

لذلك كله لم يكن من قبيل المصادقات -صديقي القارئ أن تظهر الفلسفة في أئينا المجتمع الديمقراطي الحر، وليس في إسبرطة المجتمع العسكري المستبد. ففي أئينا تمتع المواطن الأثيني بدرجة كبيرة من الحرية بسبب

الديمقراطية المباشرة، واستطاع أن يعمل العقل في شئون الحياة، وأن يحاول تفسير ظواهر الطبيعة بعيداً عن الأساطير والخرافات معتمداً على العقل وحده، وقل مثل ذلك في ظواهر المجتمع والتاريخ، كما استطاع أن ينقد الأساطير نفسها وأن يضع البشرية على بداية طريق الخلاص من الخرافة والتفسيرات اللامعقولة، وأن يجعل شعاره عبارة سقراط الخالدة: إن الحياة التي لا تخضع للفحص والنقد ليست جديرة بأن يحياها الإنسان!.. ومن هنا فقد ذهب هيجل إلى القول بأن: ظهور الفلسفة يستلزم الوعي بالحرية، ذلك يعني أن الفلسفة تتطلب شعباً يقوم وجوده على هذا المبدأ!..

سألتني المرأة التي كنت أسكن بيتها في إنجلترا: لماذا لا نجد دولة إسلامية واحدة متقدمة بل لا بد أن تكون الدولة متخلفة ما دامت إسلامية، حتى أندونيسيا - أكبر دولة إسلامية في العالم - دولة متخلفة! وأجبتها بإخلاص وصدق: هل تظنين يا سيدي أن السبب هو الدين؟ وهل تؤمنين أن سبب تقدمكم وما لديكم من حضارة هو المسيحية؟! مع احترامي الشديد للمسيحية فهي ديانة شرقية مثل الإسلام تماماً، ما أنتم فيه من رقي وتقدم هو الديمقراطية البريطانية العتيدة التي أعطت كل مواطن حقه كإنسان في الحرية والعدالة والمساواة والاحترام والكرامة.. إلخ فدفعت به إلى الأمام في طريق التقدم وما أعادنا إلى الوراء هو نظام الحكم المستبد الذي ادعى الحكام زوراً وبهتاناً أنه حكم الإسلام! وتجاهلوا وصيحة عمر بن الخطاب متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً. وصيحة القرآن نفسه لا إله إلا الله! وأصبح الحاكم إلهاً يعبد من دون الله!!.

فلا يجد ابن هانئ الأندلسي (938 - 972) أي حرج في أن يقول للخليفة

الفاطمي المعز لدين الله الفاطمي: ما شئت لا ما شاءت الأقدار... فاحكم
فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبي محمد... وكأنما أنصارك الأنصار
وأن يقول أيضاً:

ندعوه منتقماً عزيزاً... عفار موبقة الذنوب صفوحاً أقسمت لو لا أن
دعيت خليفة... لدعيت من بعد المسيح مسيحاً.

ويقول المنصور بصراحة ووضوح: أنا سلطان الله في أرضه...! ثم
يردفون قول الله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]
وينسون أن كلمة منكم هذه مقصودة أي من اختياركم، فيا أيها المسلمون:
افتحوا النوافذ ليدخل منها الهواء النقي، ولا تلقوا بجهلكم وتخلفكم على
الإسلام فهو برىء من الأفق الضيق. كان غاندي يقول: إنني أقرأ كل الأفكار
وأدرس جميع المذاهب، لكنني لن أسمح لأي منها أن يقتلني من جذوري!
وليكن شعاركم قول أرسطو:

إن علينا أن نتفلسف إذا اقتضى الأمر التفلسف، فإذا لم يقتض الأمر
التفلسف، وجب علينا أن نتفلسف لنثبت أن التفلسف لا ضرورة له.!

سلاح الفيلسوف.. !

لا يملك الفيلسوف سلاحاً سوى الحوار العقلي ومقارعة
الحجة بالحجة حتى ولو كان الموضوع من موضوعات
الحياة اليومية، وسوف أسوق مثالين، الأول من الشرق
(التراث الإسلامي) والثاني من الغرب (أمانويل كانط)..

الأول هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي الملقب بفيلسوف
العرب وكان أبوه أميراً على الكوفة، ويبدو أنه كان فاحش الثراء رغم أن
الفيلسوف كان بخيلاً، وقدوري الجاحظ في كتابه البخلاء نوادر كثيرة عن
بخل الكندي الفيلسوف.

مر عليه أشعب الطفيلي الشهير في الأدب العربي القديم فوجده يجلس في
بستانه تحت شجرة على ماء جار، ووسط خضرة وقد بسط بين يديه منديلاً
فيه لحم بارد، وقطع جبناً، وزيتونات، وصرة فيها ملح، وأخرى فيها أربع
بيضات. فاقترب منه مسلماً فرد الكندي السلام قائلاً: هلم عافاك الله..!
فإذا أشعب أسرع من لمح البرق يتراجع ليقفز من فوق القناة الصغيرة التي
تفصل بينهما؛ فصاح الكندي وهو يأكل: مكانك، فإن العجلة من أعمال
الشیطان..!

فوقف أشعب مأخوذاً.. فسأله الكندي: ماذا تريد؟!

أريد أن أتغذى! فحملق فيه الكندي وهو يقول: ولر ذلك وكيف طمعت

في هذا؟! ومن أباح لك مالي؟! فقال أشعب أولست قد دعوتني...؟! فأجاب الكندي: ويملك! لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام..! ماذا كان بيننا غير سلام ورد سلام، أو كلام بكلام، ولكنك تريد أن يكون كلامًا بفعال؛ وقولًا بأكل، وهذا ليس من الإنصاف! وإزدد الرجل بيضة وجعل أشعب ينظر إليه ثم قال:

لقد رأيتك تأكل وحدك!. فبلغ الكندي ريقه ثم قال: ز! في الأصل! وإذا كانت الوحدة خير من جليس السوء، فإن جليس السوء خير من أكيل السوء!. فقال أشعب متخابثًا: لقد أردت أن أشاركك الطعام لكي يقال عنك إنك سخي، وأنفي عنك اسم البخيل!. فأجاب الكندي وهو يلقي في حلقه بزيتونة! إنه بخيل إلا وهو ذو مال، فسلم إلى المال. وأدعني بأي اسم شئت!: فقال أشعب وقد أرهقه الحوار مع الرجل:

ولا يقال أيضًا عن فلان أنه سخي إلا وهو ذو مال! فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال، أما اسم البخيل فقد جمع المال والذم فأنت قد اخترت أحسهما..!!

فقال الكندي بينهما فرق، ففي قولهم فلان بخيل تثبت لإقامة المال في ملكه، فالبخيل اسم فيه ذم، ولكن فيه حفظًا، والسخاء اسم فيه حمد، ولكن فيه تضييعًا، والمال حقيقة ومنفعة وحياسة قوة، أما الحمد فهو ربح وسخرية، والاستماع له ضعف! وماذا ينفع الحمد إذا جاع البطن، وعري الجلد، وضاع العيال، وشمّت الحساد؟!!

ومن الطريف أن أديبنا الراحل- توفيق الحكيم قد حرص على أن يعقد فصلًا في كتابه: أشعب: أمير الطفيلين.

ليروي قصته مع الكندي بالتفصيل، وكأنه يجد متعة خاصة في حوار الكندي البخيل وبراعته مع أشعب!! أما المثال الثاني فهو للفيلسوف الألماني كانط (Kant 1724-1804) أعظم فلاسفة القرن الثامن عشر الذي أخرج مذهباً أفزع أوروبا وهزها هزاً قوياً.. هذا الفيلسوف صاحب العقلية الجبارة في الفلسفة كان ضعيف البنية قزماً بين الرجال، وكان من بين عاداته المفضلة لوقاية نفسه من البرد ألا يتنفس إلا من أنفه. وخصوصاً إذا كان خارج منزله، وكذلك لا يسمح لأحد أن يكلمه في نزهته اليومية في فصل الشتاء -إذ سيضطره الكلام إلى التنفس من فمه وكان يقول الصمت خير من المرض بالبرد...! وكان يفكر في كل شيء تفكيراً طويلاً.

في يوم مشمس من أيام الآحاد كان كانط يتنزه في حديقة مدينة كوتنجرسبرج عندما استوقفه نفر من معارفه وأصدقائه، فتحوا معه موضوع الحرب التي كانت دائرة في ذلك الوقت بين بريطانيا العظمى والثوار الأمريكيين التي سميت باسم حرب الاستقلال، وانتهت بالفعل باستقلال الولايات المتحدة (ثلاث عشرة ولاية في البداية ثم تبعتها الولايات الأخرى) عام 1783 فحمل على بريطانيا العظمى حملة شعواء، بل راح يؤيد كل أمة من أمم الشرق أو الغرب تسعى إلى الاستقلال -فهذا حقها الطبيعي وينحو باللائمة على دول الاستعمار وعلى رأسها جميعاً بريطانيا العظمى التي استعمرت بدون وجه حق كثيراً من الشعوب في أنحاء متفرقة من الكرة الأرضية ولجأت إلى القتال العنيف مع كل دولة تريد أن تتحرر من ربطة التاج البريطاني. ولم ينتبه الفيلسوف وهو ينطلق في هذه الجملة العنيفة ضد الاستعمار البريطاني إلا على صوت رجل عملاق عريض المنكبين -مفتول العضلات ينحني أمامه في أدب جم وهو يقول:

إنني يا سيدي أدعوك إلى المبارزة، وأترك لك تحديد الزمان والمكان
والشهود ونوع السلاح!!

وسأله الفيلسوف مندهشًا:

ولم يا صاح!! وماذا فعلت!

فأجابه الرجل بهدوء بارد:

لأنني يا سيدي رجل إنجليزي يحب بلده، وأنت منذ ما يقرب من الساعة
تهين بلادتي وتشن عليها حملة بالغة العنف على مسمع من هؤلاء القوم...! وهم
شهود عدول على ما أقول...!

وأسقط في يد كانط ماذا يفعل...؟! صحيح أنه كان ماردا فكريًا جبارًا
في عالم الفكر يحمل في رأسه ثورة من الأفكار سيطلق عليها فيما بعد اسم
الثورة الكوبرنيقية في الفلسفة، لأنها قلبت موازين المعرفة على نحو ما فعل
كوبرنيكس (N.Copernicus 1543 - 1473) نظام الفلك القديم، لكنه مع
ذلك كله كان ضعيف البنية، قزمًا بين الرجال كما سبق أن ذكرنا، إذ لم تكن
قامته تزيد على خمسة أقدام.. ضئيلاً نحيلًا قلما تقوى قدماه على حمل رأسه
الكبير الذي يحمل ثروة الأفكار هذه.

ومن هنا فقد تردد كانط في الجواب.. وأطال التفكير، ولم يكن من
عادته أن يتسرع في الرد فما بالك في هذا الموقف المحرج.. نعم لقد كان
يقتحم الأفكار العقلية، بشجاعته الأدبية، لكن لم تكن له قدرة على حمل
السلاح والمبارزة، بل لم يعرف في حياته قط سلاحاً سوى سلاح الحوار
العقلي والمنطق والبرهان! لقد قضى أيامه بين الكتب والمكتبات والتدريس

بالجامعة ثم إنه بطبيعته مسالماً لا يحب الشجار والعراك فكيف يخرج من هذا المأزق...؟!

وبعد تفكير عقلي قال كانط:

اسمع يا صديقي، أنت تعتقد أنني أخطأت في حق بلادك.. وأني أهنتها عند حديثي عن الاستعمار، وتطلب مني المبارزة واختيار نوع السلاح، وأنا أوافق بشرط واحد: أن توافق على أن نتبارز بنفس السلاح الذي تقول إنني أخطأت في استعماله وأعني به سلاح المناقشة والحوار، أي سلاح البرهان والمنطق إنه السلاح الذي وقعت به الإهانة، وهو نفسه السلاح الذي ينبغي أن تمحي به.!

لقد اختار كانط سلاحه وهو واثق من قدرته على ممارسته وبراعته فيه!. فلم يلبث خصمه أن تراجع واعترف بالهزيمة بعد حوار قصير، وطاب له الحديث مع الفيلسوف فاسترسل فيه وسارا يتحدثان ولم يشعر بنفسه إلا وهو على مقربة من مسكن الفيلسوف فدعاه كانط لزيارته، وكانت الزيارة فاتحة لصداقة طويلة بين الخصمين! وهكذا تحول القزم بدنياً إلى عملاق عن طريق الفكر، بينما تحول العملاق البدني عن طريق الفكر أيضاً إلى قزم ضئيل الحجم!

أما إنك تذهب للقاء نجيب محفوظ وأنت تحمل سكيناً فهذا إفلاس فكري واضح لأنك لا تستطيع أن تفهم ولا أن تناقش وتحاور وتعارض الحجة بالحجة، ذلك لأنك جاهل!

وأجدادك في تاريخنا لا آخر لهم: خالد بن عبد الله القسري والي الكوفة يصطحب معه واحداً من كبار المفكرين في ذلك العصر الجعد بن درهم

شخصية لها وزنها وقدرها في عالم الفكر في ذلك الوقت ويسير به لصلاة عيد الأضحى ويعتلي الوالي المنبر ويخطب في الناس خطاباً جامعاً يقول في نهايته: أيها الناس اذهبوا وضحوا بضحاياكم، تقبل الله منا ومنكم، أما أنا فأني مضح اليوم بالجعد بن درهم فإنه يقول ما كلف الله موسى تكليماً، ولا اتخذ خليلاً تعالى الله عما يقول علواً كبيراً!!

ثم نزل واستل سكيناً من عباءته وذبح الجعد في أسفل المنبر كما تذبح الشاة!!

والمسألة المعلنة أن الجعد ينفي الصفات الحسية عن الباري تعالى، وما خفي أنه كان معلماً لمروان بن محمد ولقد أثر فيه تأثيراً شديداً حتى سمي مروان الجعدي! فجاء الوالي أمر من الخليفة بقتل الجعد... باسم الإسلام السمح الذي حرم قتل النفس البريئة.

قتل الجعد بن درهم وما زال يذبح كل يوم على مرأى ومسمع منا جميعاً لأسباب سياسية ترتدي مسوح الدين وتتوارى خلفه! ويدخل متدينون على مفكر عربي يقتحمون بيته ثم يطلقون عليه وإبلاً من الرصاص، ثم يقال لنا إن هؤلاء القتلة في الجنة يوم يبعثون وهم الناجون من النار هكذا حكموا على أنفسهم أما غيرهم فهم في عذاب السعير -فهو لا يقول إلا كفراً!! وكأن إسرائيل وما فيها، ومن فيها- تخلو تماماً من الكفرة والزنادقة ولا تضم إلا أنقياء القلب من أهل الكتاب فهم أطهار أبرار لا يجوز مسهم- دع عنك ذبحهم، وإلا عرضت نفسك لعذاب السعير!.

حدثني صديق فقال:

هل تتصور أن هذه الجماعات قتلت جندياً أثناء نوبة حراسته لكي

تستولى على سلاحه؟! ولما سألته ولهم؟! قال لأنهم ينوون الجهاد في سبيل الله، ولا جهاد بغير سلاح ومن ثم فهم في حاجة إلى سلاح هذا الجندي فحلال ذبحه!!

وهل الجهاد في سبيل الله لا يجوز إلا بالقتل؟! ألا يجوز الجهاد في الصحراء لزراعتها قمحاً لياً كل المسلمون؟! أو بناء المدارس ليتعلم الجهلة وأدعياء التدين، أو إعداد المستشفيات لعلاج المرضى؟! ألا يمكن أن يكون هناك جهاد في الخير..

ألم يقرأوا قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: 125] - ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْرًا عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].. ألا فليقرأ كل من له عينان!!.

الباطجة.. أنواع

في ظني أن من يقوم بزيارة بلاد الإنجليز لأول مرة سوف تأخذه الدهشة مما يقابل به من أدب جم وابتسامة عريضة وهذا التعبير الشائع الجميل كيف أستطيع أن أخدمك؟

كيف يمكنني مساعدتك؟ وسوف يسأل نفسه لماذا يقابل المرء هنا بهذا الترحاب بينما يقابل في بلده عبارات ساخطة وتعبيرات مكتومة كيف أتمكن من مضايقتك والعكنة عليك؟! كيف أرفع من ضغطك؟! كيف أجعلك تسحب البسمة من وجهك؟! وذلك يتم في المحلات التجارية والمصالح الحكومية على حد سواء!

وعليك أن تبحث عن الجواب في عبارة جان جاك روسو J.J.Rousseau (1712-1778) العميقة المغزى:

عندي أن كل شيء يتردد إلى السياسة! والسياسة هنا تعني التكوين السياسي للدولة. فالحكومة الإنجليزية هنا تبحث للمواطن عن سبل الراحة بحيث يتفرغ تماماً لعمله.

كنت أجلس في عيادة طبية وبجوارى رجل إنجليزي طلبت مني الممرضة (ويسمونها بالسكرتيرة) مبلغ خمسين جنيهًا ولم تطلب منه شيئًا، واستلمنا الوصفة الطبية وذهبنا إلى الصيدلية فأحضرها له كل ما في الوصفة الطبية

من دواء فشكرهم وذهب دون أن يدفع مليماً واحداً -تماماً مثلما حدث عند الطبيب أما أنا فقد جاءني الدواء مع ثمنه وكان عليّ أن أدفع الثمن قبل أن أتسلم الدواء!

وفي اليوم التالي استيقظت مبكراً على أصوات كركبة في المطبخ، وذهبت حيث مصدر الصوت لأستطلع الأمر فأعذرت لي السيدة التي كنت أسكن بيتها فقد وقعت من يدها زجاجة ماء واستدعى انتباهي طابور طويل من الزجاجات الفارغة تقوم بملئها واحدة بعد الأخرى.. فسألتها بحب استطلاع ظاهر:

- ماذا تفعلين؟..

قالت: إننا سوف نقوم برحلة إلى الجبل وقد نهتنا حكومتنا ألا نشرب من ماء الجبل فهي غير صالحة للاستهلاك الآدمي وأن علينا أن نملأ زجاجات من الحنفية ونأخذها معنا!.

ورأيتني أسأل نفسي بسرعة لو أن حكومتنا الموقرة فتح الله عليها وأرشدتنا ونحن ذاهبون في رحلة إلى جيل الجيوشي ألا نشرب من مياه الجبل وأن نأخذ معنا زجاجات المياه أكنا فعلنا ذلك أم فعلنا العكس؟! هناك يقين عند المواطن أن الحكومة لا تفعل شيئاً لمصلحته على الإطلاق!..

كنت قد طلبت شراء مجموعة من الكتب عن فلسفة الصمت من إحدى مكاتب بيع الكتب الكبرى، وقيدت الموظفة طلبي ورجتني أن أسأل عنها بعد أسبوع، وعندما حضرت في الموعد لم أجد الموظفة بل وجدت مكتبها شاغراً، فوقفت في الصالة الكبيرة متحيراً ومتلفتاً بحثاً عن الموظفة المطلوبة، وفي هذه الأثناء مرت بي موظفة كبيرة في السن قليلاً وهي تحمل صفاً كبيراً من الكتب فوقفت تسألني: كيف أستطيع أن أخدمك؟! كيف يمكن أن

أساعدك؟! فنظرت إلى ما تحمله من كتب دون أن أجيب وفهمت المرأة أنني كما لو كنت أقول لها: اخدمي نفسك أولاً وذهبت مسرعة إلى أقرب مكتب ووضعت حملها وجاءتني مسرعة لكي تلقي على السؤال نفسه فقلت لها إنني طلبت مجموعة من الكتب وأتيت اليوم لأسأل هل وصل منها شيء ولكني لم أجد الموظفة التي كانت تجلس على هذا المكتب، وأشرت إلى مكتبها!! فأخذت الإيصال وذهبت إلى مكتب السيدة الغائبة وقالت نعم وصلك خمسة كتب هل تريدها الآن:

- إذا كان ذلك ممكناً؟!

- وهل ستدفع ثمنها..؟

- نعم.

- هل أحضرها لك..

- أكون لك من الشاكرين..

وذهبت إلى حجرة مجاورة وأحضرت طردًا يحتوي على خمسة كتب، دفعت ثمنها وشكرتها وحملت الكتب وخرجت!!

وعدت من جديد إلى كثرة الأسئلة: لماذا فعلت هذه السيدة ما فعلت، وكان يمكن أن تقول إن السيدة سوف تأتي بعد قليل، وعليك انتظارها أولاً تسألني أصلاً عما أريد!

المواطن في إنجلترا حرصت الدولة على أن تجعله متفرغاً لعمله فليس عليه أن يبحث عن العلاج ولا ثمن الدواء، ولا مشكلات الأطفال في المدارس ولا أسعار الملابس أو الغذاء إن عمله هو الألف والياء في حياته!.

أما عندنا فهو يستطيع أن يطرك بأحاديث نبوية جميلة يسروا ولا تعسروا بشروا ولا تنفروا... إلخ لكنه لا يعمل بشيء منها لأنه هو نفسه مليء بالمشكلات والهموم وعندما يستطيع حلها سوف يتفرغ لحل مشكلات المواطنين!.

سوف أروي لكم سريعاً بعضاً من مشكلاتي الخاصة وكيف قابلها وعقدها موظفو الدولة:

1- قدمت استقالاتي عن عملي لأسباب خاصة حيث كنت أعمل في دولة عربية، وعندما عدت في فصل الصيف ذهبت إلى البنك لأتسلم المعاش فأخبرني الموظف أنه لم يصل إلينا من الجامعة مليم واحد! فذهبت مسرعاً إلى قسم المعاشات في الجامعة فأخبرني الموظف المختص أنهم لم يقوموا بتسوية المعاش لأنني لم أقدم طلباً بذلك! ودهشت وسألته: وهل عندما تم تعييني في هذه الوظيفة تقدمت لكم بطلب لصرف راتبي؟ قال هذا شيء وذاك شيء، المعاش لابد من تقديم الطلب، ولماذا لم تطلب مني تقديم هذا الطلب؟! كل إنسان أدرى بمصالحه! ووجدت أنه لا فائدة من النقاش فأخذت ورقة وتقدمت بالطلب وعدت إلى عملي، وعندما حضرت مرة أخرى سألت عن المعاش فوجدت أنهم لم يصرفوا المدة التي لم أتقدم فيها بالطلب، ولما سألت الموظف فقال أن هذا هو النظام: المعاش يصرف من تاريخ تقديم الطلب وليس من تاريخ استحقاقه! هل هذا يعقل؟! أفرض أنني استحق المعاش من يناير لكنني تقدمت بالطلب في مايو - فيصرف في مايو، هذه سرقة للمواطن علانية أو قل إنها بلطجة من الحكومة!

2- خذ مثلاً آخر: بنيت منزلاً في منطقة المريوطية بالهرم منذ سنوات

طويلة وربما كنت أول من بني في هذه المنطقة وعندما طلبت إدخال المياه إلى المنزل فرضوا على 14 ألف جنيه. وعندما أبديت دهشتي قالوا هذا لأنك أول من تدخل عنده المياه لكن من يأتون بعدك سوف تأخذ منهم الدولة تكاليف إدخال المياه وتعطيها لك، والآن أصبح الشارع مليئاً بالعمارات الفخمة التي لا تقل عن اثني عشر دوراً، وزارني موظف فذكرته بما أخذوه مني 14 ألف جنيه ووعدهم لي بإعطائي ما يدفعه الجيران للمياه فضحك الموظف ضحكة عالية وهو يقول: يا دكتور هو اللي بيروح للحكومة بيرجع؟

واندهشت إذا كان هذا حقي فلماذا لا يرجع؟ وهل الحكومة تمارس الشعب على المواطنين -عندها تذكرت سلوك البلطجية!!

3- طبعت كتاباً في المجلس الأعلى للثقافة عنوانه النساء في الفكر السياسي الغربي في المشروع القومي للترجمة برقم 457 وبعد عدة سنوات قال لي صديق لقد رأيت كتابك النساء في الفكر السياسي الغربي مطبوعاً في مكتبة الأسرة ولم تعطنا هداياك كعادتك، فقلت: لأنني لا أعرف شيئاً مما تقول لم يقل لي أحد إنه سوف يطبع في مكتبة الأسرة ولم أوقع عقداً، ولم أتناقش مليماً واحداً، ولا نسخة واحدة على سبيل الهدية أو حتى العلم؟.

وذهبت إلى الصديق الدكتور أحمد مجاهد أشكو هذا التصرف الغريب فأرسل في طلب الموظف المختص فوعده بفحص الموضوع وطلب منه الدكتور أحمد: أريد أن أعرف النتيجة الآن وغاب الموظف ثم عاد ليعلن أن ما قلته أنا صحيح وأن الموضوع شائك لأنهم أخذوا الكتاب من المجلس الأعلى، وسوف ينتهي من دراسته قريباً.. ومر عامان على الأقل ولم يحدث شيء حتى هذه اللحظة؟

ما رأيكم دام فضلكم في هذه البلطجة الحكومية؟
وحتى لا يظن القارئ أنني أكتب عن مسائل شخصية فإنني أذكر هذه
القضايا العامة..

أ- في كل شهر يأتي مع إيصال النور مبلغاً نظير جمع القمامة، وما إن
يذهب محصل النور حتى يظهر جامع القمامة مطالباً بعشرة جنيهات
شهريته، فلم أخذت الدولة ما أخذت من جميع الناس ذلك ضرب من
البلطجة ومن لا يدفع بقطع عنه النور وليخبط رأسه في الحيط!!

ب- كل من يرش الشارع بالماء أو يغسل سيارته يجازي بمصادرة خراطيم
الماء ودفع مبلغ ألف جنيه غرامة!! ومن لا يعجبه فعليه أن يخبط
رأسه في الحائط؟!

ج- اعتدت أن أقرأ في الصفحة الأولى من صفحتنا اليومية خبراً مثيراً جمع
مائه ألف جنيه مخالفات مرور في أسبوع واحد من محافظة الجيزة!
أو جمع كذا ألف مع خراطيم المياه.. ويبدو أن جمع الإتاوات من
السيارات عن طريق المخالفات المرورية العجيبة تلاشي مع الحكم
الجديد حيث لم يعد هناك مرور أصلاً!

المصالحة الوطنية... وعقدة جورديون

يقال إن الإسكندر الأكبر (356 - 323 ق.م) عندما وصل في أثناء زحفه عبر آسيا الصغرى إلى مملكة فريجيا Phrygia زعم له أهلها أن ملكها المعظم عقد عقدة متينة جداً لأنه أحكم شاهد وأنه لن يستطيع حلها إلا سيد آسيا المقبل، وطلبوا منه أن يقوم بالمحاولة؛ وتأمل الإسكندر هذه العقدة المتينة ثم استل سيفه وضربها ضربة واحدة فأجهز عليها، ثم أصبحت عقدة جورديون Gordian knot.. مرادفا لكل مشكلة لا تحل إلا بعمل حاسم..

وهناك نعمة جديدة بدأت تظهر سريعاً وتعلو شيئاً فشيئاً وهي أن الإخوان المسلمين هم أخوة لنا، وعلينا ألا ننسى ذلك في أي وقت، وبالتالي لا بد من المصالحة الوطنية أي أن نجلس معاً ونتصافى!!

ولم أقرأ في حياتي تخريفاً أكثر من ذلك!! الإخوان المسلمون مواطنون مصريون.. نعم! وكذلك اللصوص والمجرمون والقتلة وقطاع الطرق، فالمنحرفون في كل المجتمعات لا آخر لهم، فهل نجلس مع كل فريق لتتصالح؟!..

هؤلاء الإخوان لهم تفكير لن يتغير، خلاصته أعلنها المرشد السابق لهم في عبارة موجزة ذات دلالة عميقة هي طظ في مصر.. وليس هذا ضرباً من الشتائم. لا سمح الله- وإنما هذه العبارة الموجزة تلخص برنامجاً كبيراً لهدم

مصر، تاريخياً وحضارياً، وتحويلها إلى ولاية إسلامية لن توجد إلا في خيال هؤلاء المرضى!! فكيف نجلس للمصالحة مع هؤلاء الناس؟! وأية مصالحة هذه؟! هل أعطيه الجبل الذي يشنقني به لأنه مصري مثلي؟ هل إذا دخل لص ليسرقني فإن على أن أسأله أولاً: هل أنت مصري؟ فإن قال نعم فتحت له الأبواب والنوافذ ليدخل البيت على الرحب والسعة فاليبت في النهاية بيته؟!!

هناك عبارة جميلة للفيلسوف الألماني هيغل (Hegel 1831-1770) يقول فيها إن الغرغرينا لا تعالج بالمياه المعطرة.. بل بالبرتر!.. ويقول القرآن الكريم.. ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا﴾ [البقرة: 190] والسيد المسيح يقول من يرفع يده بالسيف فبالسيف يقتل!!

نعم إننا لن نعتدي عليهم لكن لا للمصالحة معهم، بل توجس وترقب وخيفة حتى لا يخدعونا كما خدعونا أول مرة، وما إن قفزوا إلى كرسي الحكم حتى سمعنا بعضهم أنهم سيضربون القادة منا بالجزمة!! فهل هؤلاء يستحقون المصالحة!

يا أيها السادة إن المصالحة مع الإخوان المسلمين عبارة متناقضة أشبه ما يكون بعبارة المستبد العادل الذي يسلبني حقوقي أو على الأقل حريتي وحقني في الحياة (لأنه مستبد) - فكيف يكون بعد ذلك عادلاً؟! وهي أيضاً أشبه بقولنا إن هناك دائرة مربعة، أو إننا نستطيع تربع الدائرة، وغير ذلك من المتناقضات التي يستحيل تحقيقها على أرض الواقع.

لقد تحملنا أياماً حالكة السواد لرئيس مأفون يقوم بتعيين وزراء لا يصلحون كتابة في الوزارات المختلفة كما قال قائل لوزير الثقافة هذا حديث بقالين!! وكان على حق!!

ومع ذلك فقد كانوا بعد ثلاثة أيام من رحيل كبيرهم يهتفون:
إحنا معاك يا مرسي زي ما ترسي! ما هذا؟ أهذه دولة أم عزبة؟
ويدعون لتحويل سيناء إلى إمارة إسلامية مستقلة..! فهل منا من يوافق
على هذا الخيال المريض؟!

هي يعني ذلك أن المصالحة الوطنية مستحيلة؟!

كلا! بل ممكنة بشروط أربعة:

الأول: الإعلان بأن هذه الجماعة إرهابية ومن ثم فهي مجرمة بحكم
القانون..

الثاني: إعلان تجريم كل من يحاول إحياءها أو الترويج لأفكارها!!

الثالث: أن تتم محاكمة عاجلة لقيادات هذه الجماعة بأسرها على ما
ارتكبه من جرائم!!

الرابع: النص في الدستور على عدم السماح بقيام أحزاب دينية أو إقحام
الدين في السياسة أو تعمد تكفير المواطنين، فذلك كله جريمة يعاقب عليها
القانون.

أو كما قال أمير الشعراء:

الدين للديان جل جلاله: لو شاء ربك وحد الأقواما.

المصالحة يا سادة-لا تكون إلا بين مصريين وطنيين يستهدفون غاية
واحدة هي تقدم مصر ونهضتها ثم يختلفون بعد ذلك في السبل المؤدية إلى
هذه الغاية، أما الذين يبيحون مصر ويريدون بيعها رخيصة لتكون مجرد

إمارة إسلامية يقف على رأسها نيافة المرشد أميراً ويتجاهلون تاريخها العظيم، هؤلاء الذين لا يراعون في الله إلا ولا ذمة فقد خدعوا السذج بأن الإسلام هو الحل دون أن يوضحوا لنا ماذا كانوا يقصدون بهذه العبارة الغريبة؟! حل مصر أي تفكيكها والخلاص منها؟ أم حل مشكلاتهم الخاصة، فأصبحت الست أم أحمد تقضي الأسابيع في جناح الملكة نازلي، والأنجال الأعزاء يقضون أسبوعين في طابا بملبوسين من الجنيهاات؟ وغيرهم يركبون السيارات الفارهة تجري من أمامها ومن خلفها سيارات الحراسة التي لا تعد ولا تحصى ولا يحيط بها النظر!!

أرجو من الذين يلهثون وراء المصالحة الوطنية ظناً منهم أن ذلك إنجاز ضخم وهو أقرب إلى لمر الشمل عند الفلسطينيين أن يحاولوا الإجابة عن هذه الأسئلة الأساسية:

كيف يمكن لك أن تتصالح ومصالحة وطنية مع إناس لا يؤمنون أصلاً بالوطن؟! وقد أعلنها المرشد السابق صريحة طظ في مصر، وأبو مصر، واللي في مصر؟! وأرجو أن ألا تقل أن المرشد السابق في السجن وسيحكم عليه بكذا وكذا.. إلخ فالمسألة لا تتعلق بفلان أو علان بل بأساس من الأسس المهمة التي تقوم عليها الأخونة.. وإذن فمن المستحيل المصالحة الوطنية مع الإخوان: أفراداً أو جماعات فأنت في هذه الحالة تقول بإمكان تربع الدائرة!!..

كيف نتصالح مع قوم كل هدفهم استعادة الماضي، ولا اهتمام لهم إلا بعودة هذا الماضي؟!

هل سوف يتنازل الإخوان عن خداع الناس بهذا القدر الذي لا بأس به

من التدين الزائف؟! أو الشعارات البراقة التي لا تعني شيئاً في النهاية سوى وصولهم إلى الحكم؟ مثل الإسلام.. هو الحل؟ وهو شعار يتضمن في جوهره نفيًا للديمقراطية الكافرة؟!

هل تستطيع المصالحة أن تنتزع عنهم الصلافة والكبر، والعنجهية، والشعور بأنهم وحدهم يملكون الحقيقة؟!

هل تستطيع المصالحة أن تنزع عنهم السيف الذي يسطونه على رقاب العباد وهو تكفير المخالف لهم في الرأي وأن العلماني -الذي يهتم بالعالم- وكل من يتفلسف أو يتمنطق..! فهو كافر ومأواه جهنم وبئس المصير؟!

أنهم لا يملون من الكذب -الزذيلة الأولى في الأخلاق بل وفي الدين أيضًا (فالمؤمن كما جاء في الحديث الشريف) -أما هؤلاء فالكذب عندهم يسير مع دمائهم أو مع تنفسهم:-

قالوا إنهم قاموا بالثورة وهذا كذب صريح!

قالوا إنهم يسعون إلى نهضة شاملة لمستقبل مصر، مع أنهم لا يسعون إلا إلى تحقيق مصالحهم الخاصة.

قالوا إنهم يستهدفون تطبيق العدالة في الوقت الذي يسعون فيه إلى أخونة الدولة وذلك بتعيين الأتباع في المناصب الشاغرة حتى وإن كانوا يجهلون بسقط هذا المنصب!!

ولهذا السبب بدأ المواطن العادي يشعر بكرهية شديدة نحوهم لأنهم خدعوه من ناحية، وتجاهلوا من ناحية أخرى قوله تعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: 3].

استحلفك بالله -عزيزي القارئ- ألا تقل أنك تتحدث عن جماعة الإخوان القديمة، وعما فيها من قيادات عفنة، ونحن نتحدث عن الشباب الغض!! فالخيط واحد والفكر متصل والتخطيط هو نفسه منذ حسن البنا حتى يومنا الراهن، فقد تربوا، ويربون غيرهم على أساس السمع والطاعة تمامًا كالنظام العسكري بل أسوأ لأن الأخير لا يحتم على الجندي أن يقبل يد القائد!

ولو أنك قلت إننا سنرفض ذلك كله أن أصروا عليه فأنت تفرغ الجماعة من مضمونها فأنت تلغي هوية الجماعة ولو أنهم وافقوا على ما تقول فهم كذبة، وصوليون يريدون أن يكسبوا المرحلة الراهنة إلى أن تأتي الفرصة التي يتمكنوا فيها من القفز على كرسي الحكم لمدة خمسمائة عام، كما قال رئيسهم المخلوع.. ولماذا كل هذا الجهد الذي نبذله معهم؟ حتى يقال عنا أننا ديمقراطيون؟! وإذا كانوا هم أنفسهم يكرهون الديمقراطية، ويمقتون الرأي المخالف فلماذا نصر نحن بدورنا أن نطبق عليهم ما لا يريدون؟!

لقد فرحنا وهللنا لأنهم سقطوا من أوسع الأبواب، وتحملنا المر لكي نخرج من هذه التجربة البشعة وكان أهم مكسب تخيلناه هو أننا نضمن ألا يعودوا إلى الحكم أبداً، وقلنا إن مصر تولد من جديد فهل تريدون أن يعودوا من النافذة؟ وباسم المواطنة التي لا يعترفون بها؟ ليس هناك مشكلة يا سادة وإذا كان أمامكم معضلة مستعصية فليس عليكم سوى استخدام سيف الإسكندر في حل زس.

تطبيق الشروط الأربعة بدقة مع الدعاء إلى الله بالتوفيق وحماية مصرنا العزيزة!!

غطاء الكافر..

لطالما سألت نفسي عن معنى كلمة الكافر، ولكنني عندما عدت إلى قواميس اللغة وجدت من معانيها الكثيرة كفر = غطى.

وكفر الشيء ستره وأخفاه ويقال كفر الزارع البذر بالتراب فهو كافر، وكفر التراب ما تحته غطاه! وإذا كان الكفر عكس الإيمان: فما الذي يغطيه الكافر في هذه الحالة...؟!

كنت أسير في نفق للمشاة في يوم شديد البرودة في مدينة لندن عندما استرعى انتباهي مجموعة كبيرة من الكتب الموزعة على السور أقرب إلى سور الأزبكية، وعلاقتي بالكتب هي علاقة العاشق الولهان بامرأة جميلة، فعدت بعد أن خطوت خطوات قليلة لأجد أمرًا بالغ الغرابة هو أن هذه الكتب جميعًا في موضوع واحد هو الإلحاد.. فيها هنا مؤلفات فردريك نيتشه: هكذا تكلم زرادشت وعدو المسيح وأقول الأصنام.. إلخ. وكتب فويرباخ جوهر المسيحية ورسل لماذا لست مسيحيًا.. وغيرها دون أن تجد كتابًا واحدًا عن الإيمان أو حتى محايدًا...!!

فسألت البائع: أهى مصادفة أن تدور الكتب كلها في موضوع واحد هو الإلحاد أم أن المسألة مقصودة...؟! فأجاب بهز الكتف وهو يقول:

أنا لا أدري! أنا مجرد بائع، أسأل المرأة هناك! وأشار إلى عجوز تجلس عن قرب على كرسي صغير في قطعة شمس نادرة تحتمي بها من هذا الصقيع!

وزهدت إلى المرأة لألقي عليها السؤال نفسه فأجابت بسرعة:

طبعاً مقصود.. فنحن لدينا جمعية لنشر الإلحاد.. من أين جئت؟

من مصر..

لا! ليس عندنا وكيل في مصر، لكن لدينا في تركيا، وفي استطاعتك أن تكون وكيلنا فيمصر إذا شئت! فعدت أسألها هل لي أن أعرف أهداف جمعيتكم الموقرة قبل أن أنضم إليها؟! هل في استطاعتكم انتزاع الدين من نفوس الناس؟!

لا ليس هذا من أهدافنا، ولن يكون، بل إننا لم نفكر فيه قط! إن كل ما نريده هو أن نمنع تدريس الدين للأطفال الصغار لأن ذلك عدوان صارخ على حريتهم في التفكير، فينبغي أن يتركوا القراءة ما يريدون إلى أن يصبحوا في السن التي يستطيعون فيها انتقاء الدين الذي يريدونه من غير ضغط ولا إكراه!! وتركتها والفكر شارد: ماذا يعني ذلك؟ حتى الذين يريدون نشر الإلحاد يعلمون تماماً أن الدين مغرور في النفوس وأنه لا يمكن انتزاعه من الناس، وحرية العقيدة لا تعني سوى اختيار الدين الذي أفضله وأرضاه دون أن يعني أن أكون بلا دين!! أيعني هذا أن الدين فطري في النفوس البشرية؟! يبدو ذلك! لقد جاء في القرآن الكريم آية اتخذ منها الصوفية برهاناً على وجود الله وهي: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172]، وأسموه الميثاق الأعظم مرة، وبرهان ألت مرة أخرى!

ولقد ذهب الفيلسوف الفرنسي ديكارت (1596 - 1650) إلى أن الله بعد أن خلق الإنسان وقع على وجوده- وهذا هو الدافع الذي يجعل الإنسان دائم

البحث عن الله! وقال فيلسوف آخر الحق أن الإنسان حيوان متدين وهذا هو التعريف الذي يناسبه أكثر من تعريف أرسطو للإنسان بأنه حيوان عاقل!. ويذهب ديكرت أيضًا إلى أن الشك عند الإنسان دليل على وجود الله، لأن الشك نقص، والناقص لا يعرف إلا بمقارنته بالكامل، وفكرة الكامل فكرة إيجابية، فكيف عرفتها أنا الموجود الناقص؟ ومن الذي وضع في داخل نفسي فكرة الكمال، لا يمكن أن أكون أنا الذي اخترعتها، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فلا بد أن يكون الموجود الكامل -أي الله- هو الذي غرسها، في أعماقي وكأنها علامة الصانع وتوقيعه على ما صنع. ومعنى ذلك أن التوقيع الإلهي موجود في أعماقي بطريقة فطرية. وأن الكافر هو من يحاول تغطية هذا الإيمان بطريقة ما، تمامًا كما يفعل الزارع عندما يغطي البذور بالتراب، لكن الإيمان في النهاية يغلب الدين ملازمًا للإنسان خلال تطوره منذ مراحله الأولى إلى يومنا الراهن ولعل هذا هو الذي حدا ببعض الفلاسفة إلى القول بأن الإنسان حيوان متدين.. دائم التعبد.. وربما يفسر لنا ذلك قلق اليهود عندما واعد موسى ربه أربعين ليلة وتأخر على قومه بدأت غريزة الشعور الديني تلح عليهم لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأن هذا موسى الرجل الذي أضعدنا من أرض مصر لا تعلم ماذا أصابه فقال لهم -هارون (شقيق موسى)- انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبنيتكم وبناتكم وأتوني بها.. وأخذها هارون وصنعنا عجلًا مسبوغًا فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل التي أضعدتك من أرض مصر.. ونادي هارون وقال غدًا عيد الرب.. (سفر الخروج الإصحاح الثاني والثلاثون عدد 1-7) تريد هذه القصة على ما فيها من سذاجة -أن تقول إن الإنسان لا يستطيع

أن يصير بدون آلهة ولو لعدة أيام...؟ لهذا السبب عبد الإنسان أي شيء وكل شيء لأن الدافع الموجود بداخله يجعله يبحث عن الله دون أن يدري ما الذي يبحث عنه فتراه يعبد في صورة جبل أو شجرة أو نهر أو حيوان الذي قال عنه علماء الأديان إنك لن تجد حيواناً في العالم بأسره - من الجعران المصري إلى الفيل الهندي لم يكن معبوداً في يوم من الأيام...! وعندما حاولوا حصر المعبودات الدينية التي عبدها الإنسان في تاريخه الطويل وفقاً لثقافته المتعددة وأحواله المعيشية فقد حصروها في ست مجموعات:

- 1- المجموعة السماوية (السماء وما فيها من نجوم وكواكب.. إلخ).
- 2- المجموعة الأرضية (الأرض وما عليها من أشجار وأنهار وجبال..).
- 3- الجنس (عبادة الجسد والغريزة الجنسية بصفة عامة..).
- 4- الحيوان (جميع أنواع الحيوانات ثم اعتبارها رموزاً..).
- 5- الإنسان (بعد أن عبد الحيوان عاد إلى عبادة نفسه..).
- 6- المجموعة البشرية (أو الديانات البشرية - ديانة التوحيد عند إخناتون) الديانة الزرادشتية في فارس البوذية في الهند والهندوسية في الهند - والكونفوشية والطاوية في الصين.. إلخ. حتى ظهرت الديانات السماوية الثلاثة: اليهودية والمسيحية والإسلام.

وسوف نكتفي في هذا المقال بالحديث عن المجموعة الأولى. وربما عدنا في مقالات قادمة إلى بقية المجموعات.

ويبدو أن الإنسان بدأ أولى مراحل تدينه بتوجيه ناظرية إلى السماء، ويقول العلماء إن القمر كان من بين المعبودات الدينية التي عبدها الإنسان

في مرحلة الصيد والقنص، إذ كان ينير له الغابة ليلاً. ويبدو أن سلينا Selene التي أيقظت أندميون Endymion بقبلة كانت إلهة القمر الأولى في أساطير اليونان وهي فتاة شابة جميلة ترتاد السماوات بعربة من الفضة الخالصة يجرها حصانان، وهي تضع على رأسها تاجاً من الذهب، وهي تحب الهدوء وتؤثر الصمت ولهذا يسميها هوراس ملكة الصمت وكان يوم الاثنين هو اليوم المخصص لعبادتها (ولا يزال اسم يوم الاثنين يوحى بذلك Monday وكان من قبل Moonday أي يوم القمر).

ثم حلت الشمس محل القمر سيدة على مملكة السماء عندما انتقلت البشرية من مراحل الصيد والقنص إلى مرحلة الزراعة والاستقرار. وكان ذلك في الأعم الأغلب في مصر الفرعونية التي صورت على جدران المعابد قرص الشمس وينزل منه مجموعة كبيرة من الأيدي، ثم عبد الإنسان كل نجوم السماء: المريخ وعطارد، والزهرة. ومازلنا نجد بقايا من هذه الأسماء في أيام الأسبوع في اللغة الإنجليزية فيوم الأحد Sunday هو اليوم المخصص لعبادة الشمس، ويوم السبت Saturday هو اليوم المخصص لعبادة زحل Saturn والثلاثاء Tuesday يوم ثيوز إله الحرب (وهو كوكب المريخ) وهو في الفرنسية Mardi - أي يوم الإله مارس أو المريخ. ويوم الأربعاء في الفرنسية Mercredi يوم عطارد. ويوم الخميس Jeudi أي يوم المشتري أو الإله جوبتر (كبير الآلهة عند الرومان) - وهو الاسم الذي اشتق منه اسم Jeheva عند العبرانيين ومنه جاء الإله يهود عند اليهود ولا تزال كلمة ياهو صيحة الاستغاثة عند العرب.

ويوم الجمعة Vendredi أي يوم فينوس (إلهة الجمال عند الرومان) وهو

يوم كوكب الزهرة.. وهكذا كانت السماء في فترة من تاريخ الإنسان تحتوي على مجموعة كبيرة من المعبودات التي عبدها وقدم لها القرابين. ومازلنا حتى اليوم نتطلع إلى السماء لتهب لنا العون والمساعدة كما لو كانت مستقر الإله مع أنه أقرب إليك من حبل الوريد!

ويقول الأستاذ العقاد إن هذا الترتيب ينطبق على فحوى قصة إبراهيم في القرآن:

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ
الْأَفْلَاقَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي
لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا
أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُقَوْمُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: 76 - 78].

فالإنسان يبحث عن الله في كل مكان: في صورة شجرة، أو نهر أو جبل أو نجم أو كوكب... إلخ مدفوعاً بهذا المهماز الغريب المدفون في ظهره والذي يجعله لا يميل من السعي ويحدوه الأمل أنه سيجده بغض النظر عما يلاقيه من نصب وآلام وحيرة فهو كادح إلى ربه كدحها فملاقيه.. فلماذا يغطي البعض هذا الإيمان القابع في أعماقه؟!

أساطير حول المرأة..!

لم تحظ علاقة بين البشر بالاهتمام مثلما حظيت
العلاقة بين الرجل والمرأة رغم ما تتضمنه من تناقضات
ومفارقات. فهي أحياناً تنظر إلى الرجل.

على أنه مخلوق قوي في حين أن المرأة هي الضعيفة
(وذلك في الأعم الأغلب) وأحياناً أخرى نجد أن المرأة هي التي تذهب إلى
الحقل تزرع وتحصد وتذهب إلى الأسواق لتشتري وتبيع (كما هي الحال في
مصر القديمة) وهي أحياناً المخلوق الطيب صاحب المشاعر الدافئة والحب
العميق والحنان الجياش، وفي أحياناً أخرى نجدها المصدر الأصلي للشر
كما هي الحال في أساطير اليونان التي ذهبت إلى أن المرأة الأولى (حواء)
واسمها باندورا (pandora أي كل العطايا أو الهبات) خلقها إله الحدادة
الشائه هيفاستوس Hephaestus. وأعطتها أفروديت (إلهة الجمال) بعضاً من
جمالها. وعلمتها أثينا أعمال المنزل، وغزل الصوف، وأعطتها ديانا شيئاً من
رشاقتها، كما أعطها كيوبيد حبه، وأبو للو شعره وأسمتها الآلهة باندورا
لأنها حصلت على كل الهبات والعطايا، وتقول الأسطورة إن الإله هرمس
Hermes حملها إلى بروميسيوس (المتبصر - المتروي) وهو الإله الذي خلق
الرجل. لكنه رفض الزواج منها وتزوجها شقيقة أيميتيوس Epimetheus
أي المتهور أو العجول). وأهداها كبير الآلهة زيوس Zeus صندوقاً مليئاً
بالشرور.. واشترط عليها ألا تفتحه إلا بإذنه:

لا تتعجلي بفتح الصندوق حتى يأتيك أمري وأنه لقريب!! ولكن باندورا ظنت أن في الصندوق أرواحاً سحرية تكلمها وتنسج لها الأمانى. وأحست أن أملاً كبيراً يملأ قلبها.. وأن رغبة ملحة تسوقها نحو الصندوق كلما ابتعدت عنه، فأقدمت وضغطت على الصندوق ضغطة هائلة، وسرعان ما خرجت منه خفافيش سوداء ذات مخالب حادة، فملأت هواء الغرفة وهوت على باندورا المسكينة تعضها وهي تقول أنا الممرض! ويقول آخر وأنا الفقير ويقول ثالث وأنا الجوع! ويصيح رابع وأنا البخل، وخامس وأنا القحط!! إلى آخر الرذائل التي تزخر بها الحياة، وأسرعت باندورا إلى الصندوق وأغلقتة. لكن لم يبق فيه سوى الروح الطيب الوحيد وهو الأمل! وانبطحت باندورا على أرض الغرفة تئن وتتوجع وتشكو ما ألم بها.. ومغزى القصة أن برومثيوس المتروي هو خالق الرجل وأنه رفض الزواج من المرأة التي خلقت أساساً لمعاقبة الرجل الذي خلقه برومثيوس (بعد أن سرق النار المقدسة..).

وأن المرأة هي التي أدخلت الشرور إلى العالم بطيشها ورعونتها وعدم صبرها وتبصرها.. ونخلص من هذه الأسطورة إلى أن المرأة هي مصدر الشرور جميعاً وهي قريب من قصة التوراة وإن كانت الأخيرة أكثر شيوعاً في العالم كله. وهي كالآتي:

أوقع الرب الإله سبأاً على آدم فنام، فأخذ واحدة من أضلعه، وملاً مكانها لحماً، وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة. وأحضرها إلى آدم، فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي، ولحم من لحمي، هذه تدعي امرأة لأنها من امرئ أخذت.. سفر التكوين الإصحاح الثاني 2321 ثم أصبحت

هذه المرأة كما في الأسطورة اليونانية مصدر الشرور جميعاً فهي التي أطاعت الشيطان وعصيت الإله، وأوقعت آدم في نفس المعصية (الأكل من الثمرة المحرمة) فأخرجته من جنات النعيم.. ولقد عزف فلاسفة المسيحية على أوتار القصة اليهودية وعلت أصوات بترنيمات جديدة فقال القديس بونا فنتيرا (1221-1273) إذا رأيتم المرأة: إذا رأيتم المرأة فلا تحسبوا أنكم تشاهدون موجوداً بشرياً، بل ولا موجوداً متوحشاً، لأن ما ترونه هو الشيطان نفسه، وإذا تكلمت فما تسمعون هو فحيح الأفعى!..

ويقول القديس أوغسطين -بعد أن أنجب طفلاً من بغي كان يسميه طفل خطيئتي:

آه! لو إنني ارتضيت أن أكون خصياً حباً في ملكوت السموات! لكنك الآن أوفر سعادة! وقال القديس توما الأكويني:

عصي الإنسان الله بسبب خطأ حواء في الحكم على ما هو خير، وهو يحمل الآن في كل جيل وزر هذه الخطيئة!

أي أن المرأة هي مصدر جميع الشرور في العالم بأسره وكأنها باندورا اليونانية التي تعجلت بفتح الصندوق لتخرج منه خفافيش الظلام حامله: الفقر، والبخل، والقحط والمرض.. وغير ذلك من شرور وآثام! وإن كان بعض المحللين النفسيين يفسرون هجوم القديسين المسيحيين بأنه ضرب من الشوق الجنسي الذي لا يقدر على عليه! على نحو ما جاء في قصة هيباشيا فيلسوفة الإسكندرية التي اعترضت جماعة من رهبان صحراء وادي النطرون طريقها وكانت رائعة الجمال كما تقول الرواية في حين كانت هذه الجماعة قد قضت سنوات طويلة في الصحراء يصارعون قوى الشر

مجتمعة كما يقولون ويديرون معركة هي صراع باطني ضد شهوات الجسد، ووسائل النفس الإمارة بالسوء، اعترض هؤلاء الرهبان طريق عربة هيباشيا بإيعاز من كبيرهم كيرلس فأوقفوها وأنزلوا الفيلسوفة الشابة الجميلة - كما فعلوا مع حاكم المدينة من قبل - ثم جروها إلى كنيسة قيصرون- حيث تقدمت إليها مجموعة من هؤلاء الرهبان وقاموا بنزع ثيابها قطعة قطعة حتى تجردت من ملابسها لتصبح عارية كما ولدتها أمها -مشهد بالغ الغرابة يقوم به النساك الأطنهار!

المهم أنه تقدم بعد ذلك بطرس القارئ (وهو قارئ الصلوات في الكنيسة) وقام بذبحها، وهي عارية، وقد أمسك بها مجموعة من الرهبان ليتمكن قارئ الصلوات من ذبحها ذبح الشاة، ثم عكف الرهبان الأنقياء القلب على مهمة بالغة الغرابة وهي تقطيع جسدها إلى أشلاء مستمتعين بما يفعلون. ثم أمسكت كل مجموعة شلوا بعد شلو وراحت تكشط اللحم عن العظم بمحار حاد الأطراف. وفي شارع سينارون أوقدوا ناراً ذات لهب وقذفوا في النار بأعضاء جسدها، وهي ترتعش بالحياة، بينما يقول رسل B. Russell حتى تحول الجسد إلى رماد وهم يتحلقون حوله في مرح وحشي شنيع على حد تعبير ول ديورانت!!!..

أيمكن أن يكون هؤلاء الوحوش من تلاميذ المسيح؟ أيمكن أن نقول إنهم نور العالم كما كان يصف حواريه؟ المسيح الذي عفا عن مريم المجدلية الزانية وقال لها مغفور لك خطاياك! لوقا 48:7 وقال عن زانية أخرى من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر، يوحنا 8:7 هل يمكن لمن ذبح فيلسوفه شهد لها أهل زمانها أن يكون تلميذاً لابن الإنسان الذي رفع شعاره

في موعظة الجبل بعدم مقاومة الشر بالشر فقال السيد له المجد.. لا تقاوموا الشر بالشر، بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً؟ متى 9: 5 ثم لنا أن نسأل بعد ذلك: لماذا جردها الرهبان من ملابسها قبل اغتيالها؟! فإن كان الذبح في نيتهم فلم يكون وهي عارية تماماً؟! ألا يمكن أن يقول لنا علم النفس الشيء الكثير عن هذا الموقف الغريب؟ ألا يعني ذلك أن الرهبان عندما دخلوا في معركة مع شهوات الجسد لم ينتصروا فيها، بل كان انتصارهم وهمياً وظاهرياً فحسب في حين ظلت الغلبة للشهوات؟ أيكون تجريدتها من ملابسها قد تم حتى يتمكن الرهبان أتقياء القلب من معاينة جسد العذراء، وهو عار تماماً قبل الذبح؟! اللهم إلا إذا كانت شهوات الجسد لا تزال طاغية، فأرادوا أن يتمتعوا القلب النقي بمشهد الجسد الجميل العاري.. ولما كان يصعب على الرهبان أن يصلوا إليه فإنه يسهل عليهم تمزيقه!! ألا يخجل المتعصبون مما يرويه التاريخ؟!

مرة أخرى العلاقة بين الرجل والمرأة علاقة متناقضة مليئة بالمفارقات، وربما كان ذلك بسبب أنها علاقة عاطفية، والعاطفة باستمرار متناقضة فهي حب وكراهية في وقت واحد، وربما أظهرتنا الأسطورة الهندية القديمة على جوهر هذه العلاقة. تقول الأسطورة:

إن الإله الخالق الذي خلق الكائنات جميعاً لم يجد مواد يخلق منها المرأة فراح يجمع قصاصات من هنا ومن هناك:

□ فأخذ من القمر استدارته..

□ ومن الشمس إشراقها.

□ ومن السحب دموعها..

□ ومن الأزهار شذاها..

□ ومن الورود ألوانها.. إلخ.

وجمع هذه الخصائص كلها فكانت هي المادة التي خلق منها المرأة: ثم أهدها إلى الرجل.. الذي فرح بها فرحاً شديداً.. لكن هذا الفرح لم يستمر سوى شهر واحد، وإذا بالرجل يسرع ويعيد المرأة إلى الإله المبدع زاعماً أنها لا تطاق!!

لكن الغريب في الأمر أنه بعد شهر عاد الرجل نفسه ليقول للإله: يا إلهي: لقد رددت إليك هذه المخلوقة التي وهبتي إياها.. لكنني للأسف أشعر بوحدة قاتلة منذ ذهابها عني بل أني أشعر بوحشة شديدة لا أستطيع أن أتحملها فإذن لي أن أستردها من جديد! فأعطاه الإله المرأة مرة أخرى!!

لكن الرجل عاد بعد شهر آخر ليقول لله: أنا في حيرة من أمري لا أستطيع أن أعيش معها ولا أتحمّل أن أعيش بدونها!!!

وتستمر الأسطورة على هذا المنوال وكأنها تريد من الإله الخالق أن يعيد قول السيد المسيح:

زمرنا لكم فلم ترقصوا، نحنا لكم فلم تبكوا. فما العمل وجوهر العلاقة هو الحب أي التناقض؟

حتمية الديمقراطية...!

يخطئ كثيرًا من يظن أن الديمقراطية بسبب التسمية اليونانية القديمة -نظام سياسي غربي؛ إذ الواقع أن الديمقراطية تجربة إنسانية يفرضها العقل البشري، وتحتّمها الأخلاق لتحافظ على كرامة الإنسان وقيّمته. وهكذا

نستطيع أن نكشف بسهولة خطأ الأفكار المتداولة عن الديمقراطية لاسيما في القرنين الرابع والخامس قبل الميلاد.. إلخ وأود أن أسأل أصحاب هذا الرأي: ما رأيك إذا قلنا لكم إن الثلاثة الكبار في العصر الذهبي للفلسفة اليونانية. سقراط وديمقراطية كانت شكلاً من أشكال الحكم، ظهرت معه وقبله وبعده أشكال أخرى كثيرة سقطت في مسار التاريخ الإنساني، وأخفقت على محك التجربة البشرية، فقد مرت أثينا نفسها بحكم الطغاة، ومر على غيرها من المدن النظام الأرستقراطي والأوليغاريكي.. إلخ أشكال مختلفة ومتنوعة سقطت كلها وبقيت التجربة الديمقراطية التي أثبتت جدارتها وقيمتها حتى أصبحت اليوم الشكل السياسي النموذجي من أشكال الحكم، واكتسب المصطلح شحنات انفعالية سامية في السنين المائة الأخيرة حتى راحت الأنظمة الاستبدادية نفسها تتمسح في الديمقراطية فها هو سوكارنو في أندونيسيا يطلق على نظامه الديكتاتوري اسم الديمقراطية الموجهة! ووجد النظام الناصري من المنظرين من يتكرر له اسمًا جديدًا هو الديمقراطية بالتحسس!! فالقائد يتحسس مطالب الجماهير ويصدر بها قانونًا: أي استخفافًا بعقول الناس!!

حتى النظام الشيوعي (أيام الاتحاد السوفيات) أطلق على نفسه لقب الديمقراطية الشعبية وقالوا لنا إن هذه هي الديمقراطية الحقيقية!! ومن يقول غير ذلك فسوف ندق عنقه!! يا أيها السادة هذا كله كذب وزيف سوف يكتشفه الشعب يوماً، وليكن شعارنا جميعاً عبارة هيجل الجميلة: أن الخنزير لا يقتل الأفكار!! وإذا تساءلنا وما الذي يقتل الفكرة إذن؟! كان الجواب هو فكرة مثلها؟¹

والديمقراطية لا تعني برلماناً صورياً يحكمه الحكام الطغاة ويكون في النهاية بوقاً لهم؛ يأتمر بأمرهم ويصدر قراراتهم تحت شعار الموافقة وليس المناقشة!! أن الديمقراطية الحقيقية تعني حرية الرأي بالفعل (وليس الكلام عن حرية الرأي فحسب!).

الديمقراطية لا تعيش إلا مع اختلاف الآراء وتعدددها، بينما ينمو التعصب مع الاستبداد وثقافة الرأي الواحد - برجاء التمعن في المثال الآتي:-

في عام 1972 وهو الذي سمي بعام اللاسلم واللاحرب- قامت مظاهرات تشق عنان السماء تهتف بسقوط نظام الحكم الذي يتلاعب بموضوع الحرب دون أن يبدو في الأفق أنه سيخوضها، وكانت معظم هذه المظاهرات من طلاب الجامعات.

وخطب الرئيس السادات في المساء ووصف هؤلاء الطلاب بأنهم قلة منحرفة ضالة ومندسة - أما القاعدة الطلابية العريضة فهي سليمة والحمد لله!

وبعدها بأعوام قليلة كان بوش الابن يستعد لغزو العراق (2003) وقامت مظاهرات في طول الولايات المتحدة وعرضها تهتف ضد نظام حكمه منددة بنواياه الآثمة وحججه المضللة الذي يبرر بها هذا الغزو، وذات مرة

سأل الصحفيون الرئيس بوش وهم يحاورونه: أرايت المظاهرات الصاخبة ضدك؟

فأجاب ببساطة شديدة: وماذا في ذلك؟! إنه مظهر من مظاهر الديمقراطية!!

وهذا حق ففي النظام الديمقراطي تنمو ثقافة الاختلاف. والتقدم رهن باختلاف الآراء وتعارضها، ومن صدامها تخرج الفكرة السديدة التي تدفع المجتمع إلى الأمام!..

أما الاستبداد فلا رأي فيه سوى الحاكم الذي لا يطبق رأياً آخر، بل يتم استنساخ الرأي الأوحده في جميع المجالات بحيث يصبح الأب في بيته مستبداً، والمثقف مع الأدنى منه مستبداً، وكذلك يستبد كل متدين برأيه ويتمسك بصوابه ولا مانع من تكفير الآخر! ويصبح من يخالف النظام السياسي الحاكم ضالاً أو منحرفاً أو عميلاً لدولة أجنبية بل حتى خائناً ويحتاج إلى المقصلة!.. مع ملاحظة أنه يكثر تكفير الناس - لاسيما المفكرين بالطبع - ومن يخالف المثقف فهو جاهل وأحمق! - وهذا الجو الفاسد سببه نظام الحكم السياسي الفاسد، الحكم الديكتاتوري القمعي الذي لا يريد سوى رأي واحد! هو رأيه. انظر في تراثنا إلى الوليد بن عبد الملك ماذا قال في خطبته الأولى بعد توليه الخلافة:

أيها الناس عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد، أيها الناس من أبدى ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه. ومن سكت مات بدائه - فقد كان جباراً عنيداً - أليس تاريخنا موصولاً؟! ويذهب الفيلسوف الأمريكي جون ديوي J. Dewey (1859-1952) إلى أن النظام الديمقراطي

هو النظام الأمثل والأفضل الذي تحتمه طبيعة الإنسان لكي تنمو وتزدهر، فالطبيعة البشرية إذا ما تركت وشأنها وتحررت من كل قيد عليها من الخارج، اتجهت إلى إنتاج مؤسسات حرة تؤدي عملها على خير وجه وأفضله. كما أن الديمقراطية تعني الإيمان بأن الثقافة الإنسانية هي التي ينبغي أن تسود وتكون لها الغلبة على غيرها، بمعنى أن الجوانب الإنسانية من هذه الثقافة هي التي ينبغي أن تبقى. وخليق بنا أن نعترف أن القضية هي في النهاية قضية أخلاقية شأنها شأن أية فكرة أخرى تتعلق بما ينبغي أن تكون.. إن تأثير وجهة النظر الإنسانية على ديمقراطية في جمع أشكال الثقافة المختلفة من التربية والعلم والفن والأخلاق والدين.. وكذلك في الصناعة والسياسة هو الذي أيقظها من النقد الذي يوجه إليها. لأن الطريقة الديمقراطية هي من الوجهة النظرية طريقة الإقناع عن طريق المناقشة العامة لا في المجالس الشعبية وحدها بل في الصحف والمجلات، وفي الإذاعة والتلفزيون والمحادثات الشخصية وفي الاجتماعات العامة.

وليس من السهل أن نجد طريقة أفضل مما تتميز به الديمقراطية، ولا شكلاً من أشكال النظام السياسي يساعد إمكانيات الطبيعة البشرية على أن تنضج وتؤتي أكلها، ومن أجل ذلك كان طريق الديمقراطية هو الطريق الشاق الوعر الذي علينا أن نسلكه. لكنه سوف يقضي على الأنظمة العتيقة كلها النظام الديكتاتوري والنظام الأرستقراطي، والنظام الإقطاعي، والنظام الشمولي، وحق الملوك الإلهي، لأنها تتيح المجال الوحيد أمام الطبيعة البشرية، لكي تظهر إمكانيات، فتزدهر وتبدع كالنبات الذي ينمو ويؤتي ثماره إذا توافرت له التربة الصالحة والهواء النقي، أيكون الإنسان أقل احتياجاً للهواء النقي من النبات؟!

أيمكن له أن ينمو ويتقدم إذا لم يتنفس في حرية؟! وإذا كان ما يميز الإنسان هو الفكر أو العقل فكيف يمكن له أن يفكر بغير حرية في التفكير، وفي التعبير وفي المناقشة والإقناع...؟!

ألم يقل جان بول سارتر 1980 J. Sarter (1905) الحرية هي ماهية الإنسان إذا فقدناها فقد وجوده معها..!

لقد كان الشاعر الإسباني لوركا .. Lorca (1898-1936) يقول لحبيته:
ما الإنسان دون حرية يا ماريانا...؟

قولي لي كيف: كيف أستطيع أن أحبك إذا لم أكن حراً؟!
كيف أهبك قلبي إذا لم يكن ملكي؟...

ركيزتان أساسيتان للديمقراطية: الأولى: الحرية، والثانية المساواة- وبهما فرض النظام الديمقراطي نفسه على الأنظمة الأخرى وأزاحها من طريقه ليصبح هو النظام الأساسي للإنسان بما هو إنسان لا من حيث هو شرقي ولا غربي ولكن من حيث هو إنسان فحسب ما هيته الحرية ومطمحه أن تتحقق بالفعل في عالم الواقع.

ومن هنا، جاءت حتمية الديمقراطية بوصفها تجربة سياسية فريدة على الرغم من أن فكرة المساواة فكرة حديثة. إلا أنها جاءت قديماً عند أرسطو وهو يتحدث عن فكرة العدالة في الكتاب الثالث من كتابه: الأخلاق إلى يقوموا خوس حيث يذهب إلى أنه ينبغي ألا يكون هناك تمييز بين الناس المتساوين من جميع الوجوه - وحبذا لو ترجمنا كلمة المتساوين هنا بالنظر أو الأنداد، فهذا هو بالضبط ما يعنيه المعلم الأول فهو لا يتحدث عن جميع

الناس، وإنما هو يقصد فقط المواطنين اليونانيين الذكور ممن لهم حق الاشتغال بالسياسة أو ممن تجاوز سن العشرين، فهؤلاء ينبغي ألا نفرق بينهم في المعاملة أو في الحقوق.. وهكذا يظل القول بأن المساواة فكرة حديثة قولاً سليماً فما الذي نعنيه بهذه الفكرة؟!

الواقع أن المساواة في الأمور المادية سهلة ميسورة فنحن نفهم معنى قولنا إن شيئين متساويين في الحجم أو الوزن أو الكثافة، وقل مثل ذلك لو قلنا إن رجلين متساويين في الطول أو الوزن؛ فالمساواة تعني هنا أن الطول واحد، أو أن الوزن هو نفسه.. في الحالتين. ولكن ما إن نتحدث عن المساواة بين الموجودات البشرية حتى تبدأ المشكلات في الظهور.

فما الذي نعنيه على وجه الدقة عندما نقول إن المساواة هي الركيزة الثانية للديمقراطية؟ واضح أن الناس لا يمكن أن يتساووا من الناحية البدنية العقلية، وأسوأ فهم للمساواة هو ذلك الذي يجعل الناس جميعاً متساوين من جميع الوجوه وهو أقرب إلى التعبير الفلسفي الذي يقول وضع الناس على سرير بروكرست Procrustes وهو قاطع طريق في الميثولوجيا اليونانية كان يقطن مفترق طرق على الجبل ويدعو الغرباء لزيارة مسكنه، ولم يكن لديه سوى سرير واحد يرغم الزائر على النوم عليه، فإذا كان أطول من السرير قطع الزيادة، وإن كان أقصر شده حتى الموت -وهو يقضي عليهم في الحالتين لولعه الشديد بالمساواة التامة- كلا! ليست المساواة على هذا النحو الساذج الفج التي تعني المساواة بين الناس جميع الناس، وإنما هي تعني المساواة بينهم وبين شيء ثالث وهذا شيء الثالث هو القانون أو هو الفرص أو الوظيفة.. إلخ.

والمساواة في الديمقراطية مثلها مثل أي فكرة فلسفية أخرى لم تظهر دفعة واحدة لكنها كانت تتحدد وتتضح خلال مسيرة الديمقراطية، فعلى الرغم من أن جون لوك مثلاً كان يقول إن البشر يتساوون جميعاً، فإنه كان يقصد الرجال فحسب فهم وحدهم أطراف العقد الاجتماعي كما ذهب روسو إلى أن النساء غير مؤهلات للاشتراك في العمل الديمقراطي.

ولم تظهر فكرة المساواة بين الجنسين إلا مع جون ستيوارت مل في القرن التاسع عشر. وهكذا كافحت البشرية طويلاً لكي تحقق شعار الديمقراطي الرائع: لا تمييز بسبب اللون أو الجنس أو الدين!

بين حانا.. ومانا.. ضاعت لحانا

أما حانا فهي الزوجة الصغيرة الجميلة ذات الدلال
تزوجها الرجل المسن حديثًا- وكان يسعده كثيرًا أن
يذهب إليها لكنها كانت دائمة الشكوى من لحيته
البيضاء التي تجعله يبدو أكبر كثيرًا من سنه فتعد لهذه

اللحية صبغة سوداء ليعود شابًا مقتول الشوارب!!.

لكنه عندما يعود إلى امرأته الأولى مانا أم الأولاد، تلومه لومًا شديدًا على
تغيير ملامح وجهه لا سيما صبغة اللحية السوداء فقد كانت لحيته البيضاء
تنم عن وقار وهيبة وتدعو الناس إلى احترامه بل إجلاله وتقديره. وسارت
حياته على هذا المنوال يتكرر موقف الزوجتين كلما ذهب إليهما حتى بدا
عليه الإعياء الشديد فاحتار ماذا يفعل فاستقر أخيرًا على حلق اللحية نهائيًا.
ولما سأله قومه: ماذا حدث؟ ولماذا حلقت لحيتك؟! أجابهم بصوت خافت
وكأنه يحادث نفسه بعبارة مقتضبة تركها وذهبت مثلًا في الأدب العربي: بين
حانا ومانا ضاعت لحانا!! تقال للرجل المتحير بين أمرين غير قادر على اتخاذ
قرار أو ترجيح هذه الكفة على تلك فهو حائر بين أمرين أحلاهما مر! فيترك
الجميع ويرحل بعيدًا عنهما! وما أشبه هذا الموقف عندنا في الفلسفة بحمار
بوريدان (1295-1358) فقد روي عن الفيلسوف الفرنسي جون بوريدان
J. Burdan.. الذي كان عالمًا مطلقًا أكثر منه لاهوتيًا، وترقى في السلك الجامعي

حتى أصبح مديراً للجامعة باريس أنه كان يشرح العلاقة بين الإرادة والعقل، وكيف أنه من الواجب على الإنسان أن يختار ما يتبدى أمام عقله على أنه الخير الأعظم وألا يقع في مأساة الحيرة والتردد، وعدم القدرة على اتخاذ قرار فيلوذ بالفرار أو يبقى ساكناً إلى أن يأتيه الأجل!! ويسوق الفيلسوف تحذيراً للإنسان ألا يكون كالحمار الذي كان جائعاً وظمأناً إلى أقصى حد فجاء له بإناء ملى بالماء ووعاء زاهر بالعلف ليأكل ويشرب، ويشبع ما لديه من جوع وظمأ، لكنه لشدة الجوع وحدة الظمأ لم يستطع أن يقرر أو يحسم؛ بأيهما يبدأ. هل يأكل العلف أولاً ويرد غائلة الجوع؟ أو يشرب الماء أفضل ليروي ظمأه؟! احتار كيف يبدأ لاسيما أنه يكاد يموت جوعاً وظمأ، بنفس الدرجة، وظل يتردد ويتنقل من الإناء إلى الوعاء، ويعود من الواحد إلى الآخر؛ دون أن يحسم الاختيار إلى أن هلك بالفعل فمات من شدة الجوع وقسوة العطش!!

الدكتور محمد البرادعي شيخ فاضل وأستاذ جليل بدا في عهد مبارك المنقذ للشباب، والقائد الملهم لمصر بأسرها، والحق أنه لعب دوراً مهماً في إيقاظ الوعي المصري، وتنبيه الناس إلى مفاسد نظام الحكم الذي ظل قابضاً على رقاب العباد لمدة ثلاثين عاماً، وكذلك فتح الأبصار على التوريث الفكرة البغيضة التي كادت تقلب الجمهورية إلى ملكية وراثية في أسرة مبارك التي لا مثيل لها في البلاد! وراحت الأسرة المباركة من ناحية أخرى تطلق كلابها المسعورة تهش في الرجل ويتهمونه بأنه عميل أمريكي باع العراق في تقرير واحد لبوش مكنه من الغزو والاستيلاء.. ورحنا بدورنا الشرفاء في هذا البلد- ندافع عنه بقوة ونفد بحولنا الضعيف هجمات الحكم الشرسة ضد رجل فاضل رجع لينقذ أمته واستبشرنا خيراً على كل حال إلا أن الدكتور البرادعي عندما بدأ يخوض تجربة السياسة (المرأة اللعوب) فيرشح نفسه

للرئاسة أو يشكل حزباً أو جبهة للإنقاذ، لكنه وجد أن التيار الذي يواجهه ليس سهلاً ربما لعدم تمرسه على الصراع السياسي فلا هو استراح مع حانا ولا مع مانا عندئذ أثر الشيخ أن يخلق لحيته ويهرب إلى فيينا!!!..

وفي المرة الثانية رفعه الشباب المتحمس الثائر الذي يبحث عن قائد محنك يدل على الطريق رفعه إلى مستوى القائد ووافقوا أن يتحدث باسمهم، ومن هذا المنطلق عين نائباً لرئيس الجمهورية في نظام الحكم المؤقت وعلينا أن نلاحظ أنه لم يرفض، مع أنه ذكر في المرة الأولى أنه يترك مصر لأنه لا يرغب في أي منصب سياسي ولم يقم بالسعي إليه في أي وقت.

لكنه عندما عاد في المرة الثانية قبل منصباً خطيراً هو نائب رئيس الجمهورية للشئون الخارجية، وعندما بدأت الحكومة الحالية المؤقتة تعمل كان من رأيه التفاوض أو التصالح مع الإخوان، وحل جميع المشكلات عن طريق الحوار، رأي في ظاهره - حق لكنه في باطنه باطل فقد جاء الإخوان خلال حكمهم الذي استمر عاماً واحداً بكميات هائلة ومتنوعة من السلاح والقنابل على أنواعها وأشكالها، وكذلك الرجل الأشداء العتاة في الإجرام، الذين أفرجوا عنهم من السجون أو الذين استوردوهم من غزة لحمل السلاح ونسي الدكتور البراعي، وهو المفاوض العالمي أن هذه الأعداد الوفيرة من الرجال والعتاد المنوع، لا بد أن تستخدم يوماً ما (وليس في الأفراح على كل حال!) فإذا لم يتم استخدامها حتى الآن نظراً لعبقرية البرادعي التفاوضية فسوف تستخدم في أية أزمة قادمة بعد أشهر أو عام قادم فقد جاءت لتقوم بدورها وهذا هو الخطأ الأول الذي لم يفتن إليه صاحب نوبل!

الخطأ الثاني: أنه ظن أن مجلس الدفاع الوطني، بل الحكومة والجيش،

والوزارة، ورئاسة الجمهورية لا بد أن تأخذ بفكرة التفاوض التي جاء بها وإلا ترك الجمل بها حمل، وقفز من السفينة قبل أن تغرق. ولست أدري كيف استطاع البرادعي أن ينقع نفسه بهذا الموقف الغريب؟! إذا كان رجلاً ديمقراطياً ينادي بالديمقراطية الغربية ليل نهار فإننا لم نسمع قط عن فرد في مجلس أو لجنة (في أي نظام ديمقراطي) يريد أن يفرض رأيه على الآخرين، وإلا ترك الاجتماع وفر هارباً من اللعبة!! تري ماذا تكون الديكتاتورية إن لم تكن هي موقف البرادعي تماماً؟ فهل كان البرادعي نصيراً للديمقراطية من الناحية النظرية مؤيداً للديكتاتورية من الناحية العملية..؟!!

والخطأ الثالث: أن الدكتور البرادعي أثر أن يترك مصر لأهلها ويذهب إلى ليالي الأنس في فيينا فمن هناك يستطيع أن يلتقط الأخبار عن بلده كأني سائح...!!

والخطأ الرابع: الذي وقع فيه الدكتور البرادعي هو أنه ينتمي إلى حزب- هو حزب الدستور- إن لم يكن رئيساً له، فهل استشار هذا الحزب أو الهيئة العليا له؟ هل أخذ رأيهم فيها هو مقدم عليه من خطوات سوف تضر بلا شك مستقبل الحزب أو تؤثر على أقل تقدير في مركزه السياسي؟! الأمل أنه يحكم الحزن مفرداً ويتركه وقتما يشاء؟! وهل هذه هي الديمقراطية الشرقية الحديثة؟!!

الخطأ الخامس: أنه لم يكثرث أدنى اكتراث بالشباب الذين وقفوا فيه، ووضعوا آمالهم بل ومستقبلهم في هذا الشيخ المخضرم، فهو الذي سيرشدهم، ويوجههم إلى الطريق الجاد والهدى؛ طريق الديمقراطية السليمة!! فضلاً عن أنه سيقدم لهم على الرحب كل ما لديه من خبرات ومعلومات وأفكار!!

الخطأ السادس: أنه لا بد بالصمت تمامًا وكأنه لا علاقة له بالموضوع، ولا بالجمهور، ولا بالشعب شابًا أو شيخًا وليس من حق المواطنين أن يعرفوا ما حدث فهو سر من أسرار الدولة مع أن هذه السياسة هي التي أوردتنا المهالك: الحديث الكثير عن المواطنين وعن الشعب، وعن الشفافية.. ثم عندما يحين الحين لا نجد شيئاً على الإطلاق فنتحسر على حظنا العاثر وعلى زعمائنا الذين لا يستطيعون اتخاذ قرار حازم وحاسم!!

ومادمنّا نتحدث عن الحيرة والتردد في اتخاذ القرار فلا بد لنا من أن نقول كلمة عن حكومتنا الموقرة والمؤقتة التي تتردد هي الأخرى في اتخاذ القرار في مواجهة الإرهاب والقتل والتدمير والمتعمد... إلخ ولست أدري لذلك سبباً معقولاً، فمثلاً قرية دلجا كيف تظل تحت حكم الإرهاب الذي أسفر عن حرق 3 كنائس و 27 منزلاً وفرض الإتاوات ثم يقبض على 70 متهمًا منهم 20 من قيادات الإخوان؟ والشيء نفسه يحدث كرادسة وغيرها من المدن والقرى في جميع أنحاء البلاد؟ أين الجيش والشرطة؟ ولماذا لا تضرب اليد العسكرية وبعنف أعناق هؤلاء القتلة والمجرمين؟! رأيتم يا سادة ما جرى للشرطة في كرادسة من قتل وسحل وتشويه لأحد لواءات الشرطة وعميد وأكثر من ظابط. لقد رأيتم في التلفزيون أكثر من مرة رجال الشرطة وقادتها حائزون: ماذا يصنعون؟! الأهالي يذهبون إلى أقسام الشرطة ليخبروا رجالها أن من الأفضل إخلاء القسم: فالأخوان قادمون؟! ويحدث فعلاً إخلاء مر الشرطة التي تحمي الشعب فما الذي يفعل الناس في هذه الحالة؟ سمعت من أفراد الشرطة أكثر من شكوى من أن الأسلحة معهم متهاكة وليست في مستوى أسلحة القتلة والسفاحين؟ لماذا؟!

أكان البرادعي يعلم ذلك كله ومن ثم كان على حق في التفاوض أو الاستسلام؟! وهل تعلمون أن الاستسلام معناه فناء مصر من الوجود- وهو أمر لن يحدث أبداً.

أنا أعتقد أن كل قرار تتخذه حكومتنا المؤقتة والموقرة تضع في ذهنها رد فعل الولايات المتحدة الأمريكية .

أولاً- مع أن المسألة بالنسبة لنا حياة أو موت، نكون أو لا نكون. أن اليد المرتعشة يا سادة لا تستطيع أن تجري جراحة ناجحة: فما بالك إن كانت خطيرة؟ كلمة أخيرة أقولها لكم: إذا كنا مسلمين حقاً فعلينا أن نقوم بتنفيذ مبادئ أساسيين هما:

أولاً: ﴿وَقَنِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: 39].

ثانياً: أن تحققوا بالفعل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169] الآية الأولى: واضحة ولا تحتاج إلى تفسير، أما الآية الثانية:- فينبغي أن تفسر على هذا النحو: أن يعامل الشهيد: الملازم، أو الملازم أول أو النقيب.. إلخ معاملة زملائه فيرقى اسمه معهم وينال أولاده أو ورثته عموماً راتبه الجديد، وإذا صرفت مكافآت أو مرتبات إضافية أو غيرها فتصرف لاسمه وتذهب لأسرته.. باختصار أن يعامل على أنه حي يرزق وينال (ورثته) كل ما يناله زملاؤه الأحياء.. وهكذا لن نحسبهم أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون!!

لا بديل أيها السادة سوى أن تخلقوا للحاكم وأن تقولوا مع الشيخ الحائر:

بين حانا.. ومانا ضاعت لحانا!!..

مصر في عيون مفكري الغرب (1)

1- الفيلسوف الألماني هيجل (1770 - 1831) سألني صديق: لماذا لا تكتب لنا مقالاً عن مصر في عيون هيجل لا سيما أنك عاصرته فترة طويلة، فضلاً عن أنه كتب مؤلفاً ضخماً بعنوان محاضرات في فلسفة التاريخ ولا بد أنه كتب عن مصر عندما كتب عن الشرق القديم؟! ولقد وجدت ما طلبه الصديق منطقياً ومعقولاً: لماذا نكتب عن الغربيين المتعصبين الذين يقذفون مصر بالحجارة ولا نكتب عن عمالقة الفكر الغربي الذين وضعوها في مكانة عالية..

الواقع أن هيجل على الرغم من أنه جعل من مصر جزءاً من الإمبراطورية الفارسية، فإنه جعلها درة ثمينة في هذا التاج، يقول إننا مع مصر نصل إلى المركز النهائي في العالم الشرقي فهي الجسر الذي عبر عليه الروح الإنسانية من الشرق إلى الغرب، وهي تسترعي الانتباه بصفة خاصة لأنها أرض الآثار فحسب بل لأنها: تمثل النتيجة النهائية لعمل عظيم يفوق في ضخامته وجبروته كل ما خلف لنا القدماء، فالعناصر التي كانت موجودة فرادى في المملكة الفارسية قد توحدت في مصر..! لقد كان النور في فارس هو ماهية الطبيعة الكلية، غير أن هذا المبدأ قد طور نفسه أطواراً متباينة، فانغمس في الحس عند البابليين والسوريين أحياناً ثم ظهر كوعي أولي للروح

العيني Concrete الحي في عبادة أدونيس أحياناً أخرى. ثم ظهر فكرًا خالصًا عند اليهود. لكن كان ينقصه في الحالة الأولى- أعني عند البابليين والشوريين- وحدة العيني نفسه. ومن هنا فقد كانت تلك هي المهمة التالية التي قامت بها مصر وهي توحيد هذه العناصر المتناقضة. ويركز هيجل في تحليله على صورة أبي الهول، ويرى فيه رمزًا للروح المصري: أبو الهول لغز غامض نصفه حيوان ونصفه إنسان؛ الرأس البشري يبرز من خلال جسم الحيوان، ويعرض الروح على نحو ما تبدأ في الانبثاق من جانب الطبيعة منتزعة نفسها ومتأملة ذاتها في حرية دون أن تحرر نفسها تمامًا مع ذلك من القيود التي فرضتها عليها الطبيعة. بل إن الحضارة المصرية كلها وما فيها من آثار وصروح خلفها لنا المصريون نصفها تحت الأرض ونصفها فوق الأرض وفي الهواء، والأرض نفسها مقسمة إلى مملكة الحياة ومملكة الموت، والتمثالان الهائلان للممنون (وهما تمثالان كبيران للملك أمنحوتب الثالث) يجدان نور الشمس، لكنه لم يصبح بعد نور الروح الحر الذي يسري فيها.

ويركز هيجل على الارتباط بين ما هو روحي وما هو مادي أو طبيعي عند المصريين القدماء: فالشمس والنيل هما الألف والياء في تصور المصريين لماهية الطبيعة: النيل هو العامل الذي يحدد جغرافية البلاد: حواياه صحراء قاحلة، وفي الشمال البحر الأبيض وفي الجنوب حرارة لافحة ثم النيل رمز الحياة، وكذلك أيضًا بالنسبة للشمس التي هي العالم الحاسم في تقسيم السنة إلى فصول وإنصاج المحاصيل فهي رمز العطاء أيضًا. وكما أن النيل يبدأ ويواصل العطاء في أيام الفيضان، ثم يولد من جديد، وهكذا دواليك. وهكذا تصل الشمس إلى حدها الأدنى في الانقلاب الشمسي في فصل الشتاء، ثم لا بد أن تولد من جديد. ولقد عبرت أسطورة أوزوريس عن ذلك كله

أدق تعبير، فقد قتله شقيقه الذي يمثل رياح الصحراء المحرقة، أما إيزيس الطيبة التي حرمت من الشمس والنيل فقد جمعت عظام أوزوريس المتناثرة وراحت تنوح عليه، ومعها مصر كلها، وهناك نجد الأله وقد أصبح شيئاً إلهياً، ثم يعود أوزوريس ليحكم، ولكنه لم يكن إلهياً أو رمزاً فحسب بل هو الذي أدخل الزراعة واختراع المحراث، وشرع القوانين. ووضع في يد الناس وسائل العمل وضمان إنتاجه.

وإذا انتقلنا إلى العبادة المصرية لاسيما عبادة الحيوان Zoolatry لو جدنا مثلاً آخر في رأي هيجل على وحدة الارتباط بين ما هو روحي وما هو طبيعي؛ فإذا كان المصريون قد عبدوا النيل والشمس والبذور، فقد أضفوا عليها تصورات روحية، وإذا كان ظواهر الطبيعة كالنجوم أو الجبال أو الأنهار.. إلخ فإنه يعتقد أن العكس هو الصحيح، فالأمم التي عبدت الحيوانات هي أرقى من تلك التي عبدت ظواهر الطبيعة المادية. فقد تصور المصريون في عالم الحيوان الشيء الباطن وما هو غير قابل للإدراك ونحن حتى الآن يدهشنا سلوك الحيوان الغريزي، وتكيفه مع البيئة وغرضية أفعاله. ولا نعرف ما تضره هذه الحيوانات حتى اعتقد بعض الناس أن القط الأسود بعيونه البراقة يمثل كائناً شريراً في حين أن الكلب صديق وفي. وإذا كانت طبيعة الحيوان منغلقة على نفسها، ولا يستطيع الإنسان فهمها أو الإحاطة بهما فإننا نستطيع أن نقول إن هناك منطقتين لا نستطيع الإحاطة بهما هما الطبيعة الحية، ومنطقة الروح، وإذا كانت الروح هي وحدها التي تستطيع أن تفهم الروح فإن الوعي الذاتي الكليل عند المصريين الذي لم تنكشف له بعد فكرة الحرية البشرية عبد النفس الغامضة التي لا تزال منغلقة على نفسها في إطار الحياة البيولوجية وتعاطفت مع حياة الحيوان...

ويعتقد هيجل أن شكل الحيوان تحول بعد ذلك إلى رمز - ربما بالغ الغموض - فليل إن الخنفساء ترمز إلى التوالد والنشوء، ويرمز عجل أبيس Apis إلى فيضان النيل والصقر إلى التنبؤ.. إلخ ولو سرنا قليلاً لوجدنا أن الفكرة تعمل على تحرير نفسها من الصورة الحيوانية المباشرة بحيث ينبثق المعنى الخفي والروحي بوصفه الوجه البشري من الصورة الحيوانية ولهذا تعددت الأشكال التي يتخذها أبو الهول مما يؤكد أن معنى الروحي هو المشكلة التي طرحها المصريون على أنفسهم في صورة لغز هو أبو الهول بصفة عامة لا ييوح بشيء مما هو مجهول، لكنه يمثل التحدي للكشف عنه، وهكذا نجد مصر وقد حصرت نفسها في ارتباط وثيق بالطبيعة وإن حاولت أن تكسر هذا الارتباط ليبرز الروح الكامن تحت السطح..!

عليك أن تعي - عزيزي القارئ ذ فكلما تقدمت الروح وبرزت دل ذلك على تقدم هذا المجتمع وتطوره، وبهذا نجد الروح المصري في رأي هيجل يكافح لكي يظهر في جميع مناحي الحياة، فهو يتقدم أكثر عندما ينتقل من عبادة الظواهر الطبيعية كالنجوم والأفلاك والجبال، والأنهار، وغيرها من المواد الجامدة إلى عبادة الحيوانات كما رأينا فهذه خطوة متقدمة إلى الأمام بحثاً عن ظهور الروح. ومن هنا فإن هيجل يعتقد أن الروح المصري واضح في الفن فهي روح قوية ملحة لـ تكن قادرة على البقاء في إطار التصويت الذاتي بل كانت مضطرة للخروج والتعبير عن مضمونها بواسطة الفن فقامت بتحويل النظرة الطبيعية المباشرة لليل والشمس - إلى أشكال تشارك فيها الروح، فيه روح رمزية وهي بما هي كذلك تجاهد للسيطرة على الرمزية ولتمثيلها بوضوح أمام نفسها، وكلما ازدادت غموضاً والغازاً أمام نفسها ازداد شعورها بالدفع إلى العمل لكي تحرر نفسها من سجنها وتصل

إلى تصور موضوعي. وهذا الجانب الغني الهائل الذي كان سمة يتميز بها الروح المصري بسعي هذا الروح من ورائه لا إلى البهاء والمتعة أو اللهو بل إلى فهم نفسه.

ليس أساسه سوى أن يشكل أفكارًا في حجارة ونقوش عليها ألغازها وتلك هي الهيروغليفيات.

فالفكر (أي الروح) في النهاية هو الذي يسيطر على المادة أو الحجارة وهذا هو التقدم الحقيقي، فكلما ارتقي الفكر في مجتمع من المجتمعات، وكلما برزت الروح دل ذلك على تقدم هذا المجتمع وتطوره. وهناك يعلمنا هيجل أن ما يقال الآن عن روحانية الشرق وهم وتضليل، فالروح وإن كانت قد بزغت من الشرق فإنها الآن تعاني فيه وتكابد لكي تخرج عن إطار المادة دون أن تنجح، فالإنسان الشرقي لا يزال بصفة عامة غارقًا في الحس حتى الأذنين دون أن يحاول الارتفاع إلى الفكر المجرد (لاحظ أن الحضارة تجريد، ومن هنا كان تخلف الإنسان الشرقي). صحيح أن الشرقيين يتحدثون كثيرًا عن الروح والروحانيات لكنهم يقفون عند حدود الحديث فحسب دون أن يتخطوه إلى الفعل، تمامًا مثلما يتحدثون عن القراءة أو يفاخرون بأن أول آية من آيات القرآن الكريم هي الأمر الإلهي أقرأ ومع ذلك يكرهون القراءة كراهية التحريم!.

ويتساءل هيجل: كيف تصور المصريون الإنسان؟! ويحجب: كان المصريون أول من عبر عن الفكرة القائلة بأن النفس البشرية خالدة وهي فكرة تتضمن أن الفرد البشري يمتلك في ذاته قيمة لا متناهية، وإن كانت فكرتهم عن النفس أنها ذرة مجردة أعني أنها شيء جزئي. وإذا أدركنا أن

النفس ذات وجود دائم فلا بد من إضفاء الشرف على الجسد باعتباره مقر سكناها السابق، وذلك بتحنيطه، كما كانت تدفن مع الموتى مشاغل الحياة فيدفن مع الحرفي أدواته... إلخ

ويقول هيجل إننا لو أردنا أن نلخص خصائص الروح المصري لقلنا إنها تتألف من عنصرين أساسيين: الروح الغارقة في الطبيعة والرغبة الملحة إلى التحرر منها. ف نجد أمامنا كفاح الروح من أجل التحرر من الطبيعة كما يتمثل أروع تمثيل صورة أبو الهول إذ يلعب الخيال دورا والأشكال التي خلفها الفن جنباً إلى جنب مع الفهم المجرد.

ويروي هيجل أن كاهنا مصرياً قال ذات مرة أن اليونانيين سيظلون إلى الأبد أطفالاً (بالنسبة للمصريين!!) وإن كان هيجل يعتقد أن المصريين كانوا صبياناً أقوياء ممثلين بطاقة خلاقة ولا يحتاجون إل شيء سوى الفهم الواضح لأنفسهم لكي يصبحوا شبانا.

وهكذا نجد هيجل يعلي من شأن الحضارة المصرية القديمة فيجعلها أول حضارة في التاريخ، وأول ظهور للروح ومحاولتها الخروج من إطار المادة. وهي أول حضارة آمنت بخلود النفس البشرية ومن هنا اهتمت بتحنيط الجسد لكي تعود إليه الروح يوماً ما، وهي التي علمتنا أن الحضارة فكر وروح، الحضارة تجريد، ومهما ابتعد الأحفاد عن هذه المفاهيم السامية فسوف يظل للأجداد العظمة والرفعة فهم بناء الأهرام وأبي الهول وهي كلها تجسد أفكاراً باللغة الأهمية لا تزال البشرية حائرة في فهمها إلى يومنا الراهن وإن كان البلهاء منا حاولوا هدمها بعد عجزهم عن تفسيرها فجاء العظماء من الغرب ليقولوا بصوت صارخ: أحذروا: هذه أول حضارة في التاريخ أيها البلهاء!!

مصر في عيون مفكري الغرب.. (2)

جيمس هنري برستد (1865 - 1935) مؤرخ وعالم آثار أمريكي متخصص في الحضارات الشرقية أشرف على مجموعة من الدراسات المتنوعة عن مصر، وأنشأ معهد الدراسات الشرقية عام 1919 وهو مؤلف كتاب تاريخ مصر عام 1905، وتطور الديانة والفكر في مصر القديمة عام 1912.. والأزمنة القديمة عام 1916 وفجر الضمير عام 1933.. وقد ترجمه د. سليم حسن.

وإذا كان هيجل في القرن التاسع عشر قد ذهب إلى أن مصر هي أول الحضارات وهي البلد الذي بزغت منه الروح محاولة أن تنفصل تمامًا عن الطبيعة وعن المادة- فإن برستد يكتب في القرن العشرين كتابه العظيم فجر الضمير ليبرهن على أن مصر أصل حضارة العالم ومهداها الأول، بل في مصر شعر الإنسان لأول مرة بنداء الضمير مما يعني أن الضمير الإنساني نشأ وترعرع في مصر، وبها تكونت الأخلاق لأول مرة في تاريخ الإنسان. ولقد أخذ الأستاذ برستد يعالج هذا الموضوع منذ أقدم العهود الإنسانية إلى أن انطفأ قبس الحضارة في مصر حوالي 525 قبل الميلاد فيما يروي لنا د. سليم حسن مترجم هذا الكتاب القيم إلى العربية.

ولقد شغف برستد منذ بداية حياته بدراسة تاريخ الشرق القديم بصفة

عامة، ولكن لما اشتد ساعده مال بكل نفسه لدراسة تاريخ مصر وحضارتها وأنفق في سبيل معرفة مكانة مصر بين دول العالم القديم أموالاً طائلة جمعها من رجال أمريكا الذين يشجعون العلم والبحوث القديمة، وانتهى به البحث بعد دراسة حضارات الأمم الشرقية القديمة كلها إلى أن مصر أصل حضارات العالم، ومنبع نشوء الضمير، والبيئة الأولى التي نمت فيها الأخلاق، ومن هنا فإن الدكتور سليم حسن يلقبه بالرجل العظيم. الذي كشف عن ماضي أمة عظيمة ويواصل العلامة المصري حديثه فيقول إن برستد بكتابه فجر الضمير قضى على الخرافة التي كانت شائعة بين السواد الأعظم من علماء التاريخ القديم ففريق منهم ظن أن الصين والهند ثم بلاد اليونان كانت مهد الحضارة العالمية وعندها أخذ العالم الحديث عن طريق العبرانيين (اليهود) في فلسطين الذين لم يكن لهم أي فضل سوى أنهم كانوا نقطة الاتصال بين الحضارة الأوروبية والحضارة المصرية. على أن العبرانيين نقلوا الحضارة المصرية إلى أوروبا مشوهة ثم صقلها الأوروبيون بدورهم حسب أمزجتهم وألبسوها ثوباً جديداً كل خيوطه من الحضارة المصرية.

ويعتقد برستد أن أهم مرحلة في تقدم حياة الإنسان هي ظهور المبادئ الأخلاقية أو ما يكن أن يسمى عصر الأخلاق وهو تحول هائل انتقل فيه الإنسان من صناعة الأدوات والأسلحة الفتاكة التي ظهرت من مليون سنة إلى اعتبار الضمير قوة اجتماعية مهمة ولم يتم ذلك إلا منذ نحو خمسة آلاف سنة في الحضارة المصرية القديمة. ويروي لنا المؤلف أنه قضى أكثر من أربعين عاماً في البحث محاولاً تحديد الأدلة التي وصلت إلينا من الآثار الشرقية القديمة عن هذه المسألة الأساسية الخاصة بأصل الأخلاق: وعندما تقدمت في هذه البحوث ازداد اقتناعي.. بأن مجموعة أوراق البردي التي تم

تأليفها في العهد الإقطاعي حوالي عام 2000 ق.م تدل على أنها أكثر من إنتاج أدبي.. فهي تحوي في ثناياها أقدم بحوث معروفة في الاجتماع كتبها القدماء لتكون حملة دعاية لأول جهاد مقدس في سبيل العدالة الاجتماعية، ولذلك يعد مؤلفوها أول المصلحين الاجتماعيين. ولقد قضي المؤلف أكثر من عشرين عامًا في تأمل هذه الوثائق فلم يزد ذلك إلا إيمانًا بصدق رأيه.

ولقد كانت تلك هي الحال كذلك في تصوير المؤلف للتطور الاجتماعي في الديانة والمبادئ الأخلاقية، بمصر القديم، وبخاصة ما كان أساسه أوراق البردي في العهد الإقطاعي. ومما لا يتطرق إليه الشك أن هذا التفسير الاجتماعي للديانة المصرية، وتصويرها على نحو يجعل منها أقدم مصدر عرف حتى الآن عن تطور الأخلاق والمثل الاجتماعية سينال قبولًا عامًا...! ولقد ثبت لنا كذلك أهمية أوراق البردي الاجتماعية التي ترجع إلى العهد الإقطاعي. ويواصل برستد اكتشافاته فيقول: إن أعظم كشف جاوز المؤلف في هذه الناحية هو أننا عرفنا أن حكمة أمينموبي التي حفظت لنا في ورقة مصرية في المتحف البريطاني، قد ترجمت إلى العبرية في الأزمان الغابرة، وأنه بذيعوها في فلسطين صارت مصدرًا استقى منه قسمًا بأكمله في سفر الأمثال في العهد القديم. ولقد أضاف هذا الكشف أهمية بعيدة المدى على الحقيقة القائلة بأن التقدم الحضاري في الدول المحيطة بفلسطين كان أقدم بعدة آلاف من السنين من التقدم العبري. ولقد أصبح واضحًا الآن أن التقدم الاجتماعي والخلقي. الذي أحرزه البشر في وادي النيل يعد أقدم من التقدم العبري بثلاثة آلاف سنة، وأنه أسهم مساهمة فعلية في تكوين الأدب العبري اليهودي الذي يسمى بالتوراة! غير أن قول برستد: أن اليهود نقلوا الدستور الخلقي الذي ضمنوه التوراة عن المصريين القدماء قد أغضب

اليهود. ومن ثم فقد كتبت الكتابة الصهيونية روزمارين (ت.ق) رئيسة تحرير مجلة جويش سبكتاتور كتابًا عنوانه البقاء اليهودي ذهبت فيه إلى أن حضارة الغرب قامت في أساسها على العقيدة اليهودية من حيث الطبيعة الروحية للإنسانية. وهكذا تكتب اليهودية الصهيونية للعقل الأوروبي لكي تقول له بأسلوب لا مثيل له في الخبث والالتواء إنها أي اليهودية- صاحبة الفضل على حضارته، وأنها الأصل في القيم الخلقية التي يقيم حياته عليها، وأن كل ما حققه من أصول الحكم الديمقراطي والاستقرار الأسري، وما استقر في وجدانية من معايير الرحمة، والمودة، والتعاطف والتسامح والبذل في العلاقات بين الناس إنما مرجعه إليها والفضل فيه لها.. وتواصل الكاتبة الصهيونية إنكار ما يذكره برستد من أن اليهود نقلوا الدستور الأخلاقي الذي ضمنوه التوراة عن المصريين القدماء فتقول لو كان المصريون هم مبدعو الضمير لبقوا ولم يبق اليهود ولكن العكس هو الصحيح؛ لأن الضمير هو مساهمة اليهود للبشرية، وهي مساهمة تميزهم وحدهم. لكن أصبح هذا..؟ أصبح أن اليهودية هي التي ابتدعت الضمير، ودستور الأخلاق وقيم الحياة.. إلخ وهي التي ألهمت البشرية سواء السبيل..؟ أكان اليهود هداة للبشرية، وأئمة وروادًا لفعل الخير وتجنب الشر..؟ وإذا كان ذلك صحيحًا فلماذا كرههم الناس؟! ولماذا كانت صورتهم بغیضة في جميع العصور وفي كافة المجتمعات؟!

هذه الأسئلة تحتاج إلى إجابات طويلة عن تاريخهم، لكننا سوف نجيب عن بعضها لاسيما نشأة الضمير في مصر القديمة ومدى استفادة اليهود من الفكر الأخلاقي والقيم الأخلاقية في مصر القديمة. وذلك ما سوف يكون موضوعًا لمقالنا القادم حيث نعرض للأفكار الأخلاقية في مصر القديمة وكيف

نقلها اليهود بنصها في أسفارهم المختلفة على نحو ما يقول برستد في كتابه العظيم فجر الضمير!

ويجعلنا ذلك نلفت الأنظار إلى أنه إذا كان هناك مفكرون غربيون ينكرون- لأسباب مختلفة- عظمة مصر ودورها الرائد في تاريخ الإنسانية، فإن هناك منصفين منهم أدركوا هذه المكانة وأبرزوا هذا الدور (وإن انصب ذلك كله على مصر القديمة والحضارة الفرعونية على وجه التحديد) من أمثال الفيلسوف الألماني العظيم هيجل وقد كتبنا عنه في مقال سابق، وهنري برستد الذي خصصنا له مقالين حيث نكتب عنه المقال القادم أيضًا، وكذلك المؤرخ الألماني العظيم أدولف أرمان الذي كتب عن ديانة مصر القديمة: نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة كما كتب عن اللغة الهيروغليفية التي يرى أنها هي التي تعتمد عليها حياة مصر العقلية كلها.. وكذلك كتابه أدب المصريين... إلخ وغيرها من المؤلفات، وهدفنا أن نجعل المصري فخور بماضيه، سائلين العلي القدير أن يجعله يفخر بحاضره أيضًا. وأن يشعر البعض من الذين يريدون طمس الحضارة الفرعونية بالخزي والعار مما يفعلون!

مصر في عيون مفكري الغرب.. (3)

جيمس هنري برستد James Henery (1865-1935) ..

يذهب كثير من مؤرخي الشرق القديم إلى أن الحضارة الفرعونية هي أقدم الحضارات جميعاً في هذه المنطقة، وأنها لهذا السبب هي التي وضعت الأساس الراسخ للقيم الأخلاقية الإنسانية، ومن ثم فقد نقل عنهم العبرانيون ما لديهم من أخلاقيات مهمة، غير أن جيمس هنري برستد مؤرخ المصريين القديمة العظيمة كان أكثر دقة من غيره لأنه كان يأتي في كتابه الشهير فجر الضمير بالحكمة المصرية القديمة وما يوازيها من عبارات في أسفار اليهود، فالفرعون العجوز الذي ظهر قبل عهد موسى بألف سنة كان يعدل لابنه: إن فضيلة الرجل المستقيم أكثر قبولاً من ثور الرجل الذي يرتكب الظلم! ويقول برستد إن لفافة البردي التي كانت تشتمل على نصائح هذا الفرعون المسن الموجهة إلى ابنه قد وجدت سبيلها إلى فلسطين لأن هذه المعاني نفسها مكتوبة بكلمات مشابهة جداً للكلمات السابقة، قد ظهرت في أوائل التطور الأخلاقي العبراني بالنص الآتي:

انظر أن الطاعة أفضل من التضحية..

والإصغاء أفضل من الكبح السمين..

وهذا الحث على حسن الإصغاء يتردد صدهاء في الآذان كأنه صدى نصائح

بتاح حتب التي نصح بها ابنه منذ أكثر من 1500 سنة قبل عهد صموئيل،
وبين له قيمة الإصغاء..

وأما تفضيل الأخلاق على الشعائر الدينية فقد أورده حكماء العبرانيين
في سفر الأمثال في كلمات ليس أيضًا إلا صدى لكلمات ذلك الحكيم المصري
القديم. فقد جاء في سفر الأمثال:-

فعل العدل والحق أفضل عند الرب من الذبيحة.. (سفر الأمثال إصحاح 3 : 21).
ويقول برستد: مما يوضح لنا أن الحكيم العبراني كان مقتفيًا أثر الفكر
المصري القديم في هذه النقطة ما ذكر قبل تلك الآية مباشرة (من سفر الأمثال
إصحاح) (2-2).

حيث جاء فيها: والرب يهوه وازن القلوب..

إذ لم يكن في الشرق القديم إلا عقيدة دينية واحدة تقول إن الإله يزن
القلب الإنساني، وهي الديانة المصرية القديمة بما تشتمل عليه من محاكمات
لأوزيريس..

والواقع أن التراث العبراني (اليهودي) كان مفعماً بالأفكار المصرية
القديمة التي تتناول صفات إله الشمس وتعهده حاكمًا عادلاً بين الناس؛
ولذلك نجد أن نبيًا من العبرانيين يقول لقومه: إليكم يا من تخافون اسمي،
تشرق شمس العدالة بالشفاء في أجنتها. (سفر ملاخي-الإصحاح الرابع: 2).

ولقد كانت العدالة عند المصريين تتمثل في شخصية ماعت التي كان
يعتقد المصريون أنها ابنة إله الشمس. ومن هنا نستطيع أن نفهم بسهولة
ارتباط الشمس بالعدالة في الآيات العبرانية السابقة. ولقد دلت الحفائر

الحديثة في سامرا على أن هذه التصورات المصرية لإله الشمس العادل كانت شائعة في الحياة الفلسطينية- فقد كشفت بعض الحفائر عن وجود ألواح من العاج نقش عليها صور إلهة العدالة ماعت يحملها الملاك إلى أعلى ويبدو على ما يظهر- أنه كان يقدم تلك الصورة إلى إله الشمس، والرسم والتصميم مصري في كل نواحيه، إلا أن صناعته تدل بوضوح على أن نقشه من صنع أياد فلسطينية ومن ذلك يتضح أن الصانع العبرانيين كانوا على علم بمثل هذه الرسوم القديمة، وأن وجهاء القوم من العبرانيين كانوا ينظرون كل يوم إلى هذه الرموز التصويرية الدالة على عدالة إله الشمس المتأصلة في وادي النيل معروفاً عند العبرانيين على أنه الإله الحامي لعباده، وقد أشارت المزامير العبرية مرات كثيرة إلى الحماية الموجودة تحت جناحيه.

ولقد تأثر الأنبياء العبرانيون بقوة بالمقابلة بين الرجل المستقيم والرجل الخبيث كما صورتها كتابات الحكيم المصري القديم، فقد اقتبس النبي أرميا تلك الصورة المهمة للشجرتين اللتين تصورهما أمينموي كما يتضح ذلك من المقارنة الآتية- (النبي أرميا.. من أسفار العهد القديم...).

ملعون ذلك الرجل الذي يتكل على الإنسان ويجعل البشر ذراعه،

وعن الرب يهوه يحيد قلبه ويكون مثل العرعر في البادية، ولا يرى إذا جاء الخير. بل يسكن الحرة في البرية أرضاً سجنه وغير مسكونه.

ومبارك ذلك الرجل الذي يتكل على الرب (يهوه) كان الرب متكله.

فإنه يكون كشجرة مغروسة على مياه وعلى نهر تمد أصولها، ولا تحشى إذا جاء الحر. ويكون ورقها أخضر. وفي سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الاثمار (أرميا 5، 17 - 8).

أمينموي: (الحكيم المصري القديم): الرجل الأحمق الذي يخدم في المعبد مثله كمثل شجرة نامية في غابة، ففي لحظة يفقد فروعه ويجد نهايته (في مرفأ الخشب) وينقل بعيداً عن مكانه، والنار مأواه.

والرجل الحازم حقاً ينتقي لنفسه مكاناً. فإنه في مثل شجرة نامية في حديقة يزدهر ويتضاعف ثمره، ويجلس في حضرة سيده. وثمرته حلوة؛ وظله وارف. ويجد آخرته في الحديقة. (أمينموي 1، 6-12)، وحينما يتأمل الباحث تلك الصورة الشيقة التي رسمها أمينموي للشجرتين فإنه يقفز إلى ذهنه المزمور الأول من العهد القديم الذي جاء فيه:-

المزامير:- طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار، وفي طريق الخطاة لم يقف، وفي مجلس المستهزئين لم يجلس.

لكن في ناموس الرب يهوه مسرته، وفي ناموسه يلهج نهراً وليلاً..
فيكون كشجرة مغروسة عند مجاري المياه التي تعطي ثمارها في أوانه، وورقها لا يبدل، وكل ما يصنعه ينجح.

ليس كذلك الأشرار كلهم كالعصافة التي تذر بها الريح.
لذلك لا تقدم الأشرار في الحساب ولا الخطاة في جماعة الأبرار. (المزمور الأول: 1-5)

ونلاحظ أن الحساب المذكور هنا لم يرد ذكره في سفر المزامير كله إلا هذه المرة. وهذه ملاحظة لها خطرها، لأن فكرة الحساب في عالم آخر هي من ثمرات التدين المصري القديم.

وهناك نصوص كثيرة منقولة كما هي عن الحكيم المصري أمينموي على نحو ما نجد في سفر الأمثال في العهد القديم كما يلي:-

سفر الأمثال: أمل أذنك وأسمع كلام الحكماء. ووجه قلبك إلى معرفتي. لأنه حسن أن حفظتها في جوفك أن تثبت جميعها على شفتيك (سفر الأمثال: الإصحاح 12 عدد 17-18).

أمينموبي المصري: أمل أذنك لتسمع أقوالي واعتكف قلبك على فهمها. لأنه شيء مفيد أن وضعتها في قلبك. ولكن الويل لمن يتعدها. والمقصود من مثل هذه النصائح قد عرفته الأمثال وهو ما أشار إليه الحكيم المصري من أن المهارة العلمية أصل جوهري في المعاملات الرسمية كما ترى في نص كل منهما:-

سفر الأمثال: الأعلمك قسط كلام الحق، لترد جواب الحق للذين أرسلوك. (سفر الأمثال الإصحاح 22 عدد 22)

الحكيم المصري: لأجل أن ترد على تقرير لمن قد أرسله. غير أن عبارة كلام الحق الواردة في سفر الأمثال هي بالطبع تحريف لما يقابل كلمة تقرير الواردة في الأصل المصري القديم.

وعلى كل حال فإننا نجد في كل سفر الأمثال.. وحكمة الحكيم المصري أن الغرض الخلفي من تلك النصائح ظاهر في كل ثناياها ولهذا نرى أن إيراد أمثلة أخرى مفيد جداً فمن ذلك.

سفر الأمثال: لا تنقل التخوم القديمة ولا تدخل حقول الأيتام.

سفر الأمثال الإصحاح 23: عدد 10

الحكيم المصري: لا تزحزح علامات حدود. ولا تكونن شرها.

ومن المهم أن نلاحظ أنه قبل انكشاف النقاب عن حكم الحكيم المصري هذه أبدي نقاد العهد القديم أن كلمة قديم التي تشبه في اللغة العبرية كلمة أرملة هي بلا شك غلطة في النسخة الخطية صحتها أرملة، وعلى ذلك اتفقوا على جعل تلك الفقرة كالآتي:-

لا ترحزن حدود الأرملة.... ولا تدخلن في حقول اليتامى.

وقد جاء انكشاف الأصل المصري القديم مؤيداً لهذا التصحيح ومثبتاً له. وقد يكون من أهم المشابهات العديدة البارزة التي يمكننا إيرادها هنا تلك التحذير الخاصة بالثراء وهي:-

سفر الأمثال: لا تتعب كي تصير غنياً.

هل تطير عينيك نحوه وليس هو؟

لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء.

(سفر الأمثال الإصحاح 23: عدد 4 - 5)

الحكيم المصري

لا تتعب نفسك في طلب المزيد حينما تكون قد حصلت بالفعل على حاجتك.

وإذا جلب إليك المال بالسرقة فإنه لا يمكث معك سواد الليل.

وعندما يأتي الصباح لا يكون بعد في منزلك.

بل يكون قد صنع لنفسه أجنحة كالأوز وطار إلى السماء. (أمينموي 14،

والسطر المحذوف هنا من نص الأمثال مشوه في الأصل العبراني، ومن المحتمل أنه يكمن إصلاحه بفحص الأصل المصري القديم غير أن تناول مثل هذه المسائل يطول شرحه. فضلاً عن ذلك فهناك نصوص كثيرة في سفر الأمثال العبراني وغيره من أسفار العهد القديم منقولة بنصها من الحكمة المصرية القديمة. فليرجع إليها من يشاء في كتاب برستد العظيم فجر الضمير الذي أخذنا منه هذه الأمثال البسيطة ليعلم كل مصري أن بلاده كانت بالفعل بوابة للتاريخ- تاريخ العالم بأسره وتاريخ الأخلاق بصفة خاصة!!..

اليهودي التائه Errant Jew...

أسطورة شعبية قديمة تروى عن مجموعة من اليهود
سخرُوا من السيد المسيح وهو يحمل صليبه ويئن تحته
وهو يصعد به إلى قمة جبل الجلجثة.

ويروي بعض المؤرخين أنه كان رجلاً يهودياً واحداً في
حين يذهب إنجيل متى إلى أنهم كانوا أكثر من يهودي واحد كانوا يجدفون
عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين: يا ناقض الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام،
خلص نفسك...!! (متى 39-41: 37) لهذا جاءهم الحكم الإلهي أن يظلوا تائهين
حائرين هائمين.. على ظهر الأرض إلى يوم الدين؛ وهذه الأسطورة أكثر
شيوعاً في غرب أوروبا، ففي إسبانيا والبرتغال نجد اليهودي- كما يقال دائماً
على عمل الخير حتى يكفر ذلك عن ذنبه الذي ارتكبه في حق السيد المسيح
وكثيراً ما استغلت الأسطورة في الأدب، وعالجها كبار الأدباء من أمثال جوته
وشيلجر، ومولر... وغيرهم.

ومن المسيحيين من يغالي في تعداد ما ارتكبه اليهود من خطايا حتى
يصلوا بها إلى الخطيئة الكبرى وهي قتل المسيح نفسه، وليس ذلك غريباً على
اليهود الذين كثيراً ما اتهموا بالاعتداء على أنبيائهم وقتلهم، وآخر من لقي
هذا المصير على أيديهم قبل المسيح يوحنا المعمدان (يحيى بن زكريا). وقد
اعتبرت المسيحية قتل المسيح جريمة بشعة، وحملت الكنيسة الكاثوليكية

الغريبة عن المسيحية وصف اليهود بأنهم قتلة المسيح، وإن كانت الكنيسة عادت ورفعت عنهم هذا الوزر.

والواقع أن المسألة اليهودية التي تتلخص في كراهية الناس لليهود لا ترجع إلى حكم الإدانة الإلهي الذي لحق بهم لسخريتهم من السيد المسيح أو حتى بسبب قتله إن صحت الرواية- وإنما تعود أساساً لأسباب تعبر عن ماهية الديانة اليهودية نفسها ومنها ما يأتي:

أولاً: تصور اليهود لأنفسهم على أنهم أرقى من الشعوب الأخرى لأنهم شعب الله المختار الذي أنزلهم منزلة خاصة لم يحظ بها أي شعب آخر.

ثانياً: خاصية الاستعلاء هذه جعلتهم ينعزلون بعيداً عن غيرهم من البشر حتى لا يختلط الدم اليهودي النقي بغيره من دماء البشر غير النقية.

ثالثاً: من هنا ظهر ما يسمى بحي اليهود أو حارة اليهود في كل مدينة نزل فيها هؤلاء القوم حتى أصبح لها مصطلح خاص هو الغيت - Ghetto.. وهي جزء من مدينة معزول وبعيد عن بقية أحيائها يسكن فيه اليهود وحدهم (ثم أصبحت للأقليات عموماً) لاسيما الأحياء اليهودية في المدن الإيطالية في العصور الوسطى، ثم أصبحت تطلق على كل أحياء اليهود في جميع المدن الأوروبية وكان حي اليهود قائماً في القاهرة إلى ما بعد ثورة 1952 مما يدل على عزلتهم الشديدة في جميع المدن..

أما المصطلح الأجنبي Ghetto.. فهو في الأعم الأغلب كلمة إيطالية مأخوذة عن لفظة عبرية معناها ورقة الطلاق أو الطلاق وبالتالي فهي تنطوي على معنى العزل أو الفصل، وقد استخدمت هذه اللفظة أول ما استخدمت

عام 1561 للدلالة على الحي اليهودي في مدينة البندقية في إيطاليا، ثم أطلقت على جميع الأحياء المعزولة في مختلف المدن الأوروبية.

ولعل أول عزلة لليهود في التاريخ كانت في مصر عندما أرسل يوسف ليأتي بأبيه وأخوته ليقیموا معه في مصر، فلما حضروا اتفق معهم على أن يطلبوا من فرعون أن يعيشوا وحدهم في أرض جاسان. (محافظة الشرقية الآن) حتى لا يختلطوا مع المصريين بل أن تكون حياتهم في عزلة تامة، وإذا سألهم فرعون عن حرفتهم فليجيبوا بأنهم رعاة لأن المصريين يكرهون الرعاة— أو على حد تعبير الكتاب المقدس: لأن كل راعي غنم رجس للمصريين!! (سفر التكوين الإصحاح السادس والأربعون: 33)- ومع ذلك فهم يحبون يوسف أمين مخازنهم ولذلك فسوف يعطونهم أرضاً معزولة لكي تسكنوها وهي أرض جاسان.. وهذا ما تحتاجون إليه.!!

رابعاً: من سمات هذا الاستعلاء أن الرب أنقذهم من براثن المصريين، وساعدهم على الخروج من هذا البلد الذي أذلهم بل أغرقهم في اليم وليس ذلك فقط بل هبط الرب يهوه من عليائه وكان في أثناء خروجهم من مصر يسير أمامهم نهارة في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلاً على شكل عمود نار ليضيء لهم، لكي يمشوا نهارة من أمام الشعب (سفر الخروج الإصحاح الثالث عشر وقم 20 - 22) وهناك ألوان كثيرة من سلوك اليهود السيئ جلبت لهم كراهية الناس، من ذلك مثلاً:

خامساً: ما كان يصدر عن اليهود من أفعال توغر الصدور ضدهم، وتثير البغض والحنق عليهم، من ذلك مما لآة ذوي السلطة ومداهنتهم وتحالفهم معهم ضد مصالح الطبقات الكادحة ونضالها.

وكلما نزل باليهود عقاب على ما يصدر عنهم كانت صيحاتهم تدوي بالاستنجد من الاضطهاد الواقع عليهم مدعين أن السبب الوحيد هو يهوديتهم. ولعلمهم كانوا يرجون أن يتكون منه آخر الأمور شعور بالذنب عند مضطهديهم وحجب المدلول الحقيقي للكبائر التي كانوا يرتكبونها فلا تبدو إلا هفوات بسيطة خليقة بالتسامح والغفران لقوم غلبتهم الأقدار على أمرهم وكتب عليهم التشتت عن أرضهم وحرمتهم بغير ذنب اقترفوه نعمة الاستقرار والانتماء.

علينا الآن أن نشير إلى ثلاثة أمور وثيقة الصلة بما يسمى اضطهاد اليهود:-

الأول: الجشع اليهودي المعروف في جمع الثروة بأية وسيلة من أي طريق، ومن يقرأ التوراة لا يسعه إلا أن يلمس تهالك اليهود على المقتنيات الدنيوية، ومن حثهم على سلب أعدائهم كل ما يملكون، ولقد أوصت التوراة في عبارة واضحة صريحة ألا تقرضوا أخوتهم (أي اليهود) بربا، وأن يقتصروا في الإقراض بالربا على غير اليهود لا تقرض أخاك بربا، ربا فضة، أو ربا طعام، أو ربا شيء ما، مما يقرض ربا.

للأجنبي تقرض بربا، ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكي يباركك الرب إلهك في كل ما تمتد إليه يدك.. (تشية: الإصحاح 19: 20 - 23) وهذه أوامر الرب.

أمثلة مثيرة وكثيرة لمغالاة اليهود في ممارستهم لعملهم الأثير وهو إقراض المال بربا كان يصل في فحشة إلى أكثر من 100 % حتى ولو كان المال مطلوباً لدور عبادة في الديانات الأخرى مما أضر حنق الناس وحفيظتهم عليهم!.

الثاني: تذهب كثير من الكتب الدينية اليهودية إلى إباحة قتل غير اليهود من البشر لأنه لا فرق بينهم وبين الحيوان!!

الثالث: ما ينسب إلى اليهود من تدبير كثير من الفتن والدسائس في البلاد التي أفسحت لهم المجال في أرضها للعيش آمنين، فإذا بهم ينزعون إلى إثارة المشاحنة والبغضاء بين أهلها بعضهم بعضاً أو بينهم وبين جيرانهم، مستغلين هذه المناسبات لكي يثبوا إلى مراكز القوة، دعماً لنفوذهم ومضاعفة لثروتهم وليس الأمر في ذلك مقصوراً على أحداث الحاضر أو الماضي القريب، مما لا يزال ماثلاً في الأذهان، ولكن التاريخ حافل بأمثلة لا حصر لها لهذه الفتن.

أما بالنسبة للفضائل التي تفرضها اليهودية فهي موجهة نحو العلاقة بين اليهود بعضهم وبعض وليس بين اليهود والناس كافة- فالوصايا بعدم القتل أو السرقة أو الزنا- ولا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره ولا حماره، ولا شيئاً مما لقريبك..

وعليك أن تلاحظ أن كلمة قريبك التي تتكرر كثيراً هنا تعني اليهودي مثلك!! أما غير اليهودي فمن حقك أن تقتله أو تسرقه أو تفعل معه جميع الرذائل، ويوافقهم أنبياءهم على ذلك ففي الليلة التي كانوا يستعدون فيها للهروب من مصر في الفجر طلب منهم موسى أن يطلبوا من المصريين كل ما يستطيعونه من أمتعة فضة، وأمتعة ذهب، وثياب وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين.. (سفر الخروج الإصحاح الثاني عشر: 25-26). وهكذا ساعدهم الرب كما ساعدهم الأنبياء موسى وهارون في سرقة المصريين الذين عاشوا معهم 430 سنة كما جاء في

سفر الخروج!! ثم يزعمون أن كراهية الناس لهم سببها معاداتهم للسامية! مع أن المصريين ساميون!!

بقي أن نتحدث عن الأسطورة الحقيقة التي اخترعها اليهود مع معاداة السامية، AntiSemism.. والمصطلح ابتكره رجل عنصري ألماني يدعي فلهمل مار (1818-1904) 1879.

والمفروض أن السامية Semitism.. مجموعة من الشعوب المختلفة والمتنوعة انحدرت من سام Shem.. أكبر أبناء نوح⁽¹⁾ ويتسع المصطلح الآن حتى يشمل: العرب، اليهود، والأكاديين، وقدماء البابليين، والأشوريين، والكنعانيين، والفينيقيين، والقبائل الآرامية المختلفة، وجزءاً كبيراً من سكان إثيوبيا.. إلخ وهناك نظرية تقول إن جزيرة العرب كانت الموطن الأصلي للساميين، ومنها تمت هجرات متتالية إلى بلاد ما بين النهرين، ومنطقة شرقي البحر المتوسط، ودلتا النيل.

وعلى الرغم من هذا العدد الهائل الذي ينطوي تحت لواء مصطلح السامية فإن اليهود قد انفردوا- دون غيرهم ذ أو تأمرهم أو أفكارهم الدينية العنصرية.. وغيرها من الأفكار التي سبق أن ذكرناها نراهم في الحال يلجأون إلى تهمة معاداة السامية!! فكل من اتهمهم بالنصب أو السرقة (مثلاً فعلوا مع المصريين في أثناء خروجهم من مصر) زعموا أن كراهية الناس لهم سببها معاداتهم للسامية!! بل اتهموا العرب أنفسهم وهم أصل السامية- بأنهم معادون للسامية!!

(1) انظر: سفر التكوين الإصحاح العاشر: 21-31.

والخلاصة أن سمة اليهودي التائه في جنبات الأرض لا تعود إلى شيء قدر ما تعود إلى خصائص الديانة اليهودية نفسها وما فيها من انغلاق على أنفسهم ضد الآخرين لأنهم شعب الله المختار. واستباحتهم قتل هذا الآخر، وإقراضه بالرب الفاحش، وسرقته، وانزال الأذى به قدر استطاعتهم. ولا نستثني من ذلك على القوم ولا الأنبياء أنفسهم ومن هنا جاءت صيحة السيد المسيح: يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم يريدوا؟! (1) وأن نحاول تنفيذ وصيته الرائعة:-

لا تعطوا القدس للكلاب، ولا تطرحوا درركم قدام الخنازير لئلا تدوسها بأرجلها، وتلتفت فتمزقكم (2) ... ألا فليسمع كل من له أذنان!!...

(1) إنجيل متى الإصحاح الثالث والعشرون: 27.

(2) مت n: الإصحاح السابع: 6.

قال الفتى...!

هناك أسئلة كثيرة لا أجد من يجيب عنها:-

- مثلاً الجيش والشعب والشرطة يد واحدة؟ أيعني ذلك

أنه ليس ثمة اختصاصات لكل فريق؟!

- أجمع الناس على كذا وكذا فهل لنا أن نخالفهم...؟!

- هذا ما أجمع عليه القوم فكيف يمكن لك أن تخرج عن إطار

الجماعة...؟!

- هل يمكن أن يجتمع الناس على ضلال؟! ومن أكون أنا حتى أقف معارضا

لجمهور الناس...؟! ثم هل يحق للفرد أن يقف في وجه الجنس البشري معترضاً

على رأي أرتآه...؟!

وقد يتساءل البعض في دهشة: ومن أين يأتي الخطأ، وقد أجمعت الملايين

من البشر على صحة كذل وكذا...؟! أيكون الفرد المعترض ذو الرأي المخالف

منحرفاً وشاذاً وخارجاً على الجماعة؟!

وتوقف الفتى يلتقط أنفاسه ثم واصل حديثه المندفع -لر يعلمنا أحد

أن نسأل، وأن نستفسر، وأن نناقش لنكون أصحاب رأي وفكر مستقل، لر

يطرح علينا أحد عبارة سقراط الجميلة: إن الحياة التي لر تنقد أو تناقش

غير جديرة بأن يحياها الإنسان! بل كان علينا أن نحفظ عن ظهر قلب ما

قاله الوليد بن عبد الملك: عليكم بالطاعة ولزوم الجماعة، فإن الشيطان مع الفرد، أيها الناس من أبدي ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه...! وعلمونا أن نعوذ بالله من كلمة أنا...! لأن الحاكم يريد منا أن نندمج مع الجماعة أو مع الشعب ثم يقول بعد ذلك أنا الشعب! وأنا الدولة! وأنا الحاضر والماضي والمستقبل!

واستوقفته وأنا أقول هون عليك يا بني، اجلس واسترح فالحديث طويل، ولنحاول الإجابة عن بعض هذه الأسئلة الكثيرة: الواقع أن السؤال الذي لم نألفه حقاً هو: هل يمكن أن يكون الإجماع مفيداً دائماً؟ وإذا انعقد اجتماع الناس على فكرة ما هل يتحتم أن تكون صواباً؟ وهل يستفيد المجتمع حقاً من الاجماع أكثر اختلاف الآراء، أم أن الاختلاف في الرأي ميزة كبرى هي التي تعمل كما يقول الفيلسوف الإنجليزي اللامع جون ستوارت مل J.S.Mill على تقدم البشرية وتطورها...؟! صحيح أن للإجماع قدسية ورهبة ربما جاءت من أن الأفراد لا يريدون أن يمارسوا حريتهم. أو أن يتحملوا وحدهم مسئولية هذه الحرية، فترى الفرد يختبئ وراء خيمة الجماعة! وهي فكرة عرض لها كثير من الفلاسفة من أمثال جان بول سارتر (1905-1980) وأريك فروم (1900-1980) وغيرهما. ولهذا السبب فقد لجأ إلى الإجماع عدد كبير من الفلاسفة واللاهوتيين للبرهنة على وجود الله واتخذوا منه دليلاً لا يرقى إليه الشك على أن الله موجود. وأطلقوا عليه اسم دليل إجماع الأمم... ومع ذلك كله فقد ذهب فلاسفة آخرون إلى أنه لا التراث العام ولا القول الجماعي يمكن أن يعد دليلاً على وجود الله طالما أن بعض الفلاسفة قد انتقدوا هذا الدليل! ومن ثم فإن القول بأن الواحد قد يخطئ، أما البشرية جمعاء فهي معصومة من الخطأ فهو قول لا معنى له لأن المثل يقول الإنسان

خطاء Hummanmest وهو قول ينطبق على.. Errare الإنسان فردًا وجماعة.. وهناك أمثلة كثيرة من التاريخ تؤكد أن الناس يمكن أن يجتمعوا على باطل، وأن يتعصبوا له وأن يقاتلوا ومن أجله! فقد أجمع الناس ردحًا طويلاً من الزمن على أن الأرض تقف في مركز الكون ساكنة ثابتة، وأن الشمس التي تظهر في الشرق كل صباح وتختفي في الغرب كل مساء هي التي تدور حولها. وهي النظرية التي سميت تارة باسم النظرية البطلمية (نسبة إلى عامل الفلك المصري بطليموس) - وتارة أخرى باسم النظرية الجيوسنترية (Geo-Centric أي مركزية الأرض) نسبة إلى مقطع Ge اليوناني الذي يعني الأرض وكانت النظرية تعبيرًا عما تقوله الحواس على نحو مباشر. وعندما وقف عالم الفلك البولندي الشهير كوبرنيكس Copernicus (1473-1543) في العصر الحديث معارضاً هذه النظرية منادياً بالنظرية الهليوسنترية (Helio Centeric) - أي مركزية الشمس نسبة إلى كلمة Helios أي الشمس اليونانية) هاجت الدنيا وماجت واثمته الكنيسة بالجنون (مع أن المسألة لا علاقة لها بالدين) حتى إن مارتن لوتر المصلح الديني الكبير، ومؤسس المذهب البروتستانتي كتب عن كوبرنيكس يقول يصغي الناس إلى منجم مافون يحاول أن يثبت أن الأرض تدور، وأن هذا المسوس يحاول أن يقلب قواعد علم الفلك رأساً على عقب... وهكذا يا بني- يتمسك الناس بتفسيرات خطأ لظواهر الطبيعة حتى تجري عندهم مجرى العقائد، ويرفض رجال الدين الأخذ بتفسيرات أخرى لأنها كفر صريح!! أتريد يا ولدي أمثلة أخرى؟.. إليك بعضها: أجمع الناس ولفترة طويلة أن المطر المتساقط من السماء هو دموع المظلومين صعدت إلى الله لتشكو ظلم الناس، أو أن المطر كما قيل في تفسير آخر إبان العصور الوسطى هو الماء المتبقي بعد أن غسل

الملائكة قبة السماء الزرقاء، وأن النجوم مصابيح تقوم الملائكة بتعليقها في السماء بعد غروب الشمس. وتجمعها في الصباح الباكر، لتعيدها إلى مخازنها حتى اليوم التالي!! بل كان إنكار القول بأن الله يجلب الأجرام السماوية من خزائنه كل ليلة ليعلقها في السماء، هرطقة صريحة! وأن العالم عبارة عن علبة مستطيلة الشكل عظيمة القدر مغطاة بتلك القبة الصلبة، وأن الشمس والكواكب السيارة إنما تتحرك داخل تلك القبة، وأن نوافذ السماء إنما تفتح ويغلق لهذا الغرض بأيدي ملائكة وكل إليهم تدبير الأمر كله..

وقاطعني الفتى: وهل اقتصرت الأخطاء التي وقعت فيها البشرية على تفسير ظواهر الطبيعة وحدها..؟!

- كلا إنما هي ظاهرة شملت جميع مناحي الحياة البشرية أيضًا، فهناك على سبيل المثال أخطاء في مجال الدين ومظاهر العبادة: فالناس عبدوا: الأشجار والأنهار والجبال والرياح والزلازل والبركين جميع صنوف الحيوان، وانتهى الإنسان إلى عبادة نفسه في النهاية!! بل كان الإجماع يا ولدي- قوياً والتمسك شديداً بمظاهر وتقاليد وعادات أصبحت الآن يعاقب عليها القانون! بعد أن ثبت بطلانها!! كواد البنات على نحو ما كانت التقاليد عند العرب وبعض القبائل البدائية الأخرى. وزواج الاستبضاع وقتل الأب المريض إذا وصل إلى سن معينة، وهي سن الشيخوخة التي يبدأ منها المرض والألم، فمن تمام البر بالأبوين قتلها رحمة ورأفة بهما! وكذلك إحراق الأرملة حية مع جثة زوجها تعبيراً عن إخلاصها له.. ولقد بذل الإنجليز في الهند- جهوداً مضنية لمنع هذا العادة الغريبة!! وكان حمل الكفن معك هدية عند زيارتك للمريض واجباً أخلاقياً لا مفر منه!!

وربما احتاج الباحث إلى مجلدات طويلة ليذكر أنواع الأفكار والمعتقدات والعادات والتقاليد والمذاهب التي أجمع الناس على صحتها، وتعصبوا لها، بل وقتلوا من أجلها وكانوا على استعداد للموت في سبيلها ثم اتضح أنها باطلة وأن القوانين الحديثة تعاقب على الإيمان بها، فعادوا إلى اعتناق أفكار مضادة، وتعصبوا لها من جديد!!

قال الفتى: لكن ذلك يا سيدي كان في أزمان موعلة في القدم، عندما كانت البشرية في بداية تاريخها، أما الآن فقد أصبح لدينا من التراث والعلم والمعرفة ما يمكننا من الحكم على الإجماع السليم وتمييزه عن الإجماع الفاسد!؟

فقلت: يا ولدي هذا الاعتراض لا قيمة له لأننا نناقش المبدأ وهو: هل إجماع الناس على رأي يحتم أن يكون هذا الرأي صواباً؟ الجواب: كلا! ولقد كان الفيلسوف الفرنسي ديكارت (1596-1650) يقول بفكرة رائعة هي أنه مهما كان إجماع السلف على صدق فكرة ما، فإن ذلك الإجماع لا ينهض دليلاً يعتد به على إثبات الحقائق التي يكون اكتشافها عسيراً، فنحن لا نصل إلى الحقيقة بعد الأصوات المؤيدة، فإن كانت كثيرة فهي حقيقة وإلا فهي باطلة فالحقيقة لا تعرف شيئاً اسمه الديمقراطية ولا تقاس بالاقتراع وأخذ الأصوات فهذه كلها مفاهيم وأساليب سياسية أعني أنها تصلح لحكم الناس فحسب أما $2+2=4$ فهي حقيقة رياضية تحتاج إلى وسيلة أخرى للبرهنة على أنها حقيقة!! ومعنى ذلك- يا ولدي أن الفكرة التي تتحمس لها الغالبية العظمى من الناس قد تكون باطلة، في حين أن الفكرة التي قد يؤمن بها عدد قليل بل قد يكون فرداً واحداً قد تكون صواباً والأنبياء، والعظماء،

والفلاسفة، والمصلحون، والمفكرون، وصناع الحضارة بصفة عامة، كانوا دائماً قلة، ومع ذلك فربما كانت أفكارهم أكثر صدقاً وأشد عمقاً من أفكار الجماهير والدهماء ومن لف لفهم!!

ألر تقرأ يا ولدي ما قاله الفيلسوف الألماني شبنجلر (1880-1936) فيلسوف الحضارة الشهيرة أن الحضارة يصنعها قلة من الأشخاص، ويستمتع بها الغالبية العظمى من البشر!! وقد صنعوا الحضارة عندما عارضوا الأفكار السائدة التي يجمع عليها الناس، وتعمل على تجميد المجتمع وتوق تطوره. ولذا فقد عرف بعض الباحثين العبقرية وما تبدعه بأنها تصدع في الارتباط بين الأنا والنحن أي في ارتباط الفرد والجماعة، أو هي كسر في استمرار حياة الجماعة التي يمكن أن تبتلع الفرد نتيجة تقديس الإجماع فلا تجعله يقف منها موقف المتشكك ثم الرافض وبذلك تجعله يبدع جديداً ليحل محل القديم. ويعتقد الفيلسوف الإنجليزي رسل (1872 - 1970) أن الإجماع دليل على تخلف المجتمع، وأنه يعيش وفقاً لمجموعة متجمدة من العادات والتقاليد والمعتقدات، ومثل هذه المجتمعات يمكن إلى حد بعيد أن تتكلم بصوت واحد في جميع المسائل التي تختلف فيها آراء الباحثين العلمين، ويتصور البعض أن هذا الإجماع الموحد الاتجاه علامة على التفوق، وإن لم يتمكن أحد من أصحاب هذا الرأي من توضيح السبب الذي يوجب ذلك. وفي استطاعتك يا ولدي أن تتذكر الرئيس السادات -رحمه الله- الذي كان يريد لنا أن نعود إلى نظام العائلة، أو القبيلة ويكون هو رب هذه العائلة أو شيخ هذه القبيلة وهو منتهى التخلف ويتحدث عن أخلاق القرية بشوق كبير - على ما فيها من سوء وخبث وتهرب من المسؤولية ومن ثم يرتدي الجلباب ويمسك بالعصا ويجلس على المصطبة مع أنه أيام الحرب يرتدي بدلة المارشالية أعني أنه يلبس لكل حال لبوسها!!

والواقع، يا ولدي، أن أضرار الإجماع كثيرة فهو يعجن الناس جميعاً في عجينة واحدة لا تفرد فيها ولا تميز. في حين أن فائدته التي لا يمكن لأحد أن ينكرها هي الإجماع على الهدف، فنحن جميعاً لا بد من أن نجتمع على هدف واحد هو نهضة مصر. وأن نسعى جميعاً إلى أن تأخذ مكانها بين الأمم المتقدمة. لكن بعد هذا الإجماع لا بد أن نعود إلى نصيحة شاعر ألمانيا العظيم جوته الذي يقول لك: كن رجلاً ولا تتبع خطواتي!! أي لا بد أن نعود إلى التفرد والتميز.

الماسونية..

الإخوان الأحرار من البناء إلى الخراب

جاء في معجم أكسفورد اللغوي (المجلد الأول ص 1711) أن كلمة الماسونية Masonry.. مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة التي كانت تكتب Masson ثم كتبت بعد ذلك، MaCon، وأخيرًا Mason وهي تعني البناء (من يقوم بالبناء) أو العامل الذي يعمل في تقطيع الحجارة التي تستخدم في البناء.

ثم حدث ابتداءً من القرن السابع عشر أن ضعف بناء الكاتدرائيات الضخمة التي كانت ترعاها وتنفق عليها الكنيسة الكاثوليكية- كما تضاءلت قصور الإقطاعيين الفخمة التي كانت يزخر بها الريف الأوروبي عامة، والإنجليزي والفرنسي بصفة خاصة مما أوجد ما يشبه الأزمة لعمال البناء الذين تجمعوا واختاروا منهم نخبة أطلقوا عليهم اسم الإخوان الأحرار الذين تحولوا إلى رابطة سرية خاصة بالرجال دون النساء لاسيما في إنجلترا واسكتلندا.. وكانت هذه الرابطة تؤمن في بدايتها بأن للكون مهندساً أعظم كما تميزت بطقوسها الخاصة ومنها مبادئ الحرية والعدالة والإخلاص بين البشر لدرجة أنها رفعت شعار الثورة الفرنسية: الحرية والإخاء والمساواة. كما نادى بالتعاون بين مختلف الأعضاء المنتمين إليها. وتعتبر الماسونية أوسع

الجمعيات السرية انتشاراً في العالم، إذا يقدر عدد الأعضاء المنضمين تحت لوائها بأكثر من ستة ملايين عضو؛ أربعة ملايين منهم يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، ومليون في الجزر البريطانية، ولها محافل وأفرع في بلدان أخرى كثيرة. وفي عام 1717 شهدت مدينة لندن أول محفل ماسوني في إنجلترا، ولقد حقق الماسونيون أهمية ملحوظة خلال القرن الثامن عشر، ويرجع جانب من نجاحهم إلى اشتراك الأرستقراطيين وبعض أعلام الفكر، وكبار السياسيين بل أمراء من أمثال فردريك الأكبر ملك بروسيا، وفرنسيس الأول ملك النمسا، وكان بنيامين فرانكلين وفولتير - لبعض الوقت - أعضاء في محفل ماسوني واحد.

ولقد كانت الماسونية خليطاً من الشعائر الصوفية السحرية والديوية والمثل العليا الكلية مثل: الإخاء والمساواة والتسامح الديني إلا أن الماسونيين أدينوا من البابا بندكت الرابع عشر عام 1751، كما كانت موضع ريبة سياسية في الولايات الألمانية.

فعلى الرغم من انتشار الماسونية السريع في أوائل القرن الثامن عشر فقد كانت محظورة أيضاً في بلدان كثيرة أخرى: منها روسيا القيصرية أولاً ثم الاتحاد السوفييتي بعد ذلك وبولندا، وإسبانيا، والبرتغال، والصين، واندونيسيا، وهنغاريا فضلاً عن محاربة الكنيسة الكاثوليكية لها منذ نشأتها، لكن في معظم الدول التي انتشرت فيها الماسونية فقد ارتبط اسمها باليهودية بصفة عامة، والصهيونية بصفة خاصة فمن أين جاء هذا الارتباط؟!

لا يكفي أن نقول إن الكثير من أعضائها كانوا يمتدحون اليهودية باستمرار ويعتبرونها ديانة الصفوة!

لكن المسألة تحتاج إلى أن نعود قليلاً إلى التاريخ: لقد سبق أن ذكرنا أن الإخوان الأحرار من البنائين قد فتحو الباب لأعضاء آخرين من غير البنائين، ولم يشترطوا سوى أن تكون أعمارهم أكثر من 21 سنة.. وأن يخضعوا لشروط المحفل في المحافظة على سرية التعاليم، والخطط، والمبادئ والشعارات، والممارسات.. إلخ. وبذلك مكنوا لأنفسهم في إنجلترا واسكتلندا في القرن السابع عشر باستقطاب ذوي النفوس الخيرة، والأخلاق الحميدة، والراغبين في العمل من أجل تحسين الأحوال المادية والمعنوية للبشر، والارتقاء بها إلى مستوى ثقافي وحضاري أرفع، وطمحت الماسونية إلى أن تكون شمولية بحيث لا تتخطى الحدود السياسية والجغرافية الفاصلة بين الأقطار الأمم فحسب، بل أيضاً الحواجز الطائفية الفاصلة بين الأديان والأحزان، وقد نجحت في تحقيق هذا الهدف، وإن انقسمت إلى عدد من الاتجاهات ربما بسبب التناحر الداخلي أو بدافع رغبة الهيئة العليا في تغطية أكبر قدر ممكن من التيارات الفكرية والشرائع الاجتماعية، ومع ذلك فقد ظلت المؤسسة الماسونية شبه العالمية محاطة بسرية وكتمان شديدين. صحيح أن المحافل الماسونية قد بادرت وفتحت أبوابها لغير الأعضاء أي لغير الإخوان من البنائين بغية الاستماع إلى آرائهم، والسماح لهم بالإصغاء إلى آرائهم إلا أن السرية الشديدة. ظلت قائمة. وهنا بدأ السؤال يطرح من جديد عن تاريخ الماسونية: متى تأسست؟! أكان ذلك في القرن السابع عشر كما سبق أن ذكرنا أم القرن الخامس عشر كما ذهب آخرون أم في تاريخ ثالث غير هذين؟ لقد ظهر مؤرخون من الإخوان الماسونيين يريدون النشأة إلى القرن الخامس عشر ثم الرابع عشر.. إلخ.

وبدأنا نشاهد الآن بعض المتحمسين، والمتعصبين من الإخوان يذهبون

إلى أن الحركة الماسونية مذهب عريق وموغل في القدم: فهو يعود إلى أربعة آلاف سنة قبل ميلاد السيد المسيح...!! أي على التاريخ الذي تعتبره التوراة تاريخ بداية العالم! وألقوا بذلك فكرة جديدة هي أن آدم نفسه هو أول ماسوني في التاريخ!! وليس ذلك فحسب بل ذهبت الماسونية أيضاً إلى أن بناء هيكل القدس في عهد سليمان الحكيم هو أول عمل عظيم قامت بتنفيذه!

والحق أن كل هذه الألوان من المغالاة في الرجوع بنشأة رابط الإخوان إلى تاريخ موغل في القدم هي آراء لا يمكن إثبات صحتها من الناحية العلمية أو الأكاديمية الخالصة نظراً لانعدام الوثائق بهذا الشأن ولأن جميع المعلومات حول هذا المذهب محاطة بسرية تامة بحيث يصعب على الباحث الوصول إلى الحقيقة. لكن من المقطوع به أن هناك مغالاة شديدة في إرجاع النشأة إلى أول التاريخ!! ولعل هذا هو الذي جعل بعض مؤرخيهم يحاولون التخفيف من المغالاة السابقة فذهبوا إلى أن الماسونية قامت ببناء كاتدرائيات العصر الوسيط في أوروبا وليس هيكل سليمان...!!

وبعد أن انتشرت الماسونية على نطاق واسع فتح الباب أمام النساء على أن يكون لهن محفل خاص بهن، وعلى ذلك أصبح في فرنسا على وجه التحديد خمسة محافل رئيسية كبرى هي محفل الشرق الكبير، ومحفل فرنسا الكبير، والمحفل الوطني الفرنسي الكبير، والاتحاد الفرنسي للحقوق الإنسانية، وأخيراً محفل فرنسا الكبير للنساء.

وتعقد المحافل الكبرى جمعيات عمومية يتخللها تقييم العمل الذي تم إنجازه، ورسم خطط العمل للمستقبل. وقد جاء تعدد المحافل الكبرى تعبيراً عن الصراعات والانشقاقات التي بدأت تظهر داخل الحركة الماسونية. وعلى

الرغم من أن الماسونية نشطت في عصر التنوير، لا سيما مع حركة الموسوعة في فرنسا، فكان منهم كوندريسيه - Codorcet الماركيز دي (1743-1794). وكذلك هلمتيوس (1715-1771) أحد المفكرين الكبار المحركين لفكرة (الموسوعة) والمدافع عن الدوافع البشرية المؤسسة للإحساسات، وكذلك المفكر الكبير صاحب روح الشرائع أو القوانين والمدافع عن مبدأ فصل السلطات مونتيسكيو Montesquieu (1689 - 1755)... إلخ.

وكذلك أبرز وجود الثورة الفرنسية مارا (جان بول) ودانتون Danton وخطيب الثورة ميرابون Mirabeau.. ولافيت LaFayette ودي مولا وغيرهم.. فقد كانوا جميعاً ينتمون إلى الحركة الماسونية. لكن الوضع اختلف كثيراً في القرن العشرين فقد حاربها بشدة أدولف هتلر (1889 - 1925) في ألمانيا، وفعل الشيء نفسه فرانكو (فرانشيسكو) (1892 - 1975) في إسبانيا، وموسوليني (بينتو) (1883 - 1945) في إيطاليا..

وزحف المد الماسوني إلى الشرق فأمن بها كمال أتاتورك (1880 - 1938) مؤسس تركيا الحديثة (وكلمة أتاتورك تعني أبو الأتراك). وجورج زيدان (1861-1914) الصحفي والمؤرخ اللبناني الذي هاجر إلى مصر وهو في صدر الشباب وأنشأ مجلة الهلال عام 1892.

ولم يجد جمال الدين الأفغاني (1838 - 1897) ما يمنعه من الانخراط في صفوف الحركة الماسونية حين كان في مصر، وربما تطلع إلى رئاسة محفل ماسوني، لكن جماعة الإخوان الأحرار رفضوا فانقلب عليهم وخرج من بين صفوفهم، وانخرط الإمام محمد عبده 1849 - 1805 كذلك في الحركة الماسونية وتأثر بدورها في أوروبا في العصور الوسطى ضد استبداد الأباطرة

والباباوات، واهتم بآراء الحركة عن الديمقراطية، والتحرر والتخلص من نفوذ الكنيسة. لكنه هجرها عندما وجد أنها خرجت عن الخط الثوري الذي جذبه إليها، واستنكر ما اتجهت إليه من ممارسة الاستبداد والصلة بالنفوذ الأجنبي.

انتقادات

كتبنا في عنوان هذا المقال الماسونية من البناء.. إلى الخراب والدمار وعرضنا للكثير من مراحل البناء سواء في بناء الكاتدرائيات والقصور أو بناء البشر عن طريق الأفكار العقلية الحرة، حتى سمو أنفسهم بالإخوان الأحرار وضروب أخرى مختلفة من السلوك الأخلاقي والأعمال الخيرية والتعاون المستمر بين البشر.. إلخ- وهذه كلها أمور طيبة ومشاعر محمودة. فما هي ضروب الهدم التي مارستها الحركة؟!

أولاً: أول ما يؤخذ على الحركة الماسونية العمل في الخفاء، وكتمان كل ما يتعلق بجماعة الإخوان والمحافظة على سرية العمل وعدم البوح بأي خطة مستقبلية تعدها المحافل العالمية أو الهيئة العليا للجماعة؛ فهذا اللون من الحياة عبارة عن هدم في بناء الإنسان وتدمير لعقله بالسرية والكتمان الشديدين! حتى إنني أعتقد أن هذا هو السبب الرئيسي في انسحاب الأفغاني ومحمد عبده لشعورهما بأمور سيئة تجري في الخفاء ولا يريدون أن يطلع عليها أحد غيرهم!!

ثانياً: بدأت الحركة بإعلان شعار عظيم هو أن الله- جل جلاله هو المهندس الأعظم للكون! وأظن أنه شعار مقتبس من بعض عبارات العالم

الإنجليزي العظيم إسحاق نيوتن I.Newton (1642 - 1727) عندما كان يتحدث عن النظام الدقيق في الكون والتناسق بين الظواهر وما في العالم من انسجام بين القوانين.

ثالثًا: بدءوا عمليات البناء للتوحيد بين الأديان ثم سرعان ما وجدنا بعض أبناء حركة الإخوان الأحرار يتحدث عن الديانة اليهودية بأنها ديانة الصفوة، وفخرهم بأنهم بناة الهيكل المقدس أي أنهم ابتعدوا عن التوحيد إلى الارتفاع باليهودية!!

رابعًا: ثم في مرحلة تالية هدموا الأديان عندما اعتنقوا مذهب الطبيعيين المؤلهة Deism وهو مذهب ظهر في القرن الثامن عشر وكان أصحابه يؤمنون بوجود إله وينكرون الأديان، فالإله موجود ولكنه لم يرسل أحد من الرسل!! وكيف نعرفه إذن؟! الإجابة بنور العقل الطبيعي ومن هنا جاءت تسميتهم بالطبيعيين المؤلهة.!

خامسًا: على الرغم من أنهم بدءوا في القرن السابع عشر في إنجلترا بتشكيل رابطة لعمال البناء، فإنهم حاولوا أن يعودوا بتاريخ نشأتهم إلى بداية التاريخ أو على الأقل إلى بناء هيكل سليمان وهو كذب صارخ وافتراء واضح يريدون تأصيل الحركة على حساب الحقيقة!

سادسًا: على الرغم من أن الحركة الماسونية بدأت لمساعدة الإخوان في أزمتههم فإن سرعان ما تخلوا عن هذا الهدف، في سبيل التعرف على عليّة القوم والاتصال بكبار الموظفين ومحاولة جذب أعلام المفكرين والكتاب والأغنياء، وكل من له نفوذ في الدولة، ومن ثم فعندما بدأت بعض الدول محاربتهم كانت الحجة التي استندت إليها هذه الدول أنهم يشكلون دولة

داخل الدولة!!... ومن هنا فقد جلبوا عل أنفسهم الخراب والدمار وبدأ كثير من المفكرين والكتاب يبعدون عنهم ومالوا إلى التشكيك في أهدافهم غير المعلنة!!

خاتمة

ويذكر كاتب هذه السطور أنه دعي ذات مرة من صديق على صلة وثيقة بهم لتناول الغذاء معهم في أحد الفنادق الكبرى بالقاهرة ثم إلقاء محاضرة (في أي موضوع) ونفتح بعد ذلك باب الحوار! وعندما رفضت وكانت حجتني أنها جماعة مشكوك في أمرها، ومن ثم فهي يقيناً موضع ريبة من رجال البوليس السري في مصر انتفض غاضباً وهو يردد ماذا تقول؟ إن سيدة مصر الأولى هي رئيسة المحفل الكبير في القاهرة وقلت بهدوء: أنا لا أعتقد أن هذه السيدة الفاضلة تشترك في مثل هذه الأعمال المريبة وهذه شائعات يطلقها الإخوان الأحرار لكي يكتنوا لأنفسهم في البلاد، وأنا أظن أيضاً أنهم فعلوا ذلك مع المفكرين الجليلين: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده!! وانقطعت الصلة بسبب رفضي تناول طعام الغذاء المريب!!

أيها القارئ الكريم: احذريا عزيزي أن تشترك في أي عمل أو تتعاون مع أية جماعة تعمل تحت الأرض؛ مهما ادعت نبل مقاصدها وتذكر دائماً الحكمة الجليلة التي تقول:

أن ما نخشى أن نبوح به في العلن.. لا بد أن تأبى ضمائرنا أن نفعله في الخفاء!!

الحب الإلهي.. والحب البشري!..!

كان شيخ فلاسفة أثينا سقراط يقول: الحب جنون، وهو أنواع كما أن الجنون أنواع!! وقد اخترنا أن نتحدث في هذا المقال عن نوعين فقط من أنواع الحب يرتبطان أوثق ارتباط هنا الحب الإلهي، والحب البشري!

أما الحب الإلهي فهو يرتبط منذ البداية بخلق الموجودات لأن الوجود خير من العدم- ومن ثم فالحب الإلهي الذي يرتبط بالمخوقات مبثوث معها أينما كانت. ولقد عبر عن هذه الصورة أجمل تعبير جلال الدين الرومي المعروف في تراثنا بمولانا جلال الدين (1207 - 1273)- جعل الحب هو لحمة هذا الوجود وسداه فاستمع إليه يفسر لك نسيج الجود.

سوف أخبرك كيف خلق الله الإنسان من طين، ذلك أنه جل جلاله- نفخ في الطين أنفاس الحب!

سأقول لك لماذا تمضي الأفلاك في مداراتها؟

ذلك أن عرش الله سبحانه وتعالى يغمرها بانعكاسات الحب!

سأقول لك لماذا تهب رياح الصباح؟

ذلك لأنها تريد أن توقظ بغزارة أزهار الحب!

سأقول لك لماذا يتشح الليل بغلائله؟

ذلك أنه يدعو الناس إلى الصلاة في مخدع الحب!

إنني أستطيع أن أفسر لك جميع ألغاز الكون وما الحل الوحيد لكل لغز سوى الحب! ذلك هو الحب الإلهي العظيم والذي استشهد به الفيلسوف الألماني العظيم هيجل (1770-1831) في نهاية كتابه موسوعة العلوم الفلسفية. ويقابل هذا الحب الإلهي الذي غمر الوجود بأسره حب الإنسان لله!

وهو الجانب الثاني من العلاقة الذي يظهر بوضوح أيضًا عند متصوفة الإسلام الذين اتجهوا إلى الله بفعل من أفعال المحبة البشرية فهادمنا قد ولدنا في تيار الحب الإلهي بنوعيه حب الله للإنسان، وحب الإنسان لله على الآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

واعتبروها دعوة صريحة إلى الحب بنوعيه! فلبوها مغتبطين فرحين!..

لاحظ أيها القارئ العزيز أن من يرتد عن دينه ليس جزاؤه القتل أو السحل أو التقطيع.. إلخ كما يقول البعض بل الحرمان من الحب!

ومن هنا أعلنت رابعة العدوية أن اتجاهها إلى الله ليس مصدره الخوف من النار أو الطمع في الجنة، وإنما أن أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمني يا إلهي من جمالك الأزلي... استمع إليها في إحدى مناجاتها تقول: إلهي! اجعل الجنة لأحبائك، والنار لأعدائك، أما أنا فحسبي أنت!

إلهي أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلفت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب لحبيبه، وهذا مقامي بين يديك!!

وأيضًا:-

زد قلبي نصيب!

حبيب غاب عن بصري وشخصي ولكن في فؤادي لا يغيب..
وأيضاً:

إني جعلتك في الفؤاد محدثي وأبحث جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجلوس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

ذلك يدل على سعي النفس البشرية للوصول إلى الله وعذاب الإنسان
وألمه أن لا يعرف ما الذي يبحث عنه! ما الذي يريد أن يصل إليه.

ويذهب ديكارت الفيلسوف الفرنسي إلى أن شك الإنسان دليل على
وجود الله لأن الشك نقص، والناقص لا يعرف إلا بمقارنته بالكامل وهي
فكرة إيجابية فكيف عرفتها..؟ ومن الذي وضع في النفس فكرة الكامل؟ لا
يمكن أن يكون أنا الذي اخترعها لأن فاقد الشيء لا يعطيه، لا بد أن الموجود
الكامل - الله هو الذي غرسها في وكأنها علامة الصانع وتوقيعه على ما صنع.
ومعني ذلك أن التوقيع الإلهي موجود في داخلي بطريقة فطرية.. ويعبر عنها
الصوفية المسلمون ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: 172].

وروائع ابن الفارض في الحب معروفة، حتى منحه المؤرخون لقب
سلطان العاشقين وإمام المحبين! وكان هو نفسه يفاخر بذلك:-

كل من في حماك يهواك لكن أنا وحدي بكل من في حماكا

يحشر العاشقون تحت لوائى وجميع الملاح تحت لواكا

فإذا ما هبطنا إلى المستوى البشري أعني الحب بين الرجل والمرأة فإننا

نستطيع أن نبدأ ببعض التفسيرات الأسطورية التي أوردها أفلاطون في محاورة المأدبة التي خصصها لمناقشة الحب فأجرى على لسان أرسطوفان الشعار اليوناني المعروف تفسيرا لقوة الحب وسلطانه بين الذكر والأنثى ملخصه أن الإنسان كان في البداية مخلوقا واحداً يجمع في كتلة واحدة بين الرجل والمرأة له من الأيدي أربعة من الأرجل كذلك وله وجهان متشابهان ورأس يدور في جميع الاتجاهات وله أربع آذان، وكان هذا المخلوق الغريب بالغ القوة: يجري بسرعة رهيبية ويمشي إلى الأمام وإلى الوراء كما يشاء.. إلخ. باختصار كان له من القوة والبأس ما جعله مخيفاً حتى ركبه الغرور فحاول أن يرقى إلى السماء ويهاجم الآلهة فشطرته نصفين حتى تضعف من قوته وتخفف من غروره، وهكذا تم شطر الإنسان الأول إلى رجل وامرأة وأخذ كل شطر يبحث عن شطره الآخر، فإذا ما التقى به تعانقا بقوة لكأنما يريدان أن يعودا كائناً واحداً كما كانا من قبل!.

فإذا تركنا الأساطير وتفسيرات الحب التي لا آخر لها منذ أقدم العصور حتى الآن، وأردنا أن نعرف نماذج من تصوير الشعراء لهذه العلاقة بين الرجل والمرأة: فلست أجد عندي أجمل من مثالين هما من أرق ما قرأت من شعر في تصوير الحب البشري:-

أما الأول فهو لشاعر الهند العظيم طاغور (1861-1941) الذي كانت أشعاره وأناشيده وكان يكتب موسيقاه بنفسه- تهز الهند كلها، وتسمعها على شفاه أهل الريف السذج: فهذه فتاة في عمر الزهور تسأل حبيبها عن صدق ما يقول لها من غزل وإليك ما قاله طاغور على لسانها ومن سواه عبر عن لغو الغرام الذي لا يخلو من قدسية؟!

نبني يا حبيبي، إن كان ذلك صدقا..

إذا لمعت هاتان العينان بريقهما، استجابت لهما السحائب الدكناء في
صدرك بالعواصف؟!..

أصحيح أن شفتي في حلاوة برعم الحب المتفتح حين يكون الحب في أول
وعيه؟!..

أترى ذكريات ما مضى من أشهر الربيع، ما تزال عالقة في جوارح
بدني؟!..

أصحيح أن الأرض كأنها القيثارة تهتز بالغناء كلما مستها قدمي...؟!..
أصحيح، إذن، أن الليل تدمع عيناه بقطرات الندى كلما بدوت لناظريك،
وأن ضوء الصباح ينتشي فرحاً إذا ما لف بدني بأشعته؟!..
أصحيح، أصحيح، أن حبك لم يزل يخبط فريداً خلال العصور وينتقل
من عالم إلى عالم باحثاً عني؟!..

وإنك حين وجدتنى آخر الأمر، وجدت رغبتك الأزلية سكينتها التامة في
عذب حديثي، وفي عيني، وشفتي، وشعري المسدول...؟..

أصحيح، إذن، أن لغز اللانهاية مكتوب على جبين هذا الصغير نبني يا
حبيبي إن كان ذلك كله صدقا!!.. تلك هي أبيات شاعر الهند طاغور لفتاة
تسأل، فبماذا يمكن أن يحبها حبيبها؟! أترأى يمكن أن يحب معبراً عن شعوره
بأبيات أشد عذوبة من أبيات شاعرنا الشاب الذي عصر الحب والشعر قلبه
فمات هو الآخر في عمر الزهور ولما يبلغ السادسة والعشرين من عمره: أبو
القاسم الشابي 1909-1934 في رائعته المسماة صلوات في هيكल الحب:-

عذبة أنت كالطفولة، كالأحلام كاللحن، كالصباح الجديد!..
 كالسماض الضحوك كالليلة القمراء كالورد، كابتسام الوليد!..
 يا لها من طهارة تبعث التقديس في مهجة الشقي العنيد!..
 أنت، ما أنت؟! أنت رسم جميل عبقرى من فن هذا الوجود!..
 فيك ما فيه من غموض وعمق وجمال مقدس معبود!..
 كلما أبصرتك عيناى تمشين بخطو موقع كالنشيد!..
 خفق القلب للحياة ورف الزهر فى حقل عمرى المجرود!..
 خطوات سكرانة بالأناشيد وصوت كرجح ناى بعيد!..
 وقوام، يكاد ينطق بالألحان فى كل وقفة، وقعود!..
 كل شيء موقع فىك، حتى لفظة الجيد واهتزاز النهود!..
 أنت، أنت، الحياة فى قدسها السامى وفى سحرها الشجن الفريد!..
 أنت: فوق الخيال، والشعر، والفن وفوق النهى، وفوق الحدود!..
 أنت قدسى، ومعبدى، وصاحبى وربيعى، ونشوتى وخلودى!..
 يا ابنة النور! إننى أنا وحدى من رأى فىك روعة المعبود!..
 إلى آخر هذه القصيدة العذبة.

ونستطيع فى النهاية أن نرد ومع أمير الشعراء أن لنا عذرنا فى حبنا للجمال:
 أن عشقنا فعذرنا أن فى وجهنا نظر!!..

النظم السياسية والأديان

كان البارون شارل دي مونتسكيو (Montesquieu) (1689-1755).. من أبرز المفكرين السياسيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر، وهو أحد المفكرين الذين مهدوا بقوة للثورة الفرنسية (1789 - 1799) التي هبت على أوروبا بأسرها منذ عام 1789.

فقد نادى بالكثير من الأفكار السياسية في كتابه الشهير روح القوانين مثل أشكال الحكومات المختلفة، كما شرح مبدأ فصل السلطات ودافع عنه مقررًا أن السلطة بطبيعتها تغري بالانحراف، أن تجميع السلطات في يد واحدة يضاعف من خطر الاستبداد. والوسيلة المثلى لمنع ذلك هي توزيع السلطات بين هيئات مختلفة. ونادى مونتسكيو كذلك بالديمقراطية النيابية، كما نادى بفكرة النيابة العامة لعضو البرلمان، أي أن النائب لا يمثل دائرته الانتخابية وحدها، وإنما يمثل الأمة، ولقد كان لآراء مونتسكيو وبخاصة نظريته في الفصل بين السلطات أثر كبير في رجال الثورتين الأمريكية والفرنسية.

أما بالنسبة للنظم السياسية فقد قسم مونتسكيو أنظمة الحكم أربعة أقسام هي:

أولاً: النظام الديمقراطي (والكلمة مؤلفة من مقطعين يونانيين هما Demos

أي الشعب و Kratia أي حكم فهي حكم الشعب الذي تكون فيه السيادة بيد الشعب في مجموعه، ويتقيد الحكم بإرادة هيئة الناخبين، وتطيع هذه الهيئة ممثلها في البرلمان الذين اختارهم بالانتخاب، وهو يفضل الديمقراطية النيابية على الديمقراطية المباشرة. وإذا كان لكل نظام مبدأ يرتكز عليه فإن مبدأ الديمقراطية هو الفضيلة. Levertu

ثانيًا: النظام الأرستقراطي حيث تكون السلطة بيد فئة قليلة من أبناء الشعب.. (مؤلفة من مقطعين يونانيين هما Aristos أي الأفضل أو الأحسن و Kratia أي الحكم فهي حكم القلة الفاضلة). أي أن أقلية فقط هي التي بيدها مقاليد الأمور في الدولة. أما المبدأ الذي تركز عليه الأرستقراطية فهو مبدأ الاعتدال LaModeration الذي هو روح الأرستقراطية كما يقولون.

ثالثًا: النظام الملكي، وتكون السيادة فيه في يد الحاكم وهو لا يستحوذ على سلطة مطلقة وإنما هي مقيدة بقوانين. مع وجود هيئات متعددة تشاطره السلطة وتخضع بدورها للقوانين والمبدأ الذي يركز عليه هذا النظام هو مبدأ الشرف Lhonneur..

رابعًا: النظام الاستبدادي. في هذا النظام تكون السيادة للحاكم وليست للقوانين، فهو يتصرف على هواه، وطبقًا لنزواته ولا يقيم وزنًا لمصالح الشعب. وقد انتقد مونتسكيو هذا النظام بقوة وأوضح الأخطار التي تتمخض عنه، وهذا ولم ترد في كتاباته أية إشارة إلى ما يسمى بالمستبد المستتير، كما لم يميز بين أنواع الاستبداد، وإن كان قد ألمح إلى أوجه التشابه بين هذا النمط وبين الملكية المطلقة في فرنسا والمبدأ الذي يتركز عليه هذا النظام هو مبدأ الخوف Lacrainte وهو مبدأ كل حكومات الطغيان والاستبداد التي تخيف

أفراد الشعب وتبث فيهم الرعب عن طريق ممارسة القوة العشوائية كما كان يفعل صدام في العراق، والقذافي في ليبيا وغيرهما من حكام العرب.

ثم بدأ مونتسكيو في المجلد الثاني من كتابه روح القوانين في الفصل الثالث، والرابع، والرابع عشر... إلخ، يختار الأديان المناسبة لكل نظام من أنظمة الحكم فرأى أن الحكومة الديمقراطية المعتدلة أكثر ملاءمة للديانة المسيحية، في حين أن الحكومة المستبدة أكثر ملاءمة للإسلام!!.. وهو يشرح هذا الاختيار الغريب بقوله أن المسيحية بعيدة عن الاستبداد المحض، فهي تعامل الناس بالحكم الذي يعارض الغضب الاستبدادي الذي ينتقم فيه الأمير لنفسه.

وفضلاً عن ذلك فهذا الدين (المسيحية) يحرم تعدد الزوجات، وبذلك يكون الأمراء أقل احتباساً وأقل انفصلاً عن رعاياهم، ومن ثم أكثر رجولة، وهم يكونون أكثر استعداداً للإلزام أنفسهم، وأعظم قدرة على الشعور بأنهم لا يستطيعون كل شيء.

ويواصل مونتسكيو حديثه فيقول وبينما نرى أمراء المسلمين يواجهون الموت ويتقبلونه بلا انقطاع. فإن المسيحية تجعل الأمراء أقل خوفاً، ومن ثم أقل جوراً، ويثق الأمير في رعاياه. ومن الرائع حقاً أن توجب المسيحية سعادتنا في هذه الدنيا مع أنها أي المسيحية تهدف إلى السعادة في الآخرة كما هو ظاهر!

كما أن المسيحية تحرم تعدد الزوجات وبذلك يكون الأمراء أقل بعداً وانفصلاً عن رعاياهم... إلخ. ويستمر هذا المفكر اللامع في تشويه الإسلام ووصفه بأنه ديانة الاستبداد التي تلجأ بسرعة إلى السيف، في الفتوحات والغزوات.. إلخ. وهو قول ظاهر البطلان:

أولاً: لأن المفكر الكبير لم يفرق بين الحروب ونظم الحكم، بل جعل الحالة التي تسير عليها الحرب هي الدائمة المستمرة التي يحكم الأمير السلم شيء مختلف تماماً.

ثانياً: في ظني أن الباحث المنصف الذي يريد أن يتحدث عن الإسلام لا بد أن يستمد أفكاره من الآيات القرآنية وليس من أحداث التاريخ، أو من أقواه المؤرخين.

ثانياً: على الباحث أن ينظر إلى الإسلام على أنه دين يدعو الناس إلى الرؤية والتأمل لا إلى التسرع ورفع السيف أن لم يبادر بإشهار إسلامه انظر مثلاً إلى هذه الآيات الكريمة:

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: 256].

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: 29].

﴿وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: 125].

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 99].

بل حتى في الحالات التي يضطر فيها المسلم إلى القتال فإن القرآن الكريم ينهنا إلى أن الأمر هنا لا يكون إلا للضرورة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216].

وأخيراً: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: 32].

فإذا استخدم بعض المسلمين أساليب الهمج في إغارة القبائل بعضها على بعض فليس ذلك من الإسلام في شيء وإنما هو بقايا من الجاهلية الأولى التي لا تزال مترسبة في أعماق هؤلاء القوم..

وليس الأمير المسلم مستبدًا أو حاكمًا بأمره أو بعيدًا فهذا أمر اصطنعه بعض الحكام لأنفسهم: أما الإسلام الصحيح فهو أن الحكم بيد الشعب ومن حقه مراقبة الحاكم ومحاسبته، قال أبو بكر الخليفة الأول في أول خطاب له:

أيها الناس أني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وأن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح عنه علته أن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله..!

ولم يتول هذا الخليفة الحكم بحد السيف، وإنما بعد نقاش ديمقراطي، حر كانت فيه حرية الرأي مكفولة للجميع.. كما كانت هناك معارضة حقيقية فبعض المسلمين رفض أن يبايع أبا بكر، والبعض الآخر بايعه بعد فترة طويلة، دون أن يكون المعارض شاذًا أو هادمًا للنظام..

ثم جاء عمر بن الخطاب الخليفة الثاني ليطلق صيحته المدوية: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا...؟!

وإذا كان بعض الحكام المسلمين الذين جاءوا بعد ذلك فضلوا ارتداء زي الاستبداد الشرقي فهذا خطأ بل إجرام ارتكبه هؤلاء الحكام لأسباب كثيرة ولا علاقة له بالإسلام.. والطامة الكبرى عندنا أن المسلمين في الأعم الأغلب، على قدر هائل من الجهل ولا يقرأون سوى أنفسهم إذا قرأوا دون أن يفتحوا على فكر العالم بأسره. ولهذا احتاج إلى الفكر الإسلامي إلى نقل دم جديد

وسريع من أمثال مفكرين يعتزون بالعقل، ويقدرُونَ ما في الإسلام من اهتمام بالعقل وبعد عن الخرافة: فنحن في حاجة ماسة إلى فكر الإمام محمد عبده ومحمد إقبال وزكي نجيب محمود.. وغيرهم وغيرهم وليس أولئك القوم الغارقين في مستنقع الجهل والذين يظهرون في أجهزة التلفزيون ليقولوا بكل وقاحة: نعم! ديننا دين إرهابي!! ألهم يقل القرآن وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة لترهبوا عدو الله وعدوكم..! إلى هذا الحد بلغ الجهل، ووصلت الأمية، وانحدرت أجهزة الإعلام! ونفس الشيء يقال على المنابر فيتحدثون عن الحيوانات التي تطبق شريعة الله، والتي لا يطبقها الإنسان، وعن القردة التي ترحم الزانية في حفرة خاصة تحفرها لها، ثم ترحم الزاني في حفرة ثانية خاصة به.. إلخ أي جهل وأي تخلف، وأي افتراءات على الإسلام!!.. دون أن يعلم هذا الجاهل الذي يقف وأعظا بين المسلمين أن الحيوان لا خلق له، وأن الرسول الكريم عندما قال إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق كان المقصود بالطبع أخلاق الإنسان. ومن هنا كان الثواب والعقاب للإنسان وحده!

لقد كان الفيلسوف الوجودي الكبير جان بول سارتر (1905 - 1980) يقول إن على المرء أن ينتبه جيداً أنه لا يمثل ذاته فحسب، بل الطبقة أو الفئة أو الوظيفة التي ينتمي إليها فالمحامي يمثل المحامين جميعاً والمدرس يمثل المدرسين جميعاً والعامل والقاضي، وأستاذ الجامعة، والطالب.. إلخ كل واحد من هؤلاء جميعاً يمثل الفئة التي ينتمي إليها وسوف ينسب كلامه وسلوكه إلى هذه الفئة بأسرها. وما يفعله أي مسلم ينسب إلى الإسلام كله: فخطيب المسجد الذي يقف ويقول غشاء: سيدنا آدم ذبح أبلis وشواه ثم أكله.. لكنه لم يهضمه فتيأه!! تمثيلية سخيفة ولا معنى لها ولا هدف سوى دغدغة مشاعر السذج! أو ديننا دين إرهاب ويقسم على ذلك.. وقتل الخراصون؟

اكتشاف الموت

يكاد ينعقد الإجماع بين علماء الأنثروبولوجيا على أن الإنسان هو وحده من بين الموجودات الحية الذي يعرف أنه لا بد أن يموت، وحتى الإنسان العارف Homo Sapiens قد وصل إلى هذه المعرفة متأخرًا نسبيًا في

مراحل التاريخ الطويل للنوع البشري. وربما كان مما يمكن قبوله مثلما فعل فولتير Voltaire (1694-1778).. في قاموسه في مقال كل شيء يسير سيرًا حسنًا أن الجنس البشري هو الجنس الوحيد الذي يعرف أنه سيموت، وهو يعرف ذلك من خلال التجربة.

وربما اعترض القارئ على شكنا في وعي الحيوان بالموت - بما قاله أفلاطون - في القرن الرابع قبل الميلاد - في محاضرة فيدون، وهو يروي لنا قصة الساعات الأخيرة في موت أستاذه سقراط وما دار من حوار بين التلاميذ والأستاذ الذي يقول لواحد منهم ألا ترى أن عندي ما عند طيور البجع من روح للتنبؤ بالموت؟! فمن عادة هذه الطيور إذا أدركت أن الموت آت لا ريب فيه ازدادت تغريدًا عنها في أي وقت آخر.. وذلك اعتباطًا منها بفكرة أنها وشيكة الانتقال إلى الله.. فهذه الطيور إنما أوتيت موهبة التنبؤ لقداستها عند الإله أبوللو Appollo،.. إله النبوءة والموسيقى والفنون التشكيلية فاستطاعت أن تطلع على ما في العالم الآخر من طيبات طفقت تغني لذلك

وتمرح في ذلك اليوم، وأكثر مما فعلت في أي يوم سابق... (فيدون 84). ولهذا فإن موت الرجل الصالح عند أفلاطون هو انتقال إلى حياة أفضل. والواقع أن أفلاطون قد رد بذلك على تساؤل القارئ عندما أرجع فكرته إلى الأسطورة.

ويمكن كذلك الرد على الاعتراض المستمد من قصة الغراب التي وردت في القرآن الكريم: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَى سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ [المائدة: 31] لكن ليس هنا أية إشارة إلى إحساس الحيوان بالموت هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فهذه حالة خاصة، فهي لا تدل على أن الغراب يفعل ذلك بصفة مستمرة أو سيفعل ذلك في المستقبل، لأن الله هو الذي أراد أله أن يفعل ذلك فأطاع المشيئة..!

ولقد ذهب بعض الفلاسفة حديثًا جدًا لا سيما ما كس شلر (1874 - 1928) إلى أن لدى الإنسان وعيًا حدسيًا بموته. كما ذهب بول لاند سبرج إلى أنه لم يصل إلى هذا الوعي عن طريق التجربة بمعناها المألوف، بل عن طريق تجربة موت جزئية، عندئذ يتحقق المرء من نهايته هو الخاصة. ولا شك أن هناك شيئًا من الحقيقة في هذه الوجهة من النظر. غير إن الإنسان البدائي لا يعي تمامًا شيئًا عن حتمية الموت أو النهاية المحتملة له، على نحو ما أظهرت بحوث كثيرة من الدراسات الأنثروبولوجية. فعنده أن الموت لا هو حادثة طبيعية. ولا هو تغير جذري؛ ذلك لأن الموت لا يحدث إلا نتيجة للعنف أو المرض الذي يجلبه السحر، وأولئك الذين يموتون لا يفعلون شيئًا سوى الدخول في نمط جديد من الحياة لا تتوقف فيه الحاجة إلى المأكول والمشرب والملبس...!

ومن هنا فمن الضلال أن نبحث في الإيمان البدائي عن الخلود لأن نظرة البدائي إلى الموت تضرب بجذورها لا في إنكار الموت وإنما في الجهل بطبيعته. وسوف نفرد المقال القادم. بإذن الله، لفكرة الخلود أما الآن فنحن نريد أن نتحدث عن الفهم البدائي الخاطئ للموت ونفهم السبب الذي يرجع في الأعم الأغلب إلى عدم قدرة الرجل البدائي على القيام باستنتاج النتائج الصحيحة من ملاحظاته، بقدر ما يرجع هذا الخطأ إلى صعوبة تخيل نهاية لوجود شخص ما لا سيما إذا كان عزيزاً عليه. وهذه الخاصية السيكلوجية لا يتسم بها الإنسان وحده، فكما أشار فرويد وشونبهور قبله إلى الأعماق السحيقة التي تدل على أنه حتى الإنسان المعاصر لا يؤمن في الواقع بموته الشخصي.

ولقد لاحظ مارتن هيدجر M. Heidegger (1889 - 1976) بعمق نافذ أن القضية التي تقول كل إنسان فإن تستثني في العادة قائلها!! أنها في العادة تحمل تحفظاً ضمناً يقول ما عداي! فلا الزمان ولا أحداث التاريخ لعنصري اكتشاف الموت وهما: حتمية الموت، أو الخاتمة المحتملة، يمكن تحديدهما بأي درجة من الدقة. فالتحقق من حتمية الموت يمكن أن نتصور من ناحية أنه يسبق الشك في الخاتمة يمكن أن يتحدد بأي درجة من الدقة. ومن ناحية أخرى فخاتمة الموت يستحيل التنبؤ بها بناء على حتميته ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾ [آل عمران: 145].

ويعرف بعض الباحثين الموت بأنه النهاية الدائمة لجميع الوظائف التي تبقي على الكائن الحي وتجعله حياً. وتقال كلمة الموت عندما يتوقف تنفس الشخص وضربات قلبه. وفي تعريف آخر تطلق كلمة الموت عندما يتوقف

المخ عن السيطرة على الوظائف الحيوية، حتى لو استمر التنفس ودقات القلب في العمل.

والموت في المعتقدات الدينية هو مقدمة لميلاد جديد، كما هي الحال في الديانتين الهندوسية والبوذية أما في المسيحية والإسلام فهناك مفهوم يوم الدينونة - أو يوم الحساب - حيث توزن أعمال المرء بالقسط ويحكم عليه بالذهاب إلى نعيم الجنة أو عذاب السعير، أما اليهودية فهي لا تركز على الحياة بعد الموت وإنما على البقاء من خلال النسل أو السلالة.

ويقدم لنا آرنولد جيزل A. Gesell.. عالم النفس الأمريكي (1880 - 1961) مؤلف أطلس لسلوك الطفل ومؤسس معهد جيزل لنمو الطفل - يقدم صورة مفصلة لنشأة فكرة الموت عند الأطفال في كتابه من الخامسة إلى العاشرة، يظل الطفل في الخامسة من عمره غير قادر على تصور عدم كونه على قيد الحياة، أو أن أحد قد عاش قبله. غير أن الطفل قد يظن أن الأمر قابل لأن يعكس أي أن يكون بمقدور الموتى العودة إلى الحياة.

أما فكرة الموت في سن السادسة: فهذا هنا بداية لاستجابة انفعالية تجاه فكرة الموت، فقد يراود الطفل القلق حول احتمال أن تموت أمه وتتركه، وهو يربط بين الموت والقتل، وربما يربط في بعض الأحيان بين المرض والشيخوخة وبين الموت. لكن فكرة الموت باعتباره نتيجة للعدوان والقتل تحظى بالسيادة والهيمنة.. غير أنه يظل على عدم تصديقه أنه هو نفسه سيموت. وفي سن السابعة يشرع الطفل في التشكيك في هذه الفكرة.

وتحدث الخطوة الحاسمة فيما بين الثامنة والتاسعة من العمر نحو إدراك أن الجميع وليس البعض فحسب - سيموتون عندما يقتلون أو يحل بهم المرض

أو الشيخوخة. وهذه المعلومات حول قيمة الموت إنما يفضي بها الكبار، عادة، إلى الطفل.

لكن كيف وصلت البشرية إلى النتيجة القائلة بأن الموت أمر حتمي؟! يبدو أن هناك شرطين أساسيين لكي يستطيع الإنسان أن يكشف حتمية الموت الأول: - أن يتجاوز العقلية البدائية أي أن يكف عن أن يكون بدائيًا، وأن يتجه نحو الفردية. ويقول بعض المفكرين أن الوعي بالموت يمضي جنبًا إلى جنب مع الاتجاه الإنساني نحو الفردية. أما الشرط الأساسي الثاني لمعرفة حتمية الموت فهو نشأة التفكير المنطقي، الذي يسمح للإنسان بأن يصل من الأحداث العديدة التي استطاع أن يلاحظها إلى قاعدة هي أن البشر جميعًا فانون، فإذا ما تحقق هذان الشرطان عرف الإنسان الفرد أنه هو الآخر عليه أن يلقي حتفه. فطبيعة الموت هي الكلية المطلقة، فجميع البشر فانون ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [العنكبوت: 57]. ولهذا قيل إن الموت يتبع مع الجميع سياسة ديمقراطية تقوم على المساواة المطلقة إن صح التعبير، فلا يعرف التمييز بين عابرة وسوقة، أو بين علماء وجهال، أو بين شباب وشيوخ أو أخيار وأشرار... إلخ.

لكنه رغم هذا الطابع الكلي المطلق يحمل طابع الشخصية الجزئية المطلق لأن الموت فردي وشخصي وخاص: فكل منا لا بد أن يموت وحده، ولا بد أن يموت هو نفسه، ولا يمكن لأحد أن يموت نيابة عن الآخر أو بدلًا منه!!

ومن الطبيعة المتناقضة للموت أيضًا أنه يجمع بين اليقين وعدم اليقين، أنا أعرف بالضرورة أنني سأموت، لكنني لا أعرف مطلقًا متى سيكون ذلك. أو كما قال بسكال بحق: إن كل ما أعرفه هو أنه لا بد لي أن أموت عما قريب،

ولكني لا أجهل شيئاً قدر ما أجهل هذا الموت الذي ليس لي عليه يدان! فأنا على يقين من شيء يجد فحسب هو فإذا جاء أجلهم ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: 34] أما متى يجيء الأجل فعلمه عند الله..!

ومن طبيعة الموت أيضاً أنه حد أو نهاية، غير أن هذه الطبيعة نفسها تلقي بنا بالضرورة إلى ما وراء هذا الحد، فقدر كبير من دراسة الموت طوال التاريخ كان يوجه في الحقيقة لدراسة ما بعد الموت، ولهذا يقول بسكال: Pascal.. أفضل ما في هذه الحياة هو الأمل في حياة أخرى - وهذا هو السبب في أن مشكلة الموت تحولت بعد ذلك إلى دراسة موضوع الخلود وهو ما سوف ندرسه في مقال قادم بإذن الله.

ويرتبط الموت في كثير من التفسيرات الدينية بالحرية، في الوقت الذي لا توجد فيه الحرية إلا إذا كانت هناك حياة ووجود، أعني لا توجد الحرية إلا بعيداً عن الموت: فمن أين جاء هذا الارتباط بينهما..؟ يقال إن الموت دخل العالم بسبب خطيئة آدم التي أدت إلى طرده من عالم الخلد، فأصبح لأول مرة قابلاً للفناء والموت.

ولما كانت الخطيئة الأولى تعبيراً عن ممارسة الإنسان لحريةته لأول مرة فقد كان هناك ارتباط وثيق بين الموت والحرية.

ويرتبط الموت أيضاً بالخلق من العدم، ومن هنا كانت الحياة بسبب أنها مخلوقة مرتبطة بالموت، وكأن الوجود لأنه خلق من العدم يحوي في جوفه ذلك العدم الذي خرج منه، ومن ثم فكل وجود يميل بطبعه إلى الفناء، وكل حياة يكمن الموت في جوفها.

وترتبط مشكلة الموت من حيث إدراكها بالشخصية مع أن الموت هو أساساً قضاء على كل شخصية، فكلما كانت الشعوب أنضج وأقوى شخصية، كان الإنسان أقدر على إدراك الموت. ومن هنا نجد أن الإنسان البدائي والإنسان الساذج لا يمثل الموت عندهما مشكلة!

بقي إن نتساءل هل الموتي يعون، ويسمعون ويشعرون؟ والجواب في رأيي: كلا! ومن يقول غير ذلك فهو لا يقول إلا لغوا!!

وإذا كان القرآن العظيم يقول ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتِ﴾ [النمل: 80] وأيضاً - ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: 22] - فلماذا إذن نأتي بملقن أشبه بالملقن في المسرح ينصح الميت بأن يفعل كذا وكذا، وأن يرد على الأسئلة التي توجه إليه بكيت وكيت؟! أليس ذلك موقفًا غريبًا حقًا؟! إنه بالغ الغرابة!

ولهذا فإن علينا أن نتساءل مع القرآن الكريم ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَنْ أُمَرَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24].

وأن نجيب بأنهم يا سيدي - لا يتدبرون شيئاً ولا يقرأون شيئاً لأن على القلوب، والعقول، والأفهام أقفالاً من النوع الغليظ، فهم لا يعون وهم أحياء: أتراهم يسمعون أو يعون بعد أن أصبحوا عظاماً نخرة؟!

الموت.. والخلود

جلجامش يسعى إلى الخلود...! ذكرنا في مقال سابق أن الموت حد، وما دام حدًا فلا بد أن نتساءل ما الذي يوجد وراء هذا الحد؟

Death and Immortality

فإذا كان الجواب هو لا شيء: فالموت فناء شامل! فلا بد أن تتردد في هذه الحالة سؤال الأديب الروسي العظيم تولستوي (1828-1910) L. Tolstoy.. ما الغرض إذن من صراع الإنسان وكفاحه، إذا كنت أنا هذا الإنسان - سوف أختمي في النهاية كفقاعة من الصابون؟؟ وذلك فلا بد أن نتحقق من أن هناك حياة أخرى بعد الموت أو أن هناك خلودًا سعيدًا لكل البشر بلا استثناء وإن كان ذلك يسير عكس الإحساس بالعدالة إذ يتساوى في ذلك الإنسان الشرير والإنسان الخير، فالحال سوف يستمتع بهذه الحياة الخالدة، ولهذا فإننا نجد أن جميع مذاهب الخلود تضع قيودًا على الاستمتاع بالحياة الأخرى، المباركة..! فبعضها يجعل الخلود في جهنم للمجرمين! وبعضها يلجأ إلى التناسخ حيث تظهر الروح بعد ذلك في هذا الحيوان أو ذاك، أو في عدة حيوانات على التعاقب!

وإذا ما تحدثنا عن خلود الروح في العصور التاريخية الموعلة في القدم، لوجدنا أن المصريين كانوا أول من عبر عن الفكرة القائلة أن النفس البشرية

خالدة وهي فكرة تتضمن أن الفرد البشري يمتلك في ذاته قيمة لا متناهية. وإن كانت فكرتهم عن النفس أنها ذرة فحسب، أعني أنها شيء جزئي وعيني. ومن هنا ذهبوا إلى التناسخ، وأصبحت نفس الإنسان يمكن أن تحل في جسد حيوان. وإذا أدركنا أن النفس ذات وجود دائم، فلا بد أن إضفاء الشرف على الجسد باعتباره مقر سكنها السابق وذلك بتحنيطه، كما كانت تدفن مع الموتى مشاغل الحياة فيدفن مع الحرفي أدواته.. إلخ.

ومن الحكايات التي رواها التاريخ عن الخلود قصة ملك بابل الأسطوري جلجامش التي دونت أعماله في ملحمة بابلية تحمل اسم ملحمة جلجامش. GilgamishEpic.. الملك البطل الذي حكم دولة - مدينة أوراك (Uruk الوركاء) السومرية كما يفترض علماء الآثار. وأنه عاش وحكم حوالي منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد (فيما بين 2750 - 2600) على نحو ما يؤكد الملحمة في اللوح الأول، بوجه خاص، من ألواحها الأثني عشر - ويبدو أنه كان الملك الخامس في ترتيب حكام هذه المدينة التي كانت من أهم المدن السومرية. وقد نسب إليه بناء سورها العظيم الذي أشارت إليه الملحمة في بدايتها وخاتمتها بوصفه أحد أمجاده التي كفلت له نوعاً من الخلود غير المتاح للبشر الفانين..

ويبدو أن تاريخ الملحمة يسبق تاريخياً الأسر البابلي للعبرانيين كما يسبق ملحمتي هوميروس: الألياذة والأوديسة بما يزيد على الألف عام. ولقد كان هناك جانب آخر من جلجامش الحاكم وهو جبروته وظلمه، ولر يفقه أحد في قوته: لا في طول له ولا في عرضه ولا في مشيته. وتصوره الملحمة على أن خطواته كانت مهيبه كالثور الوحشي!! فقد أكملت الآلهة خلقه فأضفى

عليه شمس إله الشمس الجمال، وحباه حدد إله الرعد بالبطولة، فثلاثه إله والثالث الباقي بشري. ولهذا فقد كان يطمح إلى إزالة الثلاث الفاني - أعني أنه كان ينشد الخلود البشري.

ثار أهل أوروك ساخطين على الملك جلجامش الجبار، وتضرعوا إلى الآلهة أن تخلق لهم نظيرًا له في البأس والقوة يشغله عنهم حتى تستريح المدينة من ظلمه وجبروته وتستجيب الآلهة لتضرعات شعب أوروك وتخلق وحش البرية أنكيديو Ankidu.. الذي يرعى الكلاً مع الغزلان، ويتزاحم على موارد المياه مع الحيوانات - غير أن جلجامش يصارعه ويتغلب عليه رغم قوة هذا الخصم العنيد. ولذلك يعجب به الملك ويتخذ منه صديقًا حميمًا.

ويقوم الاثنان بمغامرات كثيرة نرى فيها جبروت جلجامش كما تصوره الملحمة فهو يقتل المارد المخيف خبابا Humbaba.. حارس غابات الأرز الذي عينه إله العواصف انليل رغم أن الملحمة تصف خبابا بأنه يزأر كالطوفان، وفمه ينفث النار. ويرفض جلجامش تحذيرات صديقه من عواقب المخاطرة، وأنه يريد أن يرفع اسمه، ولو أنه سقط في النزال، فيكفي أن يقول الناس عنه لقد تجرأ جلجامش على منازل خبابا الرهيب!. رأت الآلهة عشتاروت جلجامش فراق لها، وتاقت نفسها إليه، وهي رب الجنس والجمال، والخصب. لكنه رفضها فثارت عليه؛ وهي راعية الحرب والدمار أيضًا، وأرسلت له ثور السماء لينتقم لها منه. غير أن جلجامش يقتل الثور ويمزقه. فتحزن الإلهة وتنوح على الثور وتلعن جلجامش، إلا أن أنكيديو صديقه يرد على لعنات عشتار ونواحها بانتزاع فخذ الثور ويقذفه في وجهها!

وأصيب أنكيديو بالحمي فلزم الفراش، وأشدت عليه المرض، ورأي في أحلامه صوراً مفزعة من عالم الموتى. وعندما مات الصديق جن جنون جليجامش وشعر بمأساة البشر الحقيقية: ألا وهي الموت. فترك عرشه وراح يهيم على وجهه باحثاً عن سر الخلود. وأكسید الحياة. وبعد صعب ومشاق لقي خلالها الأهوال، عبر مياه الموت حتى بلغ جزيرة الأحياء التي خصصتها الآلهة لإقامة جده الخالد: أوتنابشتيم ليسأله عن سر الخلود، فيرق قلب الرجل له ويقول له: ليس الخلود، وإنما تجديد الشباب بواسطة نبتة في قاع البحر، وهي سر من أسرار الآلهة، وهي تطيل العمر، وبعد معاناة يصل جليجامش إلى النبتة ويحصل عليها؛ وفي طريق العودة يجلس قرب جدول ماء يستريح ويضع النبتة بجواره، فتأتي حية وتأخذ النبتة وتأكّلها فتحصل الحية على طول العمر، وتجدد جلدها كلّها شاخت. وعاد جليجامش دون الحصول على سر الخلود.

فإذا عدنا من الأساطير إلى بداية الفكر اليوناني وجدنا الشاعر العظيم هوميروس يذهب إلى أن الإنسان يملك نفسين نفساً للتنفس Theymos.. وهي النفس الفانية، ويملك كذلك ما نسميه بالنفس الخالدة. Psyche. ويبدو أن الأولى ليست أكثر من وظيفة وهي تفني مع الموت، أي عندما تغادر الأعضاء التي كانت تعتمد عليها. غير أن الثانية تلوذ بالفرار لدى الموت، وقد ظلت هذه الطبيعة المزدوجة للنفس حتى عصر متأخر يصل إلى القرن الخامس عشر. وقد ارتبطت النفس الخالدة Psyche.. بالرأس واعتبرت المبدأ الحي الخالد وينبوع حيوية الإنسان. ولا تزال حتى الآن ففرق بين النفس Soul التي هي مبدأ الحياة العضوية. والتي تتصل بالبدن في وجودها وفعلها. وبين الروح Spirit.. التي هي كيان مستقل عن البدن تماماً، ولا تفني

بفنائها. وإذا كانت الأولى مبدأ الحياة العضوية، فإن الثانية هي مبدأ التفكير والحياة العقلية.

ولقد ظهرت هذه الطبيعة المزدوجة للنفس عن أفلاطون، فنحن نراه يقسم النفس قسمة ثلاثية على النحو التالي:

أولاً: النفس الشهوانية ومقرها البطن وهي أشبه بالحيوان المفترس وفضيلتها العفة أو ضبط النفس.

ثانياً: النفس الغضبية ومقرها الصدر وفضيلتها الشجاعة..

ثالثاً: النفس العاقلة ومقرها الرأس ولهذا كانت فضيلتها الحكمة..

ومن المثير حقاً أن نجد القرآن الكريم يحدثنا عن تقسيم ثلاثي للنفس فيحدثنا عن النفس الأمارة الغارقة في شهوات الحس، ثم النفس اللوامة التي يستيقظ فيها الضمير وأخيراً النفس مطمئنة وهي أعلى الأنفس الثلاث.

أما النفس الخالدة (أو الروح) فيقدم أفلاطون عدة براهين على خلودها:

أولاً: النفس الخالدة بسيطة وليست مركبة ومن ثم فهي إلهية لأن ما هو إلهي لا يكون ولا يفسد فإذا كان البدن يفني، فإن الروح خالدة لأنها من أمر ربي.

الثاني: التذكر فالروح تتذكر أموراً رياضية لم تتعلمها بالتجربة لكنها تدل على وجودها في عالم آخر قبل أن تهبط إلى البدن، ويبدو أنها ارتكبت أثماً فعوقبت عليه بالسجن في البدن، فالموت ما هو إلا اعتاق الروح من سجنها وعودتها من جديد إلى عالم الخلود.

الثالث: برهان يستمد أفلاطون من واقعة أن النفس أو الروح هي مبدأ الحياة، فها هي النفس هي الحياة، ومعنى ذلك أن ما هو ضد الموت (أي الحياة) لا يمكن تصوره على أنه ميت إلا إذا كان من الممكن تصور أن تصبح النار ثلجاً - وهذه الحجة موجودة في محاوره فيدون (100 ب - 107 - أ) وهي المحاور التي تدور حول الأيام الأخيرة في حياة سقراط، ولهذا سميت بمحاوره خلود النفس أو الروح!

الرابع: المتحرك إما أن يتحرك بنفسه، وإما أن يتحرك بغيره، وهذه تكف عن الحركة بعد حين. أما الأولى فلا تكف عن الحركة، لأن حركتها من ذاتها وإذن فهي لا تكون ولا تفسد. وكل ما يتحرك بذاته فإنه لا يتولد من شيء آخر، فهو مبدأ ومن التناقض أن يفسد المبدأ وتلك حقيقتها وماهيتها، ويمكن تعريفها بأنها ما يتحرك بذاته ولهذا فهي خالدة.

ولقد كانت نظرية أفلاطون عن خلود النفس أقوى النظريات في الفلسفة الغربية. ثم جاء ديكارت في العصر الحديث فشن حملة عنيفة على كل من يقول أن للحيوان نفساً، فلا نفس إلا عند الإنسان فحسب يقول: ليس ثمة بعد الكفر بالله ضلال أشد إبعاداً للنفوس عن طريق الفضيلة من أن يتوهم البعض أن للبهائم نفوساً من طبيعة نفوسنا، وأنه ليس لنا تبعاً لذلك أن نخشى شيئاً أو نرتجى شيئاً بعد هذه الحياة الدنيا مثلنا في ذلك مثل الذباب والنمل..

ولو كانت البهائم تفكر مثلنا لكانت لها نفوس خالدة لأن النفس لا مادية. ومن ثم فإن إثباتها عند الحيوان يجعلنا نقف أمام أمرين إما أن تفني نفس الحيوان بفناء الجسم وحينئذ يحوز أن تفني النفس الإنسانية أيضاً وإما أن تبقى نفوسها بعد فناء الأجسام، وحينئذ لا نفهم لم تبقى؟! ولا كيف يحدث ذلك.

والخلاصة أنه لا وجود للنفس إلا عند الإنسان وهي خالدة، أما في عالمنا الإسلامي فسوف نكتفي برأي الشيخ الرئيس: ابن سينا (980 - 1037م) الذي يأخذ فيها يبدو نظرية أفلاطون أولاً في خلود النفس، وثانياً في أنها كانت تعيش في البداية في عالم الخلد ثم ارتكبت إثماً فحكم عليها بالهبوط إلى عالم الدنيا والسجن في جسد الإنسان وهو يصور عملية الهبوط هذه في قصيدته الشهيرة المسماة بالعينية التي يصور فيها هبوط النفس من المحل الأرفع عالم الخلود وهي تتمتع وتتعزز لأنها لا تريد أن تترك عالمها الأصلي وهو يقول للإنسان:

- | | |
|------------------------------|---------------------------|
| 1- هبطت إليك من المحل الأرفع | ورقاء ذات تدل وتمنع |
| 2- محجوبة عن كل مقلة ناظر | وهي التي سفرت ولم تنبرقع |
| 3- وصلت على كره إليك وربما | كرهت فراقك وهي ذات تفجع |
| 4- أنفت وما ألفت فلما واصلت | أنست مجاورة الخراب البلقع |
| 5- وأظنها نسيت عهد بالحمي | ومنازلاً بفراقها لم تقنع |

(1) زواج الفلاسفة.. في الفلسفة القديمة..

القضية التي نود أن نناقشها في هذا المقال تتلخص في هذه الأسئلة: هل دأب الفلاسفة على رفض الزواج لأنه يشغلهم عن التفرغ للبحث عن الحقيقة، والانتقطاع للحكمة والعلم...؟! وهل صحيح أن الزواج والتفلسف نقيضان لا يجتمعان: فإما أن تكون فيلسوفاً، أو زوجاً ولا ثالث لهما ولا جمع بينهما!! وكثيراً ما سألت نفسي: أليس الفلاسفة بشراً كغيرهم من البشر فيهم من يتزوج ويظل فيلسوفاً، وفيهم من لا يتزوج ولكنه كان عاشقاً، ومارس الجنس بلا زواج بل وأنجب أبناء غير شرعيين. ومنهم من كره الجنس بكل أصنافه ومعانية مثل أفلاطون. بل منهم من مارس الشذوذ الجنسي ولم ينجل منه قديماً مثل سقراط الذي كان يعشق القبيادس. Alcibiades. فتي أثينا المدلل كما كانوا يسمونه وقد روى أفلاطون الكثير عنه في محاوراته لا سيما محاورة المأدبة Symposium.. التي راح الفتى يمتدح فيها سقراط بعشق وهيام!! وكان المجتمع الآثيني في ذلك الوقت يقر عشق الغلمان حيث كان مجتمعاً انفصالياً يباعد بين الرجل والمرأة. ومن الفلاسفة من مارس الشذوذ الجنسي في الفترة المعاصرة، وكان عاراً على الفلسفة ومات بمرض الأيدز مثل ميشيل فوكو (1926 - 1984) الذي كان من هذه الزاوية سبة في جبين الفلسفة لما فعله:

في تونس، وباريس، واليابان، والولايات المتحدة.. إلخ. فصب اهتمامه كله تقريباً في دراسة الجنس والجنون. وكان بصفة عامة أسوأ مثل - في رأيي - للفيلسوف الذي لم يتزوج لكي يتفرغ للبحث عن الحكمة والحقيقة والعلم: فكان يتعاطى المخدرات، بل ويزرعها بين زهور بيته، على نحو ما ذكرنا منذ قليل! وعندما حذروه من الإصابة بالإيدز أجاب في وقاحة: وماذا في ذلك؟! إنني قد أموت في الشارع في حادث سيارة؟! ويموت فعلاً بهذا المرض الذي لم يخافه!. وفي باريس عام 1971م يؤسس جبهة الشواذ للعمل الثوري 1 ويتخذ عشيقاً هو دانييل ديفير D. Defrt.. ويعاهده أن لا يفترقاً إلى الأبد!! إلى آخر تلك الأعمال السيئة والأفعال المشينة التي قام بها فيلسوف لم يتزوج! لأنه لم يشأ أن يشغله الزواج أثناء بحثه عن الحقيقة والسير في ركاب الحكمة..!

لكن صحيح أن الغالبية العظمى من الفلاسفة أضربوا عن الزواج؟! وهل أمتنع الكثير منهم عن هذا العمل الذي يترفع عنه من كان حكيماً؟ دعنا نتناول بعض الأمثلة:

نماذج من زواج الفلاسفة قديماً:-

الفيلسوف الذي يضرّبون به المثل لعزوفه عن الزواج في الفلسفة القديمة هو أفلاطون: الملقب عند فلاسفة الإسلام بأفلاطون الإلهي، ولسنا ندري على وجه الدقة لماذا لم يتزوج أفلاطون؟! فالمفسرون يذهبون مذاهب شتى في تأويل هذا الموقف الأفلاطوني لعل أهمها وأكثرها شيوعاً ما يقوله جريجوري. فلاستوس G. Vlastes.. الذي يروي أن أفلاطون كان يمارس الجنسية المثلية. وأن حملته ضدها. واعتبارها مضادة للطبيعة أو أنها انحطاط للإنسانية الرجل.. إلخ إنما هو ضرب من عقدة الذنب التراجعية.

بينما يرى جورج سارتون أنه لا يستلزم من ذلك أن أفلاطون كان ممن يزاوون اللواط بالمعنى الفعلي، لكن يكاد يكون مؤكداً أنه كان مصاباً بضرب الشذوذ الجنسي: أنه لم يتزوج أبداً، وإذا كان يتحدث أحياناً عن العلاقات الجنسية التي تقوم بين الرجال والنساء، فحديثه مجرد عن كل عاطفة. لكنه كان يدخر مشاعره الرقيقة للعلاقات الشاذة مع بني جنسه كان ممن يبغضون المرأة ويبدو ذلك كثيراً في ثنايا حديثه.

ويرى آخرون أن أفلاطون لم يتزوج إذ تدل كتاباته بأنه لم يكن لديه أي ميل جنسي نحو النساء.

ولكن إذا كانت هناك عوامل شخصية في حياة أفلاطون قد جعلته في البداية يتسامح مع الجنسية المثلية التي كانت من خصائص المجتمع الأثيني، فقد تغلبت ميثافيزيقاه في النهاية تلك التي تقوم على الروح وتجعل الحقيقة كامنة في عالم منفصل عن ذلك العالم الحسي المتغير، لا نصعد إليه إلا بالروح، فالروح وحدها هي التي تعرف الروح على حد تعبير هيجل - فإذا وجدنا عالماً عقلياً خاصاً أزلياً لا يعرف الكون والنساء.. هذه الميثافيزيقا هي التي تغلبت في النهاية ومكنت لنفسها فجعلته يشن هجوماً عنيفاً على الجنسية المثلية ويصفها بأنها انحطاط. ويقصر العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة في أضيق الحدود ويقصد الإنجاب فحسب حتى يبقى النوع البشري. لكن قد يقال إذا كان أفلاطون يكره جميع أنواع العلاقة الجنسية وأنه لهذا السبب قد حرم الجنسية المثلية: فلماذا لم يمتد هذا التحريم إلى علاقة الجنس بين الرجل والمرأة..؟ وللإجابة عن هذا السؤال قد نضطر إلى العودة قليلاً إلى فكرة أفلاطون العامة عن المادة، فلاشك أنه كره المادة ووصفها بأنها

عنصر الشر في العالم، وأنها عامل الاضطراب في الكون كما جاء في محاوره طيماوس..

وكان لا بد أن تمتد كراهيته هذه إلى الجسد، وهكذا أصبح الجسد عند أفلاطون شرا مزدوجاً: فهو من ناحية وسيلة لتشويه الحقيقة، وهو من ناحية أخرى مصدر للشهوات، ولا شك أن الفيلسوف الحق عنده يزدري البدن ويعتبره سجنًا للروح، ولهذا يود أن يتخلص من البدن ليعود إلى الروح (محاوره فيدون 64).. وفي استطاعتنا أن نسوق نصوصاً لا نهاية لها تدل على كراهية أفلاطون للجسد، ومحاوره فيدون زاخرة بأمثال هذه النصوص. لكن أفلاطون مع ذلك يحرم على الفيلسوف الانتحار فالزعم بأن الإنسان سجين البدن لا يجعل من حقه التخلص منه (فيدون 62).

لأن الإنسان لم يهب نفسه هذا الجسد بحيث يحق له أن يطرحه عنه، وإنما خلقه الله فلا يحق له تدميره فنحن من ممتلكات الآلهة.. (فيدون 62). لكن لا بد للإنسان أن يأكل ويشرب لكي يبقى حياً، لكنه يأكل ويشرب الحد الأدنى الضروري الذي يجعل الجسم يبقى، وما يقال عن الفرد يقال أيضاً عن النوع، أن الامتناع عن الجنس تماماً ضرب من الانتحار للنوع، إذ لا بد للنوع أن يبقى، فإذا كان الجسد يتغذى ليبقى الفرد، فإن على الإنسان أن يمارس الجنس ليبقى النوع، مشاركاً في الخلود عن طريق التوالد - (محاوره القوانين 72) وهذا ما يفعله الحيوان نفسه عن طريق الحب الجنسي الذي يؤدي إلى التناسل فيحل مولود جديد محل الفرد الميت. وهكذا يبقى النوع عند الحيوان والإنسان معاً (المأدبة 207) ولهذا فإن علينا إلا نعجب عندما يتحدث أفلاطون عن العملية الجنسية بين الرجل

والمرأة حديثاً مجرداً من العاطفة، لأنها في رأيه علمية آلية تستهدف الإنجاب لحفظ النوع.

تلك هي قصة عدم زواج أفلاطون، وقد أطلنا فيها لأن هناك تركيزاً دائماً عليها، فأفلاطون لم يتزوج عبارة كثيراً ما تتردد على أن ذلك هو المثل الأعلى للفيلسوف الذي لا بد أن يحتذيه الفلاسفة جميعاً، ولست أدري لم لا يذكرون معها في نفس اللحظة أن سقراط أستاذ أفلاطون تزوج مرتين. وأن أرسطو تلميذ أفلاطون والمعلم الأول تزوج مرتين، وأنه كتب في وصيته يوصي بأن رفات زوجته الأولى وكانت قد توفيت قبله بفترة طويلة لتدفن معه في قبره. وحيثما أدفن فلتجمع رفات زوجتي بثناس Pythies.. وتوضع معي في قبري بجوار جثمانى فقد كانت تلك رغبتها.

أما الزوجة الثانية وتدعي هربيليس Herpylies.. وهي التي أنجبت له ابنه نيقوماخوس فهو يشير في الوصية نفسها إلى طيبته وحسن معاملته أكثر من مرة. ويطلب من نيكتار منفذ الوصية - إكراماً لذكراي، ومن أجل عواطف هربيلس النبيلة نحوي أن يعتني بها ويرعاها في جميع الأمور، وإذا ما رغبت في الزواج بعد وفاي فعليه أن يزوجه لشخص لا يكون تافهاً، أو غير جدير بها. وإلى جانب ما أخذته بالفعل فعليه أن يعطيها وزنة من الفضة خارج نصيبها وثلاث خادمات تختارهن بنفسها بالإضافة إلى الخادمة التي لديها بالفعل. وكذلك إلى جانب الخادم بيرهابس وإذا فضلت أن تبقى في مدينة خالقيس فلها بيتي بالحديقة، وإذا اختارت أن تعيش في مدينة استاجيرا (مسقط رأسه) فلها بيت أبي هناك، وعلى المنفذين لهذه الوصية أن يقوموا بتأثيث المسكن الذي تختاره من هذين

المسكنين بالأثاث اللائق الذي يروونه مناسباً، والذي توافق عليه هربليس وتستحسنه بنفسها!.

لم يقل المعلم الأول أن زواجه أعاقه عن تشكيل مذهب شامخ أثر في الفكر البشري لأكثر من عشرين قرناً - أو أنه تنفس الصعداء عندما ماتت زوجته الأولى لأن موتها جعله يتفرغ كفيلسوف للبحث عن الحقيقة، والانقطاع للحكمة. إلى آخر هذا الكلام الذي أوردناه فيما سبق عن أدعياء البحث عن الحقيقة.

وقبل سقراط وأفلاطون وأرسطو كان هناك فيثاغورس الذي افتتح أول مدرسة فلسفية في التاريخ تستقبل الرجال والنساء معاً، وكانت ثايانو Theano.. أول فيلسوفة فيثاغورية التحقت بالمدرسة في البداية كطالب مع زميلاتها وزملائها، ثم أصبحت زوجة للمعلم، كما أصبحت هي نفسها معلمة في المدرسة ومديرة لها بعد وضع المذهب الذي كان يريد، بل على العكس ثبت تاريخاً وعلى نحو قاطع أنه كان خيراً وبركة على فلسفته التي بقيت سنوات طويلة بعد وفاته بسبب حسن إدارة زوجته وابنته للمدرسة بعده، وراحت الزوجة الوفية والفيلسوفة اللامعة تصحح فهم الاثنيين الخاطئ لفلسفة زوجها قالت: بلغني أن كثيراً من اليونانيين يعتقدون أن فيثاغورس ذهب إلى أن كل شيء في العالم نشأ من العدد. غير أن فيثاغورس لم يقل أبداً أن الأشياء الحسية نشأت من الأعداد أو أنها مصنوعة من العدد. وهكذا صححت الزوجة فهم الاثنيين الخاطئ لفكر زوجها وفي استطاعتنا أن نقول مثل ذلك بالنسبة لأريجوت Arignote.. وميا Myia.. بنت فيثاغورس من ثيانو.. ولقد سبق أن تحدثنا عن هذا الموضوع المهم في كتابنا عن النساء الفلاسفة.

هذه نبذة سريعة تعارض كل من يرفع شعاراً زائفاً هو: امتنع عن الزواج لكي تكون فيلسوفاً...! إن صاحبه يرفعه لحاجة في نفس يعقوب! ورداً على سؤال مخرج هو لماذا لم يتزوج حتى الآن! فيكون الرد العجيب هكذا جميعاً أفلاطون لم يتزوج وكذلك ديكارت وكذلك شوبنهاور.. إلخ مجموعة منتقاة لكن السائل ينبغي عليه أن يعيد السؤال: إذا كان أفلاطون لم يتزوج فقد تزوج أستاذه سقراط مرتين، وتزوج تلميذه أرسطو مرتين أيضاً. وتزوج فيثاغورس أحد المؤثرات القوية التي تأثر بها أفلاطون - وافتتح مدرسة فلسفية تضم الرجال والنساء معاً وتزوج واحدة من تلميذاته..!

وقد اختصرنا في هذا المقال على الفلاسفة القدماء لنفرد المثال القادم للحديث عن الفلاسفة المحدثين والمعاصرين:

وسوف نجعل شعارنا دائماً أن نقول مع أمير الشعراء:

أن عشقنا فعذرنا.. أن في وجهنا نظر!!

وأما فاقد النظر الذي يخشى أن تكشفه المرأة، فنحن نقدم له ثلاثة من أعظم فلاسفة العالم: واحد في كل عصر أرسطو عند القدماء - هيجل في الفلسفة الحديثة - رسل في الفلسفة المعاصرة!! وإلى مقال قادم نواصل فيه الحديث!!

(2) زواج الفلاسفة..

في الفلسفة الحديثة والمعاصرة..

يقول بعض الباحثين ممن لا رغبة لديهم في الزواج إن السبب في امتناعهم أو نفورهم من الزواج إنه يشغلهم عن البحث عن الحقيقة، ومتابعة السير في طريق الحكماء - وهم مثل الغالبية العظمى من الفلاسفة لا يريدون شيئاً يلهمهم عن أبحاثهم. والواقع أن خطورة هذا الادعاء أنه يحرض الشباب الراغب حقاً في الدراسة والبحث على الإضراب عن الزواج، لاسيما إذا وجدوا أمامهم أسماء لامعة من أمثال ديكارت، وشوبنهاور ونيتشه.. إلخ.. سبقوهم إلى هذا الإضراب!.

وعلى الرغم من أن ديكارت (R. Dscartes 1596-1650) الأب والمؤسس للفلسفة الحديثة - لم يتزوج ربما بسبب ضعف بنيته واعتلال صحته - وربما لميله إلى حياة التأمل والتفكير الهادئ كما يرى البعض لكنه مع ذلك كله كان رجلاً يحب الحياة ويتفاعل معها. والمهم أنه كان يحلو له الحديث مع النساء. ولا يحجم عن مبارزة الرجال من أجل سيدة يهواها، ولا يتحرج أن يتصل ببعض السيدات اتصالاً غير شرعي وأن يولدهن أولاداً غير شرعيين أيضاً على نحو ما سنعرف بعد قليل!

ولقد كانت لديكارت علاقات نسائية كثيرة تبدأ بأكثرها خطورة وهي علاقته غير الشرعية.

في عام 1633 استقر ديكارت فترة بمدينة ديفنتر Deventer.. وكانت طوال هذه الفترة تعمل عنده خادمة تدعى هيلين هانز HelenHans.. وكان يعاشرها معاشرة الأزواج حتى حملت وأنجبت له طفلة سماها فرانسين Francine.. وفاء لذكرى بلاده ووطنه كما يقول بعض الشراح. ولم يشتر لتلك العلاقة إلا في النادر، وأنه انشغل بأمور خاصة بها مثل إعداد إقامة لابنته، وإحضار مرضعة لها ولم يهتم بالأم هيلين قدر اهتمامه بالابنة، فقد شغف بابنته شغفا عظيما وحزن على وفاتها وهي في سن الخامسة أشد الحزن! ومن علاقته النسائية الأخرى اتصاله بالأميرة إليزابيث ابنة فردريك الخامس ملك بوهيميا Bohemia.. المخلوع - كانت الأميرة قد قرأت كتابه.. مقال عن المنهج - وبدأت بمراسلة الفيلسوف نحو عام 1640م فرحب بها إلى أن تمكنت الصداقة بينهما، فكانت تستشيريه في أمورها الخاصة وتبوح له بما في دخيلة نفسها. وكان ديكارت يعجب بما أوتيت الأميرة من الفطنة ورجاحة العقل فأهدى إليها كتابه مبادئ الفلسفة عام 1644م ولعله لم يكن مسرفا حين أعلن في الإهداء، أن أحدا لم يفهمه خير منها، وأن قليلا من العلماء يستطيعون أن يفخروا بأنهم قد رزقوا بما رزقت من الفهم في المسائل الرياضية، ومسائل الميتافيزيقا معا. وعلى الرغم من أن إهداء كتاب المبادئ إلى الأميرة إليزابيث يقع في خمس صفحات وهو يقطر إجلالا وتقديرا من شيخ الفلسفة الحديثة، فإنه ليس في استطاعتنا أن ننقله كله، لكن لا بأس من أن ننقل إلى القارئ الفقرة الأولى منه:-

إلى حضرة صاحبة الشوكة الأميرة إليزابيث كبرى بنات فردريك ملك بوهيميا.. إن أعظم نفع ظفرت به من المؤلفات التي نشرتها من قبل هو أنني نلت بسببها شرف الالتفات من سموك وحظيت بالتحدث إلى جنابك..

وهو ينبغي أن يكون الإهداء تملقاً وهو ليس كذلك بالفعل لأن والدها خلع من منصبه فهي ليست أميرة إلا بالاسم فقط!

يقول: لا يليق بي أن أتملق ولا أن أكتب عن أشياء ليس لي بها معرفة يقينية، وقد تضطرنني الحكمة الكاملة إلى أبارك أباراً يجعلني لا أقصر على الاعتقاد بأنك صاحبة الفضل في هذا الكتاب...!

ويقال إن أسئلة الأميرة وملاحظاتنا هي التي دفعت ديكارت إلى المبادرة بتحرير رسالة في انفعالات النفس وهي آخر مؤلفات الفيلسوف وقد نشرت عام 1646.

وفضلاً عن ذلك فقد كان ديكارت مرتاحاً أن يكون من بين تلاميذه نساء أذكياء، وكان يراهن أبعد نظراً وأسلم فطرة من الرجال وأقل منهم تشبثاً بالمزاعم والأباطيل، وربما كان هذا سبباً من الأسباب التي دعت به أن يقبل السفر إلى السويد بدعوة من الملكة كريستين لكي يلقنها فلسفته بنفسه! وعلى الرغم من أن جو استكهولم البارد لم يكن يلائم صحته، فقد قبل مع ذلك دعوة الملكة التي حددت الساعة الخامسة صباحاً للتحدث معه في الفلسفة، وكانت تلك الساعة المبكرة شاقة جداً على الفيلسوف الذي اعتاد أن يلبث في مضجعه لا يبرحه إلى ما قبل الظهر بقليل!!

تلك باختصار كلمة سريعة عن علاقات ديكارت النسائية وليس فيها ما يوحي بعزوف أبو الفلسفة الحديثة عن النساء، بل على العكس أحبهن وبارز الرجال من أجلهن. وعاشر الخادمة - وربما غيرها - معاشرة الأزواج، وصاحب ولم يكن هناك شيء مع النساء وإلا قام به.!

أما آرثر شوبنهاور (1788 - 1860) فهو صاحب قصة مأساوية تبرر ليس

فقط عدم زواجه بل كراهيته النساء إلى الأبد!. لقد كان يقول باستمرار إنه ورث عن أبيه خلقه وإرادته، وعن أمه ذكاءها.. وكانت أمه روائية بلغت أوجه الشهرة في عالم القصص والروايات، وغدت إحدى مشاهير كتاب القصة في ذلك الوقت. ولكنها لم تكن سعيدة مع زوجها الذي كان تاجرًا ضئيل الثقافة محدود الذكاء. وقد منعه ذلك عن الامتزاج بها. ومن ثم فعندما توفي هذا الزوج (وأغلب الظن أنه انتحر عام 1805م) - انطلقت هي تبحث عن الحب المتحرر بعد أن سقطت عنها قيود الحياة الزوجية وارتحلت إلى مدينة فيمار Wiemar.. التي تنسجم مع هذه الحياة المنطلقة التي كانت تتوق إليها. ولقد ثارت ثائرة الابن آرثر على هذا الاتجاه الجديد من أمه. واشتد النزاع بينهما، وترك في نفسه أثرًا لا يمحي، انتهى إلى مقتله الشديد للنساء الذي رافقه طيلة حياته، ولك أن تتخيل مدى سوء العلاقة بين الأم وابنها من الخطاب التالي الذي أرسلته هذه الأم الغريبة إلى ابنها:

إنك عبء ثقيل لا يطاق. فالحياة معك لا تحتمل، لقد محارورك كل صفاتك الحميدة حتى أصبحت ولا رجاء فيك يرجوه العالم، وذلك لعجزك عن ضبط نفسك ورغبتك القوية في اصطيد هفوات الناس!! فلما تعذرت الحياة بينهما على هذا النحو اتفقا على أن يعيشا منفصلين!

وهناك عامل مهم لا بد من الالتفات إليه وهو أن الأم كانت عشيقة لشاعر ألمانيا العظيم جوته Goethe (1749-1832).. وكان قد أقنعها بأمرين مهمين الأول أنه سيكون لابنها شأن عظيم في المستقبل؛ والأمر الثاني أن الأيام لم تسمح طوال التاريخ بظهور نابعتين من أسرة واحدة. فأدركت الأم من فورها أن نبوغ ابنها سوف يحجب نبوغها هي، ومن هنا فقد كرهته لأنه

غريمها العائق أمام صعودها سلم المجد، ولم تخفف قط من شجارها معه بل إنها في إحدى مرات الشجار العنيفة دفعته على درج السلم فانحدر هاوياً بضع درجات وعندما وقف نظر إليها في حدة وغضب وهو يقول:-

ومع ذلك فإن الأجيال القادمة لن تعرفك إلا على أنك أم شوبنهاور!

فلا يجوز إذن أن نقول إن شوبنهاور لم يتزوج بل الأصح أن نردد ومع ول ديورانت هذه العبارة الجامعة: عاش شوبنهاور وحيداً فلا أم ولا زوجة ولا ولد، ولا أسرة ولا وطن، ولا صديق ولا رفيق! بل لم يكن يشاطر معاصريه فيها ملاً صدورهم من نار الوطنية المشتعلة وقتئذ!

فمن لم يعرف حب الأم وحنانها، ومن لقي من أمه الكراهية والإساءة فلا غرابة أن ينتهي تفلسفه إلى التشاؤم وكراهية المرأة والرجال معاً بل العالم بأسره.

يعد الفيلسوف الألماني هيغل Hegel (1770-1831).. نهاية للفلسفة الحديثة وبداية للفلسفة المعاصرة. صحيح أن كانط Kant.. لم يتزوج لأن القطار قد فاتته كما كان يقول هو نفسه (فهو لم يرفض الزواج لكنه حاول مرتين وفشل) - أما فنشته فقد تزوج وأنجب ولداً انضم إلى الهيجليين الشبان في فترة من فترات حياته. أما شلنج فيعرف مؤرخو الفلسفة قصة غرامه بكارولينا شليجل زوجة الشاعر الكبير التي كانت تكبره باثنتي عشرة سنة، وقد ظل يحبها وهي زوجة شليجل حتى طلقها الأخير في 17 مايو 1803، فتروجها الفيلسوف في 26 يونيو 1803 وقام والده وكان أسقفاً بإتمام مراسيم الزواج.

أما هيغل فهو ينجب أولاً ابناً غير شرعي هو لودفيج من خادمة في بيانا (5)

فبراير 1807م) ثم تزوج من ماريافون توشرفي 6 سبتمبر 1811م وينجب منها ولدين أما نويل الذي أصبح راعياً رسولياً، وكارل الذي أصبح أستاذاً للتاريخ وهو الذي نشر كتاب والده محاضرات في فلسفة التاريخ..

وفضلاً عن ذلك فقد تزوج تلامذة هيجل لودفيج فويرباخ (1804 - 1872م) الذي ظل لأكثر من عشرين عاماً يعيش مما تنفقه عليه زوجته من إيراد مصنع الخزف والصيني. أما كارل ماركس (1818 - 1883م) الفيلسوف المادي صاحب العواطف الرقيقة فقد خطب في سن مبكرة فتاة شابة من أسرة بروسية أرستقراطية، وتزوجها في 13 يوليو عام 1843م، وعاشت معه حياة ذقت فيها الذل والهوان والبؤس فلم يكن له عمل ولا وظيفة ولا حتى وطن يستقر فيه، وكان يمهده أحياناً بالمال صديقه إنجلز (1820 - 1895م) وهو ابن صاحب مصنع نسيج ثري من بروسيا، وكثيراً ما كان ماركس يخرج باحثاً عن من يقرضه ثمن الدواء لابنته.

(3) زواج الفلاسفة.. في الفلسفة الحديثة والمعاصرة..

فإذا ما انتقلنا إلى القرن العشرين كان علينا أن نقف
عند أستاذ الفلسفة العظيم ول ديورانت سنة (1885 -
1981م).

الذي كتب موسوعة كبرى عن الحضارة استغرقت
منه أربعين سنة (1935 - 1975) واعترف ديورانت بأن زوجته ساعدته
مساعداً كبرى، وتعاونت معه في كتابة قصة الحضارة حتى إنه كتب
اسمها على الغلاف كشريكة له ابتداءً من المجلد السابع عصر العقل فهي
لم تعقه عن بحثه عن الحقيقة بل شاركته البحث عنها! والغريب أنها ماتت
معه في عام واحد (1981م) وفي شهرين متتاليين! فكتبا قصة رائعة لفضل
الزواج على الفلسفة!

أما إذا انتقلنا إلى شيخ الفلسفة المعاصرين في إنجلترا برتراند رسل
لوجدنا أنه مزواج مطلق! فقد تزوج أربع مرات غير مداعباته الجانبية
مع السيدات فضلاً عن تلصصه على الخدم! ومع ذلك فقد عاش حياة مديدة
كادت تصل إلى قرن كامل!

طلق زوجته الأولى عام 1902 وتزوج دوراً وكانت زميلته في جامعة

كيمبريدج. ومع هذه الزوجة الثانية أنشأ مدرسة تقدمية عام 1927م - ولكنه عام في 1932م أصدر كتابه الزواج والأخلاق فأثار ضجة كبرى بسبب ما فيه من آراء جريئة، اعتبرت خارجة عن العادات والتقاليد، غير أن هذه الضجة ازدادت بعد طلاقه من زوجته الثانية عام 1943م.

غير أن رسل تزوج للمرج الثالثة عام 1936م من هيلانة باتريشيا وهي التي قال عنها في مقدمة كتابه تاريخ الفلسفة الغربية: لقد عاونتني باتريشيا معاون كبرى في هذا الكتاب كما عاونتني في معظم ما أديته خلال الثلاثة عشر عامًا الأخيرة - عاونتني في البحث وعاونتني في نواح شتى غير ذلك!

ومع ذلك فقد طلقها رسل عام 1952م - وتزوج للمرة الرابعة في السنة نفسها من روائية أمريكية تدعى أديث فنش وربما يندهش القارئ من كثرة هذه الزيجات، لكنه سوف يندهش أكثر لو قلنا له إنها لم تعق تفكيره ولم تمنع حركته أو تشل نشاطه أو تقيد تأملاته - بل كان غزير الإنتاج في جميع أفرع الفلسفة لا سيما الفلسفة الرياضية - فضلاً عن الفلسفة السياسية والاجتماعية والتربوية.. إلخ. وإلى جانب ذلك كله فد كان يقود المظاهرات في الشارع، ويجلس على الأرصفة احتجاجاً على الحروب في العالم حتى دخل السجن بسبب معارضته لها ودعوته إلى السلام. وهو صاحب ومؤلف محكمة رسل التي جمعت ثلة من عظماء الفلاسفة والمفكرين في العالم كله ومنهم سارتر وأينشتاين.. إلخ. لمحكمة مجرمي الحرب من زعماء العالم الذين يسوقون البشر كالأغنام إلى المذابح!

ومن الفلاسفة المعاصرين أيضاً تزوج وليم جيمس (1842 - 1910م) عندما تعرف عام 1876م على الآنسة أليس Alice.. التي أصبحت له زوجة

عام 1878م - ويقال في ذلك أن أمراض وليم جيمس كلها زالت بعد الزواج حيث كانت زوجته تقدر ميوله العقلية والشخصية، كما كانت تشاركه في كل ما يهتم به.

ومن الرحماتين أيضًا تزوج جون ديوي (1852-1859م) .. إلخ ومن المعاصرين أيضًا تزوج هنري برجسون (1859 - 1941م) وكانت زوجته هي التي نشرت على الناس في 9 / 9 / 1941م وصيته المحررة في فبراير عام 1937م.

خاتمة كيركجور.. والتعميد الديني

المثل الصارخ لعزوف الفيلسوف عن الزواج هو مؤسس الوجودية المؤمنة سرن كيركجور (1813 - 1855م) وذلك لحاجة في نفس يعقوب!! ..

كانت التجربة الأولى التي مر بها كيركجور هي التعرف على أسرة قسيس متوفي هو القس توماس روردام وهي تتألف من أرملة وابنته بوليت أن كيركجور كان قد ارتبط بعلاقة غرام عابرة بهذه الفتاة على الرغم من أن الفتاة كان مخطوبة لطالب في اللاهوت، إلا أن كيركجور لم يهتم بهذه العلاقة فهو قادر على إزاحتها من طريقه، فليست هذه هي المشكلة، وإنما المشكلة تكمن في كيركجور نفسه فهل هو قادر على الحب؟ انظر كيف ينهي هذه العلاقة:-

آه يا إلهي! كيف يستطيع أن ينسي بسهولة تلك القرارات التي عزم عليها...؟! لقد حاولت اليوم 8 مايو عام 1827م أن أذهب إلى آل روردام وأن أتحدث مع بوليت.. لكن ملاك الرب وقف في طريقي إليها حائلًا! على

نحو ما يحول دائماً بيني وبين كل فتاة بريئة شاهراً سيفاً من نار! أشكرك يا إلهي لأنك غمرتني برحمتك ولم تتركني أصاب بالجنون! لم أكن قط خائفاً على هذا النحو من قبل!!..

ما الذي جعله يعود إدراجه ولا يكمل مشواره؟! ومن هو هذا الملاك الذي ظهر له في الطريق شاهراً سيفه الناري؟! أظن أنه خوفه من العجز الجنسي! وعدم قدرته على ممارسة الجنس الذي لم يمارسه قط ولو مرة واحدة في حياته، وكان يتمني لو فعل! أريد أن أترك نفسي للشيطان ليظهرني على كل رجس وكل خطيئة، في أكثر صورها رعباً، فذلك هو المذاق الكامن في طعم الخطيئة!. وذلك يكشف لنا أنه كان يتمنى لكنه لم يستطع وكان كلما يشعر بالعجز يترك دنيا الناس ويعود إلى الله: سوف أبتعد عنهم، أولئك الذين لا هم لهم سوى القصص عما إذا كان المرء قد ارتكب نقيصة ما، سوف أذهب إليه وحده إلى السيد الذي يتهج بهجة عظمتى بعودة التائب أكثر مما يتهج لتسعة وتسعين حكيماً ليسوا بحاجة إلى التوبة!

لكنه بعد أيام قلائل يحاول مرة أخرى تكرار زيارته إلى أسرة روردام وهو يقول في نفسه يا إلهي: لا تتدخل عني الآن - ودعني أعش وأحسن أحوالي! لكنه بدلاً من أن يفتح بوليت بحبه يجذب بصحبته مجموعة من الفتيات من بينهن فتاة شعر بأنها حبه الحقيقي، وأنها ستظل معه إلى الأبد هي رويجينا أولسن Regina Olsen (1813-1904م).. كان عمرها أربعة عشر عاماً وثلاثة أشهر، أما هو فكان في الرابعة والعشرين. وهنا تبدأ مأساة حقيقية مع هذه الفتاة البريئة التي عذبها معه، فأحياناً تعتمل في نفسه الوسوس والشكوك بعجزه، وأحياناً أخرى تحاصره وسوس غريبة أنه كان في فترة الضياع رجلاً

حسيًا وربما يكون قد ارتكب خطية، فقد كان يساوره القلق حول اتصاله الجنسي مع بغي فهل تسمع له نفسه بعد ذلك أن يدنس فتاة بريئة.. وأحيانًا أخرى كان يباهي بتفوقه واحتقاره للنساء جميعًا! وأنه قادر على أن يقف وحده فكيف يقع الآن في غرام ريجينا؟! هذه الوسواس والشكوك وغيرها كثير، كان يعمل في نفسه، لكن حبه لريجينا كان أقوى وأعمق من أن تصده الوسواس.. وبدأت الأمور تسير في مجراها الطبيعي واستمرت فترة الخطوبة نحو عام، غير أن كيوكجور كان يشعر بالقلق كلما كان يشعر بأن الأمور تسير نحو تحقيق الزواج - وهو لا يستطيع فصم على فسخ الخطوبة - وكان ما كان من الأثر للفتاة وأسرتها لدرجة أن والدها.. وكان مستشارًا ذهب إليه يرجوه ألا يتركها، ومع ذلك رفض مع أنه قضى الليلة ينتحب في فراشه لأنه كان يحبها بالفعل، لكنه لا يستطيع إتمام الزواج!

ترى لماذا رفض بإصرار والأثر يعتصره إتمام الزواج؟ هل لأن مهمته في هذه الدنيا روحية؟! أم لأن ملاك الرب كان يقف أمامه بسيفه البتار..؟!!

أغلب الظن أن كيوكجور كان عنيئًا ليست لديه القدرة الجنسية على الزواج والإنجاب. وهذا هو السيف الذي كان يشهره ملاك الرب في وجهه عندما يقدم على الاتصال المباشر بالمرأة.. وهو كثيرًا ما يلوح إلى هذه الحقيقة فيقول مثلاً:

إن ما ينقصني وما أحتاج إليه هو تلك الخصائص الحيوانية التي نشير إليها عندما نتحدث عن واحد من الرجال! بل كان يتمنى لو تبدل هذا الجسد لينعم بالحياة، فتراه يشكو إلى الله في حسرة وألم: آه! لو كنت قد وهبتني جسدًا غير هذا الجسد حين بلغت سن العشرين: إذن لكان حالي غير الحال..!

خلاصة القول إن الفلاسفة ليسوا عقولاً محض، ولا موجودات مجردة تعيش في عالم الأزل، وإنما هم موجودات بشرية كبقية خلق الله: يحبون ويكرهون ويتزوجون ويمارسون الجنس بطريقة مشروعة أو غير مشروعة (كما فعل ديكارت، وهيغل، وأوجسطين.. إلخ)..

أما من يقول إنه امتنع عن الزواج لأنه يعوقه في بحثه عن الحقيقة وسعيه وراء الحكمة فجوابنا في كلمتين فقط:-

العيب فيكم!! وليس في الزواج!!

الاستبداد من منظور نفسي...!

كتب أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود مقالاً جميلاً
عنوانه نفوس فقيرة يحلل فيه نفسية الطاغية أو المستبد
وينتهي إلى أنه صاحب نفس فقيرة وهي النفس التي
تنظر بداخلها لتجد خواء، فتمتد إلى خارجها لتقتني ما
يسد لها هذا الخواء؛ وماذا تقتني؟ تتصيد أناساً آخرين ذوي نفوس أخرى
لتخضعهم لسلطانها...!

وهي في رأيه علامة لا تخطئ في تمييز أصحاب النفس الفقيرة من سواهم،
فحيثما وجدت طاغية أو مستبداً صغيراً كان أو كبيراً - فاعلم أن مصدر
طغيانه أو استبداده هو فقر نفسه؛ أن المكتفي بنفسه لا يطغي، إن من يشعر
في نفسه بثقة واطمئنان ليس في حاجة إلى دعامة من سواه!

وهو يرى أن الطغيان أو الاستبداد قد امتد بجذوره في ربوع الشرق
لجذب نفوس أهله: فالحاكم الشرقي طاغية، والرئيس الشرقي طاغية، والولد
الشرقي طاغية والزوج الشرقي طاغية طغاة هؤلاء جميعاً لأن في نفوسهم
هزلاً يعوضونه بمظاهر الاستبداد بسواهم...!

ويميل علماء النفس إلى الاتفاق مع أستاذنا في أن المستبد أو الطاغية هو
رجل منحرف سادي يتجه نحو السيطرة على غيره وإيقاع الأذى به ليسد ما
لديه من خواء نفسي وإذا كانت البداية قد ارتبطت بالجنس فإن الميل ظاهر

في المجال السياسي أكثر منه في أي حقل آخر، فهنا نجد أن السادية المتسلطة لا تفرض سيطرتها على شخص واحد، وإنما على مجموعة من الأشخاص، بل ربما على شعب بأكمله، ويشعر الحاكم بلذة غريبة في إنزال ألوان من الألر والعذاب بمجموعة من الناس لإخافة بقية أفراد الشعب. ففي تراثنا أن سفيان بن معاوية والي البصرة عندما جاءه أمر الخليفة بأن يقتل ابن المقفع أحصى لفريسته تنورا، وجعل يقطع من جسم ابن المقفع شريحة بعد شريحة وهو حي ويلقي بالشريحة في التنور ليرى الأديب أطرافه كيف تقطع ثم تحرق، قبل أن تحرق بقيته دفعة واحدة آخر الأمر...!!

وفي التراث اليوناني القديم أن فلاريس Phalaris.. طاغية مدينة (أجريجنتم Agrigentum.. من أعمال صقلية) كان يشوي المساجين من أعدائه في مملكته بأن يضعهم داخل ثور نحاسي ضخيم، ثم يوقد تحته نارا هادئة، وتوضع قصبتان تشبهان المزمارة في منخري الثور بطريقة فنية بارعة بحيث تتحول أنات المساجين وصرخاتهم حين تصل إلى أذنيه نغمات وألحان موسيقية شجية!!... وهنا نجد أعلى نموذج للسادية: الاستمتاع بإيذاء الشعب وإيلامه!! وإذا تساءلنا: ما خصائص هذه الشخصية الأقوى، الشخصية السادية المتسلطة والمسيطرة على الآخرين؟..! فكانت الإجابة:-

جميع الأشكال السادية التي يمكن أن نلاحظها ترتد في نهاية الأمر إلى دافع أساسي واحد هو السيطرة الكاملة على الآخرين بأن تجعلهم موضوعا عاجزا تحت إرادتها، وتصبح هي الحاكم المطلق عليه، بل أن تصبح إلهة، وأن تتصرف فيه كما تشاء: فتذله، وتستعبده، ويكون هدفها الأساسي أن تجعله يعاني، فلا توجد سيطرة على شخص آخر أقوى من بث الألر فيه لإرغامه

على الإحساس على بالمعاناة، دون أن يكون قادراً على الدفاع عن نفسه، أن متعة السيطرة التامة على شخص آخر هي ماهية الدافع السادي..

وهذا الميل للذات البشرية لأن تكون سيّداً مطلقاً على الآخر هو الضد المباشر للنزعة المازوخية التي تستعذب الخضوع والاستسلام، فهذا الميلان المتعارضان يرتبطان ارتباطاً وثيقاً. فالرغبة في الخضوع والتبعية، والمعاناة، والعذاب هي عكس الرغبة في السيطرة والتسلط، وجعل الآخرين يعانون؛ غير أن الحاجة الأساسية الكامنة في الميلين هي في الواقع حاجة واحدة تنبع من العجز عن تحمل العزلة والوحدة وضعف الذات.

في ميدان العلاقات السياسية، فإننا نجد الشخصية السادية تتحول إلى شخصية استبدادية هي شخصية الطاغية المتسلط، أو القوة الأمرة النشطة التي لا تعترف بالمساواة بين الناس، لأنها تتعارض مع الفلسفة التي تقوم عليها، بل وفقاً للأعراف والعادات أو أنها تخدم مصالح معينة مؤقتة. أن العالم عند أمثال هذه الشخصية الطاغية يتألف من نوعين من البشر الفئة الأولى: هم الأقوياء المتميزون، والثانية: هم الضعاف الذين لا حول لهم ولا قوة، أو هو يتألف من الأعلى والأدنى، والشخصية الأعلى المتميزة هي شخصية القائد أو الزعيم أو مبعوث العناية الإلهية الذي لا بد أن تخضع له الشخصيات الأدنى والمازوخية السلبية العاجزة، فليس هناك شيء يفعلونه أو يشعرون به أو يفكرون فيه لا يرتبط على نحو ما بهذه الشخصية القوية، أنهم يتوقعون الحماية منه هو، ويريدون أن يكونوا تحت رعايته هو ويجعلونه هو مسؤولاً كذلك عن نتائج أفعالهم، وهكذا يتحول هذا القائد الملهم إلى ساحر يعينهم على الحياة، ويحقق لهم مطالبهم في الحماية، والأمن، والنمو،

والتطور ولهذا نراهم يحتجون إذا تركهم وذهب، أو هدد أن يتركهم لأنهم سوف يشعرون بالوحدة من دونه، ويعجزون عن الفعل، ولا يستطيعون اتخاذ أي قرار، إنها شخصيات هزيلة تريد باستمرار أن تكون تابعة، منقادة، معفاة من المسؤولية! فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم، والأوامر بالانقياد، والنواهي بالتعظيم! على ما يقول ابن كثير!.. والحاكم السادي المستبد المسيطر متعته في أن يأمر ينهي، والمحكوم المازوخي السليبي المتقبل في أن ينقاد ويطيع...!

تلك هي العلاقة السادوماخية بين المستبد وشعبه، وأقوى مثال لها في الغرب إنما يوجد في ألمانيا النازية، وإن كان ينطبق في جميع مراحل التاريخ، فقد كان هتلر في ألمانيا (1889 - 1945م) شخصية سادية متسلطة - على ما كان موسوليني في إيطاليا (1883 - 1945م) تهدف إلى السيطرة التي لا حد لها على الآخرين، ابتداءً من المحيطين به وامتداداً إلى الشعب الألماني ثم إلى العالم بأسره! وفي استطاعتنا أن نجد تعبيرات متنوعة عن الرغبة السادية العارمة في الحصول على القوة المسيطرة في كتاب هتلر المعروف كفاحي الذي يعرض بالتفصيل للعلاقة بين الزعيم الملهم الذي يفكر للآخرين ويخطط ويوجه وبين أفراد المجتمع المستسلمين الخاضعين، ثم العلاقة بينهما وهي علاقة يسمى روح التناقض Ambivalence.. فهو يحب الجماهير الألمانية ويحتقرها في وقت واحد؛ فالشخصية السادية لا تستطيع الحياة من دون الموضوع الذي تمارس عليه سطوتها، وسيطرتها؛ لكنها في الوقت نفسه لا تحترمه، ولهذا فإننا نجد هتلر يتحدث عن رضا الجماهير بالخضوع لسيطرته يقول ما تريده هذه الجماهير هو انتصار الأقوى، وسحق الأضعف، واستسلامه بغير شروط...! ويقول أيضاً أن الجماهير كالمرأة تريد أن تخضع لرجل قوى لا أن يسيطر

عليها رجل ضعيف؛ ولهذا فهي تحب الحاكم القوي لا الحاكم المتضرع المتوسل...

ولا تظن - أيها القارئ العزيز أن هذه العلاقة الساد ومازوخية بين الحاكم والمحكوم إنما توجد في الغرب عند أمثال هتلر وموسوليني.. وغيرهم ونحن منها أبرياء! إننا يا سيدي أمة تحيا وفق حكمة استنهاها شاعر من شعرائها الأقدمين وهي إنما العاجز من لا يستبد! استمع إلى عمر بن أبي ربيعة يقول:

ليت هذا أنجزتنا ما تعد وشفث أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد!

ويشن أدينا الكبير توفيق الحكيم حملة عنيفة على طغيان الزعيم (في كتابه عودة الوعي ص 92 - 93) بل إنه يعتبر فكرة الزعامة المسؤولة عن ضياعنا، فقد علمتنا هذه الفكرة أنه لا يوجد في مصر، ولا في العالم العربي كله غير عقل واحد، وقوة واحدة، وشخصية واحدة هي عبد الناصر وبدونه لا يوجد شيء: فلا رجال، ولا عقول، ولا قوى يعتمد عليها - وليس أماننا إلا الضياع وهكذا الفاشية، والهتلرية، والناصرية تقوم على أساس واحد هو إلغاء العقول والإرادات الأخرى ما عدا عقل وإرادة الزعيم، وهي كلها شاهدت هجرة العديد من العقول إلى الخارج كما حدث أيضًا لكثيرين من مصر - أن فكرة الزعامة على العالم العربي هي التي أضاعتنا جميعًا.. وهي التي استحوذت على فكر عبد الناصر وجعلته قوة مدمرة لنفسه ولمصر والعرب!! وقل مثل ذلك في الزعيم الملهم صدام حسين ومؤلف الكتاب الأخضر القادر على حل مشكلات العالم معمر القذافي... إلخ. ألا فليقرأ كل من له عينان!!

وما العمل.. إذن؟! كيف تحل مشكلات مصر السياسية، والثقافية، والاقتصادية... إلخ.

لا حل أمامنا سوى الديمقراطية، والديمقراطية تجربة إنسانية (لا هي شرعية ولا غريبة) أثبتت جدارة وحققاً في البقاء، وظهرت معها نظم كثيرة زالت أو هي في طريقها إلى الزوال: وعلينا أن نفهم جيداً أن الديمقراطية ممارسة وليست مسألة نظرية هي أقرب ما تكون إلى السباحة وقيادة السيارة: لا بد أن تنزل الماء لكي تتعلم السباحة، ولا بد أن تصارع الأمواج وتوشك على الغرق لكنك تتعلم العيوب والثغرات التي وقعت فيها وتصلحها شيئاً فشيئاً.. أعلم أن كثيراً من المصريين سيقولون أن هناك كثرة نجحوا بالرشاوي والتزوير.. والزيت والسكر وما إلى ذلك.. لكن علينا أن نعاود المحاولة ونصلح الأخطاء، ونتعلم جيداً أن الديمقراطية كانت على هذا النحو في أعظم وأقدم الديمقراطيات في العالم: الديمقراطية الإنجليزية وكانت مقاعد كثيرة في مجلسي اللوردات والعموم محجوزة لأصحاب الشيكات، وكان آخر الإصلاحات الديمقراطية ما قام به ونستون تشرشل في تحجيم ما ينفق على الدعاية الانتخابية بمبلغ ضئيل جداً أظنه مائة جنيه أسترليني!

يا شعب مصر العظيم أرجوك بل أتوسل إليك ألا تبحث عن مخلص فخلاصك بيدك لا بيد شخص آخر مهما كان حديثه منمقاً عن المواطن وكرامته وعزته فذلك كله دغدغة للعواطف مثلها مثل الحكم الثيوقراطي الذي هو أحد أفراد عائلة كريمة هي عائلة الطغيان والاستبداد، وماذا نقول في أمر فائدة الذي جاء في أقواله المأثورة:

- طظ في مصر، وأو مصر، واللي في مصر!!

- الشارع المصري أهبل!!

وغير ذلك كثير.

أرجو أن تختفي من قاموسنا السياسي مصطلحات مثل المخلص والمنقذ،
والزعيم الأوحى، والقائد الملهم، ومبعوث العناية الإلهية.. وأن يختفي معها
تخطيط الإنسان وتدمير قيمه وتحويل الشعب إلى جماجم، وهياكل عظمية
تسير في الشارع منزوعة النخاع: شخصيات تافهة تطحنها مشاعر العجز
والدونية واللا جدوى!!

حديث عن السادية

أما السادية Sadism.. فهي مذهب في علم النفس
اشتق اسمه من الماركيز دي ساد Marquis De. Sade
(1740-1814).. وهو كاتب وأديب فرنسي غريب
الأطوار لا يمل من قراءة الكتب حتى إنه يحتفظ
بمكتبته وهو في السجن، كما أنه صعلوك وشاذ ومنحرف وفاسق وفيلسوف،
وصاحب استبصارات قوية حول الطبيعة البشرية حتى أصبح اسمه مذهباً
شهيراً في علم النفس!

ومن هنا اختلفت فيه الآراء، فذهب البعض إلى أنه مجرم، بل شيطان آثم.
وإن كان إنساناً فهو على أقل تقدير فاسق وفاجر، ولهذا استحق أن يقضي
معظم حياته في السجن، كما حدث بالفعل، وأن يكمل البقية الباقية منها في
مصحة الأمراض العقلية، وأن يموت فيها!! وذهب آخرون إلى أنه مجسد.
الانحراف Perversion.. بأنواعه المختلفة لا سيما الانحراف الجنسي، وهو
انحراف نتج عن كراهية شديدة لأمه ودفاع ضد خوفه من عقدة الخشاء
Castration.. كما دفعته إلى الانتقام من الأنثى عمومًا. ورأى فريق ثالث
أنه فيلسوف عصر التنوير غير منازع، فقد سار بأفكار ذلك العصر حتى
نهايتها، فأخذ بالمادية، والإلحاد، والإباحية، في أشد صورها تطرفًا.. بينما رأى
فريق رابع أن السادية ليست مجرد شذوذ أو انحراف جنسي، بل إنها كانت

سلاح دي ساد لارتداد آفاق مجهولة في الطبيعة الأساسية للأخلاق. غير أن من الباحثين من يرى أن السادية، ليست ظاهرة حديثة في حياة الإنسان، وإنما هي ظاهرة قديمة وإن لم تشكل انحرافاً فإن درجة معينة من الممارسة السادية تحدث في حياة معظم الناس الجنسية، فهم على العموم يقومون أثناء العملية بكثير من الأفعال المؤلمة. مثل: القرص، والחדش، والعصر والعض بالإضافة عنده إلى ضرب النساء بالسوط وهن عاريات، وتقول إحداهن وهي أرملة في السادسة والثلاثين من عمرها، أنه أخذها إلى المنزل بحجة أن يستأجرها كالعادة كخادمة.. أخذني إلى منزله في ضاحية من ضواحي باريس، وهناك هددني بسكين وأرغمني على خلع ملابسني ثم ضربني بالسوط وأنا عارية حتى أدمى جسدي! ثم شقق أردافي بسكين، وصب في الشقوق شمع الختم المذاب واستمر يضربني بالسوط حتى صرخ صرخات مرعبة...!.. كما كان يقيد المرأة بالحبال ويربطها في السرير من اليدين والساقين.. قبل أن يجامعها.. وغير ذلك من الأفعال الغريبة والشاذة التي ينتج عنها أحياناً بعض الآلام الخفيفة غير الضارة أو المؤذية، وأحياناً أخرى تبلغ أقصى حدود التطرف والإيذاء لأي من المشاركين فيها كما حدث في حالة الماركيز دي سا مع المرأة المسكينة الأرملة التي ذكرناها الآن توًا..

وعلى الرغم من أن الانطباع السائد هو أن الماركيز دي ساد، قد ركز اهتمامه على ممارسة العنف في العلاقات الجنسية، وهي ممارسة قد تكون مؤلمة، بل شديدة الأثر في بعض الأحيان كإحداث شروخ بمشط أو سكين في جسد الضحية وملئها بالشمع المذاب... إلخ.

وبدأ الناس يتهايمسون: هؤلاء الأرستقراطيون يفلتون دائماً من العقاب!

ومثل على ذلك هذا الماركيز! ولكن الماركيز دي ساد أنكر أمام المحاكم الجنائية الكثير من الوقائع والروايات التي تروي عنه، وأن كان قد اعترف بأنه ضربها بالسوط لكنه أنكر الفسوق والتفصيلات الأخرى قال:

إنها لم تفهم جيداً السبب الذي استأجرتها من أجله.. وأنا لم أقيدها لكي ضربتها بالسوط فقط ثلاث أو أربع مرات برزمة من الجبال ولم أشقق جسدها بل فقط لطخت جلدها بشمع أبيض يشبه البلسم!..

وتخلص دي ساد من السجن بغرامة زهيدة فقد أفرج عنه يأمر من الملك على أن يظل في المنفى في بلدة بعيدة!..

وعلى الرغم من ذلك فإنه كان يحمل الأفكار التي أصبحت مثاراً للاهتمام العلمي بعد وفاته بقرن ونصف، وذلك لأنه قد أدرك من تجربته الخاصة مدى العلاقة الوثيقة (التي أثارها سقراط في القرن الرابع قبل الميلاد في محاوره فيدون) التي تربط اللذة والألم، وسواء اتفق العلم أو اختلف مع آرائه، فقد فتح مصطلح السادية Sadism.. الذي ينسب إليه بابا واسعاً للتأمل في ظاهرة قديمة وملازمة بدرجة أو بأخرى - للحياة الإنسانية وهي ظاهرة العنف أو العدوان أو الدوافع التي تجعل الإنسانية تجد لذة في إيذاء الغير لا لغايات جنسية فحسب، بل لغايات أخرى لا يبدو فيها أي غرض جنسي، فما أصول هذه الظاهرة أولاً: ثم ما الصلة بين سلوك العنف والعدوان والإيذاء الذي يمارسه الإنسان في حياته وبين الجوانب الجنسية ثانياً: ثم ما علاقة السادية بظاهرة إقبال الناس في معظم الحضارات والأزمان على ما يتسم بالعنف في السلوك سواء كانت هذه الأنشطة جسدية كالحروب والمعارك المؤذية أو الألعاب الرياضية العنيفة وغيرها من النشاطات الجسدية المتسمة بالعنف أو

كانت أنشطة غير جسدية كالصور، والأفلام، والروايات بل حتى الأحلام والخيالات التي تصور العنف؟!

ولقد كتبت سيدة صديقة والده الأب دي ساد تصف الحالة المزاجية السائدة:

لقد اندلعت كراهية عامة ضده، أي ضد الابن، تجاوز كل وصف أحكم عليها أنت بنفسك! لقد اعتقد الناس أنه يندمج في عملية الجلد بالسوط الجنونية ليسخط من آلام المسيح وعذابه وأنه كان ضحية لوحشية الجماهير...!!

ولقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذه الظاهرة الإنسانية - ظاهرة الإقدام المباشر أو غير المباشر على العنف - إنما هي مظهر من مظاهر التعبير عن الطاقة الجنسية التي لا يمكن استنفادها بشكل كاف بالطرق الجنسية المباشرة المعروفة؛ ولهذا السبب فلا بد لها أن تظهر على صورة عنف أو ميل إلى العنف، وعلى الرغم من أنه يصعب إثبات هذه العلاقة، فإننا لا نستطيع أن نتغافل عن ملاحظة علمية تقول إن الاستجابات الجسدية الفسيولوجية للاعتداء والعنف مهما يكن الداعي إليها تشبه في معظم الحالات - الاستجابات الفسيولوجية للعلاقات الجنسية - كما أن قدرة الفرد على ممارسة العنف بغض النظر عن أسبابه تضعف إلى حد بعيد. عندما يصل المرء في مرحلة الانطفاء للاستجابات الجنسية. أو بسبب انغماس الفرد المتواصل في الأنشطة الجنسية. وهذه الملاحظة مهمة، لأنه تبين لنا مدى العلاقة بين العنف والجنس في حياة الإنسان وفي المجالات المختلفة من نشاطاته.

ثم تحولت السادية إلى نظرية في علم النفس على يد سيجموند فرويد

S.Freud (1856-1939).. وتحوّلت كذلك إلى نظرية في الأدب، فأصبح مصطلح السادية تدل على الفلسفة المادية الحسية التي اعتنقها كثير من أدباء القرن الثامن عشر في فرنسا، ولا سيما فلاسفة الموسوعة من أمثال كوندروسيه Condorcet (1743-1794).. ودنيس ديدور D. Diderot (1713-1784).. وغيرهما. وهي فلسفة تذهب إلى أن العالم عبارة عن مادة في حالة حركة مستمرة، وليس في استطاعة الإنسان أن يدركها إلا من خلال حواسه. ومن ثم فعلي الإنسان في رأي هذه الفلسفة أن يدرب حواسه باستمرار ليكون على دربة ودراية تامة بطبيعتها، ولكي يدرك المبدأ الحقيقي للإنسان، فهذه الفلسفة تظهر من مظاهر سعي الإنسان وراء الحقيقة في ضوء فطرته. ويرى الماركيز دي ساد أن الإنسان بفطرته ليس خيراً. وإنما هو بالطبيعة عنيف، قاس، والعودة إلى الطبيعة تعني الارتداد إلى هذه القسوة بإثارة ما في كوامن النفس من غرائز عيفة، والتأمل من غير خداع للنفس في مصادر اللذة والمتعة، مما يجعله يشعر باتساع آفاق ذاته وحدودها والملاحظة أن هذه الفلسفة تعدت حدود القرن الثامن عشر، وأثرت في الحركة الرومانسية في أوروبا حتى العقد الأخير من القرن التاسع عشر، حيث لعبت دوراً مهماً في المدرسة الرمزية في فرنسا وهكذا يبين لنا أن السادية لم تكن كلها ممارسة جنسية عملية يسودها العنف فحسب؛ بل كان لها جانب نظري تمثل في مؤلفات الماركيز دي ساد ذات المحتوي العنيف في تصوير الممارسات الجنسية وأهم هذه المؤلفات روايته الشهيرة جوستين وجوليت والمعروفة أيضاً باسم لعنة الفضيلة ونعمة الرذيلة.. وإن كان الماركيز لم يمارس سوى القليل مما خلقه خياله الخصب في مؤلفاته. فإنه خلق لنا مصطلحاً ارتبط باسمه، بل أصبح من أكثر المصطلحات تداولاً على ألسنة الكتاب والمؤلفين،

بل من أشدها تنوعاً حتى في علم النفس الحديث ذاته. فعلى حين أن السادية تعتبر في حياتنا إزاحة خارج النفس لغريزة الموت والهدم، فإنه يتبين أن الانحراف السادي يعتمد على مزج كفة الهدم، وكفة الحب والحياة معاً، وقد يكون تفرغ العداوات مجلبة للذة في حد ذاته.

وقد تفرع عن السادية أنواع كثيرة جداً فهناك:

السادية المعقدة Complicated Sadism.. عندما لا يعاني المريض وهو يقوم بفعل اللذة وحدها، بل أيضاً الرعب والاشمئزاز والألم، ويستخدم هذا المصطلح في مجال الطب العقلي.

السادية المقلوبة Inverted Sadism.. وهو الكبت الإيجابي لميول سادية قوية.

السادية الاستية Anal Sadism.. وهي توجد في الأصل أثناء استياء الطفل من توقيع العقاب عليه أثناء تعلمه النظافة في الإخراج.

السادية السياسية Political Sadism.. وتوجد في حكم الطاغية الذي يستمتع بتعذيب الرعية، حتى يصبح الناس كما يقول نزار قباني:

حين يصير الناس في مدينة

ضفادعا مفقوءة العيون

فلا يثورون ولا يشكون

ولا يغنون.. ولا يكون

ولا يموتون ولا يحيون

تحترق الغابات والأطفال والأزهار تحترق الثمار

ويصبح الإنسان في موطنه

أذل من صرصار.

وسوف نعود إلى هذا النوع من السادية لأهميته بالنسبة لنا.

وهناك أيضًا السادية الفمية Oralsadism..

وسادية الهوى أو الغرائز IdSadism..

والسادية القضيبية PhallicSadism..

وسادية الأنا الأعلى، والسادية اللاشعورية.. وغير ذلك كثير مما تزخر

به قواميس ز س.

«وحدث عن المازوخية»!...

سابق أن تحدثنا عن السادية Sadism... وهي مذهب غريب يتلذذ صاحبه بإنزال الأثر بالآخرين، واشتق اسمه من الكاتب الفرنسي غريب الأطوار الماركيز دي ساد - وإذا كان هذا المذهب هو المذهب هو القطب الإيجابي الفاعل الذي تقوم فيه الأنا بتعذيب الآخر وتشعره باللذة والسعادة من هذا الفعل، فهناك القطب المضاد للسادية وهو مذهب (المازوخية Masochism).. ويكتب أحياناً الماسوشية أو المازوخية) الذي يعبر عن حالة الفرد في تقبله لما يمكن أن يقع عليه من ألم أو إيذاء جسدي أو نفسي من شخص آخر واستمتاعه بهذا الأثر، وينسب هذا المصطلح إلى الكاتب الروائي النمساوي الذي ارتبطت باسمه هذه الظاهرة وهو ليولد زاخر مازوخ LepoldZacherMasoch (1836-1895).. الذي ألف الرواية الشهيرة فينوس في الفراء VenusinFurs... وهي تعبر في بعض أجزائها عن فترات وتجارب من حياة المؤلف نفسه وخصوصاً في طفولته، والحادثة التي استرعت اهتمام المحللين النفسيين، هي أن مازوخس Masoch.. عشيقاً لها بني الحين والآخر، وقد دفعه حب الاستطلاع ذات مرة إلى الاختفاء في دولاب الملابس، لي شاهد ما يحدث بالفعل، بينما كان مازوخ يرصد كل ذلك بحماس واهتمام، بدت منه حركة جلبت الاهتمام إليه، واكتشف أمره، وعاقبته عمته بضرب مؤلر. وهكذا يفسر المحللون قيام ارتباط وثيق بين

الألر الذي وقع عليه وبين لذة الإثارة الجنسية التي كان مازوخ يستمتع بها، وبأن هذا الارتباط قد أثر في نفسه إلى حد جعل من الممكن قيام اعتماد متبادل بين الشعور بالألر واللذة. ويبدو أن هذه التجربة قد تكررت مع مازوخ لدرجة أن المازوخي.

وهكذا ظهر مصطلح جديد أو نظرية جديدة يطلق عليها اسم Sadomasochism.. التي هي إيقاع الألر بالآخرين، والطرف الآخر وهو المازوخية التي هي على العكس تقبل إيقاع الألر على الذات والاستمتاع به، وقد يقصد بهذا المصطلح أحياناً من باب التوسع - تلذذ المرء بما يقع عليه من اضطهاد. وعلينا أن نسوق هنا ثلاث ملاحظات مهمة:

الملاحظة الأولى: هي أنه على الرغم من أن هذين المصطلحين قد ارتبطا في البداية بالجنس واستخدمتهما مدرسة التحليل النفسي في تفسير الكثير من مظاهر السلوك البشري، فإنهما قد انتقلا بعد ذلك إلى علم النفس الاجتماعي، ثم إلى علم الاجتماع، وأخيراً إلى ميدان الفلسفة السياسية وهي التي تعيننا هنا بالدرجة الأولى.

والملاحظة الثانية: هي أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين المصطلحين أو بين النزعة المتسلطة التي تفرض سيطرتها على شخص أو مجموعة من الأشخاص، وبين النزعة المازوخية التي تستسلم، بل وتستعذب الألر الذي يقع عليها مما يبرر جمعهما في مصطلح واحد هو ما نسميه بالعلاقة السادومازوخية وهي العلاقة التي فيها الطرف الأول قوة مهيمنة متسلطة تفرض إرادتها، في حين يكون الطرف الثاني شخصية مستسلمة خاضعة.

والملاحظة الثالثة: هي أنه إذا كان علم النفس قد نظر في البداية إلى

هذه العلاقة على أنها تمثل انحرافاً عن الطريق السوي، فإن معظم علماء النفس يعتبرونها الآن نزعات طبيعية عند البشر رغم أنها قد توجد بصورة منحرفة عند بعضهم. يقول أريك فروم (Erich Fromm 1900-1980).. أن النزعات السادومازوخية موجودة عند البشر بدرجات متفاوتة في الأشخاص الأسوياء والمنحرفين على حد سواء.. والعامل الخفي في هذه العلاقة هو تبعية كل طرف للآخر واعتماده عليه. وقد يبدو ذلك واضحاً في الشخص المازوخي الذي يمثل الجانب الضعيف الخانع المستسلم، وقد نتوقع أن تكون الشخصية السادية هي على العكس: قوية ومستقلة ويصعب اعتمادها على الشخصية الضعيفة أو تمسكها بها، ومع ذلك فالتحليل الدقيق يكشف عن وجود هذه التبعية بين الطرفين أو ما يسمى في الفلسفة بجدل العلاقة بين الطرفين.. فالشخص السادي يحتاج إلى الذي يتحكم فيه ويسيطر عليه إنه يحتاج إليه بشدة ما دام شعوره بالقوة كامناً في واقعة أنه سيد لشخص ما. وهو قد لا يعي هذه التبعية على الإطلاق. ومن هنا فقد يعامل الرجل زوجته على نحو سادي تماماً. وقد يكرر على مسامعها أنها تستطيع أن تترك المنزل في أي وقت، وأنه سيكون سعيداً للغاية لو أنها فعلت ذلك. وكثيراً ما يعتصرها الألم حتى أنها لا تجرؤ على مغادرة المنزل. وهكذا يستمر كل منهما في الاعتقاد بأن موقفه هو الموقف الصحيح، غير أن الزوجة لو انتابتها شجاعة مفاجئة جعلتها تجرؤ على القول بأنها ستتركه، فقد يحدث شيء غير متوقع تماماً بالنسبة لهما معاً، إذ يصبح الزوج بائساً منهاراً يتوسل إلى زوجته ألا تتركه، وسوف يعلن كم هو يحبها!...

وربما كانت هذه العلاقة أوضح ما يكون في حقل السياسة وقد صورها الأديب الأمريكي هيمنجواي بالحاكم الظالم الجبار على شعبه، فيقرر الشعب

ترك المدينة له، والذهاب للعيش في غابة ويستيقظ الحاكم ليجد نفسه وحيداً ويعلم أن شعبه يعيش في الغابة فيذهب إليهم ويلح عليهم في العودة واعدًا ألا يعود أبداً إلى الظلم مرة أخرى فهو بدونهم لا يكون ملكاً ولا حاكماً.

وهي كلها أفكار مأخوذة من فكرة هيجل عن جدل السيد والعبد طوال التاريخ وهو صراع انحل مع اندلاع الثورة الفرنسية عندما أصبح الكل سادة وتم إلغاء نظام الرق من المستعمرات الفرنسية أولاً ثم من العالم كله بعد ذلك.

أما بالنسبة لإحساس المازوخي بالألتر على أنه لذة فليس ثمة رأي قاطع بالنسبة للشخص الذي يقع عليه الألتر أنه يشعر به كألتر أم أن الألتر يتحول في إحساسه إلى شعور باللذة، إذ يذهب بعض العلماء إلى أن إحساس الألتر في نفس المازوخي يتحول بطريقة ما إلى لذة، وهناك آخرون لا يتفقون مع هذا الرأي. وعلى أية حال فليس ثمة شك في أن المازوخي يشعر مع الألتر بشيء من الراحة وأن الإحساس بالألتر إذا استمر فقد يصبح إحساساً مرغوباً فيه. وهكذا فإن ما يبدو في الأصل شعوراً بالطاعة أو خضوعاً ضرورياً، فإنه قد ينتهي أخيراً بتوفير اللذة لصاحبه ومن شأنه أن يدفع بالفرد إلى البحث عن هذه اللذة حتى ولو كانت عن طريق الألتر وتقبله. وقد يدعم هذا الرأي، أن الألتر كلما زاد كانت اللذة الناتجة عنه أكثر متعة لصاحبها، وهي ملاحظة معروفة منذ القدم، ولها ما يؤيدها في مفهوم العلم المعاصر.. ولكن سبق أن أشرنا إلى أن السادية من ناحية والمازوخيّة من ناحية أخرى يمثلان ضرباً من ضروب الحكم السياسي يقوم على أساس المتسلط وهو الحاكم والخاضع وهو المحكوم - وقد تستمر فترات طويلة من التاريخ - لكن ذلك يحتاج إلى تفسير طويل وهو ما سوف نعالجه في مقالنا القادم عن خرافة المستبد العادل!...

مؤلفات الأستاذ الدكتور

إمام عبد الفتاح إمام

أولاً: التأليف

- (1) «المنهج الجدلي عند هيجل» طبعة أولى - دار المعارف بمصر عام 12968 - طبعة رابعة دار التنوير، عام 1993 (العدد الثاني من المكتبة الهيكلية) طبعة خامسة، مكتبة مدبولي عام 1996.
- (2) «مدخل إلى الفلسفة» طبعة أولى - دار الثقافة بالقاهرة عام 1972 - طبعة خامسة 1982 - طبعة سادسة - مؤسسة دار الكتب بالكويت عام 1993، طبعة سابعة - دار قباء بالقاهرة.
- (3) «كيرجور، رائد الوجودية» المجلد الأول (حياته وأعماله) طبعة أولى، دار الثقافة، عام 1982، طبعة ثانية، دار التنوير بيروت عام 1982 (العدد الثاني من سلسلة الفكر المعاصر).
- (4) «دراسات هيكلية» طبعة أولى - دار الثقافة للنشر والتوزيع، عام 1984 - طبعة ثانية، دار التنوير، بيروت، عام 1993 (سلسلة المكتبة الهيكلية).
- (5) «توماس هوبز: فيلسوف العقلانية» طبعة أولى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، عام 1984 - طبعة ثانية - دار التنوير، عام 1985 - طبعة ثالثة، عام 1993.
- (6) «تطور الجدل بعد هيجل» المجلد الأول «جدل الفكر» دار التنوير،

عام 1985 - طبعة ثانية عام 1993 (العدد 8 من سلسلة المكتبة الهيجلية) طبعة ثالثة، مكتبة مدبولي، عام 1996.

(7) «تطور اجلد بعد هيجل» المجلد الثاني: «جلد الطبيعة» دار التنوير، بيروت 1985 - طبعة ثانية، عام 1993 (العدد 9 من سلسلة المكتبة الهيجلية) طبعة ثالثة، مكتبة مدبولي، عام 1996.

(8) «تطور الجدل بعد هيجل» المجلد الثالث: «جلد الإنسان» دار التنوير، بيروت 1985 - طبعة ثانية، عام 1993 (العدد 9 من سلسلة المكتبة الهيجلية) طبعة ثالثة، مكتبة مدبولي، عام 1996.

(9) «دراسات في الفلسفة السياسية عند هيجل» طبعة أولى، دار الثقافة بالقاهرة - طبعة ثالثة، دار التنوير، بيروت عام 1993، مكتبة، مدبولي، عام 1996.

(10) «كيركجور: رائد الوجودية» المجلد الثاني «فلسفته» طبعة أولى، دار الثقافة بالقاهرة عام 1986 - طبعة ثانية، دار التنوير، بيروت، عام 1993.

(11) «أفلاطون والمرأة» طبعة أولى، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت عام 1992 - طبعة ثانية، مكتبة مدبولي عام 1996 (سلسلة الفيلسوف والمرأة).

(12) «رحلة في فكر زكي نجيب محمود» المجلس الأعلى للثقافة 2001.

(13) «الطاغية» دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسي، سلسلة عالم المعرفة، عام 1994 - طبعة ثالثة، مكتبة مدبولي، عام 12996.

- (14) «معجم ديانات وأساطير العالم» في ثلاثة مجلدات، مكتبة مدبولي بالقاهرة.
- (15) «مدخل إلى الميتافيزيقا» - دار نهضة مصر، عام 2005.
- (16) «توماس هوبز، فيلسوف العقلانية» طبعة أولى، دار الثقافة بمصر، عام 1986 - دار قباء 2003.
- (17) «الأخلاق والسياسة» طبعة أولى - أصدره المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (18) «هيجل وعصره» طبعة أولى، دار قباء بالقاهرة 2003.
- (19) «الهيكلية الجديدة في إنجلترا» الرواد، دار قباء بالقاهرة 2003.
- (20) «الفلسفة» سلسلة الشباب عدد رقم 1 - قصور الثقافة، عام 2004.
- (21) «الحب» سلسلة الشباب عدد رقم 10 - قصور الثقافة، عام 2004.
- (22) الديمقراطية والوعي السياسي - دار نهضة مصر 2005.

ثانياً: بحوث ودراسات

- (1) «المقولات بين أرسطو وكانط وهيجل» دراسة بحوليات كلية الآداب بجامعة الفاتح بليبيا، عام 1976.
- (2) «مفهوم التهكم عند كيركجور» دراسة بحوليات كلية الآداب بجامعة الكويت، عدد 19، عام 1983.
- (3) «الهيكلية» دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثاني) معهد الإنماء العربي، بيروت.

- (4) «الهيكلية الجديدة» دراسة للموسوعة الفلسفية (المجلد الثاني) معهد الإنماء العربي بيروت.
- (5) «الفلسفة الثنائية عند زكي نجيب محمود» عالم الفكر بالكويت، المجلد العشرون، العدد الرابع، يناير، عام 1990.
- (6) «مسيرة الديمقراطية: رؤية فلسفية - عالم الفكر بالكويت، يناير، عام 1994».
- (7) «هيباشيا: فيلسوفة الإسكندرية» - مجلة عالم الفكر بالكويت، المجلد الثاني والعشرون، العدد الثالث، يناير 1994.
- (8) «زكي نجيب محمود في جامعة الكويت» - مجلة عالم الفكر بالكويت يناير، عام 1999.

ثالثاً: الترجمة

- (1) «الجبر الذاتي» رسالة كتبها بالإنجليزية الدكتور زكي نجيب محمود، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر عام 1972، صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة عام 2001.
- (2) «العقل في التاريخ لهيكل» طبعة أولى - دار الثقافة بالقاهرة عام 1973 - وطبعة ثانية دار التنوير، بيروت، عام 1980، وطبعة ثالثة 1993 (العدد الأول في المكتبة الهيكلية)، طبعة رابعة، مكتبة مدبولي بالقاهرة، عام 1999.
- (3) «روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط» أتين جليون، دار الثقافة، عام 1972، طبعة ثالثة، مكتبة مدبولي بالقاهرة، عام 1996.

- (4) «فلسفة هيغل» تأليف ولتر ستيس، المجلد الأول: «المنطق وفلسفة الطبيعة» دار التنوير، عام 1983، وطبعة رابعة، مكتبة مدبولي بالقاهرة، عام 1996 (العدد الثالث من المكتبة الهيجلية).
- (5) «فلسفة هيغل» تأليف ولتر ستيس، المجلد الثاني: «فلسفة الروح» الطبعة الثالثة، عام 1983، والرابعة، عام 1993 (العدد الرابع من المكتبة الهيجلية).
- (6) «أصول فلسفة الحق» لهيغل المجلد الأول، طبعة أولى، دار الثقافة، عام 1981 - طبعة ثانية، دار التنوير، بيروت، عام 12983، طبعة رابعة، مكتبة مدبولي عام 1996 (العدد الخامس من المكتبة الهيجلية).
- (7) «موسوعة العلوم الفلسفية لهيغل» طبعة أولى، عام 1983، دار التنوير، بيروت - طبعة ثانية، عام 1993 مكتبة مدبولي بالقاهرة، عام 1996 (العدد الثالث من سلسلة المكتبة الهيجلية).
- (8) «العالم الشرقي» المجلد الثاني من محاضرات في فلسفة التاريخ لهيغل. العدد التاسع من سلسلة المكتبة الهيجلية، طبعة أولى عام 1985 - طبعة ثانية 1993، دار قباء.
- (9) «الوجودية» تأليف جون ماكوري، سلسلة عالم الفكر بالكويت، عدد 58 أكتوبر عام 1982، طبعة ثانية، دار الثقافة بالقاهرة، عام 1987.
- (10) «أصول فلسفة الحق لهيغل» المجلد الثاني، دار التنوير، بيروت عام

1993 مكتبة مدبولي بالقاهرة، عام 1996 (سلسلة المكتبة الهيجلية).

(11) «هيجل والديمقراطية» تأليف ميشيل متياس، دار الحداثة، بيروت، عام 1990 - مكتبة مدبولي بالقاهرة، عام 12996.

(12) «المعتقدات الدينية بين الشعوب» تأليف جوفري بارندر، سلسلة عالم المعرفة بالكويت، عدد 173، مايو 1993 - مكتبة مدبولي بالقاهرة، عام 1996.

(13) «الدين والعقل الحديث» تأليف و. ستيس، مكتبة مدبولي، ام 1998.

(14) «التصوف والفلسفة» تأليف و. ستيس - مكتبة مدبولي، عام 1998.

(15) «جون ستيوارت مل» أسس الليبرالية (بالاشتراك) مكتبة مدبولي، عام 1996.

(16) «ظاهريات الروح لهيجل» مع مقدمة ودراسة - دار قباء، عام 2002.

(17) «تاريخ الفلسفة» تأليف فردريك كوبلستون، المجلد الأول اليونان والرومان، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.

(18) «النساء في الفكر السياسي الغربي» تأليف سوزان مولر أوكين المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.

(19) «معنى الجمال» تأليف و. ستيس، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.

(20) «حكايات أيسوب» تأليف أيسوب، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.

- (21) «معجم مصطلحات هيجل» تأليف ميخائيل أنوود، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (22) «الفلسفة» تأليف ديف روبنسون، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (23) «أفلاطون» تأليف ديف روبنسون، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (24) «ديكارت» تأليف ديف روبنسون، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (25) «فنجشتين» تأليف جون هيستون، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (26) «بوذا» تأليف جون بونب، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (27) «ماركس» تأليف ريوس، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (28) «نيتشه» تأليف لورانس جين، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (29) «سارتر» تأليف فيليب كوري، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (30) «كامي» تأليف ديفيد برزفش، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (31) «هيجل» تأليف ليود سبنسر، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (32) «كانط» تأليف كيرس هيروكس، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (33) «فوكو» تأليف كيرس هيروكس، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.

(34) «ماكيافلي» تأليف باتريك كيري، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.

(35) «الفلسفة الشرقية» تأليف ريتشارد أوزيورت، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.

(36) «تطور هيجل الروحي» تأليف ريتشارد كرونر - دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، عام 2003.

(37) «الفاشية والنازية» تأليف ستيفارت هود، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.

(38) «لكان» تأليف داريان ليدر، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.

(39) «الماركيز دي ساد» تأليف ستيفارت هود - المجلس الأعلى للثقافة، عام 2005.

(40) «رسل» تأليف: ديف روبنسون وجودي جروف - المجلس الأعلى سلسلة - أقدم لك رقم 695.

(41) «روسو» تأليف ديف روبنسون وأوسكار زاريت - المجلس الأعلى - سلسلة أقدم لك رقم 696.

(42) «أرسطو» تأليف روبرت وديفين - المجلس الأعلى - سلسلة أقدم لك رقم 697.

(43) عصر التنوير تأليف ليودسبنسر - المجلس الأعلى - سلسلة أقدم لك رقم 698.

رابعاً: المراجعة

- (1) «الموت في الفكر العربي» تأليف جاك شورون، ترجمة كامل يوسف حسين، سلسلة عالم المعرفة بالكويت، عدد 76، إبريل عام 1984.
- (2) «الفلاسفة الإغريق من طاليس أرسطو» تأليف وج. جني، ترجمة د. رأفت سيف، دار الطليعة بالكويت، عام 1985.
- (3) «الفلسفات الشرقية» تأليف جون جولر، ترجمة يوسف حسين - سلسلة عالم المعرفة بالكويت.
- (4) «تاريخ الفلسفة الحديثة» تأليف وليم رايت، ترجمة د. محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (5) «الشعور» تأليف ديفيد باينو، ترجمة د. محمود محمد أحمد، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (6) «علم الوراثة» تأليف سنيف جونز، ترجمة ممدوح عبد المنعم، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (7) «الذهن والمخ» تأليف أنجوس جيانى، ترجمة جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (8) «يونج» تأليف ناجي هيد، ترجمة محيي الدين محمد حسن، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2001.
- (9) «مقال عن المنهج الفلسفي» تأليف كولنجوود، ترجمة د. فاطمة إسماعيل، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.

- (10) «الرياضيات» تأليف زيدون ساذر، ترجمة ممدوح عبد المنعم، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (11) «هوكنج» تأليف ج. ب. ماك لثوي، ترجمة ممدوح عبد المنعم، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (12) «جويس» تأليف ديفيد نوريس، ترجمة حمدي الجابري، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.
- (13) «الرومانسية» تأليف دونكان هيت، ترجمة عصام حجازي، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (14) «نظرية الكم» تأليف ح. ب. ماك إيفوي، ترجمة ممدوح عبد المنعم، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.
- (15) «علم نفس التطور» تأليف ديلان إيفانز، ترجمة ممدوح عبد المنعم، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.
- (16) «الحركة النسائية» تأليف مجموعة، ترجمة جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.
- (17) «مابعد الحركة النسائية» تألف صوفيا فوكا، ترجمة جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.
- (18) «تاريخ الفلسفة» تأليف فردريك كوبلستون، مجلد 5، ترجمة د. محمود سيد أحمد - المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.
- (19) «لينين والثورة الروسية» تأليف ريتشارد إيجانزي، ترجمة محيي الدين مزيد، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2003.

- (20) «فرويد» تأليف ريتشارد إيجانزي، ترجمة جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة.
- (21) «ميلاني كلاين» تأليف روبرت هنسل وود، ترجمة حمدي الجابري، المجلس الأعلى للثقافة.
- (22) «الدراسات الثقافية» تأليف عز الدين سردار، ترجمة د. وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى للثقافة.
- (23) «تروتسكي والماركسية» تأليف طارق علي، ترجمة د. جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة.
- (24) «كافكا» تأليف ديفيد زين، ترجمة د. جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، عام 2002.
- (25) «بارت» تأليف فيليب تودي، ترجمة د. جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة.
- (26) «السياسة الأمريكية» تأليف لوجرات وبروجان، ترجمة د. وفاء عبد القادر.
- (27) «جان بوديار تريس هوريكس»، ترجمة د. حمدي الجابري.
- (28) «علم الاجتماع» ريتشارد أوزبرن، ترجمة د. حمدي الجابري.
- (29) «علم العلامات» بول كريلي، ترجم د. حمدي الجابري.
- (30) «شكسبير» نيلوجروم، ترجمة د. حمدي الجابري.
- (31) «التحليل النفسي» تأليف إيفان وارد - ترجمة د. جمال الجزيري، المجلس الأعلى للثقافة، سلسلة أقدم لك، 699.

- (32) «الوجودية» تأليف ريتشارد آبيجانس، ترجمة د. حمدي الجابري - المجلس الأعلى، سلسلة أقدم لك، رقم 692.
- (33) القتل الجماعي «المحرقة» تأليف حائيم برشت، ترجمة د. جمال الجزيري - المجلس الأعلى، سلسلة أقدم لك، رقم 693.
- (34) «دريدا» تأليف جيف كولنيز، ترجمة د. حمدي الجابري، المجلس الأعلى، سلسلة أقدم ل، رقم 694.
- (35) «ولتر بنيامين» تأليف هوارد كاليبجل، ترجمة د. وفاء عبد القادر، المجلس الأعلى، سلسلة أقدم لك، رقم 707.
- (36) «دارون والتطور» تأليف جوناثان ميلر، ترجمة ممدوح عبد المنعم، المجلس الأعلى، سلسلة أقدم لك، رقم 642.
- (37) «تاريخ الفلسفة السياسية» تأليف ليوشتراوس المجلد الأول، ترجمة د. محمود سيد أحمد، المجلس الأعلى، المشروع القومي رقم 809، عام 2005.
- (38) «تاريخ الفلسفة السياسية» كيوشتراوس - المجلد الثاني، ترجمة د. محمود سيد أحمد - المجلس الأعلى، المشروع القومي للترجمة.

خامساً: التأليف بالاشتراك

- (1) «المنطق ومناهج البحث» للصف الثالث الثانوي بتكليف من وزارة التربية والتعليم بالجماهيرية العربية الليبية عام 1977.
- (2) «دراسات فلسفية» للمستوى الرفيع، بتكليف من وزارة التربية والتعليم بجمهورية مصر العربية عام 1990.

(3) «مبادئ الفكر الفلسفي» للثانوية العامة بتكليف من وزارة التربية بدولة الكويت عام 1998.

سادساً: الفيلسوف والمرأة

- (1) «أفلاطون والمرأة» د. إمام عبد الفتاح إمام.
- (2) «أرسطو والمرأة» د. إمام عبد الفتاح إمام.
- (3) «الفيلسوف المسيحي والمرأة» د. إمام عبد الفتاح إمام.
- (4) «نساء فلاسفة في العالم القديم» د. إمام عبد الفتاح إمام.
- (5) «استعباد النساء» د. إمام عبد الفتاح إمام.
- (6) «جون لوك والمرأة» د. إمام عبد الفتاح إمام.

تحت الطبع

- (1) «نساء فلاسفة في العالم الحديث» د. إمام عبد الفتاح إمام.
- (2) «روسو والمرأة» د. إمام عبد الفتاح إمام.

الفهرس

صفحة

الموضوعات

5 مقدمة

القسم الأول

15 مسيرة الديمقراطية رؤية فلسفية

17 هذا البحث

19 أشكال الحكم

23 الديمقراطية المباشرة

24 عيوب الديمقراطية المباشرة

27 خاتمة

28 ثلاث أفكار

28 أولاً: الشعب

38 تحرير المرأة

42 ثانياً: الحرية.. والمساواة

54 ملاحظات عن الحرية

57 جون لوك والديمقراطية

58 روسو.. والديمقراطية

60 كانط.. والحرية

- 61 ■ جون ستيوارت مل
- 66 ■ كلمة نقد لمل
- 68 ■ فكرة المساواة
- 70 ثالثاً: معني المساواة وأنواعها
- 71 1- المساواة أمام القانون
- 71 2- المساواة السياسية
- 72 3- المساواة في الفرص
- 75 خاتمة: مشكلات حول الديمقراطية
- 75 1- الديمقراطية.. والمجتمع المتخلف
- 80 2- طغيان الأغلبية
- 83 3- القانون الحديدي للأوليغاركية

القسم الثاني

- 89 **الوعي السياسي: التأسيس والإشكال**
- 91 □ تمهيد
- 95 □ الوعي.. والوعي الذاتي
- 100 □ أهمية الوعي الذاتي
- 100 □ الوعي الذاتي.. والتقدم
- 101 أولاً: المعرفة بصفة عامة
- 103 ثانياً: الوعي الذاتي.. والأخلاق
- 106 ثالثاً: الوعي الذاتي.. والدين

- 107 رابعاً: الوعي الذاتي.. والعلم
- 108 خامساً: الوعي السياسي
- 115 إشكالات الوعي السياسي
- 115 □ الإشكال الأول: أزمة تطبيق الديمقراطية
- 120 □ الإشكال الثاني: الوعي بحقوق الإنسان
- 120 أولاً: حقوق الإنسان عبر التاريخ
- 120 1- تطور المفهوم
- 122 2- فكرتان أساسيتان
- 123 ثانياً: ما حقوق الإنسان ؟
- 123 1- سمات عامة
- 126 2- نوعان من الحقوق
- 127 ثالثاً: غياب الوعي بالحقوق
- 130 - عن انعدام الإيمان بالمساواة
- 131 - وعن الجبن والخوف
- 131 - عن التزلف وعدم المجاهرة بالرأي
- 132 □ إشكالات أخرى
- 132 (أ) تطبيق النظام الديمقراطي الليبرالي
- 135 (ب) الفهم المغلوط للنظام السياسي
- 136 1- على المستوى العملي
- 140 2- على المستوى النظري

- 144 خاتمة
- 146 (ج) الخلط بين الأخلاق والسياسة

القسم الثالث

أفكار ومواقف (المقالات)

- 153 نحن... والأقباط
- 157 عن نجيب محفوظ
- 161 العدالة... امرأة
- 165 أخلاق الحيوان
- 171 وأخيراً.. أحمد سلامة
- 177 عبد الرحمن بدوي.. يدافع عن القرآن
- 183 أستاذي العزيز عفواً
- 187 الحرب.. والسلام
- 193 أولاد حارتنا بين كمبردچ والعباسية (1)
- 201 أولاد حارتنا بين كمبردچ والعباسية (2)
- 209 أمثال نرجو لها أن تزول
- 217 الأنثى الخالدة
- 221 الصوم.. أنواع
- 227 أسماء تحولت إلى أشياء..!
- 233 أقدم لك.. هذا الفليسوف
- 241 خمس صفات لله وحده!!

247	 بلاش فلسفة..!!
253	 سلاح الفيلسوف..!
261	 البلطجة.. أنواع
267	 المصالحة الوطنية.. وعقدة جورديون
273	 غطاء الكافر..
279	 أساطير حول المرأة..!
285	 حتمية الديموقراطية..
293	 بين حانا.. ومانا.. ضاعت لحانا
299	 مصر في عيون مفكري الغرب (1)
305	 مصر في عيون مفكري الغرب (2)
311	 مصر في عيون مفكري الغرب (3)
319	 اليهودي التائه Errant Jew
327	 قال الفتى..!
335	 الماسونية.. الإخوان الأحرار من البناء إلى الخراب
343	 الحب الإلهي.. والحب البشري..!!
349	 النظم السياسية والأديان
355	 اكتشاف الموت
363	 الموت.. والخلود
371	 زواج الفلاسفة.. في الفلسفة القديمة (1)
379	 زواج الفلاسفة.. في الفلسفة الحديثة والمعاصرة (2)

- 385 زواج الفلاسفة.. في الفلسفة الحديثة والمعاصرة (3)
- 391 الاستبداد من منظور نفسي..!
- 399 حديث عن السادية
- 407 وحديث عن المازوخية..!
- 411 مؤلفات الأستاذ الدكتور إمام عبد الفتاح إمام